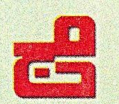
فلاديمير يانكلفيتش

فلسفة أولى

علي مولا



ترجمة

د. سعاد حرب

فلسفة أولى

الطبعة الأولى

1425 هـ — 2004 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت — الحمرا — شارع اميل اده — بناية سلام — ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) — تلفاكس 791124 (01) بيروت — لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 9953-427-72 -0

فلاديمير يانكلفيتش

فلسفة أولى

مدخل الى فلسفة الـ "يكاد"

ترجمة

د. سعاد حرب

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة :

Vladimir Jankélévitch

Philosophie première

INTRODUCTION
À UNE PHILOSOPHIE
DU « PRESQUE »

كلمة شكر للدكتور جورج زيناتي لمساعدته في ترجمة المصطلحات ولنظره إلى النص.

سعاد حرب

الفصل الأول

من التجريب الى ماوراء التجريب

ليست الميتافيزيقا فيزياء شديدة التميز أو نمطاً خارقاً **للفيزياء** لا يختلف عنها إلا بماهية موضوعه الخاص بترفعه. لو كانت هذه الفكرة السهلة صحيحة، لما كان لدينا إلا الاختيار بين الثرثرة **الدوغمائية وتحكمات** الواقعية. يبدو أن فكرة علم شبيه بالعلوم الأخرى وفكرة علم مغاير جذرياً لكل العلوم تتقاسمان ذهن أرسطو (Aristote)، فمن جهة يبدو أن أرسطو قد فهم أن علم **الوجود (l'Être)** بما هو وجود لا يختلف عن العلوم الأخرى بموضوعه وحسب؛ بل يعالجه **بلا قيد أو شرط** بما هو وجود بوجه عام[1]، وليس بصفته هذا أو ذاك؛ ليس العلم الأساسي علماً كسائر العلوم؛ بأكثر مما الماهية – وهي ما يجعل موجود ما (un être) ما هو عليه – ليست بنفسها كيفية وجود. غير أن أرسطو بتمييزه **الماهية (La quiddité)** على أنها استمرارية الوجود **الذي كان** (τὸ τί ἦν εἶναι) ، يعترف هو نفسه بأنه قد بقي عند مستوى الوجود البالغ والكامل، الذي هو مستوى **ما كان آنفاً**. وحيث أن ميتافيزيقا أرسطو، تقدم نفسها، من نواح، على أنها بحث في **التعريف**[2]، فإنها تشهد، فضلاً عن ذلك، على الثانوية الحقيقية لهذه الفلسفة "الأولى": ذلك أن التعريف ليس وضعاً، بل هو ببساطة عرض جوهر وجود موجود آنفاً (déja-étant). إن ميتافيزيقا لا تعالج واقعة الوجود، وإنما الوجود كما هو، ليس الماهية بل الوجود **l'ὄν** بصفته محمولاً كلياً وماهية هذا الوجود الـ **l'οὐσία** ، أي الموجود الأشد أساساً لهذا الوجود لا يمكن لميتافيزيقا كهذه إلا أن تكون "افتراضية".

---

(1) ὂν ᾗ ὄν..

(2) E.BRÉHIER, Histoire de la Philosophie, I, p. 186.

صحيح أن أرسطو يلوم ديموقريطيس (Démocrite) على إهماله أصل الحركة، وعلى قوله: هكذا كان مجرى الأمور من قبل[1]؛ لكنه يفعل ذلك ليستخلص بنفسه أن الحركة لا أصل لها ولا غاية مطلقة، وأن أبديتها توازي أبدية العالم، رغم أن لها، شأنها شأن خصائص المثلث، أسبابها – أسبابها الأبدية... مع هذه الشروط يصعب علينا معرفة الخصائص القاطعة التي يتميز بها **علم اللاهوت** عن باقي أقسام **الفلسفة النظرية théorétique**، إذ كيف تصبح **"الماهية الخامسة"** ميتافيزيقا إذا كانت الماهيات الأربع الأولى فيزيائية؛ ولماذا أخيراً المحرك الأول، اللامتحرك، **ومحرك – الكل (tout-mouvant)**، بإعلاء متميز **تماماً** بالنسبة الى المحركات المتحركة.

لم تتوقف الفلسفة اليونانية منذ **كزينوفان (Xènophane)** عن النضال ضد تشبيهات الدين التقليدي: تتهيأ بمعنى ما بشرية الآلهة في النقد نفسه الذي تصطدم به الميتولوجيا القومية عند حكماء في القرن السادس VI ق.م. لا يختلف ما فوق الطبيعي وما دون الطبيعي، الإلهي والجهنمي، عن الوجود الطبيعي بحجمه فقط: ليست مملكة الأموات تحلل بسيط للعالم الواقعي، كما في مقر نفوس الأموات الهوميرية، بأكثر مما أن الإلهي ليس تكبير بسيط له. يمكن القول إن أول تمظهر **جدّي** للميتافيزيقا كان في قبول **مقام – مغاير – كلياً** ورفض تقليص الاختلاف المطلق إلى مجرد اختلاف في الدرجة – في الزيادة أو في النقصان – للتنافر الأساسي **مقام – الـ – هنا هذا، cet ordre-ci** و"الآخر" **(l'autre)** ... ومع ذلك، اشتملت الجدّية النفسية الأولى (الروح، كانت في طبيعة كاملة، ما فوق طبيعتنا المدجن) في التخلي عن **التشبيهات الفيزيائية** الفظة لعلم **الروحانيات القديم**. إن **تضخم الرأي** الأشد أو الأقل تقنعاً، ونقل بديهيات تجريبية مموهة بفظاظة، هي بالطبع طريق السهولة لحس مشترك لا يميل الى تخيل **المغاير – إطلاقا (l'absolument autre)**. إن "جدّية" الميتافيزيقا، هي، بكلمة، الأخذ على محمل الجد كل ما يقدمه ظرف المكان اللامتناهي **أبعد** (ἐπέκεινα)، وتكريس إزالة التسوية المثيرة للدوار التي تفصل **هذه الحياة الدنيا، عن الآخرة (Ultérieur)** ... والحق يقال، لا يأخذ الانشطار بين الـ "هنا" (Ici) والـ "هناك" Là-bas

(1) Phys., 1, 252 a 32; De Caelo, III, 2, 300 b 8; Mét., A 4, 985 b 20.

(ἐνθάδε-ἐκεῖ) معنى **مُعادياً (أخروياً)** بحق، إلا عند الفلاسفة الإسكندريين: إذ إن الـ – هناك **Là-bas** عند أفلوطين Plotin هو حقاً **فيما – وراء au-delà**، أي بمعنى خارق للدنيوي **transmondain** ولاحق لكل تجريب كما لكل حياة أرضية؛ مذ ذاك الـ – هناك (là-bas) لا يدل على **"هادس"**[1] بالتعارض مع عالم الاحياء، ولا حتى على العالم الذهني بالتعارض مع المحسوس، بل **على بعد– العالم (outre-monde)** المطلق هذا، الذي يشكل الوطن الأخروي الحقيقي للبشر، والمكان الذي يتحقق فيه مصيرهم **الروحي**.

تبدأ الفلسفة مع الاقتناع بأن **ما يتجاوز الجسماني وما دون الجسماني** هما بديلان تقريبيان بشكل فظ للاحق الميتافيزيقي، مع أن ما يتجاوز (ultra) الحسي وما دون (infra) الحسي هما تزييف للأصالة **ما فوق الحسية**. لا يبدأ ما وراء **التجريب** عند نهاية تسلم أو نهاية ضعف تدريجي للواقع الملموس والمحسوس والقابل للوزن. وعلى سبيل المثال، إن من ينتقل من مقياس الفيزياء الكلاسيكية العيانية الى عالم الفيزياء المجهرية، أو بالعكس، الى مقياس الفلك الضخم، لا يتخلى عن التجريب الى ما وراء التجريب: ما يوازي القول بأن ما بعد التجريب يبدأ انطلاقاً من بعض المقادير التي يمكن تعيينها والتي تشكل عتبته، ... وعلى امتداد أي موجة، لو سمحتم، يتحول المثير الفيزيائي – لون أو صوت – الى الميتافيزيقا في الواقع، إن أدواتنا وآلاتنا ترد الى دائرة المحسوس المباشر وبشكل لامتناه **هذين** finistères المترين النهائيين للامحسوس؛ حيث لم نكن نريد أن نرى سوى الـ **ما دون وما يتجاوز**. ليس التجريب إذن **وحدات وسيطة يلازمها لغزان**: لغز متناهي الكِبر ولغز متناهي الصِغر: بل انه لا يوجد إلا تجريب واحد فقط في وسطه، دقيق عند الأطراف إن مئة ألف سنة ضوئية هي تجريبية بمقدار الدقائق الخمس حسب ساعتنا؛ إلا أن الـ**–ما وراء** الذي يجذب الذهن ما وراء كل مقياس تجريبي، هذا الـ–ما وراء الدينامي هو لغز. **ليس هناك** حتى مع اكتشاف دائرية الأرض ما ينزع عن الخليقة **الأمل** عند "طرف العالم" في لمس، عتبة ما وراء الخيالي، ... إنه لمن الوهم الاعتقاد بأننا نقترب من اللغز، عندما نميل نحو القطبين؛ إن من يزرع عَلَمَه

---

(1) Par exemple EURIPIDE, Hekabé, 418; Alceste, 363; Médée, 1073.

عند أطراف الكرة الأرضية لا يلامس اللغز بأكثر من ساكن الدوائر المتوسطة. كلا ليس هناك على ارتفاع عشرة آلاف متر، من لغز أكثر مما في الأرض المنبسطة، كما ليس في عمق البحار بأكثر مما على وجه الأرض حيث مصيرنا أن نعيش بشكل وسط وسطحي متفرغين لأشغالنا. - بالطبع هناك الموت، الذي يبدو أنه يطرح علينا يومياً في ملء عالم التجربة، تجربة لغز ما وراء التجريب: لكن لننظر ومن دون استعارات في **موت الآخر**، فإنه سيتوجب علينا أن نقبل كون هذه التجربة لـ - ما وراء التجريب، هي في كل آن تجربة تجريبية، بمعنى أنها تجربة استمرار طبيعي وبيولوجي يمكن تأويلها؛ **أما موتنا-الخاص (la mort-propre)**، الذي يشكل، بالنسبة للميت، اللغز نفسه وعبارته في آن معاً، فإن الأشياء مركبة بحيث أن من يمكنه أن يُبلغ لا يعرف شيئاً، ومن يعرف لا يُمكنه في الوقت نفسه أن يُبلَغ. ربما ليس هناك سوى **موت ذوي القربى** الذي يجمع ما بين الطبيعة الموضوعية لموت الآخر، ومأساوية موتنا - الخاص التي لا يمكن التفكير فيها؛ ومع ذلك، فإنه ليس ما وراء التجريب تماماً (لأن قريبي هو في نهاية المطاف آخرٌ) ولا طبيعياً تماماً (لأنه إذا لم يكن قريبي هو أنا بالذات، فإنه على الأقل جزء مني). ويجب الاعتراف أن السر محروس جيداً ولا يمكن التحايل على حيلة الموت الغامضة! فتجربة الموت لا تجعلنا نتقدم ولو بجزء من الألف من المللمتر في معرفة اللغز: يمكننا أن نسبر إلى ما لا نهاية قناع المحتضر، ثم قناع الجثة ولا نكشف **لغز ما فوق الجسدي (supra-charnelle)** غير المقروء، مثلما يمكننا أن نغرق فيما يسميه سقراط بشكل ما "تأمل" الموت، دون أن نتعلم كلمة واحدة من اللغز، ولا حتى بداية كلمته الأولى. حتى آخر ثانية تبقى تجربتنا للموت تجريبية محض؛ حتى أدنى اللحظة الأخيرة (الموت) وما وراءها، تبقى عرافتنا - المريحة للغز طريقة أدبية في التعبير وصورة بلاغية بهذا المعنى ليست اللحظة الأخيرة أكثر ميتافيزيقية مما هو ارتفاع مسبب للدوار، من سرعة فوق صوتية، من قدرة فائقة. لأن المنتهى تجريبي بمقدار ما هو تجريبي **ما قبل المنتهى أو ما قبل الأخير**. وكما أنه لا يحصل أي شيء إطلاقاً عند "دقة" الثانية عشرة في منتصف الليل، كذلك لا تقدم لنا الزفرة الأخيرة للمحتضر إلا رسالة فارغة. ليس ما بعد التجريب إذن، نمطاً من التجريب، دقيق للغاية، مثلاً، أو كثافة لا يحتملها المدرك، بل هو يشير إلى ما هو

خارج كل تجربة ممكنة: لأنه إذا كان فائق الحساسية (ما يتجاوز الحساسية)، هو ما يتجاوز – في الواقع – المرمى الحالي لحساسيتنا (**de nos sensoria**). فإن ما فوق الحسي هو **ما لا يمكن** إدراكه.

I – الدنيا والآخرة

لغز هو نفسه، ربما يكون بمقدور الحدس النفاذ الى اللغز. إلا أن شعوراً تجريبياً ممهوراً بمقدرات تفحص وجودي، هو بالأحرى خداع ولا يولّد شيئاً آخر غير **ميتافيزيقيات**–مزيفة. إن نقد الإدراك الحسي، المشيد على تواتر الأوهام، وعلى آلاف الاخفاقات التي تعرضنا لها معطيات التجربة، قد اعترض ببساطة على امكانية التجريب الفعلية في النفاذ في جميع الأحوال الى الواقع. **كما ينصح شأن** باسكال (Pascal)، إما بالصلاة، وإما، شأن مالبرانش (Malebranche)، بالتوجه الى كلمة الله الكونية للعقول. إلا أنه لم يكن يعترض على توفر حسن استعمال "المقدرات الخادعة" ولا على احتمال أن تصير هذه المقدرات "صائبة" في بعض الحالات إذا ما عولجت بمنتهى الحذر وتبعاً لقواعد المنهج: ذلك أن الخطأ يصير حقيقة لدى من يعرف أن يقرأه، بمعنى عندما يُعرف كيف يتم تعويضه أو كمية تصحيحه، عندما يُعرف العامل الشخصي والمعادلة الذاتية ومؤشر التشويه و**مخففة** أي بمعنى أنه حتى عندما تكون هذه المعلومات "صحيحة" لا يصير التجريب مع ذلك بأعجوبة ميتافيزيقا. ليست الخاصية "الأولية" بأكثر من الخصائص "الثانوية" كشفاً حول الوجود! إن القبْلية الكانطية قد فهمت ذلك، وهي التي بتحليل **نسقي** للمعرفة، قد شرحت، لماذا **لا يمكن** للتجريب أن يكون تجلياً للوجود، قد بررت مع ذلك نجاح العلم وسلطة التقنيات على الطبيعة. محقق أو ملفق، ليس التجريب إلا نمط تأقلم المخلوق مع عالم الفعل أو التفكير، مع دنيا القوى الفيزيائية والحقل الاجتماعي للأشخاص، وإذا كان الوعي بالتجريب، ككل، هو فلسفي طبيعياً، فإن عالم وجودنا **الدنيوي (ici-bas)** الملموس والمحسوس هو ما يتعلق (الوعي) به دائماً. لنحصي الاستدلالات الخمسة الكاذبة التي يشكل اتحادها وحش تجريب ما بعد التجريب.

1 – كل تجربة هي بالضرورة إدراك حسي أو تمثل **محدود** لمعطى ما محدود: كما لو أنه ليس هناك من "تجربة" للامتناه فعلي إلا كقول تعبيري، أو في لحظات

التجربة الصوفية العصية الشرح والمتعذرة البرهنة، في تلك الومضات الاستثنائية التي تبلغ، إذا كان لنا أن نصدق الروحانيين، التطابق المفارق بين المطلق والحضور. في الحرارة الوسطية للتجريب، وفي وعي لا تلهبه "شعلة الحب" الحارقة قد تكون تجربة- اللامتناهي متناقضة بمقدار تطابق الأضداد. لكل sensorium حس مدى بالضرورة، وكل مدى أبعد من أن يكون ببساطة مجرد حد مانع، هو بالأحرى سلب هو وضع، مانع للرؤية أو للسمع مع كونه بالضبط شرط الرؤية والسمع: أن لا تدرك أبعد من بعض الحدود، وأن لا تدرك إلا ضمن بعض الحدود وضمن محيط حسي محدد - هما هنا صيغتان عكسيتان: الأولى خارجية، والأخرى **جوانية**، لفعل واحد تكمن إيجابيته كلها في أنه محدود... بما معناه أنه ناقص بالضبط؛ إن المحيط نفسه، الذي يعطينا منطقة قياس صغير ومنطقة قياس كبير، يحدد بهذا بالذات (وليس إطلاقاً علاوة عليه) الحقل الحواسي الذي يسمح بممارسة الإدراك. يعبر العضو عن العمل الثنائي عينه؛ لأنه لا يعطينا وسيلة للاحساس إلا مع منعنا من الحس أبعد من طبقة محددة. وبهذا بالذات فإن ضيقه وثقله يسحب منا السعة اللامتناهية لـ-ما فوق-الحسي و-ما-فوق-المدرك. يحدد لكل حس سلماً محدداً، يقول: (**Hactenus**)، إلى هنا وليس أبعد! ذلك أن التجربة لا تكون ممكنة إلا فيما يجسدها بالضبط، وتجسيدها يعيقها. لهذا لم يكن للتفحص الوجودي للواقعية الدوغمائية أي مدى، عمد محامو الحدس العقلاني "المطلق" الى تزويده، بما كان بادر (Baader) قد يقوله، "بنفاذ" لامتناه أي بمقدرة استكشاف شعاعية قادرة بأن تجعل الشاشة الأشد قتامة، شفافة. مع ذلك ما الذي يمكننا بهذه الوسيلة أن نأمل قراءته في الواقع، ما لم تكن حالة طبيعية ما متناهية من المادة والقوى الفيزيائية التي يمكن تعيينها؟ إن إدراك اللامتناهي أو حتى الى ما لا نهاية، - مقدار لامتناه، عمق لا قعر له، شكل غير متشكل، أو كما يقول أفلوطين (Plotin)، **لامتبلور**، هو إذن عدم إدراك، إنه اعتقاد أو إدعاء بالإدراك، قول بأننا ندرك، لكن دون أن نفكر بشيء أو بغير الفراغ. لهذا قال أفلوطين عن الواحد(l'un) إنه لا صورة له ولا شكل[1].

---

(1) Enn., V, 5, 6 et 11; VII, 9, 3 (σχῆμα, μορφή, εἶδος).

2 – وهو ذا أسلوب آخر للتعبير عن الطابع عينه، ليس فقط ما وراء تجريبي، بل لاتجريبي للواقعة **الميتافيزيقية**: إن إدراكاً شاملاً هو إدراك للاشيء، وكل إدراك ليس بكلمة فارغة هو **تقسيمي** بالضرورة. وهذا ما يمكن صياغته كالتالي: ليس هناك من إدراك إلا لمدرك منفصل، أي لـ "**هوذا**" خاص ويمكن **تعينه**، مقتطع من مجموع أكثر أو أقل تشويهاً تبعاً لـ "وجهة النظر" التي يتبناها المُدْرِكُ عنه. وحتى عندما يوجه انتباه وعينا حصرياً إزاء موضوع وحيد، كما في سلوك الترصد والمراقبة والاستحواذ المترقب أو المشبوب بالعاطفة، لا يتوقف التجريب مع ذلك عن أن يكون تقسيمياً: ذلك أن ما تحققه فينا وحدانية الفكرة وما يحققه استحواذ فكرة ثابتة على الوعي ليس الكلية، بل بالأحرى كلية كاريكاتورية لصالح جزء تافه. هذا بالأخص حال التناهي الثلاثي للتجريب البصري: من وجهة العثة أو من وجهة العملاق، هما في الحالتين رؤى انحرافية يشوهها المنظور الأنوي والتي يصلحها التفكير وحده؛ وحتى لو وافقنا مع "ليبنتز" Leibniz اعتباطياً، على أن الموناد بإمكانها أن تعبر عن الكون بأكمله، فهي أيضاً لا تعبر عن ذلك إلا من وجهة نظر المخلوق. مخلوق تموضعه وضعيته المتناهية، النافية لكلية الحضور، هنا أو هناك في الفضاء. ثم إن حقلاً بصرياً هو دائماً، وبالتعريف بالذات، نطاقاً محلياً محدداً بخلفية الأفق، التي (إذا لم نأخذ بالاعتبار إلا الواقع البصري) تدير تحت أعيننا امتداداً محدداً دائماً: لهذا، بدلاً من أن يوقف عمقه أمام نظرنا، كبساط مسطح، يكشف الأفق للذهن كما للمخيلة امكانية تصور أفق آخر، أبعد مما وراءه إلى ما لا نهاية. لكن هذه الفكرة لأفق يتراجع بدون توقف، ويهرب في الحركة التي ندركه بها، ليست بذاتها واقعة بصرية ومباشرة. أخيراً تتحدد مساحة الرؤية جانبياً بوضعية العينين نفسها؛ وداخل كل قطاع محدد تنفصل قطاعات أضيق وأجسام ومجموعات أجسام كمراكز اهتمام للفعل، **ممددة** الى مالانهاية، التقسيم التجريبي للمُدْرَك: لأن حاجات التجزيء العملي النفعية تضيق حقلاً تفرض قدراتنا الفيزيولوجية بالأصل حدوداً له؛ فنحن لا نرى كل ما بامكاننا أن نراه لو كنا فنانين أو لامبالين، وهو مع ذلك جزئي لدرجة ما، بالنسبة الى مجموع المرئي. أكثر من ذلك، يشكل التقطيع بالذات شرطاً لكل تجريب، بمعنى أنه لا يمكن إدراك المُدْرَك إلا بتعارضه مع مجموع ما يحضر بجواره والذي يحده،

وبتحديده له يعرفه. إن إمكانية الحركة والوعي والتفكير نفسه معطاة في الآن عينه بمعية فريضة عدم إدراك أجزاء مجموع ما إلا بالتناوب. ألا تداعب كل ميتافيزيقا خرافة حدس يكون فيه الكل حاضر دفعة واحدة، وبمجمله[1]، بحيث لا يكون هذا الكل كلا لي، بل الكل في ذاته؟ مما لا شك فيه أن لزوم الأحادية هو بالضرورة عاقبة أمنية تتشكل كردة فعل على جمع (pluriel) التجريب الذي لا يمكن اختزاله.

3 – يأخذ التعارض بين الجملة والجزئي شكلا ثالثا أكثر حسما أيضا. لأنه من المتفق عليه أن هذا التعارض ليس مجرد اختلاف بالدرجة.. الكل أكبر من الجزء إذا كان هو نفسه جزء من مجموعة أوسع، لأنه ليس في هذه الحالة سوى تحصيل مغلق و(**encyclique**) وتجريبي: إلا أن الكل هو من مقام مختلف عن الجزء وعن المجمل نفسه في حال كان حقا (tout) **كل** Πᾶν ، أي جملة منفتحة ولامتناهية، مجموع يعود كل مجموع معطى ليصير جزءا منه. والحال، هذا هو بالضبط الكل الذي أشكل أنا نفسي وشخصيا جزءا منه. في الاستدلال الزائف الثاني، يعني "الكل": الكل، حتى الممكن، حتى ما لا يمكن إدراكه وبالأحرى اللامدرك. والآن يشير "الكل": على الكل، علي أنا نفسي من يقول الكل في هذه اللحظة من يكتب هذه الكلمة ومن يفكر هذا المفهوم. وطالما دمت أستبعد نفسي أو أستثنيها من الكل، فإنه حتى لو كان كلية الأشياء الموجودة، فإنه سيبقى مشهدا، (نظريا)، θέαμα أو θεώρημα ينقصه شيء ما أساسي، ليكون كلية مكتملة، وللعرفان مساهمة المشاهد نفسه: ومن دون احتواء الذات الواعية، لتجربتها الخاصة، لا تكون الجملة (totalité) "كلا"، بل مجرد الكل، أي ما معناه – جملة – زائفة. صحيح أنه غالبا ما يشتمل الإدراك الحسي للمحسوس على وعي بالذات للذات المدركة، وأن الفاعل في فعل الإدراك الحسي يلتصق بمفعوله المباشر: إن انتقالية بريئة تماما، واستشعار خارجي التدفق بالكامل، كما في حالة الانخطاف بالموضوع المحسوس، لهما من الأمور النادرة. وهذا ما يمكن الرد عليه: 1 – في التجريب

---

(1) **'Αθρόως, dit Plotin (par opposition à : κατὰ μέρος).**

اليومي، لا يعطى المحسوس به والإحساس بالذات في نفس لحظة الفعل العقلـي، إذ يتأرجح الوعي بتذبذب متناوب وسريع من واحدهما الى الآخر. 2 – لا يشـكل المحسوس به والإحساس بالذات كل، بل خليطاً مغلوطاً ونصف وعي حزين، كما يحصل في أشكال الملاطفة حيث ينافس حب الذات حب الآخر ويعكـر صدقـه بشكل خطير؛ وبما أن التجريب هو منطقة المزج والاضطراب بـين الموضـوع- والذات بدلاً من أن يكون منطقة التماثل بينهما، وبما أن الذات تطبع الموضـوع، وتشكل معه كل أنماط الخليط المشكوك فيه، صارت الموضوعية بالنسبة للكـائن الوسيط، مثالاً للوعي السعيد، الوعي الكامل والمتحرر؛ إلا أن إدراكاً "صافياً"، أي خالياً من شوائب الذاتية، لا يملك مع ذلك، مقدرة النفاذ الأنطولوجـي؛ 3 – إن الفاعل الذي يؤخذ بعين الاعتبار في التجريب، هو أنا الـ philautie الضيق، وإما المفهوم الاستبطاني المجرد فهو لا يشكل بالذات مركزاً للرؤية إلا بعد تقليصـه إلى ابعاد الهوى والغريزة؛ 4 – لا يتعلق الأمر كله إذن إلا بجزء سـطحي أو عرضـي صغير من الذات، الملتصقة هي ذاتها بجزء ضئيل من التجريب؛ لا يشكل حـدث محلي من الحياة العاطفية، وحتى لو كان الذات والموضوع متداخلين فيه، لا يشـكل بعد مدى ميتافيزيقياً. الميتافيزيقا بكليتها هي التي يتعلق بها الأنا كله (وليس فقـط محيطه) في الوقت عينه الذي يتعلق بها أيضاً الوجود الحاوي بكليته (وليس علـى الاطلاق بالتناوب مع هذا الوجود)؛ وهي أيضاً الأنا المشمول ليس أنا التحديـد أو الفكرة العامة، بل أنا (moi)؛ أنا الذي يتكلم في هذه اللحظة والذي يفكر، يتـألم أو يأمل؛ ليس أنا بين كل الآخرين ولا كل البشر بمن فيهم أنا، بل الأنا (الفـاعل) (je)، الملموس والمتميز في الدقيقة الحاضرة: إن الكلية الميتافيزيقية، بانفتاحها ليـس على "كون داخلي" بسيط، تستتبعه لتديره على الكون الموضوعي، بل بانفتاحـها على الأنا – لذاته (moi-pour-soi)، تجمع المنظورين المنفصلين للضميرين المتكلـم والغائب: فهي بالتالي جملة غير محسوسة، فضائية تبعث على الدوار، والتي ليسـت بدون صلات مع هذه الصوفية (sobornost) أو التصالح الصوفي الذي تكلم عنـه عاشق لسلافية كومياكوف (Khomiakov)[1].

[1] =Cf. Simon FRANK, Die russische Weltanschauung, et Serge TROUBETSKOI, La

4 – شيئاً فشيئاً يصير من السهل أن يُفهم لماذا لا يمكن استنتاج ما وراء التجريب من تجريب مفصل تبعاً **للزمان والمكان**؛ لا يمكن الحصول على ما هو في الحال أبعد من كل تجربة منتهية، إنطلاقاً من مقولات تصلح لهذه التجربة فقط. ثمة طريقتان جديدتان لتأكيد أن ليس هناك من تجريب للجملة! لأن معنى جملة مكانية هو نفي كل مكان ملموس χώρα ، يوزع على كل الموجودات أماكنها؛ وتجعل "تجربة" الجملة الزمانية من التتابع ظاهراً يحجب المعية الحقيقية للأحداث. إن كل مكان وأبداً (أو الكل- مجموعين) هما ببساطة شكلا **الكل** بحيث تعتبر "الشمولية" هنا على أنها حيز يمكن تعقله وأبدية أو ديمومة تم تجاوزها في آن معاً.

إذا كان كل تجريب حضوراً فعلياً وخصوصية أصيلة وواقعاً معاشاً بحق، فعليه أن يتمكن من الإجابة عن السؤالين. أين؟ ومتى؟ وهما نمطان ظرفيان أيضاحيان **Quid-quo-modo**، لوجود مُدرَك يمكن تعينه. لا يوجد أي حدث نفساني لا يعيشه شخص ما في مكان ما وفي لحظة ما من الديمومة. هذا هو بالضبط معنى "evenit" "حدَث". إذا كان لـ **"حصل" arriver** معنى آخر بدل أن يكون حقيقة أبدية أو صورة بلاغية، فهذا المعنى يجب أن يكون: حصل في هذا المكان أو ذاك، في هذه اللحظة أو تلك من الزمان؛ يسمى الطارئ أحياناً إحساساً، وأحياناً انفعالاً، إلا أنه في كل مرة شيء ما يحصل، لقاء يقوم به الحي في أطلس الزمان- والمكان، أي في حقل التجريب الحيوي. لا يعيش الفاعل العاطفي، كل لحظة إلا في براءة الحاضر. بالنسبة لكل تفكير قادر على المقارنة والتحليق والتكهن، تتمفصل الديمومة المعاشة في روحٍ أو حقبات مترابطة لكل منها بداية ونهاية، وتنقسم بدورها كلها إلى أطوار ومراحل. وهكذا فإن الديمومة هي برزخ إلى ما لا نهاية . وما لحظة اليومي الملموس التقريبية نفسها إلا ردح أقصر من كل الردح التي تندمج بها. في تأمل هذا التنظيم، في هذا التسلسل المنطقي التاريخي للمراحل، يغرق مخلوق ما بين الأمرين، منطلقاً من مؤقت الى مؤقت ومستريحاً من انشغال بانشغال آخر؛ لأن من يقول: زمني يقول أيضاً: إلى حين. هذا التسلسل المبرقع للمراحل، والتي تُعرف كل واحدة على التوالي بـ – ليس – بعد وبـ – لم – يعد، وتُلخَص كل واحدة منها

Nature conciliaire de la conscience humaine (en russe). =

بحسب الساعة أو الرزنامة (كحكم حول تسلسل الأحداث) بمهمة محددة، بلـــذة آنية، بانتظار ما، إن هذا الاستعمال الساعاتي أو الفصلي لزمننا هـــو مـــا يؤلـــف الاستمرارية العادية للتجريب. هل نذهب من التجريب الى ما وراء التجريب بمجرد **الاجتياز الى الحد الأقصى** مطيلين الى مالانهاية المدة المعاشة، أو بمجانسة الاعمـــار والمراحل المتنافرة التي تقطعها؟ إلا أن مدة لامتناهية ومتجانسة لا يمكن "مكابدتهـا" - أو انها بالأحرى ليست مدة على الاطلاق، لأنه ما من مدة إلا معاشة، ولا يمكن أن نعيش (إذا أمكن تصور ذلك) فعليا اللامتناهي دون أن يكون هناك تنـــوع في الأحداث، ودون هذه الفصول المتلاحقة المسماة مرضا، تدريبا، مدة ســـوناتة... صحيح أن سبينوزا يوضح[1]: "sentimus experimurque nos aeternos esse" (اننا نشعر ونجرب ماهيتنا الأبدية)، إلا أنه يقول: تشعر الروح أن ماهيتها أبديـــة، ولا يقول: تشعر الروح بالأبدية بنفسها، ولا (يقول) حتى: تشعر الروح بنفســـها حصريا انها أبدية؛ لأنه بالضبط لا يمكن للأبدية أن تشعر بنفسها، كونها لا لون لهـا ولا طعم ولا رائحة؛ حتى فكرة التجربة الصوفية نفسها تبدو مستبعدة على أثـــر التعليقات، حيث يسمي "سبينوزا" العيون التي تسمح للروح بأن ترى: براهـين. لا يوجد إلا تجريب تفاضلي: أي أن التنوع والاختلاف هما فقـــط اللـــذان يمكـــن مكابدتهما؛ حتى الـــ adiaphorie هي في الواقع diaphora لامتناهيـــة الصغـــر! خصوصا وان هناك فرقا في الطبيعة بين أبدية الماهية هذه وبين استمرارية يوميـــة؛ تجدد عرضيا من نهاية كلمة الى نهاية أخرى بوصلات غير محددة: لأنه من المفروغ منه أن أبدية مؤكدة مرة واحدة وإلى الأبد، هي شيء آخـــر غـــير اســـتطالات موضوعة دائما موضع سؤال أو مؤجلة يوميا؛ إن التجريب الذي لا يعرف شـــيئا عن ضرورة برمنيدس[2] غير المخلوقة، لا يعرف أكثر **أبدية "البعـــد" (a parte post)**، أزلية **النهائي** الأحادية الجانب. إذا لم يكن التوصل، إنطلاقا من التجريـب، إلى الأبدية الرياضية ممكنا، هل يمكن بلوغ علم الأخرويات إنطلاقا من التـــاريخ؟ لكن، ان نعطي لأنفسنا تاريخا كليا، إلا إذا كنا لاهوتيين أو أصحاب رؤى، هـــو

---

(1) Éth., V, 23 sc.. Cf. Léon BRUNSCHVICG, Spinoza et ses contemporains, p. 193.

(2) DIELS, 8. RITTER et PRELLER, P. 117.

بقاء في رواية ما هو متوقع، وبالتالي بقاء في التجريب: لأنه ليس هنـــاك "نهايـــة" تجريبية "للزمان". إذ ليس فناء الجنس البشري وحتى الوعي الذي يفكر هذا الفنـــاء بحدث ميتافيزيقي أكثر مما هو انفجار غازي أو اصطـــدام حافلـــة: كمـــا يميـــل هيراقليطس والرواقيون الى تمثل نهاية العالم على أنها حادث دوري يُسجِل الـــدورة الأبدية للايونات (éons). فـــ "السنة الكبرى" ليست اطلاقاً إلا سنة، وحتى ســـنة صغيرة جداً على سطح الوجود! وما عمر العالم الذي تنهيه إلاّ تجريبيـــاً تشـــبيهياً للأبدية بالإنسان. إضافة الى أنه تكفي إمكانية تعدد العوالم المسكونة لتجعل تجريبيـــاً ما يزعم أنه كارثة ميتافيزيقية؛ حتى لو أفنت الأرض والإنسانية والنظام الشمســـي وذلك مرة واحدة وإلى الأبد... فنهاية العالم إذن بكونها ظاهرة فلكية هي دائمـــاً واقعة محلية، حدث طريف، عارض مميت كارثة جيولوجية، نكبة كونية لا تتمـــيز إلا بدرجة خطورتها وفداحة خسائرها، لكنها تترك قبلها وبعدها، الحقائق الفكريـــة سالمة، ويبقى مبدأ الهوية مقبولاً! ويستمر مجموع زوايا المثلث يســـاوي زاويتـــين قائمتين بعد نهاية العالم كما كان عشية ذلك! أيّ نهاية للعالم بإمكانها أن تجرؤ على تخيل يوم حساب للمسلّمات؟ كلا، لا "يُستنفذ" التاريخ على الاطـــلاق...، إلا إذ تم تخيل السنة الألف ليس فقط للتاريخ، بل للزمان بشكل عام، واحتراق عـــام لا يفني الحياة فقط، بل الماهيات والحقائق: لأنه ليس هناك من حدود لهذيان ما خارج الزمان أو لهذيان الآخرة...

إذن لا يتم الاجتياز من التجريب لا الى الأبديـــة ولا إلى كليـــة مـــا وراء التجريب. ولا **يصير** المتناهي **باغنائه** شيئاً فشيئاً، وبتكويره قِطعاً، وباطالته قرناً بعد قرن، وبالارتفاع من علّة الى علة، لا يصير جملة لامتناهية. إن تجربة تظن أنها تنفذ، بالغوص، الى قلب اللغز، لا تعثر على ما هو ميتافيزيقي، بأكثر مما لا يقع عليـــه، الميكروفيزيائي نفسه على مستوى الذرة. ومن يأمل أن يلقى الإله الطيب، متوسلاً، في صعوده الجدلي، من علة الى علة أكثر تسامياً، فهو يحكم على نفسه إما بنكوص لامتناه، وإما يقرر بيأس (لأنه عليه أن يتوقف)، أن يقدس تعسفياً علة سامية عليـــا، يعلنها المسبب المحض، والمحرك المحض دون أن تكون معلولة بأي شكل كان ومـــن يضمّ، ساعياً وراء معرفة بابوية ، ولاية أثر ولاية، فإنه يوسع إشكاله الى مالانهايـــة،

معوضاً التغيرات بتضخيم مكشوف كلياً، أو بتعميمها، ومع اعتقاده بأنه قد بلغ المقام-الآخر، فإنه لا يزال يراوح في "المقام-عينه". ومن يكمل أخيراً المسافة الى مالانهاية، يبقى في المسافة النسبية ويقلص الأبدية الوضعية الى الأزلية. هكذا تبدأ الميتافيزيقا بالميتافيزيقي. يتم التدرج من مقارن الى مقارن بتصاعد أو باضطراد تدريجي؛ إلا أنه يتم الوصول بتحول جذري الى ما لا يمكن مقارنته، ذروة كل الذرى. لا يمكن تضخيم هذه الدنيا أن يقوم مقام العالم الآخر (الآخرة) كما أن الحضور الكلي ليس امتداداً للمكان، بل الفضاء الطوبوغرافي المُعْدَم، كذلك ليس الأبدي أوسع بانوراما ممكنة حول التاريخ. وبتوسيع ما يعرضه علينا التجريب قرناً بعد قرن لانجيل المتشاهات لن يكتشف أحدُ المشهد. من ينطلق من **هنا والآن** -hic et-nunc لن يلتقي إطلاقاً مقام-الماهيات-الآخر. يتجزأ "هو ذا" "le voici" كل تجربة الى **هذا، هكذا، هنا والآن**، بالطبع يتكلم اللاهوت المُشَبِه للبشر عن آخرة ما un-là-bas إلا أن هذه الـ "**آخرة**" هي مستقبل الـ **مادون** En-deçà **وهـنا** ici الغد: ذاك يصير هذا بفعل الحركة والزمن. لا يتجاوز الـ "هـوذا" Ecce، وهو هندسة عامية شيدت من المعطيات الأربع: (Hic, Sic, Ibi وnunc) (هنا، كذا، في هذه الحالة، الآن)، لا يتجاوز حرص الأعضاء الحسية أو الخطاب الاجتماعي. ليس عالم الحس المشترك، في النهاية، شيء آخر الا دائرة حضور كُبِرَت الى حدود المسكونية ؛ نوع كبير من الـ "هنا". تبقى نسبة هذا التكبير العالمي أو حتى الاجتماعي لـ "هوذا".هنا ici، هذا ceci الى شمولية الإنسان الرياضي، هي عينها نسبة العالم الى الكون، أي "هوذا" العالم الاجتماعي الى كوسموس العقلانية الكوبرنيكية: واحدهم هو **هنا** جبار وأرضي المركز، مجرة قروية على قدر المواطن، والآخر نسق أنساق إلى مالانهاية. هل يوجد عالم-كوني ما وراء العالم، كما ما وراء الكون المجرد، يكون عالم- **لغزنا**، أي بمعنى توافقٌ؟، أيكون هناك ما وراء التعيين الطوبوغرافي لفضاء الجغرافيا كما ما وراء التموضع "اللامكاني" المحض في فضاء الهندسة المثالي، أيكون هناك معجزة كلية الحضور، أو حضور كلي ملموس؟ ألا يعود، **في كل مكان**، يعني، في هذه الحالة، في **المكان الآخر** فقط ولا، في المعنى السلبي، في **لامكان**: قد يشير "في كل مكان" الى حضور "كلي المكان"، أي تعيين

تم تجاوزه في البدء، ومكانية – فائقة أيضاً. ألا تتموضع تجربة الحضور الكلي والحاضر كلياً أبعد مما وراء التجريب نفسه؟

II – قابلية الظاهر للنقل

كان من الممكن استخدام الجدل، لو أن المحسوس هو الانعكاس البصري، أو التساوق المعكوس أو رمز واقع أنطولوجي أو حتى وسيلة لغاية. أصبح الجدل ممكناً من خلال العبور من الريبة الى الحذر الموجه. تَعْتَبر الريبة، وهي حقد متناقض وجدانياً، ومازوشي نوعاً ما ضد عذوبة المحسوس، الظاهر ليس فقط خطأً، بل أيضاً خادع ومحتال وشيطاني قليلاً: يُغلق عوليس (Ulysse) أذنيه كي لا يسمع تملق جنيات البحر الرخيم؛ إذ لم تنتصب الإناث السامرت سيرسه Circé وكاليبسو Calypso أمام طريقه لتدلانه على طريق الحقيقة المستقيم، طريق ايطاكية بل لتضللا البطل وتخدعانه، أي إغواؤه لينحرف عن أوذيساه الخاصة وإضاعتها؛ لأن الأوذيسة هي: مسار الحقيقة (δόξα) الذي حرّفه شرك السحر والكلمات المعسولة ومكائد المتع المميتة. يشكل كره النساء، أي ما معناه رهاب التخنث – هرقل خنثته أومفال Omphale، عوليس خنثته سيرسه حورية البحر – أحد أشكال هذه الريبة الفاضلة بشدة بالنسبة الى الارضاء. بالطبع اللذة هي بامتياز الجاذب المشكوك به، ومن المعروف أن أفلاطون لم يتوقف عن التنديد في مذهب السعادة، بفلسفة الحقيقة الخادعة والمتملقة، المخيبة للآمال بمقدار ما هي مغرية: يتقيأ جورجياس (Gorgias) مع البلاغة ليموناضة المتعة وشرابها المقزز، أي فن التلاعب بحقيقة لطيفة وسطحية؛ ألم يكن أساتذة البلاغة خبراء التملق (κολακεία) ومحترفي الظاهر المقْنِع؛ يواجه "التزيُّن" الخادع المتلاعب بالطلاء والساتان[1] يواجهه تقشف حقيقة الترّيض العارية؛ ومقابل تلونية الانعكاسات لا لونية الماهية. سيقول كانط: إن ميلغراماً واحداً من المجاملة الظاهرة لهي سبب كاف للشك. ومع ذلك ليست الطبيعية والنوعية إغراءات شيطانية وهي تستحق الحذرَ بدلاً من الريبة: يُدخل فيلاب philèbe اللذة ضمن مزيج الحياة السعيدة، حياة الحكماء؛ إضافة إلى أن اللذة، شأنها شأن الرأي الصحيح هي لا-وجود (non-

(1) *Gorgias*, 465 b χρώμασι καὶ λειότητι καὶ ἐσθῆσι ἀπατῶσα..

être) موجود نسبياً يمكن التأويل انطلاقاً منها. عموماً [وفي ذلك يتعارض التمظهر مع الوجود كما تتعارض الظاهراتية مع النومانية] فإن الظاهر هو "ما يبدو عليه" دون أن يكونه، وليس هو في ذاته. لكن الظاهر، من ناحية أخرى، هو ظهور وبالضربة عينها تظاهر هو في الآن عينه ظاهر - مزيف تقريباً، ظاهر - مزين وبهذا بالذات هو محتمل! فالظاهر هو الجليّ... وبالتالي، بدلاً من أن نسد أذنيننا بغباء، بدلاً من أن تكون عوليس الضعيف هذا، الذي يفضل أن لا يسمع تملق جنيات البحر، والذي يتصنع الصمم كما يتصنع القديس أنطونيوس العماء - لأنه يعرف أنه لن يستطيع أن يسمع دون أن يستسلم، وإذا استمعنا قليلاً الى الساحرات؟ لا لتصديق ما يقلن، بل لفهم ما يُفكرن به؛ لربما كان هذا موقفاً أكثر رجولية من الرهاب - الخوف من الكون cosmophobie أو رهاب الخوف من الايقونات! من المتفق عليه ان الظاهر (τὸ φαινόμενον) ليس الماهية (τὸ ὄν) إلا أنه، جزئياً، شيء ما من الماهية، τι τοῦ ὄντος : ثمة ما هو جوهري فيه؛ وكما أن اللاوجود (le non-être) بالنسبة للسفسطائي هو شيء آخر غير الوجود، كذلك فإن الظاهر هو شيء آخر، أي شيء ما. لن يظهر شيء إذا لم يكن هناك شيء! كشف للمحجوب ورؤية للماهية، إن الكذبة المدعومة وهي ان الظاهر هو أيضاً ظهور، تجعل اللامرئي بديهياً: لأنه قد قيل: إن الظاهر لا يعرض الماهية دون تشويهها أو والعكس بالعكس، لا يشوه الماهية ومن دون أن يلمح الى ما هو ظاهرها، ومن دون أن يدلنا، بأسلوب ساحر، على درب الحقيقة؛ فلنا نحن أن نعرف فك الرسالة المرمزة، أن نفهم المجاز، أن نؤول الدلائل والاشارات بشكل صحيح، حقيقة الكاذب النفسية، والحقيقة "المريضة" للذة، وحقيقة الوهم الثانوية. ثمة **حق** في الظاهر، مع أن الظاهر ليس **الحقيقة**. إن ثنائية اتجاه نظام الظاهر هو بالذات علة وجود التأويل: بالتالي ألا يزال للجدل أيام جميلة أمامه! تماماً لقد صار الجدل ممكناً من خلال نصف- حقيقة كل **ما يبدو ويظهر معاً**، سواء كان نصف-الحقيقة التباس الظاهر أو تناقض اللذة الوجداني فالفلسفة تساؤل حول سببية التجلي، أو ببساطة حول فاعل- جوهر السناء: وبما أن السناء كله تألق هو بذاته جواب "مستجاب" بكامله، يتساءل الفيلسوف بشكل عام حول **الذي** يتألق أو يظهر. يؤخذ الساذج ببريق الظاهر، أي بفعل التألق المنفصل عن فاعله المتألق: تظهر

الوظيفة من دون الجوهر، ويبهر تلون الخصائص المائعة بألوان قوس قزح الرجل الطائش وتفضي انطباعية آلاف الانعكاسات الى الجوهرانية والعقيدية doketisme الى المثلانية. فالفلسفة إذن هي وصل انطلاقاً من ظاهر موصل جيد؛ وتكمن وظيفة التفكير في العثور على حقيقة جوهرية خلف صور لا كثافة لها، وسرابات بغير ثبات؛ في العثور أبعد من الظل المحمول أو الصدى المعكوس، العثور على الأصل الأصلي، الحقيقة الأولى والأولية التي تحمل هذا الظل أو تُرجع الصدى. بهذه الشروط لا يعود الخطأ شيئاً آخر غير مجاملة للذوق الحساس، أي إرتقاء موقف، الخطأ هو غياب السخرية أو الوعي، إنه حماقة أو حكم لاجدلي: أن نخطئ هو أن نقبل الظل على أنه الواقع والشِبْه الخادع على أنه النموذج. وبالعكس فالتفلسف هو أخذ وعيٍ ببريق الانعكاس، سواء كان ظاهراً أو ظاهر الظاهر، فضلة الظاهر الثانوية، بريقاً معكوساً بدوره في بريق... تزيل الفلسفة ضلالاً أو تحرر من الوهم المغفل المخدوع بتألق الشِبْه المزيف. تحبط التفلسف الكاذب المبهور بزخرف العقيدة السطحي؛ تعيد الفلسفة الى الصراط السليم عوليس الضعيف، من تُسَول له نفسه دائماً بأنه يختار مسكنه في كهف الظلال. كان المتشاؤم يعتبر الظاهر عملة- مزيفة، خداع أو إغراء احتيالي: و لم يعد بالنسبة للتحسيني والمربي إلا وهماً سطحياً قابلاً للتحول الى تلميح؛ بعد تقويم مناسب، إذ يعيد الارتداد اصلاح ما فككه الانحراف. خاصة أن هناك تأويلاً باطنياً متميزاً حري بأن يقود بشكل خاص الانسان الطائش نحو الماهية، ومن دونه سيلتزم حرفياً دون أن يفهم القصد: هذا التأويل هو الفن. إذا كان يلزم توسط استدلالي مُكِدّ لنمضي من نصف-حقيقة اللذة الى الحقيقة الكاملة، الجمال، فإنه التألق المباشر للخير: ليس الظاهر البعيد والكاذب على الاطلاق، بل إشعاع النور الأصيل والقريب؛ لا يفيد هنا التفسير والسخرية غير المباشرة، أي قلب العبارة في تفسير ماليس طريقاً ملتوياً، بل ὀρθὴ διαλεκτική ، بل جدلاً مستقيماً ومباشراً. أليس الجمال إشراق الخير؟ الرؤية العليا والحقة للحقيقة؟ إشعاع الماهية غير المشوه، وغير المنحرف؟ لأن الحق هو بالأحرى صادق وبالأحرى ما يظهر، أي ما يعرض نفسه، كما أن الظاهر في أضعف الإيمان هو ما يُرجِع الى الوجود. فالخير جمال محجوب يسمح جمالياً **باستشفاف** شيء ما من وجوده، جمالُ أعلى من الحسي يسمح بتألق السناء.

صارت المحاكاة الأفلاطونية إذن ممكنة بـــ "التماثل" بين المحسوس والمعقول: بالطبع يُقرأ النموذج في نسخته والأصل مُقَلداً في صورته، كون الصنم شكلاً مخيبـاً للآمال ومائعاً ومخففاً لما هو كثافة النموذج القصوى. كما أنه في نهاية الكتـــاب السادس في **الجمهورية** (La République)، ثمة لحظة يترك فيها التناظر بين المرئيات والمعقولات (ὁρατά-νοητά) ، والتماثل بين الشمس والخير، تترك المجال لمقياس جدلي واحد: فالتوازي التشبيهي يتحول الى ارتباط عُلوي، والاستعارات المتوازية الى شبه مادي؛ فالخير حرفياً هو "علة" وأب الشمس، و لم يعد هناك إلا تراتبيـــة النسَــخ والنماذج الوحيدة. ويصير كل نموذج نسخة بالنسبة للدرجة الأعلى، حتى بلـــوغ نموذج النماذج كلها الذي يصير كل شيء قربه نسخة، ولا يشكل بنفسه بـــدوره نسخة لأي نموذج آخر. إلا أن هذه الأفلاطونية برمتها هي مفرطة التفاؤل والحـذر في آن معاً تجاه الواقع: حذرة لأنها لا تقبل إلا تجريبـــية الوهم ولأنه ما من إحساس صادق؛ وهي مع ذلك متفائلة، لأن كائن "لعبة الظلال" المترقق هذا لا يطلـــب إلا أن يكسى ويُكنـــز وان يصير ماهية ولأن أكاذيب الإحساس واللذة مدروزة معـــاً بخيط أبيض. أو إذا كنا نفضل مقارنات أخرى: يندرج المعقول بشـــكل مـــا في المحسوس بحبر خفي، ويمكن قراءته بتبينه من خلال الجدل الكاشـــف. إن الســـمة الأكثر بروزاً في الميتافيزيقا الأفلاطونية، في مرحلتها الصفائية والزهدية على الأقـل، هي بالطبع هذا الهرب الصاعد نحو سماء التعالي. مع ذلك إذا كان التسامي المـانوي للظاهر هو النقيض التام للتقطير المُجَرِدْ المُطَبق على الشيء العيني، فإنه لا يفـــترض أقل من التجانس الأساسي بين النموذج والصورة، ذلك أن هذه الصلة بالذات هي التي تبرر "المحاكاة". نعثر على الشبه نفسه (ὁμοίωμα) في تساوق العا لم المعقول مـع الحسي، أو الاجتماعي أو النفسي. إنه صنم "المنمنمات" الأبدي، الذي طالما أوحى بتصورات سحرية. ربما كان أصلها غريزة التوفير لدينا، أو بعبارة أفضل: كســـل مخيلتنا... ألا تعبر أساطير التوازي، ونظرية الانطباعات الذهنية، وتشـــابه الجـــرم الصغير والجرم الكبير، والمونادا - والكون، ألا تعبر كل بطريقتها عن نفس هـــذه الحاجة؟ أو ربما أمكن لكلمة صورة أن تأخذ معنيين متعارضين كلياً: مـــن جهـــة الصورة هي ما يُقلد، وبهذا فهي تحتوي على العين بالذات وعلى الآخر في آن معاً،

فتكون بذلك أصغر من النموذج أو أكبر منه، أو الكليشيه بالنسبة الى الثابت أو الصورة بالأسود لنقش بالنسبة الى صورته الملونة؛ ويمكن بالأخص أن لا يتم تمييز الصورة عن الأصل، ولا اختلافها عنه إلا بكونها تليه، وبأنها لا تملك المبادرة. ترجع المحاكاة الى مفهوم تصويري للاستنساخ أو التصغير بمعنى النسخة الشاهدة. إلا أنه يمكن للصورة (εἰκών) أن ترجع أيضاً إلى ما هو آخر بشكل مطلق، وليس الآخر نسبياً، الى الموجود في علاقات أخرى، وفي مستوى آخر، ومع ترفيع آخر...، هذا بالضبط ما أسميناه المقام - الآخر ... وهو ليس مجرد نسخة تابعة، ولا صورة افتراضية لما هو دون، بل هو ما هو وراء حقيقي. يمكن للصورة هنا أن تُطَابق "النموذج" نقطة بنقطة وبتشابه كلّي، ولكن ما هو عليه النموذج فعلياً، تكون الصورة عليه بشكل غير فعلي. أولي ومُرمز للمفهوم. كما أن الرسم الذي تشكله شبكة العين ليس إسقاطاً مكانياً للحدث الذي تعيشه الأنا في أعماق ما يخصها، وفعل الرؤية أي الحدث المعاش داخلياً ليس ظاهرة ثانوية لهذا الرسم، فإن التجريب وما وراء التجريب ليسا النص نفسه بلغتين مختلفتين. وهو في الرؤية أن لغز البعد الشخصي الذي يشكل المقام-الآخر-كلياً، المقام النوعي للوعي مختلف كلياً عن المثير الفيزيائي وعن أي "أثر" دماغي.

هناك أكثر من ذلك: إن المحاكاة، بقبولها درجات لا تحصى بين التجريب وما وراء التجريب، وبالتالي خفضها عتبة الموت (إذا لم تخفه تماماً) تلغي أهمية النسخة والنموذج المثالي، أفضل أيضاً - لا يعود هناك نموذج، ولا يوجد بالتالي سوى نسخ، لأن كل من المحسوس والمعقول هو تقليد للآخر؛ وكذلك من لا يُكرم في الموت قطع الصلة فإنه يبخس في آنٍ معاً الموت والحياة، أي أنه يجعل من الموت نوعاً لا أعلمه من البقاء حياً، ومن الحياة موتاً بطيئاً، لأنه لا بد من التضامن بين تصور شكل موت الوجود وتمثل شكل حياة اللاوجود... بدءاً باعتبار الصفة الحسية ظاهرَ المثال، الذي يشكل حقيقتها ومعيار مرجعيتها، تصير هي أيضاً شبحية بمقدار الشر عند سقراط: الشر حلم، التجربة حلم، الحياة بكاملها حلم، والفيلسوف الذي يُشرَع في إيقاظ النيام، وتبديد حلمهم المتهافت، لا يعود هو

نفسه سوى هارب، ومتخل عن العالم – يجب الرحيل من هنا، يجب الهجرة نحـــو الأعالي : φεύγειν δεῖ πρὸς τὸ ἄνω. Φεύγωμεν δὴ φίλην ἐς πατρίδα. Ἐξελθεῖν σπεύδειν ἐντεῦθεν[1] أو إذا كنا نفضل لغة القديس أوغســطين "ista sensibilia fugienda". كلام الهرب "الفيدوني" هذا، الافلاطوني المحدث والمانوي، كان سابقاً صرخة عوليس أسير حورية البحر "سيرسه"، بعبارة أخرى: سجين تعاويذ ســاحر الظاهر، ورُقى الاغراء الخادعة؛ يضني الحنين الخادع الوعي الذي يهتف: "هناكَ إلى هناك تمضي طريقي..."، ومعروفة وجهة هذا الـــ "هناك" الحقيقية للوعي المسيحي: إنه التسلل في المدينة المقدسة القدس "in civitatem sanctam Jerusalem"، باتجاه أفق صهيون الخيالي والمسيحي والذي يبخس مجرد الأمل به واقعية هذه الدنيا حــتى انه ينفيها. والحال، فإن كل من يُبخِس الصورة فإنه يُبخِس النمـــوذج. إن عــدم جنسية أفلوطين ليس غريباً في كل مكان، ولا هو معزول منفي من كل مكان؛ إنه مُقتلع من هذه الدنيا، ولكن ليس من "هناك"؛ انه مغترب هنا، لأنه ببساطة لديـــه موطن آخر، لأنه مواطن مدينتين، وجنسيتين إحداهما أكثر أصالة من الأخــــرى. الـــعالم الثاني هو وطنه الحقيقي، العالم الآخر هو عالمه... لأن النموذج نفسه قد لا يكون إلا بديلاً شاحباً ونوعاً من الظاهرة الثانوية لنسخته الخاصة، شــأن ظـــلال **الأوديسه** (Odyssée) الجهنمية. وفي عجز المخيلة عن تخيل الآخر-إطلاقاً، وعـــن "الخلق" من دون ذكريات ومن دون معطى سابق الوجــــود، فإنهـــا، في ســـعيها للخارق، تقع مرة أخرى، في أخدود الاحيائية أو الارواحية التجريبـــــية الأشـــد فظاظة: فتعتقد أنها ميتافيزيقية في حين أنها ليست إلا ميتانفسانية، وبدلاً مـــن إدراك المثل، فإنها تتخيل أشباحاً وأطيافاً وكمية مما فوق-الطبيعي الرخيــــص... شـــبيهة بهؤلاء الطوباويين الخرقاء العاجزين عن تصور المستقبل البعيد خارج كل أشـــكال الحضارة الراهنة ونهاية تطور كمي صرف أو أحادي الاتجــــاه ... وكيـــف، لـــو سمحتم، لا تتخيل المخيلة "رسومات" أي أشكالاً خاصة، ملموسة، وتجريبـــية؟ مـــا فوق الطبيعة هذا هو أيضاً طبيعة، ما-هو-غير-المعطى هذا هو غيري نسبي نُقِلـــت

---

(1) Enn., III, 4, 2; VI, 9, 9; VI, 7, 16. Cf. I, 6, 7; V, 3, 17. Phédon, 62b: ἀποδιδράσκειν. Saint AUGUSTIN, Soliloques, I, 14, 24. Cf. BERGEON, La Pensée et le mouvant, p. 153, Théétète, 176 a-b: πειρᾶσθαι χρὴ ἐνθένδε ἐκεῖσε φεύγειν ὅτι τάχιστα.

أشكاله وألوانه وحتى غراباته عن الواقع المدرك ونسجت خرافاته انطلاقاً مما هـو معروف جداً، وغرابات حكاياته انطلاقاً مما تمت رؤيته آنفاً. وعبثاً تُعذب المخيلـة نفسها بلا أمل ساعية الى اللامتناهي، مبخرة الظاهر الى أقصى حد، مرققة المـادة الدقيقة التي تتشكل منها الأطياف الى حدود اللاوجود، ومع ذلك فإنها تبقـى دون الوصول الى المغاير – إطلاقاً، شأنها شأن منتحل وضيع لتجريدات لا سابق لها: فما الآخر هنا سوى شكل مبتكر، هوامي أو (على الأكثر) خرافي للذات عينـه. إذ أن عالماً يفصل بين المادة المُدَقّقة وبين الروحانية المحض. ومهما اجتهدت المخيلة لتبلـغ المفارق الفعلي، فإنها تبقى سجينة حورية البحر "سيرسه"، أي أسيرة الملأ السـاحر والذاكرة اللذين يبقيانها في المثولية؛ وإذ تعتقد المخيلة أنها تخلق فإنها تقلد وتتابع فهي تجهل كل بداية من عدم، كل طفرة فجائية، كل انعطاف الى ما وراء تجريـب لا شكل له: وتفضل أن تصنع لنفسها مما يتركه التجريب حياة "أخـرى" أو عالمـاً "آخر" كلاهما ليس سوى هذه الدنيا مبجلة...آن الأوان لقـول انـه: إذا كـان النموذج قد انتدب في عالم الانعكاسات ظاهراً على صورته، فإن الظاهر قـد رده اليه بشكل جيد. – إن من أراد استخراج الميتافيزيقي من التجريبـي، لن يعطي إذاً إطلاقاً، بشأن كل منهما سوى فلسفة هي في آن معاً نصف–سـلبية ونصـف–إيجابية؛ فمن جهة، تجريبه ليس إيجابياً بنفسه لأنه لا يصير حقيقاً إلا مـن خـلال الماهيات التي يتمثل بها، والتي بانفصاله عنها لا يعود سوى حلم وهن وغشاء وهم؛ أليس الظاهر القشري بانفصاله عن الذات الجوهرية **التي تبدو**، غرور محض وسلب أجوف؟ سراب أجوف على أطراف الوجود **Ens**؟ واقع أسطوري ونقص وجـود صارخ، يتطلب الدعم، شأنه شأن ألعاب الضوء ونـزوات التمييز الدقيق؟ كما أن التجريب ليس سلباً مطلقاً أيضاً لأنه نوعاً ما قد صُفي ومجد وطُوب في جمهوريـة المعقول... وبالعكس ليست مدينة الماهيات إيجابية مطلقة، لأنها ليست سوى تأليـه التجريب، ولا هي سلبية مطلقة لأنها حقيقة هذا التجريب الوحيـدة. مـن هنـا التناقض المزدوج: إن ما قدس وتُوِّج على أنه المثال، هو في المحصلة طيـف ممجـد للمخيلة التجريبـية؛ والعكس بالعكس، فحقيقة التجريب، هي هـذا التجريـب نفسه، وقد أعيد اعتباره، وتم تساميه وتطهيره في الطهور المانوي الكبير من تنافراته وارتجاجاته. هكذا لا يعود هناك لا سلب ولا إيجاب، بل شيء ما وسـيط بـين

الوجود واللاوجود، بين النهار والليل بين العقيدة (doxa) والمعقول، شـــيء مـا تقريـــي وضبابي وغسقي... هنا يبقى الميتافيزيقي في مستوى الطبيعيـــة الأشـد سذاجة، بينما يتيه الفيزيائي، كمروبص، في عالم ما فوق طبيعي متخيل: هذا يـرى ويفحص ويجس تجريبه كساحر، بينما ذاك يتأمل ماهياته. ويصفها كفيزيائي.

ليست الصفة الحسية إذن هيروغليفية مطلوبا حلها، ولا حتى، إذا وجـب قول كل شيء، رمزا مطلوبا تأويله: لأن فكرة توسط تأملي، بين الإشارة والمعنى فيها بذاتها شيء ما عقلاني وتشبيهي بالإنسان يرجعنا مجددا إلى نظام الاســتعارة، أي الى التماثل المقنع؛ ولا أدري أي نقل للأصل يكفي ليكشف لنا جمــال الأرواح في جمال الأجسام، والعقل في الكلمة؛ قد تدل الصورة أو ترمز بشكل ثـانوي الى المتصور تبعا لقانون إتفق عليه مسبقا. بالطبع تشجع ثنائية الإنسان المفترضة هــذه التوازيات. والحال إن الإنسان "مزدوج الطبيعة" لكن ليس بمعنى أن الجســد هــو عبارة الروح أو تلميح اليها، ولا هو حتى إسقاط مكاني لما هو زمني، ولا بشــكل عام، ترجمة بصرية لغير-المرئي: فالانسان؛ أولا مزدوج الطبيعة بما هو التباس كلي، خلط أو ربط بين البدني والنفساني. وليس أكثر من كون المكان والزمــان ليسـا "بعدين" متعادلين قابلين لتبادل صلة ما، ليس الجسد والروح جوهرين متلازمــين قادرين مبدئيا على الوجود واحدهما دون الآخر. لا تطابق الروح الجسد Gramma Pneuma، لأنه لا يوجد بينهما أي مقياس مشترك، ولا أي نوع مــن الامتــداد المشترك. يعبر أفلاطون خلال مقارنته سلسلة المحسوسات بـــالمعقولات، دون أي تحذير، يعبر من الروحاني إلى الجسدي، أي من المعنى التشبيهي الى المعنى الحقيقـــي؛ وكذلك هو الحال، في "فيلاب" (Philèbe) حيث تظهر وظيفة "أجناس الوجــود" في المستوى المنطقي-الجـــدلي، وفي الوقـــت نفســه، في المســتوى الفيزيـــائي - الكوسمولوجي. ومن يدري إذا لم يكن هذا الالتباس بين المجرد والملمـــوس، بـين الأخلاقي والكوني، يشكل بذاته ماهية الأسطورة الأفلاطونية؟ يلعب الالتباس باتجاه معاكس عند أفلوطــين، الذي يتكلم بطيب خــاطر عــن آثـار أو بصمـات (ἴχνος, τύπος) : إذ يشبه الميتافيزيقي تحريا يبحث في بصمات الأصابع عن دليـــل

الجرم؛ فالـــ "hénoïde" أثر الواحد، والحياة أثر المبـــدأ، والشــكل مـــن بقايـــا اللامتشكـــل الأعلى... Tὸ εἶναι ἴχνος Ἑνός. Tὸ ἴχνος τοῦ Ἀμόρφου μορφή. Ἡ ζωὴ ἴχνος τι Ἐκείνου [(1)]. قريبـــا بذلك كفاية من أفلاطون، يعتقد أفلوطـــين انه من الممكن إعادة تشكيل المطلق، المقروء في الأشكال، إنطلاقا مـــن بصماتـــه المحسوسة. لكن من ناحية أخرى، تبين حتمية المفاجأة ان التجريب هو مجرد محرك لحدس ما بعد التجريب؛ مثلما توحي الاستعارة الديناميكية[(2)] في "التاســـــوعات" (Ennéades) بما لا يمكن تمثله، ليس لأنها "شبيهة" به بل لأنها تمنح الروح الدفـــع الضروري لتتجاوز كل تمثل. علينا التفلسف بما ملكت أيدينا، وما تملـــك هـــي المماثلات[(3)] التي يستحضرها التجريب. وبالتالي يجب بالأحرى فـــهم عبـــارات أفلوطين[(4)] القريبة من "فيدون" بمعنى رمزي: لأن التجريب لا يقودنا بنفسه الى مـــا بعد التجريب؛ بل يقودنا فقط الى تجريب آخر أكثر رفعة بقليل. وهذه هي بالذات وظيفة العلاقة، التي تحيل دائما من متناه الى متناه، ومن خاص الى خاص، وذلـــك الى مالانهاية، وتنقل الذهن في المكان من جهة إلى أخرى، وفي الزمان من تحديد الى تحديد، ويشبك مختلف أجزاء التجربة في تركيبات لا ينضب تنوعها. أليس هناك ما يمتع في هذه الإحاطة بالوعي من قبل معطى لا بدايـــة له ولا نهاية؟ تجربة تجزيئيـــة تكون فيها فكرة الكلية، ومن ثم دوار لحظة البـــدء أو النهاية مستبعدتين، تكـــاد هذه التجربـــة أن تكون تجربة منتشية بالضرورة، ولا تفسح أي مجال للقلق علـــى الإطلاق. كلا، لا يفضي التجريب إلى ما بعد التجريب، لأن، في هـــذه الحـــال، سيكون ما بعد التجريب، **ماهيته**، وسيكفي أن نستخـــرج هـــذه الماهيـــة مـــن الموجودات ـــ. كما أن التجريب لا يقود أكثر إلى مـــا بعد التجريـــب، بمجـــرد قلب الصـــلات التي تعرف الوجود غير الميتافيزيقي: أو بعبارة أفضل: ليس المغاير- بالمطلق المعادل المعكوس للـــ-مادون- **en-deçà** كما الظهر بالنسبة الى الوجه، لو

---

(1) Enn., V, 5, 5; VI, 7, 17 et 33. Cf. VI, 7, 15, 18, 22, 23; V, 3, 5; III, 8, 11; VI, 8, 18.

(2) Émile BRÉHIER, in Revue des Cours et Conférences, 1922.

(3) Ἐν ἀναλογίαις : Enn., VI, 9, 5 (fin). Cf. VI, 7, 16.

(4) Enn., VI, 9, 3: εἰς τὰ πρῶτα ἐπαναγαγεῖν ἑαυτὸν ἀπὸ τῶν αἰσθητῶν ἐσχάτων ὄντων...

كان يكفي أخذ نقيض التجريب لنحصل على ما بعد التجريب، لكان هذا مرة أخرى صورة لذاك، صورة طيفية في مرآة، صورة طال انتظارها، وطال توقعها، وطال تصورها بكسل على أنها نسخة للتقليد تابعة بمقدار التقليد المباشر؛ ويرجع المغاير - بالمطلق مرة أخرى الى **ما هو عينه** ... أليس الانتحال هو انتحال دائما سواء كان على الوجه أو القفا؟ ليس ما بعد التجريب بمناقض للتجريب، ولكنه (وهذا يختلف تماما) النقيض، النقيض الذي لا يمكن تخيله.

III - إيجابية الظهور

أن تكون فلسفة التجريب إيجابية بحق، لهو الشرط بالذات لفلسفة أولى تكون، أيضا وبحق إيجابية. لا "يدل" المعطى المحسوس على شيء مغاير عنه، أفضل نظام متأقلم مع إيجابيته، من الحري أن يسمى (قائلين مع شيلنغ Schelling) الشفافة **تشبيه** (tautégorie) بدلا من مجاز (allégorie). مع ذلك لا يعني قول: "يدل المعطى المحسوس بدقة على ما هو عليه"، أن "الظاهر هو بالضبط ما يظهر" أي أن "ظهوره" البصري، والسمعي، واللمسي لا ينم فقط ومباشرة عما هو "عليه"، مع أن "ما هو عليه" يتطابق دون أي توسط مع "معناه". إن صلة الوجود بالظهور هي إشكال علمي، بينما صلة الوجود بالدلالة كانت إشكالا تأويليا: ذاك إشكال للفقيه الذي يريد تحرير نص أصيل وكامل، وهذا مهمة المترجم أمام نسخة أو نص مرمز بشكل مصطنع؛ ذلك أن الترميز هو تركيب تفكير تشبيهي بالانسان. غير أن الطبيعة ليست نسق رموز! والحال، فإن علما التنجيم والملائكة المزدر لا يقفان طويلا أمام المشكلة الأولى: فينظران بغير انتباه الى روائع فيزياء الكتاب الكبير؛ مستعجلين الهرب، وان توديع الظاهرات، والانصراف عن المحسوس، وأن يرميا جانبا الصفات الملموسة، وأن يتخلصا من كل إشكالية لينكبا أخيرا على مهمتهما الضخمة في التأويل الباطني؛ وتشكل القراءة الصحيحة واستعمال الاشارات الجيد أقل همومهما... لا يتعلق الأمر بالفقه (الفيلولوجيا) بل بهرب مضطرب! وقد صار الظاهر هيروغليفيا، تطرد الظلال بسرعة ليتم التفرغ الى رمزية عجيبة. وبالعكس، إذ تعكف البصريات على تحديد الظاهر بواسطة بعض التصحيحات أو التعديلات فإنها تعرض الوجود بصدق؛ وتؤسس لادراك حسي

حسن الانقياد. فالظاهر محبط حقا، أو على الأصح لا يخدع الظاهر إلا من يخدع نفسه، من يريد بالفعل أن يخدع أو لم يقاوم الانخداع، من لا يطلب سوى أن يكون مغفلا، والمتواطئ مع الإغواء الى حد ما؛ إذ ان الذنب ليس ذنب الظاهر (وهو ليس إغواء ولا مخططا خادعا) إذا كنت قد وافقت على ضياعي وحرضت على فشلي! بحيث أن الخطأ غالبا ليس سوى نصف-نية سيئة أو أسلوب في التواطؤ، أو هذياننا تأويليا على قاعدة ذكريات وأسف وأمنيات ومع ذلك، يمكن تصحيح هذا الحكم المسبق، سوء تفاهم الخطأ هذا بفضل قراءة أكثر حذرا للمعلومات الحسية-لكن القراءة الحذرة تنطوي على الريبة تجاه ميزة الحدث العاطفي أو المعاش الأصيلة بالضرورة وبداهته شبه الحشوية أو تحصيل الحاصل بأقل مما تنطوي على استبدال علم نفس السعادة الحسية والسطحية بعلم نفس متزمت ومتقشف: يساعدنا تطهير منهجي على كبح سذاجتنا في نفس الوقت الذي يقلوم فيه إغراء اللذة وميلنا التلقائي الى تسهيلات الظاهر الرائع واقتراحاته الجذابة؛ هنا تجد الواقعية الطبيعية، والهيجان الانطولوجي لحياة تدرك حسيا، والتي تشكل بثقلها الخاص تموضعا خارجيا قطعيا، تجد ملطفها الفعال. عادة ما تكون الهندسة والرياضيات هما هذا التطهير، هذه القراءة المصححة والدقيقة للظاهر، هذا التعليق المحتشم للثقة غير المتحفظة وللتسليم المطلق. خاصة أن الأمر يتعلق بتأويل صحيح لما يرى، وليس بكشف معنى الرمز الخفي. وكل من يوضح بدقة، أن الصفات ليست "سطحية" بدائية، أو أن تنوع الألوان يختزل الى تنوع الصور الهندسية، أو أن مختلف هيئات المادة ترجع الى تجمعات الذرة والصفائح، فإنه يسعى الى إرساء حقيقة الظاهر علميا، وليس قراءة حقيقة مخفية في الظاهر ولا الهرب نحو حقيقة متعالية خارج الظاهر، بانكاره اياه أو تبخيسه.

إن قلب الأفلاطونية هذا، هو أحد أعراض الحداثة والذي نحدسه في التصور القدسي والاحتفالي للطبيعة، والذي أسكر عصر النهضة ومن ثم الفن الباروكي[1]. لقد أبرز ريمون باير R.Bayer، في دراسته لـ د.فنشي (Vinci)، جمالية الثريا التي ورثها إنسانيو القرن الخامس عشر Quattrocento الفلورنسيين عن هرمس

(1) Abbé Paul ROQUES, Signification du baroque (La Maison-Dieu, n° 51).

الهرامسة (مثلث الحكمـــــة Hermès Trismégiste وأفلوطـــين ويـــامبلوقيوس (Jamblique): ونعثر عليها في l'Eloge du soleil "مديح الشمس" لليورنـــاردو، كما في De Sole لمارسيل فيسين M.Ficin؛ وستوحي الى ليون العـــــبري Léon l'Hébreu باستعاراته الشمسية. يكاد بوتشيلي (Botticelli) ان ينسى الله خـــالق ازهار الربيع التي تشكل بمعنى ما الدليل الكوسمولوجي عليه (ذلك ان ورود الربيـــع تروي، في آخر المطاف، مجد الله في خلقه): و لم يبق إلا بساط الورد نفسه والمظـهر اللطيف، ἀγλαὸν καὶ χαρίεν ، ومعطف الربيع المبرقش. مساءلا "سيد الشـمس" يستدعي فرنسوا الاسيزي d'Assise الرب من خلاله، الذي يشكل، من خـــلال "**الجمهورية**" نفسها نموذجه؛ وهذه أيضا كانت نية بونافونتور بقراءته النمـــوذج الإلهي في صوره، آثاره وانعكاساته. لقد شرع النور المتألق[2]، عند أفلاطوني عصـر النهضة المحدثين، بالوجود لذاته تقريبا، وذلك بـــ "تحويل" من الخير اللامرئـــي الى هالة هذا الخير، ومن منبع النور الى النور المتألق... لكن الفردوس كله، عند دانـــتي Dante، يسبح في النور، وهو نفسه نشيد النور! أي يعرض لنا أفلوطين[3] الكائنات مكتسبية بنور المعقول المنتشر ἐν φωτὶ... καὶ αὐγῇ ؟بالتعارض مع رهاب الشـمس المانوي، ســـيحتفل بالتـــازار غراســـيان (Baltasar Gracian)، مؤلـــف الـــ Criticon[4]، بشمس النهار "oculus mundi"، حيث تقلد الطبيعة بكاملها مـــن الطاووس الى الوردة، والى الماسة، فخرها المجيد. ولدت إعادة الاعتبار، في عصـــر النهضة، لانعكاسات الضوء في الماء τὰ ἐν ὕδατι φαντάσματα الذي حقر بشدة منـذ أفلاطون، ولدت اهتماما متزايدا بالألعاب الرائعة والزائلة: التقنيات المائية لمكتشفي الينابيع وألعاب الحراقين النارية المتمرسين في بناء قصور مسحورة من النار أو المـاء، وفي تشييد صروح من الظلال والسراب والضباب، ومثلما احتفل البذخ الرومـــاني بعظمة الظاهر، وتأليه "الافتخار"، كذلك تعلم القرن الثامن عشر، وسط اشـــتعال العظمـــة المنتصر، تعلم حسن استعمال خداع البصر، واللعب بالروائع التي كـانت النواقيس السحرية، والعدسات البصريـــة وحجر الوهـــم تبنيها للإنسان المنبـــهر.

(2) Raymond BAYER, Léonard de Vinci (Paris, 1933).

(3) Enn,., III, 8, 11. Sur la Magie divine: Alexandre KOYRÉ , La Philosophie de Jacob Bœhme, p. 263, 292-293, 348.

(4) El Criticon, 1651; El Discreto, 1646.

ولم يؤد "مبحث انكسار الضوء" لديكارت وأبحاث مالبرانش وبركلي وهايغنز (Huyghens) البصرية الى هرب الخليقة بعيدا عن عالم السراب هذا، بل بالعكس أدى الى انغرازها في الطبيعة، وتأقلمها مع المظاهر الخادعة؛ وفيما بعد، سيؤكد علم الألوان لغوته وشوبنهور (الذي كان قارئا كبيرا لغراسيان) عمق جدية الإنسان الحديث في معالجته لون وتميز وتألق الضوء؛ يحتفل Lynceus في فاوست الثاني، Faust، بعد الـ Criticon، بالعين، لاقطة المباهاة sensorium وعضو احساس العظمة، شمس مبصرة تتمارى فيها الشمس[1]. يشجع اعتناق الظاهر هذا على انطباعية تعددية تتضمن إعلاء شأن الصفات وقلب الصلات بين الدرجة والجوهر: أليست "الطريقة" التي تتم بها الإجابة على الـ "كيف" والتي تتوضح من خلال الظرف (adverbe)، أليست هي الكل كما يرى ذلك غراسيان[2]؟ يتبعثر النحل الذهبي في الضوء: ويثأر القفير σμῆνος ، من الاسمية التي كانت تفرض على الصفات المتنافرة شكل الماهية الرتيب ووحيد اللون. من ناحية أخرى، يتغير الاشراق المبرقش مع الوقت: مثل صور المشكال الاخاذة، وهي إعادة تنظيم مستمرة للبرقشة ورقص ألوان ساحرة. لا يؤثر قلب تراتبيات "فيدون" السامية في علاقات الانسان بالانسان بأقل مما تؤثر في علاقات الانسان بالنور، كما يبين ذلك جيدا تهكم ماكيافيللي، وكاستليوني (Castiglione) وغراسيان، الساخر بشكل ما من السخرية الأفلاطونية. ما زال سقراط، يهزأ من إجلال أديمونت (Adimonte) للظاهر وللخداع[3]: وها قد صار الخداع، عند رجل البلاط، عملة أساسية في فن التظاهر الشبيه بالنسخة الأولى الغراسيانية والممالقة في فن الاقناع الباسكالي. لقد تم سلفا إعادة الاعتبار لرجل φαίνεσθαι ، الماركيز دو فينست de Féneste والذي كان اجريبا دوبينيي Agrippa d'Aubigné قد حاكمه. لم تعد العقيدة هالة المطلق الرائعة فقط، الله المنعكس في قوس قزح، والذي يرويه الغروب، ويمجده الشفيق (οἱ οὐρανοὶ διηγοῦνται δόξαν Θεοῦ!) : فالعقيدة أيضا هي سمعة الواحد في اعتقاد الآخر، العقيدة هي الصيت والشهرة. يمكن اللعب مع الخرافات

---

(1) Enn., 1, 6, 9: οὐ γὰρ ἂν πώποτε εἶδεν ὀφθαλμὸς ἥλιον, ἡλιοειδὴς μὴ γεγενημένος...

(2) L'Homme de cour, aph. 14.

(3) Rép., II, 365 c: δοκεῖν.

التقدير المتبادل مثلما يتم اللعب مع الخدع البصرية المدهشة. في المدينـــة كمـــا في البلاط، مواطنا كان أو ديبلوماسيا أو قائدا فالإنسان الحديث منخرط بعمق في لعبة المظاهر الاجتماعية، وهي ابتزاز لا ينتهي ونظام من ذر الرماد في العيون: بالإجمال، لقد عاد الأسرى الى كهف الظلال والأوهام، بينما الفيلسوف-المخادع، مختبـــئ عند المدخل، يحرك دمى الخداع، هذه الدمى التي ستشكل تسلية القرن الثامن عشر الكبرى. لقد شكل المجد، موضوع "الانتصار" الرابع، لبـــترارك (Pétrarque)، في انتصار الشهرةTrionfo della Fama ، ذلك أن المجد ينتصر على المـــوت، كمـــا ينتصر الموت على **العقل** وعلى الحب. ومعروف بأي بذخ استعراضي ســـيحتفل عصر النهضة بانتصارات الروحانية الزمنية[1]... في مرحلة يضبط فيها "العـــرض"[2] والتباهي والأبهة والميل الى التصفيق كل الحياة الاجتماعية، وستدشن الحذاقة اليدوية (Oracle manuel) تقنية التلاعب بالمظاهر التي ستحسم في علم السياسة، وحتى في المغامرات العاطفية كما عند ماريفو (Marivaux): ان تكون طاووســـا، عجلـــة، وردة أو شمسا، هو مهارة لا ترتجل، بل، بالعكس، انها مهارة وليدة المكر والدهاء. لقد أعاد غراسيان، الذي يعرف قوة الكلام المعسول والحلو اللطيفة، أعاد الاعتبـــار لبريق الخداع وتملق الخطباء وغناء الحوريات، "إن ما لا يرى كأنه غير موجـــود"، نقرأ في El Discreto: لأن الخليقة ليست ما هي عليه بل ما تظهر عليه"، "رافقـــت بالتالي هبة التمظهر هبة الوجود عند الكائنات؛ وكرس الرب التفاخر"[3]، أو بعبارة أفضل، يمنح التمظهر للوجود وجودا آخر، وجودا متباهيا يلمع أمام جميع الأنظـــار، ويثير الاعجاب. ألا يشكل النمو عموما استعراض تدريجي لما لايرى؟ هذه هـــي أولى مفاعيل التصويرية "iconisme": فلم يعد الظاهر، كما كـــان في جماليـــات أفلاطون وأفلوطين المانوية، غلافا ظاهريا لسر بـــاطني، كمـــا لم يعـــد التـــوازن (الهارموني) السمعي غلافا لموسيقى الأرواح: لأنه لم يعد للفصل بين الظاهري exo

(1) Sur les "trionfi":J.BURCKHARDT, Die Kultur der Renaissance in Italien, chap.V.

(2) Sur la notion de gloire chez Corneille, voyez trois brillants chapitres d'Octave NADAL, in Le Sentiment de l'amour dans l'œuvre de P.Corneille (1948), p. 305-315. Nadal renvoie au Dialogue de la gloire, de CHAPELAIN et au Discours de la gloire de BALZAC, qui parle d'une "réflexion de la propre lumière [des actions héroïques]", d'un "éclat" qui leur est renvoyé par les objets. Cf. VAUVENARGUES, Discours sur la gloire, I et II; et même Descartes!

(3) El Discreto: Hombre de Ostentacion.L'Homme de cour, aph. 99.

والباطني éso من سوق في عالم المظاهر السطحية الظاهرة هذا؛ لقد علمن الظاهر؛ أي انه قد فرغ من كل ادعاء رمزي، نتيجة لاسمية نفسية حصرا، ترفض كل ارتباط ظرفي للمعطى المباشر المحض، وفي الوقت عينه، (نتيجة) لتوضيح علمي ينظم حكم الوجود، وحكم خارجية الشيء، محققا التقييم الصائب لهذا المعطى. ومن جهة أي بمعنى استعارة أو تأويل باطني كان الظاهر آنفا يعلن عن جمال، هو مع براءته، تألق واكتمال الظاهر بالذات.

IV - واقعة التجريب الكامل

ثمة تفاؤل ما وبعض السهولة في فكرة جدل أساسه الانتقال المستمر والمثل المولدة، رغم الزهو الضروري الذي يبدو أنها تفرضه علينا. يمكن أن يكون التطهر لئيما ومؤلما وصارما لروح تتخلى عن المتع الحسية؛ يكفي أن لا ينتج عن التبسيط، بذاته، تناقض لا حل له، وبناء عليه عدم استحالة أو مأساة... إن مدرسة التجريد الحقيقية، وفي الوقت نفسه التمرين الوحيد التقشفي حقا هو في الانقلاب الجذري الى مقام الكوني، الأبدي والضروري، أي مقام من العقلانية لا علاقة له مع آلية الارتباط. "في أقصى حد"، بمعنى أبعد من كل التسويات الاناسية، النفسية والذاتية، يوجد تفكير مبادر هو تصور مسبق للكلية يبلغ الذروة دفعة واحدة مثله مثل اليقين الديكارتي: انه ليس أبدا أقصى ما يستخرج تدريجيا من التجريب - لأن "أقصى" كهذا لن يكون إلا "magis" ونصف-بداهة، بل انه أقصى قبلي، وهو بالتالي الذروة الأصيلة. عندما يتعلق الأمر بالكل أو اللاشيء، بالحال أو أبدا على الاطلاق، لا يعود للأكثر والأقل من سوق هنا. وبدلا من لفظ **كشف** يجب القول أن هذا اليقين الأقصى هو موضوع **رؤية أو وحي**: لأن الرؤية هي إيجابية باهرة، مثلما الكشف هو نفي كادح. لا يتبدى اليقين الرياضي، وبالأحرى الكوجيتو، أكثر فأكثر وسط تجريب يتخلى تدريجيا، كعري سالومي، عن ستائره: هذا النوع من الكشف هو خصوصية فردوسية. ويحيلنا مرة أخرى الى ألغاز الاستعارة، أي ألغاز الدجل والتنجيم المشعوذ. تثبت انتقادات "بركلي" الادراكية فعاليتها ضد فكرة ماهية عارية، عنصر بؤري ذري وتجويفي يستره عن الجهال حجاب حسي. هنا يصح القول: تبدأ بداهة "المقام-الآخر" من ذاتها! فهي ليست ظاهرا يضاء شيئا

فشيئا، بل هي ظهور مضيء دفعة واحدة؛ انها ليست ما ينكشف أكثر فأكثر مثل اقتناع تقريبي تؤكده الاستنتاجات الى ما لانهاية، بل هي ما يضيء كل ما عداها ويجعله مفهوما. إن الانتقال من الظاهر المنكشف الى رؤية الظهور، الذي يضع في الأول ما كان خاتمة وذلك بنكوص لامتناه، هذا الانتقال يستتبع انعكاس جذري بين الأولي والأخير، ألا يكون هذا الانقلاب الميتافيزيقا كلها؟

يكف التجريب، وقد فقد معناه الخفي، عن أن يكون حزورة، أو غموضا حصريا أو "سرا" لينكشف كـ "لغز": لأن **التصوف** بنفسه، إذا كان وجه ما فوق الطبيعي للوضعية، هو نقيض الهرمسية (التأويل الباطني). تقول الهرمسية، وهي دجل ميتافيزيائي حقيقي، ان التجريب بمجمله وفي كل تفصيل من تفاصيله، لا يفهم في ذاته، وهو يجد معناه كإشارة لشيء آخر، وكتلميح لشيء آخر، وعلى العكس ليس للتجريب، في علم الاسرار الحقيقي، من معنى إلا في ذاته؛ وإذا كان بالتالي كل تفصيل ماثل يأخذ معناه من التفاصيل الأخرى، فإن التجريب الكلي، لا يأخذ معناه من شيء أبدا، لأن لا شيء خارجه سوى ما لا يعرف؛ ويمكن القول حسبما نرغب، إن التجريب يهب بداهة جوانية كاملة، أو إنه لا معنى له على الاطلاق، لا هدف له، ولا رأس ولا ذنب... مثلما تأخذ لحظات الزمن معناها، في حكمة التاريخ من المستقبل الأخروي الذي ينضج فيها: بينما في الإيجابية الاسرارية، تفسر اللحظات، المشكلة لاستمرارية البرزخ، بعضها البعض، في حين تبقى كلية هذه الاستمرارية لغزا. إذ ذاك يفهم كيف استطاع برغسون أن يعتبر نفسه ميتافيزيقيا وفيلسوف التجربة في آن معا: " لم أشتغل سوى بالميتافيزيقا، لا شيء غير الميتافيزيقا ومع ذلك بامكاني أن أعرف جهودي بأنها تعميق للتجربة". تسن فلسفة الامتلاء، من جهة، ان ادعاء تجربة العدم هو عدم تجربة. وهي بذلك درس فائق الجدية، ورفض لكل خداع لفظي، وأمانة اسمية وظاهراتية عميقة لايجابية الواقعة المعاشة. من هنا بالذات، لا ينجم اختراق ما بعد التجريب للتجريب عن تجربة ماثلة متميزة بلا أي حق، ولا كذلك عن شعور ممهور بتوغل غامض في الشيء في ذاته (نومينال)، بل عن حدس، لا يملك، شأن (الحدوس) الأخرى أي مضمون تجريبي: في هذا الومض الفوري، خارقا سقف امتلاء متناه بدوره ونسبي، يعي الانسان تجريبه على انه كلي؛ لأن اللغز لا يتربص في أحد مخابئ

التجريب؛ بل هو يلازم **واقعة التجريب** بشكل عام، ما يعني مجمل تجربة لا تنقطع إلا مع حرفتنا كمخلوقات – كلا، لا "يقود" التجريب الى الـ–ماوراء: بالعكس، يشهد التجريب، بفعاليته وكليته، أو إذا سمح لنا بهذه العبارة: الهوية (Quoddité) الجذرية، لصالح الـ–ماوراء. والحال، ان التجريب الكلي هو تضافر كلمات يشير الى لا تجريب بمقدار ما يشير إلى أكثر للغاية مما وراء التجريب. ما هو ميتافيزيقي، ليس الماهيات المثالية التي يزعم أنها تندرج ما بين خطوط التجربة، ويمكن قراءتها في هذه التجربة حتى في رؤية عقلانية ثانية تضاعف البصيرة الحسية الأولى: الميتافيزيقي هو واقعة التجريب المجانية، ولا يمكن قراءة هذه الواقعة **في** المعطى، حتى لو جحظت أعيننا... لن يستطيع أي وضوح حسي مدعم بنفاذ عقل فائق الحساسية ومضخم الى أقصى حد، لن يستطيع أن يفكك هذه الواقعة البسيطة الى أقصى حد، مع أنها مغايرة جذريا للتجربة بحصر المعنى. ليس هناك أي إدراك حسي حتى ولو كان متميزا لهذه الواقعة **المغايرة إطلاقا** لكل الوقائع الأخرى: لكن ربما كان هناك "حالة نعمة" تمهد للانقلاب الحدسي الذي سيجعلنا نصل، على عكس كل تجريب كما كل جدل، إلى **إشكال كل الإشكالات الأخرى**. هكذا يندرج مستويان فوق هذا التجريب وهو امتلاء منهمك، ومنتعش ومتجزأ ويصل بين مراحل مؤرخة لاتي تموت وتنبعث من جديد: مستوى الحقائق الأبدية التي تقبل فقط انعدام مبالغ به، وواقعة التجريب الكلي الذي، باختلافه عن كل تجريب ليس فقط باتساعه بل بطبيعته، يعاش بشكل ملموس في وعي موتنا–الخاص. لا يقود التجريب الى **هناك** ولا، بالأحرى، الى ماوراء هذا الـ "هناك"؛ لا يقود التجريب الى ἐκεῖνα معقولين، ولا، بالأحرى الى l'ἐπέκεινα فوق–معقول: لكن ربما **سينقلب** الـ–ما–دون الى ما وراء (أبعد) في ومض الحدس.... كل ما نراه، ما نلمسه، ما ندركه إيجابيا هو تجريب، إلا أن واقعة التجريب هي لغز عميق. الحياة هي ما هو مفروغ منه يوميا لكل كائن، إلا أن واقعة العيش هي لغز عميق. ألا يستحق وحده ما فوق الطبيعي الواضح طبيعيا هذا لوحده اسم/ السر؟

الفصل الثاني

إشكال الأصل الجذري

I – ما وراء التجريب وما وراء المنطق

وهاك الآن درجة الغلو الميتافيزيقي الثانية. لأنه إذا بقينا عند درجته الأولى، فلن نصل إلى أبعد من اللوغوس، Logos، وهو أيضاً، بعد كل شيء، ما وراء التجريب، لأنه يتميز "بحكم القانون" عن التجريب. والحال هذه، يمكننا المضي أيضاً إلى أبعد من ذلك نحن لا نبحث فقط عن المقام-الآخر للوغوس، بل عن المقام الآخر-كلياً، ذاك الذي ليس غير الذات، لكنه غير ذات الآخر، الآخر مرتين، مَنْ ليس الآخر، نسبياً، بل الآخر على الإطلاق، وهو بالتالي **ما بعد تجريب وما بعد منطق** في آن معاً، أي أنه حرفياً **ميتافيزيقي** ينطوي المقام-الآخر على انفتاح الفكر على مقدار اللانهائي أو اللامتناهي الصغر: إلا أن المقام-الآخر-كلياً ليس أبداً مقام "مقدار" أي كان مقياسه وشكله؛ إنه بالأحرى مجيء النوعية الجديدة. إذا كان ثمة "رهافة" ميكروفيزيائية وميكروبيولوجية تقصي حقل الإدراك الحسي إلى ما لانهاية ما دون الفاصل الخفيف، والميكرون، مثلما يوسعه عالم الفلك إلى مالانهاية، أبعد من السنة الضوئية، فهناك رهافة فائقة تختلف بدورها للغاية عن الرهافة: هكذا يختلف عالم النوايا عن اللوغوس بمقدار اختلاف اللوغوس عن التجريب، أعلى من مستوى التجريب السفلي، المستوي تماماً مع الإنسان المنشغل بالبرزخ ، لا يشكل اللوغوس بالتالي إلاّ طابقاً وسيطاً. إذا كان ما وراء تجريب الأبدية والشمولية والضرورة هو المستوى الأسمى، فلن يكون لدينا من ميتافيزيقا إلا نظرية عرفانية، ما يعني أنها ماثلة وكما في القبلية الكانطية ليست إطلاقاً مفارقة بمقدار ما هي متعالية: وستكون بالإجمال، مجرد فلسفة محض **(philosophia pura)** للشكل القبلي ونظرية في الحقائق الموجهَة؛ لأنه إذا كان عالم الماهيات والعلاقات المعقولة يتعالى عن المعطى المباشر، فإنه لا يتعالى عن التفكير الذي يتفكره والذي به يتعرف على

امتلائه المتعذر تمزيقه، لأن التفكير مشارك بالضرورة في الجوهرية أو بالأحرى مشارك في ماهية الفكر، وهو بالتعريف بالذات، المصافة الأخيرة للفكر. إن ما يُقيم التفكير يتجاوزنا. أبعد من تجاوز التفكير بالهندسة، الا تقبل الميتافيزيقا تجاوز التفكير نفسه والوجود بشكل عام؟ يتعلق الأمر فعلاً باتخاذ قرار ثانٍ خطير، بالمخاطرة باحتمال ثان... – وبالأحرى الآن فقط تبدأ المغامرة؛ لأنه لا يصح أن نسمي مغامرةً، وعي عقلنا بمقامه الخاص. ما ينتظرنا عند الضفة الأخرى ليس **مفارقة** ما بعد التجريب فقط؛ بل بشكل ما الاستدلال الزائف وهو مفارقة من المقام الثاني، أو مفارقة المفارقة؛ لم تكن مفارقة المقام الأول إلا لوغوس "صادم" للحس المشترك: "تفضح" مفارقة **الاستدلال الزائف** أو القاعدية المنطق، "تفضح" اللوغوس نفسه، وقد صار حساً مشتركاً ثانياً لتفكر من القوة الثانية. تغمر الفلسفة المفارِقَة التفلسف الكاذب بـ l'ἀπορία بواسطة الـ l'ἀτοπία : إلا أنها معضلة خصبة، علاج تخديري يُخبِّل لكي يُنَشط. بينما تُبقي فلسفة الاستدلال الزائف المُخدَر في تخديره، والمرتبك في مأزقه. لأنه إذا كانت زعزعة العادات الراسخة وتفكيك الارتباطات الروتينية والمعتادة **جارحاً للذوق**، فإن إنكار الشروط المعيارية التي تسمح بإمكانية التفكير أو حتى مجرد الشك بهذه الشروط، لهو **فاضح** ببساطة، لأنه غير معقول ومتناقض. مع ذلك فإن ما بعد التجريب، وبشكل خاص الرياضيات مفارقة في أنها تكذب فعلياً معطى الاعتقاد الشائع. بينما لا يخاطر الاستدلال الزائف إلا في إمكانية الخلق. يوجد إذن، أكثر من تمايز بين الحُكم الذي ينتقد الاعتقاد المخبول بخارجية المدرك الحسي، أو التأكيدات الأنطولوجية بسهولة مفرطة وبين الشك الجذري الذي لا يضعضع هذه التأكيدات وهذا الاعتقاد فحسب، بل هذا الحكم نفسه؛ بين خفر التأويلات الطموحة المعرفي أو الالتزام بصورة الوجود التمثلية وبين وضع اللوغوس مجانياً موضع السؤال. إن الأخلاق التي ترفض اللذة باعتبار أنها مقيتة ليس باسم الحقيقة، أو الوقاية الصحية ولكن لأسباب ما فوق طبيعية، لهي بهذا الخصوص أكثر ميتافيزيقية من العلم الذي ينتقد صِدقية الاحساسات فتلك تنفي الوجود، وهذا يعترض على الشرعية أو الأصالة. تؤكد الحقيقة على المفارقة الرياضية، وتكرس الفاعلية شرعيتها عملياً، إلا أن الاستدلال الزائف هو مفارقة لا يؤكدها لا النجاح ولا الحس السليم. لا يمكن تخيل مفارقة

المقام الأول دون أن يعني ذلك عدم إمكانية إدراكه، لأنه إذا كان يضلل المخيلة، فإنه لا يربك العقل ولا يتجاوز حدوده ... ألم يولّد كانط السمو من هذا التنوع؟ يمكن إدراك مضلع من آلاف الأضلاع مع أنه من المستحيل تخيله؛ ليس الكبر اللامتناهي والصغر اللامتناهي "مفرطين" إلا في عدم قابليتهما للقياس تبعاً لنسب التجربة الحسية. يمكن للانـزعاج المتولد من مقدار ضخم، ولكنه متعيّن، أو حتى من اللامتناهي بصفته معقولاً رياضياً، يمكنه أن لا يكون سوى ترنح للمخيلة، إلا أنه يمكنه أن يتحول بسرعة إلى قلق عندما تصبح إمكانية الذهاب إلى اللانهاية، إلى أبعد من كل كِبر فعلي، مُشْكِلَة لانهائية اللامتناهي نفسه، وأبدية الأبدي نفسه. وهكذا، مع لامتناهيين، لا يمكنه أن يتمثلهما ولا حتى أن يدركهما، واللذين سيكتشف "لايبنتز" مع ذلك أنهما معقولان ويُحسبان إلى مالانهاية[1] ، يمضي "باسكال" من ترنح ما بعد التجريب إلى القلق القاعدي المنطق (angoisse métalogique) ولن يعوض إلا بالرهان لاعقلانية هذا القلق المزدوجة. أليست هذه هي المسافة كلها من عثة باسكال الى نقطة مياه **المونادولوجيا** (Monadologie)؛ هنا كل روائع التنظيم والتقسيم إلى ما لانهاية، هناك لا شيء سوى هاوية الضآلة وقشعريرة الإنسان أمام العدم.

II - La “démonique Hyperbole”

لم يكن القدماء دون ارتياب بخصوص هذه السوبر-مفارقة. يمكن اعتبار الأفلاطونية-المحدثة في أحد أكثر جوانبها تمييزاً[2] على أنها تأمل حول الفقرة المشهورة من الكتاب السادس من "**الجمهورية**"، حيث يجازف أفلاطون. ويكاد يكون أفلاطونياً-محدثاً، بفكرة أن الخير هو ما وراء الماهية ἐπέκεινα τῆς οὐσίας πρεσβείᾳ καὶ δυνάμει، أي أنه لا يتعالى فقط على الـ **esse** و**ens**، بل على الماهية التي تجعل الكائن موجوداً: ليس بأكثر من كون الشمس، التي تعطي الصيرورة للمحسوسات، ليست بذاتها صيرورة، ليس الخير الذي يعطي الوجود لما يمكن معرفته، ليس بذاته "وجوداً". عندئذٍ يصرخ غلوكون (Glaucon)، Δαιμονία

---

(1) Cf. Le curieux brouillon publié par Gaston GRUA, in Textes inéaïts de Leibniz, p. 553 (Paris, 1948).

(2) Enn., V, 4, 1 et 2; V, 3, 17, 3, 17; VI, 9, 11; V, 5, 6; I, 7, 1.

ὑπερβολή :démonique hyperbole! في حين أن الرياضيات هي جدل أُوقف عند منتصف طريق يقلب فرضيات إلى أطروحات وافتراضات الى مواقف، فـــإن الجدل الصرف يرفعنا، بانطلاقة لامتناهية، نحو هذا اللاشرطي بـــالمطلق الـــذي يفترضه كل شيء ولا يفترض هو شيئاً؛ إن الجدل بسعيه نحو اللاشرطي، هو حرفياً ما بعد رياضيات وهندسة مفرطة. بحيث أنه إذا كانت جدية التجريب هي أخـــذ الفرضيات مأخذ الجد، فإنه سيكون من الأجدى لجدية ما بعد التجريب الحقـــة أن تكون السخرية التي تحرك كل فرضية، تجعل من كل فرضية لحظة التأويل المؤقتـــة، تقلب كل نموذج إلى نسخة لنموذج أعلى ومنضدة للقفز لزيادة الارتفاع الى أعلى أيضاً... "يجب الارتقاء": كانت هذه الكلمة من "التاسوعات" الخامسة تُعرف آنفاً تطرف ديوتيم Diotime، والكتاب السادس من "الجمهورية". في كل حـــال، إن الإهتمام بنموذج كل النماذج، النموذج الأصلي، يعين الحد الدوغمائي للمثاليـــة الأفلاطونية. هل فكرة الخير هي حقاً من "مقام مغـــاير كليـــاً" لكـــل الأفكـــار الأخرى[1]؟ هل الـــ μέγιστον μάθημα وهو رياضيات فائقة[2] يتعالى حقاً عـــن علم الماهيات؟ في الواقع، إضافة الى ذلك، لا يبدو أفلاطون غير مقتنع بغير الـــــ Démonique hyperbole — أي: من جلالة الموجود الفائق الوجود ولا هـــائي تعالي الـــ Epekeïna ؛ لأنه يعلن في الكتاب السابع[3] أن الخير هو جزء الوجـــود الأكثر إشراقاً والأسعد والأفضل: τοῦ ὄντος τὸ φανότατον, τὸ εὐδαιμονέστατον τοῦ ὄντος, τὸ ἄριστον ἐν τοῖς οὖσι أليست السعادة نمطاً مـــن الوجـــود المستمر؛ ألا تشكل، بهذا المعنى، إحدى صفات الآلهـــة الوثنيـــة، كمـــا الجمـــال والعنفوان؟ تجميل للبرزخ، ومثلنة للـــ-ما-دون- يشكل مذهب السعادة المقـــام الثانوي للأرضي المنقطع عن الفرح المؤسس والبدئي، أي عن المقام-الآخر-كليـــاً، الذي كان عليه أن يكون منبعه. يُعـــرف أفلاطـــون ببرجوازيـــة أكـــثر للـــــ αὐτὸ ἀγαθόν و αὐτὸ καλόν معاً بأنهما ὅ ἐστίν[4]: ما هـــو موجـــود. فكيـــف

(1) ZELLER, Philosophie der Griechen, II, 1, p. 694 et 708-718; RODIER, Études de philosophie grecque, p. 90.

(2) Rép., VI, 505 a.

(3) Rép., VII, 518 c, 526 e, 532 c; à opposer à VI, 509 b.

(4) Rép., VI, 507 b. Cf. Enn., V, 4, 2: μάλιστα ἐστίν ὃ ἐστί.

ندهش، في هذه الشروط، إذا كان الفرق الوحيد بين الفيلسوف والفيلسوف الكاذب هو في درجة تماسك موضوعاتهما أو وجودها[1]؟ — وبالعكس، فإن خصوصية الأفلاطونية — المحدثة هي في تكريس انخفاض الجوهر، بتعينه عند مستوى الأقنوم الثاني، أو، وهو ما يرجع إلى الأمر عينه، جعل ارتقاء الـ-ما-وراء- [Epekeïna] المبالغ الذي حرر ينبثق بواسطة إدراج مصافة وسيطة. تجاهر الأفلاطونية بعزم، وهي بذلك أفلاطونية مغالية وتطرف المتعالي، تجاهر بـ(démonique hyperbole)؛ مستهدفة بتصويب جذري قمة الـ [Epekeïna] هذه التي كان أفلاطون قد استشفها بلمح البرق. ليس الـ-ماوراء، الذي اسمه **الواحد**، نصف-مغالاة، مثل الذكاء (لأن المعقول لا يتعالى إلا على المحسوس؛ لأن ماوراء المحسوس يبقى أيضا ما دون فوق المعقول: فالأقنوم الأول هو ما وراء مطلق، وهو، حرفيا، ما وراء الكل: et ἐπέκεινα νοῦ, γνώσεως, ἐπέκεινα ἐνεργείας ζωῆς, ἐπέκεινα ὅλως, ἐπέκεινα τῶν πάντων[2]! ويمضي أفلوطين حتى قول إن "الخير" ليس، بحصر المعنى، هو الخير – οὐδὲ τἀγαθόν ؛ حتى أنه لا يمكن تثبيت أنه طيب؛ ἀγαθός ἐστι ولا يستطيع نفسه أن يؤكد: أن الخير ἐγώ εἰμι τὸ ’Αγαθόν هو لا يملك حتى صفة "إنه طيب" οὔτε τὸ ἀγαθὸν ἔχει τὸ ’Αγαθόν[3]! بكلمة، هذا الخير الأعلى من الكل، τἀγαθόν ὑπὲρ τὰ ἄλλα ἀγαθά ، والذي لا شيء جيد بالنسبة له، مع أنه جيد بالنسبة إلى كل ما عداه، هذا الخير هو بنفسه فائق-الجودة ὑπεραγαθόν ، **أكثر-من-خير**، كما أنه ὑπέρκαλον و ὑπερούσιον . فائق أنطولوجيا، فائق العقلانية...، فائق[4] على طول الخط! هل يجب التذكير هنا بتراكم صفات اللامتناهي[5] التي يمنحها اللاهوت الديونيزسي لذراه التي يستحيل تجاوزها؟ أكثر من الكاملة plus-que-parfait، والخارقة الجوهر (supersubstance)! يتكلم العالم الأثيني (Aréopagite) بشكل خاص عن

---

(1) Rép., V fin, 480 a; VI, 505 d.

(2) Enn., V, 3, 11 et 12, 15; V, 4, 2; V, 5, 6; VI, 7, 17 et 24 (τὸ πρῶτον... ἐπέκεινα τῶν δευτέρων καὶ τοῦ διδομένου τὸ διδόν...). Κυριώτερον τῆς οὐσίας...

(3) V, 3, 11; VI, 7, 38 (mais V, 3, 16, il l'opppose comme ’Αγαθόν à l'ἀγαθοειδές); VI, 9, 9: ἀγαθοῦ αἰτία..

(4) V, 5, 12; VI, 9,, 11 et 13; VI, 9, 6.

(5) ὑπέρθεος, ὑπερτελής, ὑπεραρχίος, ὑπέρσοφος, ὑπερλάμπων...

θεότης ὑπερούσιος ، أو، كما يترجمها كانديلاك (Gandillac) [1] ألوهة فائقـــة الجوهرية، تمثل الصفة الأخرى بحق، تلك التي لا يمكـــن لأي ذهـــن إنســـاني أن يتصورها. تفوُّق، تنوف، تجاوز: - هاك بالإجمال ما يلخص كل تعال. لهذا ليـــس المطلق الأفلوطيني إلهاً فقط، بل هو أبو الآلهة، ليس ملكاً فقط بل إنه حَرفيّاً ملـــك الملوك؛ ليس سيد الوجود فقط، أي ماهية، بل هو سيد هذا السيد؛ وذلك الى مـــا لانهاية! تبرهن مزايدات فيلون اليـــهودي وكلمـــون الإســـكندراني (Clément d'Alexandrie)، التي يلمح إليها موريس دوكانديلاك[2]، إن الاندفاع اللامتنـــاهي للروح لم يعد يجد سبباً ليتوقف.

III - وجود أو لا وجود

مع ذلك، وبالإجمال، خدمت ضرورة الماهيات الأبدية اليونانيين في تـــدارك كل سؤال غير مناسب حول الأصل والإعـــدام، أي أن يتجنبـــوا لغـــز الهويـــة (Quoddité) الكبير متحاشين الشبح المزدوج الذي يحمل اسم **في العدم ومن العدم** **In nihilum** و **Ex nihilo**. ترفض الحضوريـــة الإيليـــة، المنفصلـــة عـــن كـــل Épekeïna، أي تُشرف على ذروة اللاشرطي وتفضل أن تحول الفرضية الأكـــثر عمومية إلى أطروحة: فتموه الإيلية غير المشروط المسبب و"الإيجابي" بحق تموهـــه تحت **شرط** "الافتراضي" والسلبي والثانوي الذي بدونه يصير التجريب مســـتحيلاً. أنظروا العناية التي يعمد بها "بارمنيدس" الى عدم طرح إشكال البداية والنهاية، هذا الإشكال الذي كان ليون شستوف (Chestov) قد شعر أنه مأســـاة الميتافيزيقـــا بامتياز: يستبعـــد الحاضر الأيلي لـــ "هذا يكـــون" (Cela est) حـــتى إمكانيـــة الكارثة. فهو لم يكن ولن يكـــون (οὐδὲ ποτ' ἦν οὐδ' ἔσται, ἐπεὶ νῦν ἐστὶν ὁμοῦ πᾶν ἓν ξυνεχές[3] يقول بارمنيدس عن كائنه الكوني، τὸ ἐόν وجود-حـــاضر دون مستقبل ولا ماضي οὐδὲν γὰρ ἔστιν ἢ ἔσται ἄλλο πάρεξ τοῦ ἐόντος فهو بالتالي غـــير

---

(1) Œuvres du Pseudo-Denys (Aubier, 1943): Les Nœurs divins.

(2) 'Αγαθοῦ κρεῖττον (Philon de Juif) ἐπέκεινα τοῦ ἑνός(Clément),cités par M. DE GANDILLAC, La sagesse de Plotin, p. 151.

(3) Vers 61. Cf. 96.

قابل للفساد ولا متولد (ἄναρχον-ἄπαυστον, ἀγένητον-ἀνώλεθρον) [1] ذاك هـــو الكائن المجرد والبسيط (ἁπλῶς ὄν) الذي لا يقدر أن ينبثق من العدم(ἐκ μὴ ἐόντος) والذي من المهم قبل كل شيء أن لا نتساءل من أين يأتي (πῇ πόθεν αὐξηθέν)[2] ولا يقول بارمنيدس بالتحديد أن الوجود هو امتلاء بل يقول إن الكـــل هـــو امتـــلاء بالوجود، πᾶν δὲ πλέον ἐστὶν ἐόντος [3]: مع أنه ليس للواحد، بشكل عام، أيـــة كثافة ملموسة، فإن الكون ممتلئ **Plenum** دون أن يقطعه أي عدم ولا أي فـــراغ فاغر ولا أي انحلال للاستمرارية. وما كان هيراقليطس يقوله عن العالم، معـــرف بنار متحولة: بأنه غير مخلوق وسرمدي[4] يقوله بارمنيدس عن الكـــون المعـــرف كوجود ثابت. هذا التجريب المثقوب كمرغاة كما يظهر لنا، هو في الواقع سبيكة واحدة. ومن القليل التأكيد على أن **الوجود** هو أبدي، باعتبار أنه بالاجمال هـــو الأبدية نفسها: الأبدية المماثلة للضرورة البسيطة والمجردة، وليس الســـرمدية عـــبر التغيير وما دون التغيير وبالرغم من التغير... بهذا الحشو المتضخم لم يعـــد لنظريـــة نشوء الكون أي أهمية، حيث لا يكفي أن يقال: إنها قدرية (ذلك أن القدر، بعـــد كل شيء، لا يثقل إلا على المخلوقات)... هذا هو الوجود معتبرا تحـــت مقولـــة الضرورة "sub specie necessitatis"[5]! فالفيلسوف المشدوه برأس مسخ الـــ "ما هذا" "What is"[6] هو أيضا شأنه شأن ســـجناء الكتـــاب الســـابع مـــن "**الجمهورية**"، مقيد بشدة تبعا لليون شستوف: فهؤلاء أسرى كهف التجريـــب، وذاك أسير صخرة قوقاز الماهيات – مع ذلك يرتكب مذهب أبدية الـــ Ἔστιν [7] البسيط والمجرد هفوة المضي إلى النهاية وإلى العمق: وهو وفق شيلنغ-فلسفة سلبية، أو بعبارة أفضل، تمهيد للسؤال الجذري الذي سيسهل بـــارمنيدس (Parménide) طرحه في تقديمه الوجود على أنه كتلة، أي كل شـــامل وكـــامل οὖλον [8]: في

(1) Vers 83 et 59.
(2) Vers 63. Cf. Simplicius, 78, 24.
(3) Vers 80.
(4) Bywater, fr. 20.
(5) Léon CHESTOV, Athènes et Jérusalem, I, Παρμενίδης δεσμώτης.
(6) Traduction de John BURNET, Early Greek Philosophy, trad. Aug. REYMOND, p. 206.
(7) Vers 35.
(8) Leçon de Plutarque et de Proclus: οὐλομελές. Vers 60.

الواقع، يكفي تغيير دقيق جداً، لكي تعمد أحادية الهوية الباردة، والـ Esti غير المتصدع إلى أن تضع كلية الموجود الجذرية **موضع السؤال**، إلى أن لا يعود أي أمر بديهياً؛ فكرة واحدة صغيرة – فكرة صغيرة جداً ومن يدري إذا لم يكن بـلرمنيدس يقاومها – ويصير الـ Esti بمجمله حلماً... ربما لم يكن المذهب الإيلي كله سوى مؤامرة كبيرة لمنع إدراك هذه الفكرة، وحتى لتجنب إغوائها. لكل كلية شاملة، تعديم مدوخ! دوخة... أو قلق من النوع الذي ربما كان منافس هيراقليطس Héraclite يستعمله، عندما كان يستخدم، قبل هاملت، أداة الفصل أو: ἔστιν ἢ οὐκ ἔστιν. وفي موضع آخر ἢ πάμπαν πέλεναι... ἢ οὐχί [1]. الكل أو لاشيء على الإطلاق... وإن حدث صدفة أن لا شيء على الإطلاق؟ لم يتم الاحتفاظ بهذا الاحتمال، لأن بالضرورة، ومنذ الأبد، تستبعد المعادلة المتحجرة فجوات اللا-وجود: يكفي أن جعله هذا التبسيط الضخم ممكناً، ولفق على الأقل خطره فأولئك الذين يقبلون (رغماً عنهم) إحتراقاً كونياً، يقبلونه لأنه، ليس هناك ما هو أفضل، نهاية العالم تتضمن على الأقل بقاء الوجود: أما نهاية العالم فإنها لا تعود تشكل همّاً مباشراً بشكل عام- لأن كوارث نظريات التكوين الصاخبة تحوّل الأنظار وتسهّل حيلة التردد المتصنعة الاحتشام. والمقصود من الثرثرة، حول الهموم الصغيرة، صرف المحادثة عن الهم الأعظم، غير المعبر عنه والذي يفكر فيه الجميع... بينما يكون الخطر في المكان الكلي والمباشر، لو لم يكن هناك سوى الـ Esti اللامتحرك. ففي التجريب يكون كل تعديم نسبيا، وكل اختفاء يعوض بظهور تبعا للعبة التبادل والتبديل والإنابة ما بين الكونية؛ ورجل التجريب هو من يمكنه أن يقول **أكثر وأقل** μᾶλλον et ἧσσον, ὕστερον ἢ πρόσθεν, γίγνεσθαί τε καὶ ὄλλυσθαι εἶναί τε καὶ οὐχί [2]وله يصير المستقبل (μέλλει ἔσεσθαι) وتغير الأشياء مكانها ولونها (τόπον ἀλλάσσειν διά τε χρόα φανὸν ἀμείβειν)[3]. وأنكساغوراس أيضا، في عدم قبوله إلا الخليط والانفصال، سيجعل من **الظهور – الاختفاء** ظاهرا تقريبيا.

---

(1) Vers 67 et 72.

(2) Vers 79, 108.

(3) Vers 101. Cf. 66. Aussi: 70, 77, 100, ANAXAGORE, fr. 17: τὸ δὲ γίνεσθαι καὶ ἀπολλύσθαι οὐκ ὀρθῶς νομίζουσιν οἱ Ἕλληνες· οὐδὲν γὰρ χρῆμα γίνεται οὐδὲ ἀπόλλυται, ἀλλ' ἀπὸ ἐόντων χρημάτων συμμίσγεταί τε καὶ διακρίνεται, καὶ οὕτως ἂν ὀρθῶς καλοῖεν τό τε γίνεσθαι συμμίσγεσθαι καὶ τὸ ἀπόλλυσθαι διακρίνεσθαι.

وبعد اتضاح سطحية التحولات الفيزيائية التي يرويها نشوء الكون وأيضها، لم يعد هناك ما يخفي عري الوجود المقلق: وإذا حدث أن كان هناك هذه المرة ولادة وفناء، فلن يكون من الأحداث المتفرقة، بل مأساة. تبدو المسألة الجذرية وقد حلت قبل أن تتاح فرصة طرحها أو حتى مجرد التفكير بها: وها إن الحل المعطى يبدو نفسه إشكاليا! في كل حال، يمكن كذلك للإشكال الجذري نفسه أن يكون إشكالا! كان من الأفضل بكثير لفلسفة الأبدي والضروري لو لم تدرس صراحة حشوا، ربما كان المقصد الضمني لهيراقليطس وامبادوقليس؛ إلا أن فيزيولوجي الصيرورة مرا عليه مرور الكرام وكبتوه خلف إشكاليات ثانوية. يريد الفكر إشكالات، كما يريد إقامة علاقات بين المحمول والفاعل؛ يريد الفكر شيئا يتعاطاه؛ ولا يمكنه أن يتأتئ ببساطة **هذا يكون وذاك هو** الى آخر الدهر... فكيف نمنعه من أن يحول إلى إشكال ما هو في كل حال خارج كل توقع؟ لقد رما علم مفارقة الإيليين الفكر في قلب اللغز. والآن أوان قول: أخيرا وجد **القدر** (μοῖρα) قدره الخاص، ومصيره الفائق المصير أو القدر الأعلى، قدر القدر، وسيد سنن الموت... صحيح أن أفلاطون كان يردد بالتوافق مع قدرية هوميروس: حتى الآلهة لا تصلوع المقدر؛ إلا أن كلمات **الأوديسة**: تقدر الآلهة على كل شيء[1] تشهد على أنه ربما لم تكن الكلمة الأخيرة لفكر يتأرجح دون توقف من الحكمة الخانعة الى خرافة قدرة كلية، ومن ثم الإيمان بقدرة-كلية لامتناهية الى الخضوع لقضاء وقدر سلبي تماما. أو ربما ليس هناك من كلمة أخيرة؟ وأن "آخر" كلمة ليست إطلاقا سوى ما قبل الأخيرة أو التي تسبق ما قبل الأخيرة بتأرجح لا تنتهي بين الـ Ananké وDynamis. وأيا يكن الحال فقد ساهمت الإيلية، من دون أن تريد بذلك صراحة (بل هي بالأحرى أرادت عكس ذلك)، ساهمت بوضع الفكر عند عتبة الإشكال الأعلى. هذا **يكون**، من **يكون**. والحال، **يمكن** بالضبط لـ "هذا" أن لا يكون، ليس بالمعنى التجريبي-العلمي حيث يمكن لمعطى آخر أن يوجد دون أي خلف، بل بالمعنى المنطقي حيث يتضمن الـ Esti إمكانية نقيضه **"لا شيء يكون"**. يوجد، في استمرارية التجريب، انقطاعات للصلة، خسائر، توقف واختفاء، تعوض دائما بمبدأ المحافظة أو مبدأ التناقض؛ ويوجد "انعدام" "In nihilum" لا يعوض مثل

(1) Opposer ici: ***Prot.*, 345 *d*** (ἀνάγκῃ δ'οὐδὲ θεοὶ μάχονται) et ***Od.*, X, 306** (θεοὶ πάντα δύνανται).

السلب أو ظل امتلاء ما وراء المنطق (πλῆρες) ؛ هو الكلية المندرجة في الفراغ. وبالتالي، توجد أيضا **مقدرة تجريبية**، مقدرة متدرجة، مجزءة هي مقدرة جزء الممكن الأكثر أو الأقل كبرا؛ **مقدرة ما وراء التجريب الكلية** أي قدرة الممكن كله؛ وأخيرا **كلية مقدرة ما وراء المنطق**، وهي قدرة المستحيل المتناقضة والتي لا يمكن تصورها. كان المقام-الآخر أكثر خلودا من الطبيعة، وأكثر دواما من الشمس، حتى أن لا فناءه أكثر من لا فناء الزمان نفسه: إلا أنه لا يبقى غير فان إذا تمت مواجهته في علاقته مع مقام-آخر-كليا ضمني ينسحب عنه! إنطلاقا من هنا يصير الضروري حادثا، ويصير المستحيل ممكنا بشكل مبالغ وبأعجوبة وبشكل لا يمكن فهمه؛ انطلاقا من هنا يمكن للجبل أن يدخل في ثقب إبرة. أليست النتيجة عينها بالإجمال، أن نفترض الأبدية الجوهرية، وأن نضمر النقيض الجذري القادر على إلغائها.

IV — الـ "Potius-quam"

كان بارمنيدس قد تصرف كما لو أنه ليس هناك أي إشكال مطروح. و لم يعد سبينوزا وليبنتز يرفضان الكلام عنه. لأنه بعد نظرية الخلق المسيحية، وبعد الإرادوية السكوتاتية (Scotiste)، وبعد ديكارت، لم يعد من الممكن عدم طرح الإشكال. للحق، يرفض سبينوزا أن يبرر مخططات الله أو يحثها معنويا، بتعيين "نموذج" "exemplar" أو هدف منفصل "Certus Scopus" يكون هدفه: لأن الإرادة الإلهية لا تتسامح مع "ad quod"[1]، مع "aliquid extra Deum" يكفي مجرد ما قبل وجوده أن يلغي إلهيتها. يتحاشى سبينوزا خطر "beneplacitum indifferens"، لكن ليس ليقع في النزعة الأخلاقية الأخطر من الأول: لا يستبعد سبينوزا، شأن ليبنتز، واقع **الغير** "aliter" فقط بل أيضا مجرد إمكانية هذا **الغير "aliter"**: لأنه يعرف أنه مع الانخراط في إعطاء التشبيهات الإنسانية والمنازع الانسانية في "عدل الله"، والتدخل للدفاع عن قضية الله، لن يعود من الممكن، في النهاية، رفض كلية القدرة لقداسة هذه الإرادة التي لا يمكن سبرها. والحال، هذا هو بالطبع شبح الفلسفة الأولى، الذي يجب طرده مهما كان الثمن. يبقى أن

---

(1) E th., I, 33, et sc. 2. Cf. 17 sc.

الوجود ينشأ عن الضرورة (ex data perfectissima natura)، ليس باعتبار الكمال (perfectissima) كتفضيل متعلق بامكانيات أخرى، بل باعتباره "بساطة (simpliciter) **تفضيل** مطلق: لأن "قمة الكمال" (summa perfectio)، الكمال الأسمى، الكمال المجرد والبسيط، لا يشير إلى أي شيء آخر سوى مجموع الوجود، مجموع لا يمكن القول إنه متوحد، ذلك أن خارجه، وبالتعريف بالذات، لا يوجد شيء. أما هذا الامتلاء التام بالذات، فهو معطى آنفا بالكامل (data): إذن، هو اسم المفعول الماضي السلبي بمقدار ما هو تفضيل مطلق، وبهذا الصدد، ليست الطبيعة المطبعة (naturante) (الخلاقة) بأقل أزلية من المطبعة (naturée). وبناء عليه، لا يمثل "من الأبد: "ab aeterno" و"في الأبد" "in aeternum" لا يمثلان حتى أحد خواص الوجود لأنهما ليسا شيئا آخر سوى استقرار تفعيل الوجود باعتباره حقيقة أبدية. ففكرة سطح آخر للكون، يكون مجموع زوايا المثلث فيه أكثر أو أقل من زاويتين قائمتين، ليست من المحال "absurdum"[1]، **فقط**، بل من المحال كليا "absurdissimum" ، إلا أن فيلسوف النسق الهندسي، لم يكن ليبعد لهذا بسخط "**الفكرة المحالة**"، بمقدار إبعاده انه كان يمكن للأشياء أن تدور في مقام-آخر (alio ordine) لو لم تكن إمكانية "اللازمان" (uchronie) قد مرت بباله على الأقل. تدفع استحالة امكانية **المحال** حركة فكر، داخل النسق الهندسي، كانت الإيلية قد شلتها مسبقا. الله لم يكن قبل قراراته، والقرار (وهو أيضا اسم مفعول ماض سلبي) تم إقراره منذ الأبد، مع ذلك هناك "قرار"؛ dectretum من دون إرادة **تقرير** **voluntas decernens** وإرادة أبدية دون مشيئة. ألا يكشف الـ Esti **الأيلي**، وقد وضع على أنه نفي صريح لكل ما بخلافه المغاير **"aliter"**، ألا يكشف بذلك فعاليته ما فوق الطبيعية؟

أما ليبنتز، فلم يعد لديه **خفــي** "الأصل الجذري" **"l'origination radicalis"**؛ و لم يتردد في كتابة "Series serum potuit aliter esse"[2] "مجموعة يمكن أن تكون أخرى"، والسؤال "الجذري" الذي يطرحه بالفعل هو

(1) Leibniz jugera Absurdissine que la libre volonté de Dieu veuille la vérité de l'existence divine: Textes inédits, publiés par Gaston GRUA, I, P. 433.

(2) Textes inédits, éd. GRUA, I, p. 268.

"cur aliquid potius existat : Plutôt-que أي بـــدلا "potius quam" **quam nihil"** [1]. لماذا هناك شيء بدلا من العدم. ينقسم هذا الـــ-لماذا- نفســه إلى اثنين لماذا، أحدهما جذري على الإطلاق أو قطعي، والآخر افتراضي أو نســبي: لماذا يوجد شيء ما بدلا من لاشيء؛ إذا لزم أن يوجد شيء، فلماذا على هذا النحو بدلا من آخر مغاير ("sic potius quam aliter"): مثلا، لماذا ربح قيصر و لم يخسر معركة فارسال (Pharsale)، لماذا حرر Rubicon بدلا مـــن أن لا يحـــرر[2]. في الواقع، ليس هناك من جواب على الـــ - لماذا الأولى: "وقد طرح لمرة أن الوجـــود يغلب على اللاوجود..."، "posito semel ens praevalere non-enti" (حـــين نفترض أن الوجود يغلب على اللاوجود)[3]؛ "Si ponamus decretum esse ut fiat triangulum" يجب أن يكـــون هنـــاك مثلـــث بشـــكل عـــام"؛ "Posito tendendum esse a puncto ad punctum"[4] ... يجب أن يكون هناك نقطـــة كذلك يجب أن يكون هناك مثلثات بشكل عام، وأن يكـــون هنـــاك حركـــة في الطبيعة. وإذا لم يكن هناك من حركة ولا من مثلث؟: لا يجيب ليبنتز على هـــذا السؤال إلا بالسؤال نفسه: يوجد "dispositio ad existendum potius quam non existendum" (استعداد نحو الوجود وليس نحـــو العـــدم): "ratio major existendi" (سبب رئيسي للوجود). هذه هي المصادرة على المطلوب الجوهريـــة: "Aliquid potius existit quam nihil" "يوجد شيء وليس العدم". وأيضا "Est Existentia praevaleat non-Existentiae" ergo causa cur" (هـــي ســـبب العلة، الموجود يغلب على اللاموجود)[5]. وما هو "سبب العلـــة" "Causa cur"

---

(1) COUTURAT, p. 533. Principes de la nature et de la grâce, §7. De rerum originatione radicali, éd. Gerhardt, VII, p. 303, 304, 305. GRUA, p. 16: "cur haec potius rerum series existat quam alia quaevis". "Plutôt que": Jules LEQUIER, La Recherche d'une première vérité (Paris, 1924), p. 112.

(2) Causa Dei, 36: "ratio… cur Deus malum permittat potius quam non permittat". A opposer à Pascal, fr. 194, 205, 208.

(3) De rerum originatione radicali, VII, p. 304; GRUA, p. 17.

(4) De rerum originatione radicali, VII, p. 304.

(5) COUTURAT, p. 534; GRUA, P. 16-17, Elementa verae pietatis. Elementa philosophiae arcanae de summa rerum (Jagodinski, Kazan, 1913, p. 28).

هذه؟ بعض من "قوة الوجود" "existendi vis" أو (ميل الى الوجود) propensio ad existendum" الذي كـــان ليبنـــتز يســـميه أيضـــا **ضـــرورة** (Exigence) و"Prétension" الأقرب الى الخاصية المنومة منها الى العلة المفسرة! الله هو "الواحد" (existentificans). هكذا سيصير هناك شيء ما، ويكون التناوب بين: وجـود-أو لاوجود مكرسا بشكل حاسم. هذا هو الحد الأدنى الذي لا يمكن تفسيره، والبقيـة التي لا تختزل لاسم المفعول الماضي السلبي الذي تحتاجه الميتافيزيقـــا كمعطـــى أو مسلمة لتمضي قدما: إذ انطلاقا من potius quam nihil" من الأفضل العدم" غـير المبرر يمكن تبرير الواقعة الأجد لـــ "من الأفضل الآخـــر potius quam aliter". وهكذا هناك المسلم به! أي إنه ما إن يتموضع هذا **positum**، وأولا الوجـــود، وهو الشيء المتوضع بامتياز، بعد إقرار القرار وعندما يكون الـــ "ليكن le fiat" قد صار واقعة "factum" تستطيع التحديدات اللاحقة أن لا تشرح الوجود قط بـــل طرق وجود الوجود؛ وليس الفاعلية قط، بل كيفية الحركة والمثلث. هكذا، فكـل شيء قد قرر، كل شيء قد أعطي، كل شيء قد تموضع؛ وحسم الجوهري وقـرر؛ و لم يعد ثمة وقت للسؤال إذا كان اللاشيء "أبسط وأسهل من شيء ما"[1]. وبعـد يصير إشكال الأصل "originatio" الجذري إشكالا للتمويه. فنرى، أنه ما إن سنح الوقت بصياغة الـــ ـــ **لماذا** ـــ الجوهري حتى كان قد أقفل بالـــ "لأن". يبدأ الكل إذن بـــ "نعم". إلا أن هذا بالضبط ما يجعل مـــن الــــ "potium quam" مـــن "بالأحرى" موضعا للنقاش، ولن يستطيع أحد بعد ذلك منع شوبنهور من قـــــول (كأنما طلب رأيه في الخليقة): من الأفضل لو لم يكن هناك شيء! - معالجا السؤال الثاني، يبدو ليبنتز منهمكا بشكل خاص، بإعادة الـــ **"لأن"** إلى وجهها الصحيـــح بعدما قلبها بشكل فاضح أولئك الذين يجعلون الحقائق الأبدية متعلقة بـــإرادة الله العشوائية: ليس الوجود طيبا لأن الإرادة الإلهية خلقته، بل بـــالعكس، إن الطيبـــة الإلهية، وهي عدالة وحكمة، اختارته لأنه بين كل الممكنات هو "الأفضل". يعيـــد العلم الإلهي إذا، تكوين الدافع الإلهي الذي يشكل دائمـــا خيـــارا عقلانيـــا -ex" ratione" ... فالمقصود، بالإجمال، إذن تبرير "ماقبل" "prae" الإيثار والانتشـــار رافعين من شأن "المجد" الإلهي، بمعنى التوازن والقوام المندرجين في إمكانيات رؤيـــة

(1) Principes de la nature et de la grâce, §7.

كافة الخليقة؛ المقصود تبرير أسباب تسبيح المخلوقات لخالقـــها! أليـــس النظـــام والجمال أنماطا ثانوية للوجود المتموضع سابقا؟ وهكذا ولتحاشي "تشـــبيه الإلـــه بالإنسان" السوسيني أو نصف-السوسيني، و، أكثر، ليتحاشى "استبداد" ديكـــارت وبيار بواري (Pierre Poiret)، إنقاد ليبنتز ليقلب نظام الحس المشـــترك نفســـه: العظمة والمقدرة magnitudo وpotentia في خلـــق "jam constituta" وطيبـــة وحكمة Bonitas وsapientia [1] في خلق المكون "constituenda". وتفـــترض أخلاق الفيزياء التي جهد ليبنتز ليجدها، وفكرة الخيار الممتاز نفســـها، تفـــترض وجود علاقات عقلانية يسبق وجودها هذا الاختيار. بالطبع كلا، لا يقدر الله على كل شيء! وخصوصا: لا يستطيع الله أن يخلق ما هو متناقض؛ فالخـــالق الكلـــي القدرة "facere potest quod non implicat contradictionem" "يعمل من غـــير أن يتضمن ذلك تناقضا"[2]. ذاك ما يكاد يكون- كلي- القدرة- الذي قد يقـــال بالأحرى إنه متعدد القدرة، لأنه ليس "كلي-القدرة" إلا في مقـــام الموجـــودات الحادثة؛ لأن هذا الله القدير جدا ليس **كلي**-القدرة بدقة. لأن في استطاعته كـــل الممكن ما خلا المستحيل! لنقولها بكلمة، كل ما هو ممكن، ممكن له. يقدر الله على كل ما يسمح به مبدأ التناقض، الـــذي يمنع بعض الممكنات من "الوجود معـــا"، لأن إمكانية-معية ممكنات متناقضـــة فيما بينها، أي كل منها ممكن على التـــوالي، ولكـــن غير ممكنة معا، أي ينفي كـــل منهـــا الآخـــر، أي متناقضـــة، لا إمكانية-المعية هذه هي بالضبط **المستحيل**. الله علـــة وجود الطيبين، ولكنه ليـــس علة ماهية الطيبة؛ إنه علة وجود "مثلث" في مكان ما، ليس علة وجود "المثلثيـــة" (triangularité)؛ وخصائـــص المثلث ليست امتيازا منحه لهذه الصورة. بعد ذلك، نحن أحرار في ادعاء أن مكـــان هذه الخصائص هو في فاهمته، أن "بلاد" الماهيـــات بالإجمال هي الله نفسه...: يجب تـــأليه المنطق بحيث إن الله يجـــد فيـــه، وليـــس خارجه، حـــدود مقدرته-الكلية الخاصـــة؛ لكن ليكون داخل الله، فإن هذا الحـــد لن يكون بـــأقل من ذلك خـــارج إرادة الله، - فقط تم دفع الصعوبـــة. يقـــول ليبنتز، الله ليس علـــة عقلـــه الخاص "neque Deus intelligit quia vult, sed

---

[1] Le Causa Dei (Gerhardt, VI, p. 439) oppose Potentia et Sapientia comme attributs de Magnitudo à Justitia et Sanctitas comme attributs de Bonitas. Mais: VII, p. 305.

[2] De libertate, fato, gratia Dei, GRUA, p. 307.

"quia est"[1]. ومن المصير المنطقي - الميتافيزيقي الذي يُلْحِقَ به، سيمتنع الله عن القيام بكل ما يريد. - وإذا انتقلنا الآن من مقام الماهيات إلى مقام الموجودات والضرورة الميتافيزيقية التي يستتبع نقيضها تناقضاً مع الضرورة الإفتراضية ذات النقيض الممكن على الأقل، فسيظهر الله كلي-القدرة "فرضياً" (ex hypothesi) في الحدود التي تفرضها عليه ضرورة مطلقة "بالتعريف" (ex definitione) أو (ex terminis) . بالنسبة إلى الحقائق الضرورية بالمطلق، لا يستطيع الله، كما أنه لا يريد كل شيء: فهكذا لا يقدر أن يعطي للمثلث أربعة أضلاع؛ وبالنسبة للحقائق الحادثة فهو يقدر على كل شيء، مع أنه لا يريد كل شيء: هكذا، كان بإمكانه تحقيق مجموعة ينجو فيها الكافرون ويُلعن فيها الأبرياء، إلا أنه لم يشأ ذلك. لأنه إذا لم يكن الله قادراً على المحال، فإنه قادر بالتأكيد على الفضيحة، مع أنه لا يريدها، أو يريدها بحدها الأدنى على الأقل، أي أنه يسمح بها كأقل شر أو شر لا بد منه، وكشرط لعالم مقبول. في الحالة الأولى، ليس لديه القدرة الكلية ولا المشيئة الكلية، وفي الثانية لديه القدرة الكلية ولكنه لا يملك المشيئة الكلية؛... هل يملك، في الواقع، وهنا بالذات، هل يملك القدرة الكلية؟ في مسودة نادرة يشير غاستون غرويا (Gaston Grua) بحق إلى فائدتها[2]، وتبدو نصاً فريداً في نوعه، يحاول ليبنتز استبعاد هذا القصر الجديد للمشيئة الإلهية "Deus cur perfectissimum eligat nulla potest reddi ratio quam quia vult seu quia haec est prima voluntas divina perfectissimum eligere"، "إن الله الكلي القدرة قد اختار، وليس من عقل يستطيع أن يُعبر عن كمال المشيئة الإلهية الأولى". إن "القرار الإلهي الأول" "primum divium decretum" هو ماقبلي لا يمكن البرهنة عليه، قضية أولى شأنه شأن المسلمة أ هي أ. وهذا (سبب) الإحراج فإما العِلية الدائرية وإما النكوص الى مالانهاية الذي يحجزنا فيه السر الإلهي **(Arcanum)** ؛ فإما علينا أن نقول، بطريقة الحشو أو الحلقة المفرغة: يشاء الله لأنه يشاء، باعتبار أن علة اختياره "مشيئة ضمنية"؛ وإما يجب المخاطرة بالنكوص نحو الاعتباطية الإلهية التي لا يمكن سبرها: "Deus enim vult velle... et vult voluntatem volendi, et ita in

---

(1) Confessio philosophi (Jagodinski, Kazan, 1915), p. 16. GRUA, p. 15-16, et 304 (De contingentia);; "major existendi quam non existendi ratio".

(2) GRUA, Réflexions sur Bellarmin, p. 301-302.

infinitum, ... et decrevit decernere" إن الله يشاء ما يشاء، ويشاء حسب مشيئته وذلك إلى ما لانهاية...". إلا أنه لن يعود التمسك بإرادة المشيئة يفيدنا بشيء ما إن نجعل موضوعها الكمال الأسمى، التام الكمال (perfectissimum). مما لا شك فيه أنه قد يبقى في جعبة ليبنتز إمكانية الرد بأن ضرورة اختيار الأفضل هذه، غير المنطقية إطلاقا، بل الأخلاقية هي الحرية بالذات... ولا يعود هناك، بعد ذلك، إلا الصمت. والحال، من لا يرى في ذلك تعميدا للصعوبة، وليس حلا لها؟ والمحصلة أن ليبنتز يعترف بنفسه بذلك: "Perfectissimum sapientissimo non potuit non placere, at quod placuit potentissimo non potuit non existere" [1]. أيا كانت اللغة المتكلمة، تتعرض الإرادة الإلهية للإغراء الموضوعي لما هو "الأفضل"، بموجب ضرب من الانحراف الأرسطوطاليسي اللاهوتي. وهاك كيف تصير إرادة الخير السابقة في الله إرادة متساوقة أو مقدرة[2] للأفضل: بإرادة سابقة يريد الله خلاص كل المخلوقات، بإرادة لاحقة يسلم للعن بعضها، بإرادة مبيحة ناتجة عن هلعه من الخطيئة، يقبل بواقع الخطيئة: وبضربة يريد كتل الواقع، وسلاسل الأحداث "series" "متواليات" المشتملة على الشر والفضيحة والعذاب؛ يشاء أكثر مما يريد، يشاء ما لا يريده: وباختياره "المعرفة" "notio" فإنه يختار بالضربة عينها الحزمة كلها مشتملة على الجرائم والمصائب؛ فيحقق الخير إذن على الإجمال (summa) أو، كما يمكن أن يقال ὅσον δυνατόν. فالله، في صراعه مع غير الممكنات معا يعمل الأفضل، وأفضل ما يمكنه وللأفضل-، وهذا أسلوب للبقاء بين اللاشيء والكل؛ ففنه هو تدبير يصارع العوائق التي لا يمكن تفاديها، المكان الضائع، والإكراهات المتنوعة... وليس هناك معنى آخر للمبدأ الاقتصادي الأفضل، والأقصى والأكثر، وما "التفاؤل" بهذا الصدد سوى فلسفة ثانية لذروة النسبي: وبما أنه يتم تعريف هذه الأخيرة بالنسبة الى لغز الضرورة الميتافيزيقية التي تعيق تحقق كل الكمالات دفعة واحدة، فإن التفاؤل الأخلاقي والمشرع يبرز، كما برهن ذلك جورج فريدمان على خلفية التشاؤم[3]. **فالوجود الإلهي** (Être divin) محدود إذا

---

(1) GRUA, Elementa verae pietatis, p. 17.

(2) Causa Dei (VI, p. 442-443), oppose Voluntas prævia ou inclinatoria et Voluntas finalis ou decretoria.

(3) Voir le beau livre de Georges FRIEDMANN, Leibniz et Spinoza (Paris, 1946).

مرتين: في قدرته (Styx) الضرورة الميتافيزيقية، وبإرادته بجاذبية الخير. الأول هو ما يجبر الإرادة اللاحقة لتصير إرادة متساوقة، وإن تخفف من غلوائها وان تريد **الأفضل** بديلا عن الخير مضحية تجاه القدر بالفرق بين هذا وذك؛ والثانية هي ما تحد بشكل عام إرادة الخير السابقة وتميل بها نحو العطف. لدى الله إذن إرادة أخلاقية توجهها الضرورة الميتافيزيقية، وقدرة معرقلة ميتافيزيقيا يستقطبها الخير، موضوع المشيئة الأخلاقي، أو يعدلها. ينجم الأفضل الذي تريده الإرادة المتساوقة عن مزيج من القوى: جاذبية الخير للإرادة، مقاومة الضرورة الميتافيزيقية للقدرة، بماذا بعد، يفيد الكلام عن "المشيئة المريدة" (Voluntas volendi)؟ ليس هناك من "لأساس" (Ungrund) إلهي، ليس هناك سوى قيم في ذاتها، الحق في ذاته، الأفضل في ذاته، ما يجذب أعدل الإرادات وأعقلها. فالأفضل هو، بالإجمال، سبب الإيثار الوحيد "الكافي" بالمطلق، لأنه وحده الذي يفسر: لماذا العالم هو على هذه الحال بدلا من حال أخرى[1]، (بالأحرى مغاير) (potius quam aliter): أخيرا، يمثل النكوص-المزيف إلى ما لانهاية لـ Ananké sténaï، الذي هو، في كل الأحوال، هم ليبنتز الأكبر - هكذا لم تكن الـ "لأن" (le Cur) اللاليبنتزية سوى خدعة. فليبنتز هو المحامي البرجوازي عن الموجود، تبريره هو هدفه الوحيد بعدما تظاهر بوضعه موضع السؤال: مبينا، بتأويلاته الباطنية حول الشر، أن غير مفروغ منه هو مفروغ منه، مفسرا الموت على أنه تغليف، ملتقيا النظام والمعقولية إلى ما لانهاية، اللامتناهي، وفي عدل الله، بعد مداورة، يلتقي امتلاء الاستمرارية، وتنتهي بالإجمال، هذه الفلسفة الأولى بالمزيفة، حيث كانت الإيلية[2] قد ابتدأت: وكانت الإيلية قد بدأت من الاستمرارية التي لا بداية لها. وينتهي ليبنتز بتبرير وإعادة تأهيل لحظة معترض عليها من الـ Esti، وكذلك باستبعاد، أخلاقي، هذه المرة، لكل مغاير (Aliter)، ولكل "خرافة" (fabula) أو تخيل حول السلاسل الأخرى الممكنة. لقد دفن المغاير (Aliter) نهائيا... لكننا خفنا!... هل يستحق هذا الالتزام المتثل لتفضيل العالم الحاضر كل هذه الميتافيزيقا؟ وألم يكن سبينوزا، بناء عليه، أقرب إلى الإله الديكارتي؟

---

(2) Monadologie, §32; Discours de Métaphysique, § 13.

(3) Monadologie, §61; Principes de la nature et de la grâce, §3 : "... comme tout est plein...".

الفصل الثالث

في الموت

هنا مقام قول: يُعمي "جوبيتر" من يريد خسرانهم. ويتفنن الوعي–التعيس المرتاح المتفائل في طرح الإشكال الذي هو أقل ما يرغب في طرحه، وساعياً وراء ما يقيه القلق، يبرر في نهاية مبحث الإلهيات "الراحة في ذاتها acquiescentia in se ipso" التي تنجم، تبعاً لسبينوزا[1]، عن العقل تلقائياً. وإذا أنهينا ولمرة واحدة سوء الفهم، سوءَ الفهم هذا الذي تتفق الضرورة الميتافيزيقية، والانجذاب نحو الأفضل؛ وترجيح الوجود على اللاوجود بشكل عام، تتفق على دوام السؤال عن الأصل الجذري مع إبقاءه على سطح الوجود؟ كنا نميز بين استمرارية التجريب واستمرارية ما وراء التجريب، تلك التي تتابع تواصل البرزخ (الفاصل) من خلال الظهور والزوال، وهذه التي تنهي الاستمرارية الصامدة بإنابتها المؤقت بِرُدَح تجريبية، وبتضمينها للتقلبات بالأبدية الجوهرية. ويقصد من الاستعانة بالمادة غير الموجودة، تجنب مأساة مزدوجة: مأساة الموت، الذي يفاقم بشكل خطير استمرارية التجريب المفتقدة، ومأساة التعديم الكلي، الذي يعريه امتلاء الـ Esti وضرورته بالذات، الذي كان يدعي حجب هاويته عنا. وفكرة، الفلسفة الثانية أو المؤبدة، التالية المبطنة وغير المعلنة، هي، مع استدراك كل حشرية متطفلة، تمويه العدم الأخروي وتعويض النهاية الكلية؛ هي، مع المجازفة بتسهيل الانعدام الشامل الكبير، نفي هذا التعديم المدجن الصغير المسمى الموت. كان العقل والرياضيات يعترضان على زيف–البداهة التجريبية للانبثاقات والتراجعات، لعودة البدايات والنهايات: بدوره، يعترض الموت على هذا الاعتراض؛ فالموت يعيد الاعتبار للظاهر ولأفكار الرأي المسبقة التي كان اللوغوس قد هفتها؛ يقاوم الموت النقد الذي يمارسه العرفان على الصفات "الثانوية"... بالطبع كلا، ليس "الظاهر" الفاني حلماً، هو من يلغي الإدراك بشكل عام، في الوقت عينه الذي يلغي فيه الذات المدركة، هو من يضع

(1) Éth., IV, 52; III, Afectuum definitiones, 25.

موضع السؤال ليس أنماط الاستشعار فقط بل الوجود الكلي واللا-وجود الكلي! وبينما ينشغل ما وراء التجريب في تجبير أبدية الماهية على انقطاعات الوجود أو حجبها أو تضمينها، فإن المأساوية المميتة، بتعميقها فجوات التجريب، تجعل من الصعب متابعته، وتزيد هشاشة جسور الثلج التي تغطي تصدعاته. وسيجاب بالتأكيد أن الموت، وهو ليس عدما مطلقا قط، بل هو جزئي وتجريبي، لا يقطع أبدا الحتمية الطبيعية: إذ تتابع الأمور مجراها بعد موت أحدهم، ليس فقط دورة الفصول، بل وأيضا أشغال البشر تستمر في البرزخ كما لو أنه لم يحدث شيء ... يبدو أن النوع يحرص على استبدال الموتى بخلفائهم، وعلى استمرار احتلال الأماكن التي شغرت: هكذا تعوض إعادة الولادة[1] وتحيد مفاعيل الموت في الوقت عينه الذي تؤمن فيه، مهما كان الثمن، ثبات الاحصاء الكلي للسكان... ويجنب تساوق موت-انبعاث الفيدوي، (ἀποθνῄσκειν-ἀναβι- ώσκεσθαι) (موت-حياة) بموازنته الولادة بالموت، وبمقايضته الأموات بالاحياء، يجنب الانسانية قصور الوهن النهائي، ويحول موت أحدهم الى فراغ مؤقت، يمتلئ ما ان يفرغ شأنه شأن تعاقب ضابط[2]. ونعرف مبلغ عناية مذاهب كلية الحياة وفلسفات التقمص لتخفف الموت في أوقيانوس التحول الكوني! ليبنتز، المشغول بخلع الموت، حتى يجعل منه ظاهرا، كيف لا يجد نفسه في هذه المواعظ المثالية مع "فيدون" وحتى مع الحكمة الأبيقورية؟ ولا يؤثر الموت بشيء في زمان التجريب اللامتناهي فقط، بل إنه أيضا لا يمس أبدية اللوغوس اللامتناهية: تبقى المسلمات والفرضيات صحيحة رغم موت الرياضي الذي فكر بها، وتبقى الحقائق الأبدية عموما، حقائق خالصة، باردة وخارج فساد الوجود التاريخي، تبقى حية بعد حدث-تافه حتى لو كان عارض صمام أو إغماء، لأنه إذا كان الحدث التافه يصعق الفاعل المفكر فإنه لا علاقة له بالفكر. لا تهفت واقعة الموت، مع أنها تبدو مؤكدة للااستمراريات التجريب، لا تهفت حقائق لا تدحض، لا تهفت بحصر المعنى تهافت البداهات-المزيفة؛ لقد تم البت نهائيا بعلة الوهم، ولا يدل حزني الشخصي على أن الرياضيين على خطأ، ولا أن مغفل التجريب هو في النهاية على صواب. كلا، لن يتغلب سجناء الكهف

---

(1) Phédon, 71 e, 72 α: ἀνταποδίδωμι.

(2) ἀντιπερίστασις.

البائسين على الرياضيين بحجة أن موت بيار أو جاك يعيد وضع كل شيء موضع السؤال! ليس هناك مجال للرجوع الى هذه المسألة[1] - ليس من مجال للرجوع... مع ذلك يكمن تناقض الموت الغامض، ولا عقلانيته المعقدة في أن الحقائق الضرورية تبقى مشروعة رغم الموت، مع أن عبثية الموت العميقة، بمعنى آخر **وفي آن واحد**، تنكرها. أخيراً هوذا اللغز نفسه: لا يظهر كيف تكون الحقيقة أقل صواباً بحجة أن حاملها سيموت؛ مع ذلك، فإنه لواقع أن بداهة الموت- وهي بداهة لا تنكر تُعَرِّضُ الى حد ما، وتخفف بشكل مبهم ضرورة الحقيقة الضرورية. سيكون من البساطة المفرطة لو يختفي التناقض مع جلاء العلم (mathésis)! ولا يكفي قول إن نفي النفي يؤدي الى شيء آخر غير الوضعية الأولى- ذلك أن الموت ليس نفياً للنفي، ولا يفرض بالتالي بعث "الأطروحة" ولا تشييد توليف يعيد نشر الأطروحة بتوسط نفيها . لن تختلف الحالة الأولى عن **الوضع القائم** (statu quo): الانقلاب من **الضد** الى الـ **مع**، أو انقلاب رقم اثنين يفكك انقلاب الـ-مع الى الضد، أو انقلاب رقم واحد، هو تساوقه معكوساً، ويلتقي الـ **مع** الحس المشترك من فوق رأس **الضد**؛ والحال، فإن انقلاب الانقلاب، لاغياً ما كان قد ألغي، يساوي ببساطة إعادة الأمر الى نصابه، بالطبع ليس في هذا المعنى الساكن ما يمكن أن يقال: قليل من الفلسفة يقصي عن الحس المشترك، والكثير يعيدنا اليه. ما من أحد يمكنه أن يتصرف كما لو أن نفي الأطروحة لم يمر على الأقل من هنا! عندما يتخطى باسكال مثلاً، متجاوزاً مفارقة "المادة الدقيقة" العقلانية، يتخطى "الحكم المسبق المكتسب" الذي يفرض الامتلاء ليؤكد بداهة الفراغ الأولى، لا يجد إطلاقاً عند وصوله ظاهر الحس المشترك: مع ذلك لا يبرر التجريب الفائق، والإيجابية العليا اللذان توصل اليهما، الانقطاع الذي كشفه التجريب العادي؛ فأبعد من أن تحكم الفلسفة الأولى للفلسفة الثالثة بأكثر مما للفلسفة الثانية وكأن مفارقة الاوالية لم تكن لحظة جدل ضرورية، تتجاوز فلسفة البداهة المستعادة هذه، باستدماجها، اللابداهة العقلانية وتكذبها. والحال، لما كان الموت ليس مفارقة فائقة تلحق بالعقيدة (Doxa) كما هي بالغاء المفارقة على أنها لم تكن، كذلك فالموت ليس بأكثر منه

[1] Léon BRUNSCHVICG , De la vraie et de la fausse conversion (Paris , 1951) , p. 154- 155.

مفارقة تهضم المفارقة في توليف أعلي يشكل عقيدة مفارقة أو عقيدة من الدرجة الثانية... كان ما وراء التجريب يُكذّب التجريب دون أن ينفيه جذرياً، لأنه يستخرج من الموجودات أهم ما فيها، بنيتها المتينة إذا صح القول: يبرره بمعنى ما، بتصويبه وانعاشه. أما الموت، فهو يبقي جنباً الى جنب التجريب وما وراء التجريب: تجاور حقيقة الموت حقيقة الماهية دون أن تغنيها جدلياً وبدون أن تميزها بفارق مستجد، ودون أن تندمج معها بحقيقة أشمل تتوغل فيها أبدية ما وراء التجريب وعبثية الموت ماوراء المنطقية؛ ليس ثمة توافق، بل ثمة تصادم، لا توجد دفعات أو متتاليات لحقيقةٍ واحدة تمضي، بل هناك حقيقتان مفككتان ومتناقضتان، مع أن كلاً منهما معاً على صوابٍ. إذن ليس ما وراء المنطق إطلاقاً بتجريب ما وراء تجريبي، ولا ما وراء تجريب تجريبي، بل هو بالأحرى معية-تواجد معقد لـ ماوراء تجريب لا يُدحض مع تجريب لا اعتراض عليه. تشتُّتُ الحقائق هذا هو بالذات منبع المأساوي، أي خليط العبثية والبداهة البخس هذا، والاستحالة والضرورة، كل هذه الأمور، التي تميّز الموت.

I – مبدآ الحفظ والتناقض الكاذبان

يقال، الموت فصل صغير جداً على سطح الطبيعة الأبدية، حادث-تافه في الحياة الكونية الكبيرة... لكن توقف! إن هذا العارض لهو لغز عميق ومأساة جسيمة؛ هذه النهاية الخفية لبرزخ السيرة هي لحظة تبجيل، أو بالأحرى يجد الذهن نفسه ممزقاً بين حقيقتين لا يُعترض عليهما معاً وهما مع ذلك متناقضتان: شباب الطبيعة الأبدي، وشباب الفرد الذي يستحيل استعادته، وبشكل ما، يسخر تجدد الربيع السنوي الذي لا يكل ولا يهدأ يسخر من قلقنا الثقيل على مصيرنا. ومن المعروف أن هذا التناقض الغامض كان دائماً أحد أهم مواضيع الوجدانيات الكونية: تُنكر مأساوية مصيري التفاؤل الديموغرافي؛ تارة يبدو الموت الفردي شبحاً مضحكاً في فيض حياة الرعب أو الكون، وتارة الحياة الفردية هي التي تبدو كعوامة ضائعة في اوقيانوس اللاوجود. وبدءاً ليس هذا الإلغاء الجزئي، أي موت واحدهم، ليس مجرد انحلال لخليط ستعود عناصره الى المجموع قبل أن ترتسم في تركيبات أخرى. فالجثة "غنيمة"، من كان قد عاش، تدوم في الفضاء الجسماني...

لكن الــ-ما-لا-أعرف -ما - هو je-ne-sais-quoi، الذي يجعل من هذا الجسد هويَّة حية وواعية وحميمة لذاتها، ما الذي صار عليه هذا الــ-ما-لا-أدريه؟ مهما يكن لن نلقى الحل هنا، ومهما جهدت الفيزياء-الكيميائية يبقى مبدأ الحفظ ناقصاً بشدة: فالموت هو اختفاءٌ إعجازيٌّ، شعوذةٌ، سحرٌ. تضيع الهويّة دون أن تترك أي أثر، ذلك أن الهوية، وأبعد من أن تكون جزءاً من كل، هي كل بنفسها، جرم صغير عضوي، وكما يقول ليبنتز، بلغته المونادولوجية "كلية مصغرة". فالموت، الاعدام المصغر للكلية المصغرة، عميق إذن عمق الاعدام للكل الكبير: بالرغم من ذلك، ثمة فارق، يتم الاعدام بالموت بالواقع يومياً، بينما الاعدام العام هو وهم مضخم و"افتراض مستحيل"؛ الموت، هو ما لا يُتَبين، ويجب، ومهما كلّف الأمر، تمثله لأنه واقعٌ في كل لحظة! ها هنا لغز ما فوق الطبيعي والذي هو واقعة طبيعية وتاريخية-تجريبية... أليس القول **بانعدام تجريبي** إي بمعنى إلغاء اليس فكرة متناقضة وتحالف كلمات مبهمة؟ إن الانعدام الصغير لأنه لاشيء ليس للكون، بل لشخص، (وهو بعد كل حساب، كوّن على طريقته imperium in imperio) ليس بأقلّ إعجازاً من الانعدام الكبير؛ كما أنه السحر بامتياز، تجربة يومية يتم التحقق منها باستمرار! لو كان الموت فجوة عابرة في التجريب، لكانت الضرورة الجوهرية تكفي لإعادة وصل ما انقطع من النسيج... والحال، فإن من قضى موتاً ليس كوناً لذاته فقط، إنه أيضاً **صيغة نادرة**: إن الظهور المحيِّر الفاعل لمرةٍ وحيدة والذي نسميه هذيّة هو ما يصنع الاختفاء المحيّر الذي لا يعوض ولا يستبدل الذي اسمه الموت. كيف لا يمكن أن لا يقدر بثمن، وذا القيمة التي لا توصف هذا الــ "أحدهم" الأكثر من نادر والذي لا مثيل له في الكون وإلى الأبد، أحدُهُم هذا والذي في جميع الأحوال لن يحل محله أحد؟ خسارةٌ لا تعوّض، حزن لا عزاء له. ما ان تصير الهذيّة هي الكل، حتى لا يعود تفاؤل ليبنتز بــ "الإجمال" (in summa) يعزي العاقل لأن مصير طفل صغير يوازي بأهميته مصير توازن النظام الشمسي العام: ويعترض علم الحساب المجنون لكلٍ من "برغسون" و"إيفان كارامازوف" خفيةً ضد المنطق النفعي، الذي يفضّلُ الأغلبية على الأقلية، والإجماع على الفردية - يكذّب الموت مبدأ التناقض بالخشونة عينها التي يكذب فيها مبدأ الحفظ. يُقال أن الموت هو نهاية الوعي المُفكِر وليس إطلاقاً انهيار الحقائق المفكرة. إلا أن الفكر

الذي يُفَكّر به Cogitatio cogitans، هو، على طريقته، حقيقة أبدية، حقيقة- أبدية-تموت-يوما-ما immortalis moritura - هذا هو تناقض الهذية المفكرة الساخر! من جهة (كون فعل الفهم بماهيته هو أبعد من المكان والتاريخ ولامتناه في مداه) يفكر التفكير أبدياً وكونياً في منحى ما، ويقيم علاقات ضرورية ومثاليّة ومقبولة بشكل مطلق، وهو بذلك عقل لازمني ولا شخصي، التفكير المُفَكّر هو ماوراء التجريب، وهو بالتالي ما وفق طبيعي. ومع ذلك فهذا الفكر الذي يفكر الموت، ويعي الموت، ويضع نفسه أبعد منه، ويتجاوزه ويحيا بعده، هذا الفكر ينتهي بدوره بالموت. بالتعارض مع مهمته الخاصة، التفكير هو فعل زمني مرتبط تاريخياً بكائن حي، أي بإناسة، بمرض وبعلم جسد **المتعضي**. فضمير المتكلم الأول في "أنا أفكر" الديكارتي ليس مجرد حادث من قواعد الصرف، إذ يبين أنه إذا كانت الحقيقة الأولى حقيقة أبدية وترادفية، فإن اكتشاف هذه الحقيقة ليس حقيقة بذاته، بل إنه حدث، تجربة تحدث في حميمية تأمل مفكر نتيجة جهد؛ يتجسد فعل التعقل مافوق التاريخي بلحظة وفي ظروف كان "باسكال" يتسلى بالتشديد على طابعها العرضي والتافه. لا تموت الحقيقة التي فكر بها بصفتها معقولة أو اسم المفعول السلبي، وتنعدم بغموض الحقيقة المفكّرة تحيا أبدية-الماهية الأبدية على الموت كما كانت سابقة الوجود على كل ولادة، إلا أن الأبدية-الفانية، إلا أن لغز المُفَكِر الذي يتجسد في أحدهم "سيزول، في أحد الأيام، في اللاوجود كما انبثق منه ذات يوم". أليس لإبطال الهذية دائماً شيء ما غير ناضج ومجاني وغامض؟ تطابق معجزة الموت بالضبط لغز الصيغة النادرة الشخصية .

II - علم الاسرار

الموت كشف للحكمة الأولى، وليس، كما في حكمة الموت لـ "فيدون"، للحكمة الثانية أو ما وراء التجريب. يفرض علينا الموت مفارقة فائقة لكلية ما وراء منطقية، وأسرارية بالدرجة الأولى، تصدم مرتين. وإذا كان الموت، تبعاً لـ "غابرييل مارسيل"، سراً، فذلك ليس فقط لأن من يحاول أن يفكر فيه، وهو متورط شخصياً بالأمر، هو نفسه أول جاهلٍ بالموضوع: بحيث أنه لا يتم هنا احترام الشرط الجوهري لكل معرفة، وهو أنَ لا نكون عنصراً من عناصر الإشكال

المطروح، في لحظة طرحه على الأقل، بأكثر مما لا يتم هنا احترام التمييز المعرفي بين الفاعل والموضوع، ولا المسافة والإشكالية أو النظرية بين المشـــهد والمشـــاهد... فالموت "لغز" خاصة فيما يتعلق بضمه المفارق للموضوعية الإشكالية، وهي مـــن اختصاص اللوغوس، ووسطية الضمير المتكلم اللاعقلانية والانفعاليـــة، الجزئيـــة والمتحيزة. ليست مآسي الخاصة مسألة ميتافيزيقية، وبالعكس تماما، ليس المصـــير المشروع للآخرين ولي، مصيرا يطبق على الآخرين وعلي، ليس بأكثر ميتافيزيقيـــة. أفضل من ذلك: إن مصيرا يصلح للجميع، ويشمل "بيار" كما يشمل "جاك"، أي يشملني أنا بالتالي، هذا المصير بالذات ليس ميتافيزيقيا، لأنه لا يتعلق بي ألا بشـــكل متساوق، وبشكل ما مصادفة؛ فهو لا يشير إلي شخصيا، ولا يســـائلني بـــاسمي الخاص، ولا يشير إلي باصبعه. فأنا في فلسفة اللوغوس، مثل الشخص في مـــيزان أخلاق العدالة المجردة، لست سوى آخر بين آخرين، عينة، مثلا، أو حالة خاصـــة بين البشر عموما، أي بعد كل شيء، موضوع! هناك بند مضمر (لأنه لا خـــلاف عليه)، في كل مسألة موت طبية، في كل إشكالية عمل مفهومية أو كتابية، يكـــون الجميع معنيين بالأمر **ما عداي أنا**؛ على الأقل يعنيني الأمر مبدئيا، وبشكل عـــام، ولكن ليس إطلاقا في الفعل، ولا في الحال وفق قوانين الـــ -هنـــا والآن hic-et-nunc: يرتبط هذا الشأن النظري بإنسية الإنسان، إنسية كل مخلـــوق، إلا أنـــه لا يعنيني أنا؛ ليس هذا الشأن **شأني**: إذ لا يتعلق الأمر هنا إلا في **غير هنا**، وفي الـــ **فيما بعد**، وفي **الآخرين والغائبين**؛ وبي أنا بالذات كغائب أو بكوني آخـــر بـــين الآخرين، يتوارى الحضور والحاضر، وهما من خصـــائص الفعليـــة، في ضبابيـــة المفهوميات العمومية. والحال، فإني، أنا، لست واحدا من هؤلاء الآخرين، وليـــس الضمير المتكلم المفرد حالة خاصة بين أشخاص آخرين، ولا هو الشخصية رقـــم واحد، كما لو أن الأشخاص لا يختلفون فيما بينهم إلا في موقع ترتيبهم في أفعـــال التصريف... كلا، طبعا، لست مثل الآخرين، مع أني وإياهم في الهم سواء، وأشاطر جميع إخواني مصيرهم المسكوني! ومفارقة الأنا هذه تسمى في الجمع الـــ "نحـــن": الـــ "نحن" توليف، لشخص **أول** لا نظير له وهو وحيد ذاته، **وجمع** مجرد لا تظـــهر فيه الأنا الا ضمن متوالية وكضمير الغائب؛ ويقع لغز تناقض الـــ: "نحن" وتعـــذر حله، في أن الأنا-الهذية الفريدة لضمير المتكلم تشبه في آن معا، المرتل ضمن جوقة،

عالم مونادي لذاته، وعضو فردي أو مثل من بين-أمثلة أخرى في مقولة تصورية مشتملة عليه؛ أنا موجود بينهم، أنا واحد من بين رؤوس هذه الافعى المتعددة الرؤوس؛ وهي الأنا الكبير الجمعي، وفي الوقت نفسه، أنا هذه الصيغة النادرة الفريدة التي لا تضاهى! هذه المونادا كوكبة، هذه المونادا، هي أيضاً بإمكانها أن تقول: اسمي غفير: λεγιὼν ὄνομά μοι, ὅτι πολλοί ἐσμεν Multi sumus! أليس هذا بالذات لغز المطلق الجمعي؟ بالطبع لا تَعبر الهويّة بنفسها كضمير المتكلم الجمعي، أو أفضل لجمع بضمير المتكلم الأول بمعنى Subsomption حلولي بل بمعنى مفارقة كنسية: ...In ipso vivimus et movemur et sumus". إن "التأمل في الموت"، الذي كان يَنظر اليه في "فيدون" على أنه شغل الفلاسفة الأساسي، هو في الواقع تأمل في هذا اللغز الكنسي: تلتقي في الموت استثنائية المنظورية الأنوية، وموضوعية قانون أساسي للطبيعة الحية: يبرر الموت مأساة هذيـيّ الجزئية وفي الوقت نفسه المصير الرسولي الخاص بكل كائن؛ فالموت إذاً هو الفلسفة بالذات. تتداخل حقيقة "أنا أموت" التي لا يمكن التفكير بها والخلاصة المصيرية العامة أو القياسية "كل امرئ فإن تتداخل مع اللغز المأساوي-المصيري لـ "نحن سنموت" وهو في الواقع جمع الضمير المتكلم. عند نقطة إتصال **المأساة** بالمصير، تعطينا الميتافيزيقا الوعي بقدرنا، وهو في آن معاً أقل **من مأساة** وأكثر من فكاهة، إنه ببساطة إذاً **جدي**؛ الجدّية هي النقطة التي يتطابق بها الحدث مع الظاهرة، النقطة (بعبارة أخرى) التي تتوحد فيها الظاهراتية مع فعلية مأساة وفاعلة لمرة وحيدة وهي صيغة فريدة لكل واحد - لأن كل واحد يعيش لذاته ولشأنه وللمرة الأولى هذه الجِدّة القديمة، هذه التفاهة الأبدية وغير المنشورة دائماً للموت. Mea res agitur، لكن أيضاً: res universa، شأن خاص بالكل وعلى الدوام؛ وبالتالي، res nostra ... - وما يصح في لغز الموت، لغز النهاية ليس بأقل صحة من لغز الحب، لغز الانبعاث حيث تقوم الهذيّة، وحتى قبل العثور فيها على عجلة الحياة السحيقة وحيلة الطبيعة الأبدية لتأمين استمرارية الأنواع، تقوم بتجربة تَجَدُّدها الخاص. أليس هذا "الايروس" (Éros) الدائم الفتوة، مع انه ذو جلالة، والذي يعطي، في نفس الوقت الحق لكل من "أغاتون" (Agathon) وفيدر (Phèdre)، أليس هو توأم الموت؟ - تفترض التجربة الأخلاقية، أخيراً، وفي نفس الوقت، إلماماً كونياً وعقلانياً

بقانون ملازم لكرامة الإنسان بشكل عام، وفي ضميره الحي، فرضاً متميزاً، علاوة ومبالغاً به يدفعنا دائماً الى أبعد من واجبنا؛ يضم الفاعل إذن في نفسه، شاهداً وفاعلاً: شاهد على قانون معقول، وصاحب العلاقة، أول من يتعلق به هذا القانون بامتياز غير عادل! وما ان تتوقف الأخلاق عن أن تكون استنباطاً معرفياً للواجبات محض ترادفي، حتى لا تعود فتتميز عن الميتافيزيقا.

III - تحول مبالغ

الموت ثغرة في التجريب، شجة عميقة يرتكز عليها المصير ليزعزع ما وراء التجريب نفسه؛ ولا يعود ذلك فقط لشمولية طابع "علم أسراره" بل بالأخص، لأنه لا يمكن للعبور الى المغاير-إطلاقاً سوى أن يكون تحولاً مبالغاً. ليس "العبور الى نوع مغاير" حتى بـ "ماوراء الأساس": μετάβασις εἰς ἄλλο γένος ، لأن المغاير-كلياً ليس حتى بنوع! يستبعد ما وراء التجريب كل تحول، وكل حدث أو قدوم، كل طارئ؛ فلا شيء يحدث ولا شيء يطرأ، لأن لا شيء يصير. والعكس بالعكس، إن الأحداث التاريخية التي تشكل بتواصلها لُحمة التجريب وسداه، تأخذ دورها بتعاقب شبيه بالصف الذي يقام أمام شباك التذاكر؛ وإذا كانت الأبدية الرياضية هي لازمانية صرف، فبدوره البرزخ التجريبي، والموصول الى مالانهاية بما قبل ومابعد، لديه مثولية الحلم اللافعلية. وهناك حدث مألوف في الحياة، وقع بتوقيت ما في الزمن، أو في ساعة ما من الليل، ومع ذلك فهو ليس تغييراً ضمن-حيوي، بل هو تغيير جذري وتحول مرعب؛ هذا الحدث يدعى: الموت. لم يعد الموت تحولاً، أي عبوراً من شكل الى آخر وتغيير نمط، بل هو إلغاء لكل الأنماط وعبور من الشكل الى غياب كل شكل؛ مجيئاً لغير المتشكل، إن لم يكن للمسخ... إن فساد شيء ما الى شيء ما آخر، هو انمساخ أيْض، أو ما وراء أساس تجريبي في جري البرزخ، ἀλλοίωσις ، يؤدي الى ἄλλο. إلا أن اجتياز الكل الى اللاشيء أو (وهو ما يرجع للأمر عينه) تغيّر الكل الى الكل ليس مجيئاً لمقام آخر: هذا الاجتياز هو حرفياً بلوغ المغاير-كلياً، وجذرياً، المغاير-قطعياً. إن تبدلاً لا يصيب قط أساليب الوجود، أو طرقه، بل فعلية واقع الوجود بالذات، تبدُّل كهذا لا يمكنه أن يكون حالة خاصة من التبدّل العام، كما في لوائح أرسطو

للطبيعة، ولا هو تبدل مثل التبدلات الأخرى أو بنفس مستوى التبدلات الأخرى - وما قيل للتو حول الاشكال والأنماط يمكن إعادة قوله حول المواضع أو أمكنة الحيز ولحظات الزمن. ليس الموت انتقالاً أو استبدالاً، أي مجرد تغيير مكان؛ لأن الانتقال ليس سوى موضع آخر، بينما الموت هو اجتياز مكان ما إلى لا-مكان. وما اختفاء (Gygès)، عن الأبصار بفضل استعماله طلسماً، إلا أمراً تافهاً أمام معجزة كهذه! إنه لعجيب حقاً أن يختفي موجود دون أن يترك أي أثر... إن لم يكن هنا، فهو في موضع آخر، ولا يعوز العالم الفسيح مخابئ! هذا العالم حيث لاشيء يضيع، حيث ليس هناك سوى تحولات الطاقة وتغيُّر الأحوال... نعرف جيداً أن التخفي هو تحول حذق، وان سكاربو (Scarbo) القزم كامن تحت احدى قطع الأثاث، لكن كيف نقبل أن "يصير" الحضور غياباً مطلقاً؟ ليس الموت تأجيل إلى فيما-بعد مؤجل باستمرار، بل انعطاف الى ما-من-مزيد نهائي: تقطع نهائية الموت بسرعة توالي ما بعد الغد الذي لا يتوقف عن التكرار. - أيضاً وبالإجمال: لا يفيد من شارف على الموت أنه صار هذا أو ذاك بمتابعة للغيرية أو بتحول مستمر؛ مات لا يعني أنه صار آخراً؛ بل إنه صار لاشيء البتة؛ ما بين عدم-الصيرورة (أي البقاء على ما هو عليه) وصار مغايراً. ثمة مكان لفعل مميت صار-لاشيء، أي، صار المغاير-بالمطلق، لأنه إذا كان المغاير-نسبياً لا يزال نوعاً من الوجود، فالمغاير-بالمطلق، وهو ما يناقض العين نفسه، يسلك في مقابله مثل اللاوجود في مقابل الوجود؛ لقد فقدت الصيرورة، ومحمولها، الحركة المستقبلية المنعشة (وهي الزمن القوي لكل تغيُّر)؛ والصيرورة التي لا مستقبل لها، elpidien منحوتة على رأس العدم؛ ويلغي الامتلاء التجريبي بكل سماكته نفسه بضربة واحدة. كيف لا يكابد رجل التجريب نوعاً من القلق المرعب بمواجهة هذا الحدث الذي يلي **ماقبل**، ولا يليه أي **مابعد**؟ كيف لا يشعر بالدوران عند عتبة هذه اللحظة غير المتساوقة التي هي استمرارية (الما-قبل) (la parte-ante) ولكن (فيما بعد) (a parte post) البند البدئي لـ لاشيء-البتة، البداية والنهاية؟ هذا هو بالذات، المقام-المغاير-كلياً، الذي ليس لأي ذهن أقل تجربة فيه، ولا حتى أقل فكرة عنه. لأنه يحبط في آن معاً علاقات التجريب الجزئية، ومبدأ عدم التناقض المنطقي. لا شيء، إطلاقاً، أبداً! (Nihil, nunquam, nusquam)! صيرورة تولد لاشيء البتة، وتأجيل أبدي،

وتشكل مُحبط (μόρφωσις) ، تصل الى ما يسميه اللاهوت ألـــــ (apophatique) غير المتشكل (ἄμορφον) – تلك هي الألغاز المفارقة المشتطة في آن معاً لحدث مـــا وراء تجريبـــي وزائف المنطق في نفس الوقت؛ يسعى الدين بلا طائل الى تعويـــض هذه الإخفاقات، وإلى تسوية هذا اللاتساوق، والى جعل أسرار الغبطة هذه تجريبيـة بفضل أوهام الانتظار أو الرحيل التعويضية والمعزية...: يشعر الرجل الصادق أنـه لا يمكن إلغاء اختلال فوق طبيعي كهذا ولا إخفاؤه بتصرفات صبيانية، وأن أسفه لـن يلقى العزاء، ويأسه لم يكن ليزول بإضافة الأمل وإطالة الحياة بحياة الآخــرة، بـل بتحوله الى غبطةٍ مفاجئة. قد يُقال ان أفعال العدالة التعويضية لم تعد تفي بوعودهـا الفعلية، التي يشكل التبشير بمحمول أو بتتمة وظيفتـــها الطبيعيـــة، وتعـــبر عـــن الاستمرارية التي لا تفنى والامتلاء المطمئن لتجريب لا يوجد فيه الا اســـتبدالات وتغيرات **ما هو عينه**؛ تركيبات متنوعة لعناصر مهيئة بشكل آخر، حيث يتواجـــد دائماً حضور مناسب لردم الفراغ الذي خلّفه غياب –. ليس الموت إذاً إلغاء مُقَسم هو إعادة وصل شبه مقنعة لموجود من قبل؛ تحول كارثي، يؤدي الموت بشكل غير مفهوم الى لا شيء هو نفي للكل إلى لا–وجود هو نفي للوجود أو لشيء –مـــا– بشكل عام. يمكن بالطبع بعد ذلك لبارمنيدس أن يقول: اللاشيء غير موجـــود، μηδὲν οὐκ ἔστιν : لن يستنتج من ذلك أن موتي الخاص قـــد يكـــون لا شـــيء بالنسبة لي"، οὐδὲν πρός ἐμε ، بما أن لاشيء هذا بالنسبة للطبيعة هو بالضبط كـــلّ بالنسبة لي؛ ولن يمنع موتي–بالنسبة–لي، أي الموت من منظور الأنا الملغـــز وغـــير العادل، أن يكون أيضٌ هدمي شامل ونهاية لا تعوض! تصيب هذه التفاهة الضئيلـة كامل كياني في كليته وعمقه في نفس الوقت، هذا الاختلاس هو انعدام حقيقي!.

IV – بغتة

إن التحول الجذري، بمجمله، هو لغز عميق، رغم أنّ ما قبله ومـــا بعـــده كلاهما تجريبـــي. ما يشمله الغموض هنا هو "**أثناء**" التحول نفسه، هو التحول في فعله، أو أثناء–حدوثه: ولا تنجح طبيعية الاستمرار بإخفاء مافوق طبيعية اللحظـة، التي تتم فيها أعجوبة البدء والألغاء iminarité هذه. تلك هي أيضاً حال الخلـــق، حيث الفعل الخلاق هو اللغز، لأن الخالق – قبل والخالق – بعد كلاهما موجـــود في

البرزخ القابل للوصف، والتحليل والرواية: وفي كل حال، فالخلق، لأنـــه موجــه باتجاه معاكس للموت، أي من اللاوجود الى الوجود، يترك في أثره ذرية مرئيـــة، "تحفة" يبدو اللغز فيها قابلاً للتفكيك على مهل؛ لهذا تبدو ميتافيزيقا الفن أسهل من ميتافيزيقا الموت... وما فكرة المغاير-بالمطلق وفكرة اللحظة المباغتة سوى فكـــرة واحدة بالذات. وبما أن الـــ-ما-بعد هو إضافة بالمطلق، وما-بعد جـــذري يتـــم انمساخ الـــ ما-دون في فقرة -وميض اللحظة؛ من النقيض الى نقيضـــه دون أي نضج، ولا تعاظم ولا تطور غير موجه، كما بين الأضداد الحدية والمتعارضة نسبياً، بل انتقال فجائي واعجازي بشكل ما. الكل أو لاشيء! وبالتالي: تواً أو أبداً علـى الاطلاق! ليس الموت الحد الأخير في مجموعة محتضرة، بل هـــو صدقـــاً خـــارج المجموعة. إن العلاقة بالذات بين الـــ **-ما-بعد** (ἐπέκεινα) **والبغتـــة** (ἐξαίφνης) ، والانعطاف (ἐπιστροφή) الذي صار بذلك ضرورياً، والقطع الناتج عنه، تعيق كـــل فعالية لجدل معمّق لتسامٍ متدرج. والحال، لا يملك الذهن وسائل تشرح أو حـــتى تصف "القفزة النوعية": يفتح كل انقطاع تحت خطواتنا ثغر اللامعقـــول، وكـــلّ تعليق للاوجود منطو على عدم، عدماً فاغراً يكون ما بعده مبتدءاً من جديد يوازي بإعجازه إعجاز البدأة الأولى، وغامضاً غموض انبعاث ما بعد الموت؛ فـــالتحول المباغت هو موت على طريقته الخاصة، وقلما يهم أن يقع في أدنى تنـــاهي بـــرزخ اللحظة؛ بهذا الصدد يتضمن ما-يكاد-لاشيء نفس لغز اللاشيء، وقلب الوجـــود الآتي نفس لغز انقطاع الوجود. ولردم فراغ شبه-الانقطاع المرعب؛ وليوفر مغامرة الخلق، بكلمة لمتابعة مساره، يُخفي العقل الصدع، ومع الصدع يخفي عتبة الجِـــدّة نفسها بأوهام وسيطة؛ فيبدو له أن التضخم المتواصل يُعقل أكثر مـــن انقـــلاب مباغت. والحال، من يعلم؟ إذ ربما تطلق غبطةٌ ما، أو سحر ما، الانقلاب الذي قد تعجز أي حضانة عنه... هذا ما يعنيه الانقلاب الافلاطوني والأفلاطوني-المحـــدث، هذا ἐπιστροφή الذي يشرحه بالتأكيد الـــــــ περιαγωγή كتـــاب **"الجمهوريـــة"** السابع[1]: وكما ينبغي على مساجين الكهف أن يستديروا بكامل جسمهم نحـــو النور (ξὺν ὅλῳ τῷ σώματι) كذلك ينبغي على **philodoxe** المهتدي الى الفلســفة

[1] Enn., VI, 7, 16 et 31. περιστροφή: 521 c, (στρέφειν, τρέπειν, περιάγειν, μεταστρέφεσθαι) 518 c-d

أن يتجه بكل روحه نحو فكرة الخير (ξὺν ὅλῃ τῇ ψυχῇ)، ليس بجزء صغير من روحه أو عند نهاية تفكيره، بل بروحه كاملة؛ وهذا يعني: أولا، أن الاهتداء هو تحول أو تحول داخلي شامل، وليس فقط تغيير في الاتجاه: إذ لا يتعلق الأمر بالانحراف لبضع درجات، أو من زاوية ما نحو سمت آخر؛ انه القيام بنصف دورة والانطلاق في الاتجاه المعاكس؛ ومن ثم ليس المقصود فقط التصفيق لاصلاح ما، ولا مباركة المصلح، ولا إلقاء المواعظ، بل أن المقصود هو إصلاح الذات فعليا: إذ ليس المطلوب من الأسير بعد إطلاق سراحه أن يهتف "شاطر" (bravo)، بل عليه، مثله مثل كسيح كفرناحوم Capharnaüm، أن ينهض ويخرج فعلا من الكهف وينخرط في درب النور. !Ἔγειρε καὶ περιπάτει سيعيد " برغسون" القول بقوة[1]:

ليس انفتاح روح مغلقة إذا كان تدريجيا سوى انفراج، أي إذا كانت الروح الشديدة الخجل، في رعبها من اللحظة، تخفي البغتة الوحيدة الحاسمة التي قد تهديها؛ إذا كان انسان البرزخ في معضلته "العويصة" يرفض أن يواجه الحل العويص. إن الروح التي تنفرج شيئا فشيئا ستبقى إلى آخر الزمان في الـ -ما-دون؛ وحدها الروح التي تنفتح بدفعة واحدة مشرعة بكاملها على المقام الجديد قائلة كلا للقديم ستمتحن الانقلاب الفعلي لكامل كيان وجودها. ربما كان أفلاطون يفكر بفتنة من هذا النوع، عندما جعل Diotime de Mantinée يقول: يتم النظر في الأشياء الجميلة بالتعاقب، إلا أن الجمال يدرك في الحال: ...θεώμενος ἐφεξῆς τὰ καλά, ἐξαίφνης κατόψεταί τι θαυμαστὸν τὴν φύσιν[2] ويعتقد أفلوطين أيضا أن الاتصال بالمطلق يتم في بغتة اللحظة[3]. عند الاقتضاء تلغي البغتة النهائية **(exaïphnès)** التي تتوج، تنجز وتنهي الصعود والتي تشكل الجزء الأكبر الحقيقي من الجدل، تلغي جدوى كل تأويل باطني وقد يمكنها أن تعفي المترهب

---

(1) Deux Sources de la morale et de la religion, p. 28, 71, 73, 74. Cf. Essai, p. 117.

(2) Banquet, 210 e. Parménide. 156 d. désigne par τὸ ἐξαίφνης l'instant. Cf. M. DE GANDILLAC, La Sagesse de Plotin, p. 155, n. 2.

(3) Ἐξαίφνης (lat. "repente"), ἐν ἀκαρεῖ, ἀθρόως : V, 3, 17; V, 5, 3, 7 et 10; VI, 7, 34 et 36 Cf. PHILON, Quaest IN Gen.,III,9.

الجديد من عبور الدرجات الوسـيطة ἐπιβάσεις ou ἐπαναβασμοί [4] أو الـذي تفرضه "المأدبة" "Le Banquet" والكتاب السادس من "**الجمهورية**" على كـل صاعد "للسلم الجدلي" (scala dialextica). لأنه ما هي غبطة النهاية هـذه إن لم تكن الاذن الضمني ببلوغ الكمال وحرق المراحل والبدء من النهاية؟ من اللحظـة التي يتوجب فيها على الملقّن، ليصير متصوفاً كاملاً، أن يتلقى غبطـة الكشـف الأسمى(ἐποπτεία)فَلِمَ لا يتلقاها في التو، لأنه إذا كان الاهتداء للمطلق (ἀνυπόθετον) يتم دفعة واحدة، فهو في آن معاً نعمة واكتفاء، ولو لم يسـبقه جـدل طويـل، والعكس بالعكس، فلن يكون التعليم الاعدادي بداية البداية لـو لم يكـن الـ époptie تتويجاً له. بما أنه لا ينتهي الى شيء ولا يبدأ من دون هذه النعمـة، ولأن كل منته هو في الوقت نفسه مبتدأ، فإن **البدء** (l'initum)، للملْقَن، هـو دائمـاً نهاية، τέλος ، واستهلاك: خاتمة بدئية، وتلقين نهائي-ما البغتة إلا الأثر التجريبـي نتيجة تفجر اللحظة في تواصل البرزخ أو تسلسله المنطقي؛ يفصـل رأس المقـام اللاحق المقام الأقرب ويخلف فيه فوضى أو هلعاً خاصاً؛ هي الاضطرابـات الـتي تحرض عليها، وسط التجريب المتمفصل، اللحظة الحادة؛ تدخل الصدمة الكهربائية للحظة آنياً الاضطراب في لحمة أعمالنا وسداها، في مصالحنا وفي مشاريعنا: هكـذا فإن الارتباك المتولد عن النوبة الانفعالية الارتجاجية يُخبل البرزخ. إن العنف الـذي لا يغتصب المتابعة إلا ليشيد متابعة أخرى، يوحي للمرء ليس بهلع اللحظـة غـير المبرر، بل بالذعر التجريبـي من الانكسار، وليست المباغتة والآنية هنـا سـوى انحراف بدون مستقبل، زوغان لا فائدة له، شكل مفاجئ وصاعق للإحراج، أشـد وعورة بالنسبة لما سبقه، المباغتة هي عتبة مستوى جديد؛ عامودية تؤدي الى أفقية، وبالتالي، تسوية، وبالتالي إعادة تشييد لمستوى آخر. وكمـا يسـتعيد الوجـود التجريبـي رباطته بعد الانفجار الذي جعله ينتفض، كذلك يستعيد البرزخ تشكله بعد المفاجأة الأولى؛ كل شيء "**يتكدس**"، وتُستوعب كل كارثة، بفعل العـادة، في استمرار الطبيعة، وهذا ما يسمى "التأقلم"؛ أما الموت، فهو ليس لحظـة في إثـر البرزخ، بل هو لحظة تنهي كل برزخ، وهو بالضربة عينها، عتبة ما لا يُعرف، حـد

(4) République, 511 b: Banquet, 211 c.

نهائي وبدئي منحوت رأسي على اللاوجود، لحظة توطئة لا توطئ لشيء، للاشيء لا يمكن تخيله، ولا يمكن حتى، بأي حال، تصوره. من جهة أخرى، ليس هناك إلا الموت من ينجز، بالطريقة الصعبة، انعطاف الكل الى الكل، ليس بمعنى من المغاير الى المغاير نسبيا، بل من المغاير الى المغاير بالمطلق، من النقيض الى نقيضه؛ وهذا الانعطاف معاش ولا يمكن عيشه في آن معا: معاش كحدث فعلي يطرأ على الهذية بكليتها؛ ولا يعاش بالضبط بمعنى أنه مميت، وان من يعيشه لا يمكنه، وبالتعريف بالذات، أن "يحيا بعده"؛ باللحظة ذاتها دون ديمومة، من يعيشها يموت فيها، ولا تتحمل أي هذية، دون أن تموت، النفي المحض والجذري لكل وجودها التجريبي: لأنه إذا كان ثمة تأقلم مع أشد المتغيرات إثارة للدوار، شأن تقلبات الحرارة والضغط القصوى، فإن أحدا لا يتحمل العبور من الشكل الى عدم أي شكل، ولا يتأقلم مع إعدام كل الـ **Esti** الخاص به. وما التعارض الأقصى بين الحار والبارد، وتغيرات أنماط الوجود إلا تبدلات جد متواضعة أمام ذروة التحول الحاد هذه! فالوجود-الأقل للبند المميت هذا، هو إذن التلقين الإنساني الحق حول الميتافيزيقا؛ والعكس بالعكس، لا يمكن للتلقين حول الميتافيزيقا أن يكون إلا مميتا: فهو تلقين بلااستمرارية، يرسخ مرة أخرى استحالة تجربة ماوراء التجريب. ومرة أخرى أيضا، كان "أفلاطون" على حق أكثر مما كان يعتقد، عندما جعل من التأمل في الموت الشغل الشاغل للفلاسفة: فالتفلسف هو التآلف، في مجرى الاستمرارية، مع وحش المبالغة أو مع التحول الذي لا يمكن تصوره، إنه تأجيج الوعي مع هذه الاستحالة-الضرورية، وهي الموت بالذات، ولكن بما أن أحدا لا يقدر أن يجرب دون أن يموت حد الـ **épistrophé** البدئي، علينا أن نكتفي بحكمة محض بدئية أو تلقينية؛ ربما كانت هذه الحكمة sophia الوليدة هي ما يجب تسميته **فلسفة**.

الفصل الرابع

إعدام الماهيات

I - إلغاء وإعدام

إن موت الهذيّة، الذي يلغي ليس فقط موجود، بل وعي الفكر بالوجود وبالموت نفسه، يشير بشكل ما إلى إعدام الماهية العام. إن ما-هو-مفروغ-منه المؤكد أكثر من أي أمر آخر، وهو الوجود-الخاص، يلقى من الموت تكذيباً فاضحاً؛ إذ ما هي الفضيحة الأكبر من هذا التصدع في امتلاء الوجود والموت،إذا كان إلغاءً فردياً وتقسيماً للوغوس، هو كارثة شاملة وتحيط بغموض في المنظور الخاص بالمحتضر، أي الضمير المتكلم؛ وهو من ناحية أخرى، يلغي موجوداً لا يشبه أياً من الموجودات الأخرى، بل هو من زاويته الخاصة حقيقة أبدية، حقيقة هي بشكل مفارق أبدية وفانية! وإذا كانت البُرَه المتتالية المندمجة في مجرى البرزخ تشكل الفاصل اليومي للتجريب، فإنه لا يمكن لبرهة هذه البره، أي الحياة الفانية بمجملها المقتطعة من بين عدمين؛ لا يمكنها أن تكون برهة مثل البُرَه الأخرى. تتوالى البرازخ الوسيطة اليومية – بألفة مسجلة بلحظات دقيقة: إلا أن لحظتيّ الولادة والموت الفاعلة لمرة وحيدة، تعزل البرزخ الأكبر، الذي هو صيغة نادرة ما من بديل عنه، برزخ كل البرازخ. تشكل المضامين المتناهية المادة الجلية لتجربتنا: إلا أن واقعة التناهي هي لغز. إن التواصل في البره هو طبيعيتنا بالذات؛ إلا أن **واقعة** الطبيعية هي ما فوق طبيعية، كما تطرح واقعة **التواصل**، كواقع معطى، **ipso facto**، تطرح لغز البداية والنهاية. إن الوعي الفلسفي بالموت (لأنه ما هي الفلسفة إن لم تكن دليل وعي، ووعي الوعي إلى ما لا نهاية؟) هو ما يجعل الواقعة التجريبية قابلة لادراكنا الحسي، والتناهي والتواصل، ويجردها من الغربة: يستخرج الصائر الداخل في صيرورته الخاصة، يستخرج نفسه من المثولية ليتفكرها؛ فيندهش الصائر من الصيرورة. والحال، ليست درب الهذيّة الضرورية لحياتها تدريباً أطول من غيره

فقط: انها كل ما نملك، عالمنا وعلة وجودنا، لا تترك خارجها إلا أرض الافتراضات المجازية والفراغ الكبير لما لا يمكن التفكير فيه. - إذا كان إلغاء التجريب الشامل بالموت-مع شموله على الأنا المفكر- ينمي فينا وعياً يوازي بميتافيزيقيته إعدام الماهيات، فإن فكرة التجريب الكلي بنفسها ليست فكرة ميتافيزيقية، بل هي على الأكثر ما وراء تجريبية أو رياضية. كنا قد قلنا، إن "التجريب الكلي" بدوره ليس فكرة تجريبية، فالتجريب ليس تجريبياً إلا بمقدار ما هو تقسيمي؛ والتجريب الكلي باختصار هو بالضبط سلب التجريب. مع ذلك فإن التجريب الكلي ليس بأكثر ما وراء المنطق. طبعاً، لن يختبر أي امرئ إطلاقاً إلغاء الوجود العام بما هو عليه، وبالطبع لن يشهد المراقب سوى كسوفات أو انبثاقات مقصّبة على خلفية وامتلاء سجادة الوجود ontique الكبيرة، التي يبسطها الوجود أمامه. لكن إذا لم يكن تخيل إبطال الموجودات **بالكامل ممكناً**، فإنه على الأقل يمكن تصوره. أما إعدام الماهيات، فهو ما لا يمكن تصوره، ولا يمكن بالأحرى تخيله، لأنه إذا كانت نهاية العالم فرضية مستبعدة بقوة، مع انها ليست من المحال، ولا متناقضة منطقياً، فإن زوال الحقائق الأبدية هو حرفياً "افتراض مستحيل"، شأنه شأن هذه "الخرافات الخارقة" التي كان بوسويه (Bossuet) يعيّبها على فينلون، ومنظري الحب المحض. بناء عليه: لأن الإلغاء والإعدام يعارض واحدهما الآخر، كما الإمكان الممكن يعارض الإمكان المستحيل، يصير الموت حرفياً المستحيل الضروري؛ أشد استحالة من ذاك، وأشد واقعية من هذا، الموت يُفَعِّل المأساة. لا توازي فكرة عرضيّة الماهيات أو مجانيتها الأساسية اعتباطية فرضية الجني الملعون: فهي لا تفيد أنه يمكن في كل لحظة وبالفعل نقض المسلمات بفعل مشيئة اعتباطية، ولا تجعل ما لا يُسبر مجرد تهديد تجريبي كفيل بأن يبقينا في اضطراب متطير... كلا؛ فهي مجرد الوعي بإمكانيةٍ تتسم بالغلو وبالجذرية؛ ومع ذلك، يضمحل التفكير المترنح، في الوقت عينه الذي تضمحل فيه الماهيات التي يرسي هشاشتها: فالتفكير إلى حدود ما لا يمكن التفكير به، الذي هو أيضاً المستحيل والعبثي، يُنكر التفكير ذاته جدلياً ويقع في التناقض. بما أن كل تفكير هو نسبي، ما من أحد بإمكانه أن "يتصور" مجمل الروابط المعقولة على أنها واقعة: لأن التفكير نفسه هو رابطة تنكر روابط أخرى، رابطة تعقل، وتلازم بالتالي (حتى

عندما تتعالى عليها) دائرة الروابط المُفَكّرة... كان على ماهية التفكير الإنساني أن تكون مختلفة تماماً ليجد شيئاً ما عند وضع المبادئ نفسها التي تسيره موضع السؤال. وكما أنه لا يمكن وضع اللانسبي ضمن علاقات، ولا التفكير بما لا يُفكر به، أي **المطلق**، كذلك لا يمكن التفكير المُفَكر أن يُفكر بإبطال المبادئ نفسها التي يطبقها عند تفكيره بإبطال هذه المبادئ. والحال، هذا ما يجعل من حدث الماهية **(ousia)** بإجماله حدثاً ميتافيزيقياً. أو بالأحرى أيضاً؛ إذا لم يكن التجريب الكلي حدثاً تجريبياً، بل هو حدث ما وراء تجريبي، فإن ما وراء التجريب الكلي بدوره ليس حدثاً ما وراء تجريبي بل هو حدث ما وراء المنطق؛ ومثلما يكون التجريب، الذي يجمع شيئاً فشيئاً، تقسيمي دائماً من وجهة لوغوس يشمل بدفعة واحدة علاقات أبدية وكونية، كذلك يبدو اللوغوس تقسيمياً على طريقته لتفكير من الدرجة الثانية. فما وراء التجريب كحدث محض هو إذن ميتافيزيقي **بفعاليته الجذرية، بكليته**، هذه الكلية التي تضم الممكن وبالأحرى المعطى، المعطى وزيادة الممكن، أي كلّ ما بإمكانه أن يكون معطى، لكنه بالواقع لن يعطى إطلاقاً. تبحث الميتافيزيقا في المسلمات، وبالأحرى في القضايا والقوانين بالطريقة نفسها التي يبحث فيها نسق البديهيات والرياضيات معطيات التجربة الفيزيائية: باعتبارها الحد الأدنى من الثوابت، غير المستنبطة اللازمة لاستنتاج ماثل. أليس مبدأ الهوية هو الثابت الأعلى الى حد ما؟ كان "شيلنغ" قد لاحظ، انه من غير الممكن استنتاج كون الفوسفور يذوب في درجة أربعة وأربعين 44/44، فهو لا يمكن ملاحظته إلاّ بعدياً. لكن إذا لم يكن بالإمكان استنتاجه، فما من شيء على الأقل يمنعنا من تصور نسق عالمي تكون فيه درجة حرارة ذوبان الفوسفور خمسة وأربعين درجة 45° / 45°؛ مع كون هذا الحدث التجريبي، حرفياً، بالمعنى الأرسطي للكلمة، هو إمكانية-وجود-مغاير. بالعكس لا يمكن بأي طريقة تصور مقام كوني يكون فيه الكل أكبر أو أصغر من مجموع أجزائه. مع ذلك توحي لنا وضعية **الضروري** الأبدي والكوني العارية، ومن تلقاء نفسها، توحي بإمكانية هذه الاستحالة. وسبينوزا نفسه، الذي يبعد فوراً شبح هذا "المحال" (Absurdum)، ألا يستسلم لاغواء استحضاره؟ بالاجمال، يرجع القول بالوعي بـ-ما-هو-**مفروغ**-منه إلى ما يقال في الشر: إنه "ليس" مفروغاً منه تماماً، لا بل انه يطرح السؤال بمأساوية،

بالطبع ليس بمعنى الاشكالية التجريبية، بل بمعنى السر الـ anempirique الذي لا حل له. والضرورة بصفتها ماثلة هي ضرورية بالمطلق، إلا أن فعل الاقتضاء فهو عارض؛ والحقيقة الأبدية هي حق بالمطلق ولكن الفعل الحق هو اعتباطي ومجاني: هذا هو اللغز الذي لا يعقل، حيث يلغي التفكير نفسه.

في الواقع، يسجن إعدام الماهيات التفكير في إحراج الاستحالة: فإذا كنت أفكر في شيء ما مفكرا إلغاءه كليا، لا يعود هذا الشيء لا شيئا، بل مفكر فيه؛ - وها أنا من جديد في خضم الفلسفة الثانية؛ وإذا كنت أفكر **باللاشيء**، معناه أني لا أفكر بشيء، إذن أنا لا أفكر، إذن ليس هناك من تفكير-ولكن، حينئذ أين هي الفلسفة، من فضلكم؟ والحالة هذه، لا نرى لماذا قد يمتنع العقل عن المضي دفعة واحدة إلى أقصى كل الإبطالات التقسيمية، ويبسط نفيه لكل تجربة ممكنة، وأفضل من ذلك، حتى لمجمل المحسوس والمعقول.... وبموجب ماذا يصير النفي، المشروع عندما يطبق على مفهوم واحد، يصير غير شرعي عندما يطبق على الماهيات بكليتها؟ ما من داع لاستعمال نقضنا لتوقيف عمل الإبطال الذهني، ولو كان عليه في النهاية أن ينقلب ضد التفكير الذي يبطل! لا يمكن بقوة المنطق ولا باسم المنطق أن نمنع عن تفكير إلغاء المنطق: لا يمكن إلا أن نلح بعدم المضي حتى النهاية وأن نحد اعتباطيا الإعدام الكاسح... ولكن بما أن التفكير ليس محرما سوقيا على الفكر، علينا إما أن نسمح بالنفي المبالغ الذي يجعل كل تفكير مستحيلا، فيمنعنا من أن نتفلسف على عواقب هذا النفي - وإما أن نقبل أن التفكير، المصافة العليا، يبقى حيا بشكل لا يمكن شرحه، بعد إعدامه الخاص، وأن التفكير المعدم يبقى بالضبط حيا باعتباره معدوما، وأن التفكير بالتالي غير قادر على أن يتعالى على ذاته، ولا على أن يطرد ظله. وكلية التأكيد في معرض النفي **apophasis** هو إذن بالضرورة antiphasis. وما من شيء سوى الموت هو في آن معا، وبالفعل (لأنه أكثر الأحداث فعلية) إعداما للماهية وإلغاء لوجود، حيث يخنق بضربة واحدة وجود هذه الماهية وماهية هذا الوجود؛ وفي انغلاق تطابق وجود مكاني-زماني مفصل تجريبيا مع وعي مفكر يكمن كامل لغز الهذية الشخصية، لغز تجسد ووحدة المزدوج الطبيعة: فالموت إبطال ما لا يبطل، أو، إذا كنا نفضل، إعداما للغز

غامض، بمعجزة مزدوجة الغموض؛- لأنه إذا لم يكن من الممكن فهم وجود الصيغة النادرة الغامضة، فإن المفهوم بدرجة أقل الها بوجودها لمرة وحيدة بإمكانها أن تختفي الى الأبد، لأن اللغز، كان على الأقل في الوجود، المدرك باعتباره تواصلاً ولا يكشف مجانيته إلالوعي ميتافيزيقي، بينما يحدث الموت في لحظة مباغتة. ومن كانت حياته غامضة سيكون موته أعجوبة: هذا هو القانون! في نفس الوقت حيث يلوي الموت عنق الوجود التجريبي للجهاز العضوي الحي، فإنه يبيد التفكير المفكر، أي الوعي العادم نفسه، وهو حقيقة أبدية-فانية. هكذا ينتهي الموت بدفعة واحدة إلى لاشيء الماهية وإلى عدم الوجود، الذي هو لا وجود. ومع ذلك، بما أن الموت هو دائماً موت أحدهم، لا يمكنه أن يكون إعداماً عامّاً أو مسكونياً: مأساة شخصية، ونكبة خاصة، يترك الموت وراءه أحياء لا يحصى عددهم؛ الآخرين، العالم، وأخيراً الحقائق... بالطبع، تلقي هذه العبثية المنغلقة لهذا الحدث شكاً خطيراً حول القيم بصفتها تتجسد في هذيّة تحملها: بالرغم من كل شيء ليست فكرة القيمة الخالدة، أو "الرسالة" التي لا تفنى مجرد تعزية خيالية أو مثالية: "جسراً" مجازياً أو مفهومياً لتجاوز الفراغ ولضمان مواصلة شيء ما إثر الغرق الأقصى. يُبطل النفس الأخير بدفعة واحدة، بإعدام لاجدلي، يبطل الماهية والوجود، إلا أن هذا الإبطال ما هو إلا إبطال لواحد؛ هذا الإعدام هو ببساطة **نهاية-الكل** لـ **أحدهم**، ليس "حرفياً" **نهاية الكل**. إن الإعدام العام هو من يكون نهاية الكل هذه. لكن الإعدام، وهو قرار مدمر، ليس شيئاً ما يحدث؛ وخصوصاً لا يمكنه إطلاقاً أن يعدم الماهية وأن يلغي الوجود في آن معاً؛ فعندما يُعدم الامكانية يتشكل الوجود من جديد في عارض آخر. غير حسي أكثر فأكثر، وحقاً لا يفنى، تتولد واقعة **الماهوية** الجوهرية الى ما لانهاية من رماد **الجوهر**. قلنا إن ألغاء التجريب كله لا يمكن تخيله، مع أن تصوره ممكن؛ ولا يمكن تصور إلغاء العقلي بكليته، ولا حتى تخيله. سواء تعلق الأمر بقطعة واحدة أو بقالب الحلوى بكامله. تؤكد الإدراكية الإسمية، وبحق، إنه لا يمكن أن يتم "تمثل" عدم **التجريب**، أي أن نعطي عنه صورة حاضرة، ملموسة، وخاصة. لأن كل تمثل هو بالضرورة تمثل لشيء ما؛ وصحيح جداً أن لا-وجود كائن ما هو دائماً بالواقع وجود شيء آخر، يُمتنع لأسباب محددة عن

تسميته. بالعكس، لما كانت ميزة العقل أن "يدرك" ما لا تستطيع المخيلة أن تتمثله، فإن إلغاء وجود عن طريق النفي المنطقي يناظر حركة عقلية لها مغزى ومعقولة كلياً. وبالمقابل، يؤكد مرة أخرى، إعدام الماهيات على الامتلاء البرغسوني، ولو بطريقة مغايرة للإبطالات الجزئية في التجريب. فالإعدام الكلي، في الواقع، هو من "مقام مغاير" للنفي الجزئي، ومتباين عنه، حرفياً، في كل جوانبه: إعدام يشمل، بغموض، وجود التفكير العادم نفسه، ويدمر بذلك شرطه الخاص، هذا الإعدام هو الحد الميتافيزيقي للنفي الجزئي الذي لا يمكن ملامسته، وغلو الإلغاءات المعقولة الذي لا يُعقل! هنا يقع الفرق كله بين لا-أ ولا-وجود، فأحدهما فجوة محلية في التجريب، والآخر ببساطة لا شيء؛ **لا شيئاً**، لن أكون نفسي موجوداً لأفكر به، لأنه لا شيء الأشياء كلها، بما في ذلك التفكير العادم؛ لا-وجود وهو ليس العدم فقط أو μὴ ὄν **السفسطائي**؛ بمعنى الغيرية، بل هو أيضاً، ولنتكلم مع شيلنغ[1]، οὐκ ὄν وحتى ἁπλῶς οὐδὲν، أي لا-شيء وحتى **لا-شيء**- **البتة**. إن نفي شيء ما هو لشيء مغاير مثلما الغياب هو بشكل مضمر وغير مباشر حضور؛ غير أنّ نفي الكلّ، ينقلب في النهاية، إلى مَوْضَعة كلية لأن فعل النفي نفسه هو الإيجابي، أو لأن النية النافية هي مسبقاً شيء ما؛ شيء ما هو كل! إن فكرة تتصور إلغاء الكل، تنجح وتفشل في هذا المشروع المستحيل في اللحظة نفسها التي تستخرج فيها وجودها الخاص كتفكير، لأن لاشيئاً تبقى هي حية فيه لن يكون لا شيء البتة، بل شيء ما... تدعي هذه الفكرة، علة-ذاتها حقاً، تدعي أنها تتجاوز التناقض الذي لا يمكن تفكره! لأن إلغاء الكل من دون إلغاء الذات-نفسها ليس بأسهل من التفكير خارج مبدأ الهوية. ببساطة أكثر: يمكن للإلغاء أن يلغي الكل، إلا أن فعل الإلغاء نفسه لا يُلغى؛ والحال، فإذا كان فعل الإلغاء سليماً فالكل سليم؛ والكل سليم أيضاً إذا لم يكن هناك إلغاء: هكذا، ففي الحالتين يكون الكل سليم، وهذا التناوب هو إحراج. فإذا كان الألغاء يلغي الكل ما عدا نفسه، فإنه لا يلغي الكل لأن التفكير سيبقى حياً بعده، وهو الكل- وهكذا لا يلغي شيئاً، وإذا ألغى نفسه فإنه بالطبع يلغي الكل، لكن نية الإلغاء بشكل عام هي التي تناقض نفسها، بحيث أن

(1) Darstellung des philosophischen Empirismus (1836), trad. Fr., p. 518-520.

الإعدام بإعدامه نفسه، يعيد بشكل غير مباشر تأكيد كافة الموجودات: لأن نفيين يساويان وضعاً. هذه هي استحالة إلغاء الفكرة التي لا تملك حياة صعبة إلا لأنها بالضبط لا "توجد" بالمعنى الذي توجد فيه الموجودات الطبيعية للفلسفة الثالثة؛ بل بمعنى غير المحسوس، والاثيري الذي تبقى عليه الماهيات. لا يمكن قتل الحقائق الأبدية لأنها لا تحيا! وما لا يحيا لا يموت. يمكن للموجود أن يلغى، لكن القائم يجب أن يعدم، يعدم بمبالغة. والحال، يرتد الإعدام على عدم قابلية الماهية للفساد. هكذا، يؤكد التفكير، العاجز عن التخلص من ذاته، يؤكد نفسه على أجمل ما يكون، في فعل الإلغاء الذاتي؛ فالتفكير اللاغي بالتأكيد ليس حراً بنفسه إطلاقاً! في هذا التجدد غير التدريجي وغير الجزئي، بل الكلي والمباغت سيكتشف ديكارت بداهة، الكوجيتو الماثلة في سلبية الشك (Dubito)؛ أو بالأحرى، لا يبعث التفكير من العدم، لأنه، يبدو فيما بعد أنه لم يتم إلغاؤه قط، وما ذلك لأن الفعل المبيد قد وفره صدفة، كما ينسى الوليد حديثاً في المذبحة العامة، والذي سينقلب يوماً ما على القاتلين... ليست الحقيقة الأولى استثناء بين أشياء مشكوك في أمرها بمعنى أن كل الأشياء يتم الشك فيها **ما عدا واحد**، يكون يقيني: فالحقيقة الأولى ليست شيئاً، ولا الحقيقة رقم **واحد** –، الحقيقة الأولى هي **الحقيقة**، الفعل الذي يحمل في ذاته إمكان كل الحقائق؛ وما توقف هذا الفعل قط عن أن يكون حاضراً: لكن بينما كان يُنظر إليه من قبل بما كان ينفيه، أي بمفاعيله وأسماء أفعاله الماضية، فإن ما يؤخذ الآن بعين الاعتبار هو موقعه المؤسس.ويطبع تجلي الكوجيتو (إذا كان التجلي مباغتاً للشكاك، فإن الكوجيتو نفسه هو استمرار جوهري) يطبع انعطاف المادة المنفية هذا إلى إيجابية النفي والإلهام النظري Cogito; scilicet mea cogitatio est; scilicet sum. أليس التفكير بالنسبة لنفسه حجة أنطولوجية فاعلة دائماً وعبوراً متواصلاً من الماهية الى الوجود؟ إن ما يستعيد تشكله مباشرة في خضم الإعدام،ـــ كما يدل على ذلك الضمير المتكلم المفرد، هو الماهية بصفتها حدثاً، أو الوجود المفكر المتجسد في فاعل فعل المعرفة. من الممكن الزعم بإعدام الحقائق الأبدية، القول بأنها تنعدم: لا يمكن أن نجعل من **العدم** نفسه أمراً آخر غير استحالة التفكير. شيئاً فشيئاً تسد كل الفجوات بالتآمر مع هذا القائم من قبل

أبديا. معنى هذا القول: انه لا يوجد وعي كلي، فالوعي دائما هو لاواع قليــــلا، وفيما يخص نقطة واحدة، على الأقل، هو بريء؛ فالوعي نظير من يوحى له، يعتقد أنه حر بينما هو مسير إما مصيريا، وإما بما هو قبلي مما يتعذر اســتئصاله. وعنــد إعدامه الماهيات لا يلاحظ الوعي في التو انه لا يزال يطبق مبادئ التفكير العقليــة، وأنه ما فتئ يستخدم مقولات لتصور المغاير-كليا، وانه يستعمل ما ينفيه لكي ينفيه وفي فعل النفي نفسه؛ وان حائط الماهية يعيد بناء ذاته مــن خلفــه. والحــال أن ملاحظة هذه الخدعة محفوظ للوعي-الأعلى، بدلا من الوعي العادم؛ وســيحتال الوعي-الأعلى-الشاهد، أي الطرف الثالث، سيحتال بخبث على الجني الملعــون... ملعون، ملعون ونصف! وعندما يوشك أن يلمح الأصل الجذري، يجد الوعي نفسه وجها لوجه أمام ثانوية **الكوجيتو** وثالثية **الوجــود** (sum)، وفي النهايــة، أمــام جوهرية "**الشيء المفكر**" Res cogitans. فيميز التفكير نفسه، ويفلت ذاتــه أولا من القضية العادمة: ذلك أن التفكير الذي يفكر الحقائق القابلة للإعدام ليس هــو نفسه حقيقة قابلة مثل الحقائق الأخرى. لكن حين يعتبر الوعي-الأعلى نفسه لا يمــس، فإنه يصير بذلك أقل وعيا بقليل. - لماذا لا يوجد **وعيا فائقــا** superconsience، أبعد من الوعي الأعلى، قادرا على أن ينقلع أو أن ينفصل عن هذا الوعي الأعلــى نفسه؟ لماذا لا يكون التفكير المفكر خلقي créaturelle بمقدار ما هـــي الحقــائق المفكر بها قابلة للنقض؟ لأن الحقائق، التي أعيد إرسائها باكتشاف التفكير الـــذي يشك فيها، تصير هشة من جديد ما أن نعي مجانية الوجود-المفكــر. إذن، يســد التفكير إمكانية فراغ كل حقيقة ، وهو إمكانية أخرى للفراغ لأنه موعود بالموت. في النهاية، يدعم الموت الإعدام: ألا يبدو أنه يلغي ارتقائي ما فوق الطبيعي بتعامله مع المادة المفكرة على أنها مجرد حدث فيزيائي؟ لنلخص جدلية الوعي الذي لا يكل هذه: مصافة عليا عند ديكارت، يختم الكوجيتو عصر الإعدامات، ويدشن عصــر التأكيدات: لأنه يكفي، وفي نقطة واحدة على الأقل، أن لا يكون الجني الملعون قد تمكن من خداعي، حتى لا يعود قادرا على إبادة يقين تفكيري الذي لا يســتأصل، وحتى لا يعود لأي جني ملعون من وجود؛ ويكتشف الله نفسه، فيما بعد، وهــو سيد الحقائق المطلق، على أنه كفيل البداهة. مع ذلك، وبما يشبه الاعتباطية يقول لنا

التفكير: يجب التوقف، عندما تحملنا حركة ميتافيزيقية لامتناهية الى الـ - ماوراء. من يقدر على منعنا من تنقية دليل الإعدام، من أن نتصور ما وراء إعدام الماهيات الأولي (إعدام يلغيه الكوجيتو) إعداماً أكثر نقاءً قد يكون إعدام التفكير العادم نفسه؟ بدوره، يلتهم العدم الفكري التفكير بالعدم؛ منذ قليل كان التفكير يعطي، بغير حق، لنفسه امتيازاً بأنه الوحيد المستثنى من إعدام رسولي ويريد أن يبقى شاهداً عليه: إن موضوع التفكير نفسه الآن هو الذي يضم هذا التفكير وينقلب عليه ليدمره؛ ويضاعف التصور حيويته عند تصوره مفهوم اللاشيء الكوني، إلا أن هذا **اللاشيء** يتعلق بدوره بالتفكير الذي كان يؤكد نفسه بالاعدام، مثلما يتعلق الموت في يوم ما بالتلميذ. الساحر الذي كان يتفلسف حوله. من منهما أكثر أصولية: هذا الفعل الذي لا يشبه الأفعال الأخرى لأنه فعل تفكير، والذي يدّعي أنه الوحيد الذي يفلت من الاعدام، وأنه لوحده يبقى حياً في الصحراء، أم الموضوع-العدم هذا، الذي ليس بفكرة، وإنما هو مأساة ولغز، لأن التفكير متضمن فيه؟ إذ، وكما أن الموت ليس للآخرين فحسب، كذلك فإن اللاشيء-على-الاطلاق، لو كان حقاً "**لاشيء**"، عليه أن يكون **لاشيء البتة**، بما في ذلك التفكير الذي لا تصير الكلية كُلاً بدونه... إلا أن هذا الإعدام من الدرجة الثانية يستتبع مجدداً تفكيراً غير محسوس يعمل في المهمة الإعدامية الجديدة؛ وهكذا الى مالانهاية؛ sic in infinitum! فهو انقلاب أبدي من النقيض الى النقيض. تتوصل الإلغاءات الجزئية الى نوع من التوازن بين الفراغ النسبي الذي يمكن لتفكير نافٍ أن يعقله دائماً والإمتلاء النسبي الذي تتم باستمرار إعادة تشكله من قبل المخيلة والإدراك الحسي: ومحصلة هذا الذهاب-والاياب بين الأضداد، شيء ما، مثيل اللا-وجود في السفسطائي، هو غيرية أكثر منه عدماً. أما الإعدام ما-وراء المنطق فهو تأرجح مغالٍ من النقيض الى النقيض، لُعبة جدلية لامتناهية يحيل فيها كل من الفراغ المدوّخ والامتلاء المطلق واحدهما نحو الآخر دون توقف. تستحيل هذه المرة الاقامة في متوسط بين حقيقتين، كلتاهما صحيحتان، الواحدة من وجهة نظر: نفسانية والأخرى من وجهة نظر منطقية: ليس هناك وسط بين فراغ لا يطاق، لأنه لا يمكن تصوره ولا تخيله في آن معاً، وامتلاء ينعدم في كل مرة بمرسوم مبيد، وفي كل

مرة ينبعث من جديد، في الذهن كبداهة متصورة وفي المخيلة كبداهة مُدْركَـة، إن الفرق بين الإلغاء والإعدام هو نفسه الفرق بين تفكيك شيء **جاهز** والعمل على أن يصير ما تم تجهيزه كأنه لم يكن قد عُمِل من قبل: يعيد الإلغـاء، بتحييده أو إلغاءه (في التوبة مثلاً) مفاعيل الفعل وحدها، يعيد إرساء نوع من الوضع القـائم، بينما يباشر الإعدام، بادعائه استئصال radicitus "جذر" **واقعة أن يكـون قـد حدث نفسها**، يباشر إلغاءاً جذرياً ومستحيلاً يجعله مبدأ الهويّة لفظياً ووهميـاً الى الأبد. فذاك لا يولّد إلا أسف المعلولات التجريبيـة، والتي تعوّض دائمـاً، بينما هذا، مبرراً بأبدية الـ fecisse الميتافيزيقية، يؤسس ندم الفعل لمرة وحيدة الأبدي.

II - الـ-ما-يكاد-لا شيء
واستشفاف، ما-يكاد-لاشيء

إن هذا بالذات لهو اعتراف بأن لحظات تعاقب هذا الجدل ليست متساوية. إن كمال الـ -أنا أفكر الدائم، هو، في الفلسفة الثانية، بداهة عقلانية وفي الوقت عينه، حدث تجريبي لا يُدحض؛ ولا يمكن لـ -لاشيء هذا الكمال، وبالتعريف بالذات، أن يتم التحقق منه فعلياً؛ أو لاشيء؛ إذاً لا تُعلن الـ-كل أو لا شـيء Tout-ou-rien، لا تعلن هنا سوى انفصال أفلاطوني، كوّن التعاقب قـد حسم نهائياً، ومنذ الأبد، لصالح الوجود، أي للإيجابية الضرورية والتي لا تفنى. يتم التأكد من الموجود في تواصل الوجود؛ أما الماهية، فإنها معقوليـة دائمـة، أي إمكانية مستمرة، ودائمة لحقيقة يؤكدها تفكيري ويعيد تأكيدها في كل مرة أعيها: إلا أن اللاشيء، وهو عدم وجود وعدم ماهية، لا موجود ولا قائم، هذا اللاشيء لا يُلمح إطلاقاً إلا كحد متلاش وفي جزء-بريق اللحظة. لا يُعقل اللاشيء، لا في كمـال القوام اللازمني، الذي يطرد هذا اللاشيء بردمه كل فجوة، ولا في الفراغ النـتن الذي يخنق كل تفكير، بما في ذلك الفلسفة العادمة: إن ما-يكاد-لاشيء اللحظة-هو من يعطينا نبوءة اللاشيء الزائلة، إنه شبه-عدم جزء من مليـار الثانيـة مـن يكشف لنا **العدم le nihil**. في هذا الأقل-وجوداً، والذي ليس هـو "توليف" وجود، ولا-وجود، بل بالأحرى **كيفية-ثالثة** Terti-cum-quid، أبعد من البرزخ

المعرفي مثلما من الفراغ الـ **méontique**، في لحظة، أخيراً، فراغ ممتلئ أو امتلاء فارغ، يَعلق... للحظة تعاقب لاشيء من التفكير وتفكير مرمم الكل؛ مُعلق، ولكن ليس بمحلول، لأن اللحظة بالضبط هي ما لا يدوم... ولا بأي شكل من الأشكال! والتناوب هو ما كان يجعل الوصول، سواء في الولادة أو في الموت، يتم دائماً إما قبل الأوان بكثير أو بعد فوات الأوان بكثير. من جهة هناك النهار الحاضر-آنفاً دون أي لغز، Esse وجود برزخ ووضوح مفرط- نعم بالفم الملآن مؤكدة كلياً؛ ومن الجهة الأخرى الليل الذي هو سواد على سواد وذروة الظلمات. عندما يظن التفكير أنه أبعد من نفسه، فإنه يكون لا يزال في مادون، لأنه يظن ذلك؛ وعندما يكون حقاً أبعد، لا يعود هناك أي شخص ليعرف ذلك. إذ كيف يمكن لواحدنا أن يكون شاهداً على إعدامه الخاص، أي أن يموت مع بقائه حياً؟ إذا استبعدت تخمينات التفكير-المزيف، وأحلام-اليقظة المبهمة، التي تضع في مقام الفلسفة الأولى التشدق الصارخ بالألفاظ، لا يبقى إلا مخرج واحد: في تلامس اللحظة المرهف، أي في **عدم-مِثل** يكاد لا يوجد (ولكن ليس بالمرة) أو **بالكاد** موجود (لكن فقط على العتبة) بغتة يعاصر الحدس هذا النظير الذي لا يلمس pendant inattingible وليس له مدة والذي هو دائماً فيما بعد ما ليس-بعد، ودائماً قبل ما منه لم-يعد. بشكل تشير معه اللحظة في آن معاً الى ثلاثة **ما-يكاد-لاشيء**: 1 - الانقطاع الدقيق أو التحول المفاجئ غير العميق الذي يجعلنا نعبر من امتلاء الى امتلاء آخر، بعبارة أخرى المفصلة التي يتمفصل حولها الامتلاء؛ إذ ما هو الانسلاخ إن لم يكن أدق شبكة ممكنة لعدمٍ داخل امتلاء ومثل الأقل لا-وجود الذي يجعل الوجود مسامياً، انحلال التواصل الذي يُهَوي كُتلة المعطى-آنفاً المتماسكة؟ ولما كان الموت لا ينجز الاعدام، وذلك حتى بتضمين العدم الفعلي، إلا بإلغاءه الفيلسوف وإشكاله معه، سيقبض الحدس الناصع، وهو شكل من الحياة المحتضرة، سيقبض على **العدم** بحالة **شبه-عدم** وأيض متقطع. 2 - يقابل ما-يكاد-لا شيء الموضوع، ما-يكاد-لاشيء الذهن، المستدق حتى أدق حد فيه: لأنه يبدو أن الحد **الأعلى** للحدس وحده هو المنضبط مع دقة اللحظة **القصوى**؛ فقط التفكير شبه غير الموجود، التفكير الوليد-المحتضر، والمسمى **حدساً** يبدو أن له من الرهافة ما يكفي الأقل وجوداً والمسمى **تحول**. 3 - ما هو خارج المكان ولا يملأ أي حجم يَشْغل كذلك

لاشيء زماني: فالمتابعة يقطعها الحدث كما أن التواصل يعيقه التحول، فالـ -كن fiat و fit لا يحدثان في نفي البرزخ، بل كنفي للبرزخ: لأنه هكذا **تُعرَف البغتة!** - إذن، بالتالي: لا يوجد في اللا-شيء سوى لاشيء على لاشيء أو لاشيء في لاشيء، أي ببساطة لاشيء، عدم لا غير (nihil simpliciter)؛ والعكس بالعكس؛ في امتلاء شيء ما هو كل شيء بالنسبة الى لاشيء، ينفصل الزمان والمكان تبعاً لكثافتهما، وتعمل الحركة المثابرة على شَغْل هذا عابرة ذاك. بين الفراغ والامتلاء، اللحظة هي الـ ما-يكاد-لاشيء، σχεδὸν οὐδέν المنتظم أو حيث ينطبق الزمان مع المكان بشكل مُدَوّخ. وإذا لم تكن اللحظة، وهي حدث فعلي، لاشيء، بل ما-يكاد-لاشيء الوجود الزماني-الزماني وشبه-نفي البرزخ التجريبي، فإنها تصير الانعكاس العادم للجوهر المثالي. الماهية أساسية بصفتها امكانية دائمة لوجود مكاني-زماني وذلك الى مالانهاية، في أي مكان وأي زمان: وطريقتها بأن تكون أبعد من الزمان والمكان، هي ببساطة، أن تكون حقّة، وما الحقيقة في هذا الخصوص سوى اسم آخر لضرورة[1] "هذا مفروغ منه" الكوني والأبدي. والحال هذه، وبينما يمكن إدراك الماهية على أنها قائمة، لازمانية وفوق مكانية، أبعد من كل مكان مثلما هي أبعد من كل تأريخ، فإن اللحظة بالأحرى هي تكثيف شديد للحدث، مع انها ليست **أقل - وجوداً** أي وجوداً منهكاً حتى حدود اللاوجود. سواء كانت قراراً أو حدساً، اللحظة هي شيء ما يقع. يتوقف الإعدام هنا عند آخر حد العدم، يحاول أن يدركه وحتى آخر ثانية، وأشبه ببهلوانية خطيرة، متحاشياً إياه بدقة. ما-يكاد-لا-شيء هذا الذي **أوشك** أن يكون لاشيء، هو حرفياً آخر وجود قبل اللا-وجود مباشرة، قبل **ولا في أي مكان والـ - مطلقاً**: الأخير، الحد الأدنى، والأقرب ultimum, minimum et proximum؛ لكن الحد الأدنى، وجود رمشة العين والبند الأعلى، الوجود الذي أنقذ من الغرق في آخر لحظة، ليس بدوره "وجوداً" - الأصغر من كل الموجودات -، مع أنه كذلك ليس لا وجود: هذا الوجود الأقل هو اللحظة! شبه-أبداً، شبه مطلقاً، شبه عدم quasi nunquam, quasi nusquam, quasi nihil؛ الثلاثة ما-يكاد-لاشيء هذه ليست بالتأكيد سوى ما-يكاد-لاشيء واحد، ذاك الرأس على النقطة: لأن رأس الحدس

[1] Enn, III, 7, 6.

قد توحد مع بؤرة اللحظة. فما لم يعد يحتل، كونه آنفا أبعد من التاريخ، أي برزخ، لا يمكنه إلا أن يكون حدثا، وبغتة فاعلة لمرة وحيدة. ما-يكاد-لاشيء هذا والذي ليس وجودا مستهلكا حتى آخر رمق، ولا مرقفا كله وحتى آخر لحظة "usque ad ultimum momentum"، بل هو ثالث حقيقي بين الوجود واللاوجود، ما-يكاد-لاشيء هذا هو أيضا بالكاد-لشيء-ما. نفس رمش الحدس، يصير حسبما ننظر إليه سواء بصفته عائقا للامتلاء السابق أو بصفته سابقا وممهدا وحتى واضعا الامتلاء اللاحق، يصير وعي يشتغل أو وعي ينطفئ: - شعلة، هي الكلمة الايكارتية، التي قد تناسب أكثر هذين الحدثين المجتمعين في واحد؛ فلا يعود الانبثاق والانقطاع طورين السيرورة متواصلة معكوسين أو متناظرين، بل انهما ليسا سوى ما-يكاد-عدما **Fere-nihil** واحد، تتعذر قسمته والمسمى لحظة. فقط الموت هو النهاية بإتجاه واحد، وعتبة العدم النهائية؛ وهو أيضا ليس لديه شيء يعلمنا إياه، بما أن الفيلسوف لا يفلت من إحراج إمتلاء معقول ينفى منه الموت كليا، وعدم ليس فيه حتى فكر ليفكر. لكن لماذا، لا يشع، خلال البرزخ، الفراغ الأقل لـ-ما-يكاد-لاشيء ببعض نور، قبلا كشعور مسبق، وبعد كـ "معاناة"؟ الحدس أخذ وعي هو فقدان بالوعي، يقظة هي إغماء، وميض يمزق الليل؛ الوعي، في اللحظة التي يغيب فيها، فإنه يستيقظ؛ في اللحظة التي يموت فيها، يبعث من جديد. اللحظة هي انبعاث محتضر، موت هو حياة. ألا يوجد، ما بين الليل وجلاء النهار، وميض يشتعل وينطفئ، ليس بالتناوب، بل في نفس البرهة؟ عند ديكارت أيضا هناك حبات بداهة ويقينيات فورية: لكن فضلا عن "قرار" ثابت ولا يتزعزع يسهر على تخليد الحدوس التامة والمنفصلة، وبالاضافة الى أن تفكير متواصل، وهو جواب إنساني على الخلق المتواصل (لأن الروح تفكر دائما)؛ يضمن لنا أن الحقيقة ستكون دائمة، فإن الامتلاء المفكر، عند ديكارت، هو ما يبرز على خامة لا-وجود حفره حوله الزمان والنسيان، فليس الصدع الكاشف للكل-أو-لاشيء، هو من ينفتح، كمفرق ضوء انطولوجي، في امتلاء البرزخ ويمفصل سماكته الضخمة؛ ليس هناك انقطاع صلة بين مبالغة الإلغاء والحقيقة الأولى، ولا حادث مفاجئ، لأن الجني الملعون، كما سيتضح ذلك بالاستعادة، لم يكن إطلاقا سوى حلم مزعج: فالتفكير ومعه عالم الحقائق بكامله، لا يلي حتى النفي العادم، لأنه كان يعمل آنفا

في هذا النفي. إذا ليس هناك أي **خلو لعرش** الخواء، لكن ربما يضحى جني العدم الملعون جنيا طيبا عندما يضمر العدم ويسترق إلى أن لا يمسي سوى ما-يكاد-لاشيء اللحظة: ربما يتضح اللغز الذي يخفيه عنا الفراغ والامتلاء الواحد، والهوة واليابسة، ربما يتضح بكل جلائه عند تمفصل هذا الفراغ وهذا الامتلاء؟ إضافة الى ذلك، هناك جني ملعون أكثر من جني العدم: هو جني البرزخ الذي لا هوية له، الذي يدلل وعيا غير قلق؛ تواصل متكرر ينساب دون أية عراقيل بالنسبة لرجل الوسط البعيد عن الألف بمقدار بعده عن الياء! ومن يدري، إذا لم يكن الامتلاء الثاني أو ما وراء التجريبي نفسه متفكرا intellective تفكره بمقدار ما يستتبع هو أيضا هذا الومض - لنور الوجود ontophanie-éclair لـ ما-يكاد-لاشيء، هذه اللحظة الدافعة لكل حدس حي؟ الحدس، وقد قلنا ذلك، هو وعي ضائع ومسترد في آن معا- لم يسترد، مثل كنز أخفي بمهارة، بعد جهد جهيد، بل مثل نعمة فرح مباغت في يأس ندم صادق، مسترد **بصفته** ضائعا؛ وبينما ملامسة المحتضر للموت هي ملامسة مميتة حتما، أي لصيقة ونهائية، فإن اللحظة الحدسية هي نصف-عدم يثب التفكير عليها: بحيث إذا كان الأموات يحملون سرهم معهم، فإنه يمكن للحدس أن ينقل الينا نتفا من لغزه. يلحق الحدس ببهلوانية الفكرة وهي على وشك أن **يغمرها** الفراغ: فهو إذا "رأس" اللحظة الدقيق على أهبة الانعدام المباشر؛ موت متناهي الصغر وومض - إغماء التفكير، إنه نية لاغية لا تمضي أبدا، ومن دون أن تبقى في مادون اللاشيء، لا تمضي الى الأبعد؛ والحال، إذا لم يكن هناك من شيء للتفكير في اللاشيء الفعلي، فهناك الكثير للتفكير في نية هذا اللاشيء. اللحظة هي مادة الحدس وتسلسله التاريخي في آن معا: إلا أن هذا التسلسل التاريخي هو توقيت لا مدة له، مثلما هذه المادة هي نقطة لا حجم لها. تدوم أشغال التجريب المضنية بعض الوقت، وتنجز خلال هذه المدة كمية من العمل. والحال فإن "الفعل" ووقت هذا الفعل، الناتج والحدث ليسا في الحدس إلا ليكن "قرارا" **fiat** واحدا. أليس الحدس عالم سحري؛ لنشير الى هذا السحر، ربما يمكننا أن نعيد شباب كلمة لشارل فان لربرغه (Ch.van Lerberghe) مواجهة الاستشفاف مع **الرؤية**. يتمكن الوعي في بلوغه أوج نقده، المتعذر لمسه وروايته لـ-ما-لا -يكاد- لاشيء، يتمكن أخيرا من المستحيل: ان يكون في اللحظة

نفسها، وبشكل متناقض معدما ومشاهدا للاشيئه الخاص، ان يظهر بلحظة ما هو عليه الله بطريقة أبدية لا يمكن سبرها، علة ذاته causa-sui، ومعجزة العلية الدائرية.

III – واقعة الماهية وواقعة الوجود–عموما

إن ما يمكن روايته وتحليله في الفلسفة الأولى هو تطور النافيات الثانوية، التقسيمية والافتراضية كلها، لأنها كلها تفترض إيجابية الفكر النافي نفسه... لم يعد هناك ما يقال حول الأخير، لأنه الوحيد الفعلي والقاطع والكافي، لأنه انطفاء مفاجئ وما–يكاد–لاشيء فوري. لا ينجز بحصر المعنى المحو النهائي للحقيقة النهائية العمل الذي بدأه الأسبقون، والأسبقون لم يبدأوا حتى العمل العادم؛ لما كان العبور من شيء ما الى لاشيء يتم بضربة واحدة في هذا اليأس الفائق **الجهورية** الذي هو كسوف الفكر؛ فإن رصاصة رحمة إغماء الحدس هي بالتالي خارج السلسلة، كما هو خارجها النفس الأخير للمحتضر، ما ليس فقط البرهة النهائية، بل النهاية دون أية زيادة. ليس هناك، ولنقولها باختصار، سوى ميتافيزيقيتان: ميتافيزيقا موت–أحدهم، وميتافيزيقا–اللحظة. كنا نقول: يعدم الموت الماهية في الوقت نفسه الذي يلغي فيه الوجود، وهذا بمقدار ما تكون فيه الهذية المرصودة للموت ipseitas moritura – (هذية فانية) في آن معا معنى ووجود، حقيقة ووعي مفكر: أليس تناقض اللازمنية – الفانية هذا، هو كل فضيحة الموت غير المفهومة؟ إلا أن الموت ما هو أبدا إلا إعدام لآخر، ومع بقاء الآخرين كلهم عموما على قيد الحياة: هو إذا تقسيمي بمقدار ما هو جذري. وأما حدس اللحظة، فإنه يعلق... للحظة، لعبة تأرجح التناوب التي تجدد الوجود في الماهية الى مالانهاية، التي تمنع إعدام الماهية ومعها وجود هذه الماهية، (مع شروط الواقعة واقعة الشروط) [*]: إلا أن هذا الإعدام بالذات، غير المعقول مع بقاء البرزخ وذلك بالتعريف بالذات، لا ينكشف إلا مثل ما–يكاد–لاشيء في وميض الوجود الأقل. ألا يقودنا ذلك الى التفلسف بالمفاجأة؟ مشاهدا موت أحدهم أو مترصدا لشبه–العدم، يحتجز المخلوق في حالتي هذا الموت الكوني الذي قد تشكله بالنسبة له (إن لم تكن بالواقع

(*) V.JANKÉLÉVITCH.

وحشا محالا) اللحظة وقد صارت برزخا. وأي كان الأمر، فإنه ما مـــن إعـــدام جذري إلا ذاك الحري بأن يستتبع الإلغاء، بعبارة أخرى، الذي في فعل الامحـــــاء، يلغي وجود ماهية ما يعدم. لأنه، مثلما يمثل الموجود المفكر "رســـالة" وحقيقـــة، كذلك العكس بالعكس، فإن الحقيقة المفكر بها هي شيء ما موجود... مع أن هذا الشيء ليس شيئا ولا يشتمل على التحقق هنا أو هناك. مثلا: الماهيـــة، بصفتـــها ضرورة، يتم التفكير بها على أنها استحالة-التفكير-بشكل-مغاير، وعلـــى أنهـــا مقاومة لا تقهر لنقيضها غير المعقول. اعتراض البداهة هذا، الذي يفرض نفســـه، تبعا لمالبرانش، على كل عقل حسن النية، هو بنفسه واقعة، حدث فكري يختبر فيه الوعي الارتداد اللامتناهي للحقيقة، والامتلاء التام للماهية. الضرورة هي النظـــام الماثل لـــ-ما-وراء التجريب، وللفكر الثانوي؛ إلا أن واقعة الضرورة، بصفتـــها تقبل الاعدام في وميض **ما-يكـــاد-لاشـــيء**، هـــذه الواقعـــة هـــي اعتباطيـــة و**quodditatif**. بالنهاية، الماهية نفسها ليست مستقلة عن كل وجود، ولا هـــي لامبالية بتحققها في عالم فعلي يوجد فيه، بين أشياء أخرى، حريات تفرض أحداثا، أي بمعنى أنها موجودة وفي آن معا تصنع وجودا. بالطبع تبقى الحقيقة صحيحة ولـو لم يفكر بيار أو جاك بها بالفعل وفي الحال، لأن الـــ-**من** والـــ-**متى** والـــ-**أيـــن** هي النسبة للماهية تحديدات تاريخية ونفسانية-محض؛ واحداثيات عارضة. والحالـة هذه، أتبقى الحقيقة صحيحة ما لم يكن يوجد على الاطلاق أي فكر ليفكر بهـــا فعليا؟ خارج كل فكر ليس فقط حاضر، بل ممكن، بغض النظر عن العقل البشـري عموما، هل يبقى للحقيقة معنى على الأقل؟ تبين إمكانية التفكير أنه قلما يـــهم أن يفكر هذا أو ذاك بالحقيقة، هنا أو هناك، الآن أو فيما بعد، وهي لاتبين أن الحقيقة لا تبالي بأن يتم التفكير بها من قبل أحدهم **بوجه عام**. إن فكر هذا الكائن المفكـــر أو ذاك هو حقيقة أبدية -فانية بشكل غامض، وبصفته مرصـــود للمـــوت غـــير المفهوم، ومتميز عن الماهية: فإن فكر الكائن المفكر بشكل عام، فكر أي كـان، في أي مكان كان وأي تاريخ كان، هذا الفكر هو حقيقة أبدية الى الأبد. إذا حقيقـــة الحقائق هي حرفيا واقعة الوقائع، مع انها دائما أبعد إلى ما لا نهاية من أي واقعـــة مفردة (تماما مثلما يوجد الشر عموما، دون أن يكون بيار أو جاك إطلاقا مضطرين الى تنشيطه باقترافه فعلا في الحال)؛ والعكس بالعكس إن واقعة الوقائع-إمكانية أي

فكر كان بأن يفكر بالحقيقة في كل لحظة: - هذه الواقعة هي على طريقتها حقيقة أساسية. ومثلما إمكانية التفكير عموما، الوجود عموما هو نـــوع مـــن الحقيقـــة الأبدية: وبوجود شيء-ما-بوجه- عام، علينا أن نفهم أي شيء موجـــود، في أي مكان كان، وفي أي آن كان؛ ليس حتى هذا العالم، بل عالم العوالم، ونظام أنظمـة الأنظمة الشمسية الى مالانهاية، ومجرة المجرات، بما في ذلك التفكير الانساني؛ ليـــس حتى الوجود بكليته بل **واقعة** ان هناك وجود بوجه عام، وأن شيئا مـــا موجـــود "potius quam nihil". أليست واقعة كل الوقائع هذه جذرية محض؟ لنتذكـــر أن علوم الكونيات الايونية كانت قد تصورت العالم-الكوسموس، أي ما معناه دنيانـــا الكبيرة الأرضية، على أنه ترتيب قابل للاختلال وصورة قابلة للتشويه ومقام مؤقت للأشياء، لكي تنجو من سؤال حول انحفاظ **الكون-كله**[1] ولتحسن تحويل الانتباه عن الأبدية الأساسية: كذلك، كما تشير الى ذلك فكـــرة الـــدورة الهيراقليطيـــة والامبودقلية ليست دهور العالم أو عصوره ليست إطلاقا سوى مراحل ســـطحية على وجه الأبدية؛ تتطور العناصر، لكن **واقعة** العناصر هي أبدية، لكن "المبـــادئ" هي أبدية. وبصدد الوجود نفسه، وهو الخامة الخلفية للصيرورة الأبدية ولـــ-مـــا-هو-مفروغ منه في نشأة الكون، يفرض كل من التحفظ والتورية نفسه، إضافة الى أن حجة التحقيب تسهل ذلك. إذا كان من الممكن تمامـــا تصـــور ســـنة ألـــف الموجودات، مع أنه لا يمكن تخيلها، فإن "سنة ألف" الوجود-بوجه-عام لا يمكـــن تصورها كما "سنة ألف" الماهيات، وذاك يستخدم لتمويه هذا؛ ولما كان وجـــود شيء ما قد محي في مكان ما من التجريب، فإن وجود آخر قد أعيد تشـــكله في مكان آخر: ولكن في حال تم استئصال مبدأ فعل الوجود بشكل عام بالذات فـــإن الحقيقة الأبدية هي التي لن يعود لها أي معنى. فالوجود-بشكل-عام، بمقدار ما هو واقعة الوجود، وواقعة الماهية نفسها، فإنه ينطبق إذا مع الماهية، أو، وهذا ما يرجـــع للأمر عينه: إن إمكانية الفكر المفكر بوجه عام هي بالذات حقيقة مفكـــرة: وأن يكون ثمة فكر معطى ربما كان أولى الحقائق... والعكس بالعكس ترجع كل حقيقة في النهاية الى هذا المعطى الأصلي والجذري والاعتباطي، الذي هو حامل الحقيقـــة.

[1] J.BAUDRY , Le Problème de l'origine et de l'éternité du monde dans la philosophie grecque (Paris, 1931).

هكذا، يطرح الفكر في آن معا على أنه إسناد مفكر واسناد قابل للتفكير، فاعل موجود وحقيقة-موضوع، أي، في النهاية، تفكير الذات. الماهية غير متميزة عن الوجود-بوجه-عام، ولكنها بالمقابل متميزة عن موجودات التجريب القابلة للتبادل فيما بينها وغير الأساسية والحادثة، والتي تشكل ميدان ما-يمكن-أن-يكون-مغايرا، وما يمكن-أن-يكون-في-مكان-آخر؛ بالنسبة لهذه الموجودات اللامنطقية، يمكن القول أن الماهية هي ماهية كسولة، ἀργὸς οὐσία ، لأنها في ذاتها عاجزة، وغير فعالة وعقيمة: انها شرط ضروري متعطل وسلبي يسمح للموجودات بأن توجد، إلا أنها ليست علة كافية وإيجابية تحتم وجود الموجودات ممكنة الوجود، انها شرعية فكرية تضبط العلاقات الممكنة بين الموجودات ولكنها لا تقرر إذا ما كانت هذه العلاقات ستحدث بالفعل. بالطبع كان الكتاب السادس من "الجمهورية" يفكر بشيء مختلف تماما عن الماهية الكسولة عندما يؤكد أن مثال الخير هو علة الوجود، مثلما الشمس هي العلة الفيزيائية للحياة! إن الوجود-بوجه-عام، الوجود الأساسي، هو من يفرض ويقرر أن شيئا ما سيكون بالفعل: يضطلع الوجود - الماهية بمستوى مختلف تماما، هو مستوى الوجود، الذي لا يمكن تعريفه (لأن الوجود esse لا يمكن التعبير عنه)، الضرورة الماثلة في العلاقات الجوهرية أو المفهومية؛ بدون هذا الـ "نعم" الذي يقوله الوجود للوجود، من يعرف؟ ربما لم تكن الضرورة نفسها إلا حلم معقود جيدا، والوجود بكامله يمكنه أن يصير شبحيا، دون ثمة أي حاجة لتغيير أي حرف في العلاقات المنطقية... إذا الوجود الأساسي، بتوكيله الفعالية، هو من يمنح ترقية الوجود ليس فقط للماهية وهي قانونا غير موجودة، بل أيضا للوجود غير الأساسي بالواقع، ويمكن القول، أن الماهية ما وراء التجريبية دون وجود، والوجود التجريبي دون ماهية هما شكلان متصدعان لماهية-وجود لا ينقسما حيث ينتج الانقسام من ضياع الوعي الميتافيزيقي والذي يبدو دوريا على أنه فوق أساسي في الفعلية الأولى، وأساسي في اللافعلية الثانية، وما دون أساسي أو لا أساسي في الفعلية الثالثة. وبالطريقة عينها، فإن ما يتفكك مداورة الى ضرورة ما وراء تجريبية والى حادث تجريبي يتبين بشكل متناقض وغير مفهوم، على أنه ضرورة اعتباطية في الحدس الميتافيزيقي لـ-ما-يكاد-لا-شيء.

الفصل الخامس

من مقام مغاير كلياً

I - المغاير -كلياً ليس بمقام

بالطبع سيطرح السؤال، لماذا ليس ثمة ميتافيزيقا إلا في الاعدام وبه. بأية قدرية تنكشف اللحظة نفسها، لحدس مترصد على أنها بالضرورة توقف شيئ ما، وتعطيل امتلاء؟ إن الوعي الميتافيزيقي بالمبادئ، بكونه وعياً **بواقعة** المبادئ، هو بالقوة وعي بمجانيتها الأصلية وبإمكانية إلغائها. مثلاً: مبدأ الهويّة هو ضروري، لكن مبدأ الهويّة هو واقعة ومعطى اعتباطي؛ الضرورة هي ضرورية، لكن ضرورة الضرورة هي واقعة، وواقعة ضرورة الضروري هذه هي حادثة! السؤال الآن هو معرفة ماذا سنفعل لنبحث في الـ-**ماوراء**، وما الذي بمقدورنا عموماً أن نتكلم عنه... لقد قلنا: مقام مغاير كلياً. مغاير كلياً، من الواضح كفاية الآن، بماذا. أما "مقام"؟ بالطبع إن لحظة الحدس هي أكثر من دقيقة الاضطراب أو الإحراج الناتج عن النوبة الانفعالية؛ ولا ترجع بغتة الانعطاف إلى أي عنف مفاجئ دون أي مدى في مجرى التجريب، بحيث إن لحظة التجريب إذا أخذنا كل الأمور بعين الاعتبار، لما تكن سوى استمرارية مختصرة جداً، وتكثيف للفاصل ومقاربة فظة: فلا ينتفض الحكيم لأن مفرقعة انفجرت فجأة في المعرض، بل يبقى بارد الأعصاب في اللحظة التي سيدوي فيها الانفجار، أو بالأحرى فإنه ينتفض، بالطبع، مثله مثل كافة البشر، لأنه ككل البشر لحم طري، وهيكل مرتجف، ومخيلة وجهاز عصبي يتأثر، وقلب وجل؛ لكنه ككائن عقلاني يفهم أن "فجاءة" انفجار هي مجرد لاشيء، οὐδέν ، وأن الحدث المباغت سيمُحى في أبدية حتمية ضرورية كونية، وأن المهم-بالنسبة-لنا، (πρὸς ἡμᾶς) هو في ذاته بداهة خاطئة ومظهر فارغ. وبالواقع، فالمقام هو الاختصاص الأكبر للوغوس ما وراء تجريبي؛ إذ لا يكفي القول إنه المقام الآخر نظراً لأنه وحيد؛ ووظيفته أن يستبدل مقام فوضوي، اختلاجي مضطرب

اسمه الحقيقي الاختلال. بمقام معقول من دون أي علاقة بالتجريب المشوش. فكيف لا يملك العقل الديكارتي أكثر العلاقات حميمية مع المقام، عند فيلسوف تنحو كل صنعته إلى أن يجد ضمانة جديرة بالثقة ضد مكائد اللحظة، ضد جني اللااستمرارية والمفاجآت المحتال، والأحداث المتفرقة المفككة، والاندفاعات البركانية لتجريب مخيب للآمال بمقدار، ما هو منحرق؟ - معنى ذلك أن المقام المعقول هو، من هنا بالذات، مُعلِّم للحكمة: فعند مالبرانش، يتبع **المقام** الثابت والحقيقة الضرورية لقانون أبدي واحد، ولفعل واحد[1] كوجهين الأول أخلاقي والآخر رياضي. من هنا المعنى المزدوج لكلمة "مبادئ": فمن جهة، المبادئ هي ماهية الموجودات، أي إنها تؤمن الكثافة والاستمرارية والبقاء لوجود لم تكن مع ذلك قد قررته؛ ويجد خلود **فعل الوجود**، الهش بالنسبة للإدراك الحسي، يجد نفسه بالتالي مؤسساً ومبرراً في المبادئ؛ والمبادئ من جهة أخرى، هي ما يمنح الاستقرار والثبات الذي لا يتزعزع لسلوك، وتعطي للعميل "وضعية" ومثالاً ومعايير أخلاقية وحِكَماً متماسكة. وأخيراً، يسحب لبنتز Leibniz، فيلسوف المقام والمعقولية الى مالانهاية، من الاعتباطية الإلهية مقام الضرورة المنطقية-الميتافيزيقية ليجد تبريراً أفضل لمقام القيم وعلاقات الكمال وليعد على المجتمع الأخلاقي الذي تشكله جمهورية الأرواح مع العناية الإلهية. كل ما في المقام يعلن عن الاستمرارية الثانية، تلك التي تتضح في العرض والمنهجية المعمارية كما في الخلود والسرمدية الأساسيين؛ ينحو المقام إلى أن ينتظم عنوة في مدينة معقولة؛ ويسهل علينا أن نعثر في بنية وتراتب هذه المملكة المثالية على التشكلات الكونية لنصف-الميتافيزيقا: هذا العالم المرصود ليكون نمطاً بدئياً، نموذجاً أو مثالاً للمحسوس هو بنفسه تقليد؛ فهو يُخضع لنقل متسامٍ تناظرات وهندسات معمارية ينسخها في الواقع عن الجوقة أو عن المدينة أو عن الموكب. لقد تمت آنفاً الوشاية بالمماثلات الملتبسة، والتجانسات المجازية في كتاب "**الجمهورية**" السادس. ألا تنحو فكرة "العالم" "mundus" نفسها إلى إعادة الاعتبار لنهاية التشبيهات بالإنسان والكواكبات الاجتماعية التي استتبعها عالم الميكانيكية السماوية اللامتناهي؟ إن نسق الأنساق هو أيضاً نسق، ولا يقاوم **الكلي**

(1) Méditations chrétiennes (éd. Henri Gouhier, 1928), III, § 21, et IV; Traité de Morale (éd. H. Joly, 1882), I, 1; Traité de l'Amour de Dieu (éd. D. Roustan, 1923).

دائماً الانحلال **الدنيوي** ... لكن حتى ولو قبلنا أن "عالم" الماهيات الثانية غير متلوث بتجسيمات الحس المشترك الإنسانية، وبالآراء المسبقة للفلسفة الثالثة التي يجدر تسميتها الفلسفة الكاذبة، فإنه يحتفظ بميل للتوسع في سماء معقولة، أو (إذا كنا نفضل هذه الصورة) ليقدم للأنظار جلالة صرح أمبراطوري. ولا يندمج المقام مع مملكة المثل أو هرم القيم فقط، بل انه بالذات أبدية الماهيات. إن إنسان التجريب المهتدي الى ما وراء التجريب هو من يشكل قدوم عصر جديد قدوماً حقيقياً بالنسبة له؛ فالمقام اللاحق هو في ماهيته لازمني، لكن انكشافه للفكر المنتبه هو ما يؤرخ، والعكس بالعكس: ربما يسم التحول إلى الرياضيات بداية تاريخية لحياة جديدة، إلا أن الحقيقة نفسها لم تتوقف أبداً عن الوجود، وعن أن تكون، والى مالانهاية، موجودة من قبل، وذلك حتى في تموجات معرفة النوع الأول[1]، لأنها هي من منح الشك Dubitos تماسكه كله أو هي حقيقة الوهم الوحيدة. فكيف لن يعثر مالبرانش، مستلهماً أفلاطون من جديد، على **الجمال** الأساسي عند نفس مستوى **الحقيقة والمقام** الثاني؟ هذا المستوى هو في آن معاً مستوى الماهية الآنفة الوجود واللاحقة الوجود، أي الدائمة – المقام المعقول هو ماهية وحقيقة الوجود التجريبي، لكنه ليس هو من أرسى هذا الوجود لكنه ليس خالقه! بالطبع لم يكن ديكارت دون أن يحدس، فيما وراء المقام بالله الذي لا يُكتنه والذي قد يكون مصدر هذا المقام؛ وإذا وضح مالبرانش جيداً استشارة **الآب**[2] **للشريعة** الأبدية؛ فإنه يبين بدقة في موضع آخر أن المثل هي جزء من الماهية الإلهية، بحيث إن الله عندما يشاور "الحكمة" فإنه يشاور نفسه. ولا يبقى أقل من أنه حيثما يمتزج **المقام** مع "النموذج"، تنحو طبيعياً حكمة مضبوطة على **المقام** نحو دوغمائية التقليد الشكلية والفكرية: لا تفرض إيمائية مُشيدة على تأمل النمط البدئي الأبدي الإلهام، والإبداع أو الارتجال على الحكيم بقدر ما تفرض عليه الأمانة؛ فالأمر يتعلق بالنسخ وليس بالخلق.

---

(1) C'est, dans notre langage, la connaissance numéro trois.

(2) Méditations chrétiennes, III, 21; Traité de Morale, I, 6.

II – تماس الحدس مع الآخر–كلياً

لا يبطل المقام الثاني الـــ doxosophie ويهفتها باعدامها، بل باســـتخراجه الأساس المتماسك الذي يختفي تحت لاتماسكها؛ وهو يغني أو يصحـــح الظـــاهر التجريبـــي، ولا يلغي وجوده. وهذا بالذات فإن لحظة التهفيت (ἔλεγχος) الســلبية هي إيجابية–إيجابية أكثر منها وضعية: فتهفيت اللانظام هو في الضربة عينها تأسيس للحقيقة. فهل يمكن الآن تصور مقام يكون مغايراً تماماً، أي إنه مغاير حتى للآخر، مغاير مع دليل، ويملك، على هذا الأساس، وفي الآن عينه الأبدية الأساسية والتوسع الممنهج منطقياً؟ يقول باسكال[1] إن المسافة اللامتناهية بين الأجساد والأرواح هي الصورة الباهتة للمسافة **غير المتناهي لاتناهيها** بين الأرواح وحركة الرحمة. والحال، تناوئ الطبيعة "الكنسية" أو الأسرارية لمقام آخر كلياً، والمنفتح بعناد على لاتنـــاهي الأنا الذي يجد نفسه منخرطاً فيه، تناوئ كل انغلاق نسقي. فكيف يُمنـــح بنيـــة معمارية أو حتى مجرد مؤونة فاعلة لما يُجدر به أن يجمع في ذاته المنظورين المتناقضين للشمولية الموضوعية والمصير الشخصي، وأن يلبي في آن معاً إلزامـــين متنـــاقضين، الأول علمي والآخر مأساوي، اللوغوس التجريدي وهذية الضمير الأول؟ لا يمكن لحقيقتين تتبادلان الهدم بهذه الجذرية –لأن الكل–أو–لاشيء الوجود بوجه عـــام، تفكير مُفكَر ضمناً، يضع موضع السؤال هذا التفكير بالذات – لا يمكنـــهما إلا أن يصنعا "مقاماً" مائعاً ويتعذر إدراكه وبالضبط وحشاً: لم يعد هناك من مُشاهد أمام مشهد، فاعل أمام موضوعية إشكالية أو مفترضة، بل ممثل منخرط في كلية جوّيـــة مترنحة، لا يمكن أن تُعاش حيث تنفي حقيقتان كل منهما الأخرى. قد يكفـــي أن نُذَكر أن الإنسان يعي هذا الكل–أو–لاشيء في تماس–ومض اللحظة، وإن اللحظة، وهي قطع متناهي الصغر في مجرى البرزخ، تنبذ كل تواصل، كل خلود، كل تشييد لـــ "ترتيب" ثابت ودائم. بالتأكيد ما–يكاد–لاشيء، قليل بإفراط ليقعد أي مقـــام وليكفل توازنه! فكيف يمكن لهذا السِن المرهف الدقيق للوجود–الأقل، أي للحـــد الأدنى من الوجود والذي هو على عتبة اللا–وجود، كيف يمكنه أن يخدم كقـــاعدة ليغذي عصراً جديداً أو آدم جديد؟ فقط الموت كان بإمكانه بهذا الصدد أن يُمثـــل

(1) Pensées (BRUNSCHVICG), XII, fr. 793.

قدوم مقام نهائي، لو أنه لم يكن انتقال الوجود الى مجرد لا-وجود، أو على الأقل الى ما هو جذرياً غير معقول. إن **التماس**، أي الملامسة الفورية وشبه-الخفية التي بواسطتها يمس الحدس ما هو كلياً-آخر، هذه الملامسة هي إذا صح القول مقدمة لا تُقَدم شيئاً، وتبقى على طريقتها دون مستقبل ودون أي تبعات. وكلمة "انعطاف" بالذات ليست هنا سوى أسلوب في الكلام، في نطاق ما يشير الانعطاف الى العبور من برزخ الى برزخ آخر، ولاحقاً، إلى إزالة الفوارق، المصطبة؛ - مصطبة مع كل ما يعثر عليه المتسلق، وقد مشى من جديد على المنبسط، في أفقيته الجديدة: إعتراف جديد، رزنامة جديدة، ومتابعة جديدة؛ يواصل المُهتدي برزخه، لكن على مستوى آخر، وطابق آخر، وينتهي البرزخ دائماً بأن يهضم المبادرة. أما التلقين على المقام-الآخر-كلياً، إذا كان هناك "مقام"، و"مبادرة" فإنه يبقى عند الطور البدئي، ويتوقف فجأة دون أي نتيجة؛ هذه البداية ليست بداية مستأنفة (لأن هذا سيكون التوليف مافوق الطبيعي للحظة والبرزخ) ولا هي عتبة متابعة جديدة (كنظام تجريبي)، بل بداية هي بالضربة عينها نهاية؛ تولد وتموت في لحظة البغتة؛ ولا يلتفت الإنسان الـ épistrophé الى الوراء إلا ليشيح مباشرة، كأنما بهره ضوء عظيم مبهر. والذي يعتقد أنه صار آنفاً في الـ-ماوراء، هو وباللحظة التي يعتقد فيها ذلك، وأكثر من أي وقت مضى، في الـ-مادون، وبالتحديد لأنه يعتقده. وإذا جاهر بالعكس، فهو لن يكون إلا دجالاً، ومشعوذاً، ومرائياً، وخداعاً، فالمكان ماوراء المنطقي، τόπος μεταλογικός ، ليس مكاناً على الإطلاق، ولا هو مهنة ولا سوقاً للترياق المزيف. لنشدد أكثر: الـ-ماوراء، هو في أقصى ما يمكن بلوغه، عند الحدود المتناوبة والنادرة والشاذة للنشوة الحدسية، لكنه، وبالتعريف بالذات، ما لايمكن لأي مخلوق متناه أن يدّعي الإقامة فيه من دون أي تناقض، إلا إذا صار ملاكاً. ألا يستبعد التماس التوطن؟ وكل متابعة لهذه الإنية المنبثقة-المترنحة هي إذاً تهريج، تفكير-مزيف وصورة بلاغية. ويجب أن نكون جدّيين، أليس كذلك؟ "المقام" الأول أو ماوراء المنطق ليس "مقاماً" بأكثر من كون الفضيلة المهنية ليست فضيلة؛ أو من أن الحكمة بالفعل ليست تفوقاً؛ بناء عليه، ليس هناك "انعطاف" إلى الـ "كلياً-آخر". بأكثر مما ليس هناك، **بالمعنى الحصري** stricto sensu، "إتقان" أخلاقي. تُفجر حقيقة التقدمية

التجريبية-التقنية أو الاجتماعية-تفجر دجل "التقدمية" الأخلاقية والمكر المختبئ في كل تجريب لقاعدي المنطق بوجه عام. بعبارة أخرى: ليس هنـــاك أي ارتقـــاء الى الآخر-كلياً مثلما يتم التقدم أو الترَفّع في "مقام" جوقة الشرف، لأن الارتقاء هـــو في الضربة عينها انتكاس جانبي. يرسم الرسامون البدائيون السموات السبع عـــن طيب خاطر كما لو كانت نوعاً من جوقة الشرف حيث تتراتب الكائنات فيـــها وفق قواعد "جدول" ... والجدل بوجه عام هو نوع من أسطورة غـــير موجهـــة، يعتمد بكامله على المصادرة التالية: تترسمل أرباح التقدم وبهذا الشكل لا يعود هناك لزوم لإنجاز ما أنجز. وبالعكس، تعبر مسارات الحدس المتكررة والمتقطعة والبدئية في كل مرة، تعبر عن أنه يبقى علينا إنجاز ما أنجز، إنجازه وإعادة إنجازه أبدياً. ثمة صلـة بين فكرة تقدمية الجدل وتقدمية المقام بالفعل، مثلما هناك صلة أخرى بين التحـول المباغت أو الشامل، والوجود-الأقل للحظة. يرتفع المُجادل الى الطـــابق الأعلـــى باستعارته السلم الذي يعبر المستويات المنضدة ويلقى نفسه أخيراً بالكامل في الشقق الملكية. والحال ليس هناك من **مخطط** ميتافيزيقي بحصر المعنى، مثلما لا يوجد أيضـاً درجات وسيطة؛ وحتى مقام ماوراء-التجريب ليس، عند الحاجة، طابقاً مسروقاً أو سقالة قائمة بين اللا-نظام التجريبـــي والكل-أو-لاشيء القاعدي- المنطق: يتـــم الارتقاء بضربة واحدة، في ما-يكاد-لاشيء اللحظة يصل التماس الذي لا مدة له، تماس الحدس غير-القابل للمواصلة مع هذا الآخر-كلياً للكـــــل-أو-لاشـــيء-. والحال، ربما لم يكن هذا سوى ظاهر براني، فالتماس مع ما يتعذر لمسه له هو نفسه عواقب يتعذر لمسها. بالطبع، في مجرى التجريب ثَمة "قرارات" "fiat" - مثـــــلاً، قرار جريء لخبير استراتيجي خلال المعركة-تنتج عنها عقابيل أضخم بكثير مـــن هذا الانعطاف غير الملموس إلى لاشيء إطلاقاً، هذا الانعطاف الذي لا كثافة لـــه والذي لا يتبعه شيء. فليس للحظة ontophanique امتداد في البرزخ، بمعنى أنها لا تؤثر، مثل علة فيزيائية، في المجرى المادي للأحداث: لكنها ربما أحدثت في الكـــائن (être) تجلياً روحانياً غير مرئي ولا يمكن التعبير عنه. إن التحول من مقام الى مقام، التحول الذي يلفت الانتباه، يخلق اضطراباً حسياً، وهيجاناً إنفعالياً، يمتصه العقـــل المستكشف بسرعة. لكن من الذي سيمتص أو يحل أو ينهي ارتباك العقل نفســـه، ذاك الذي يجد أصله في اللغز اللاعقلاني لـــ-ما-يكاد-لاشيء؟ هذا الارتجاج غـــير

المرئي والذي لا يمكن تجاوزه في الآن عينه شأنه شأن ما-يكاد-لاشيء، المـــترنح، هو "الرسالة" الوحيدة التي يحملها إلينا التماس المنتظم: رسالة أي بمعنى، ما هو غـير قابل للصياغة مما لا أدري ما هو، حول الآخر-كلياً مما لا أدري ما هـــو، حـــول ماوراء لا يُدرى به! ذاك، إن لم يوجد مقام، حكمة أو مصطبة، متين، ما يجدر بـــه أن يكفينا. يشبه امرء ما بعد التماس، يشبه ذاك الذي، مثل دستيوفسكي، قـــارب الموت، حتى أدنى حد منه، مع بقائه ما دون العتبة الأخيرة التي في حال تجاوزهـــــا يتعذر عليه الرجوع من الرحلة والانبعاث الإعجازي: لقد تغير من الداخل، وهـــو مع ذلك صامت، كأنما يتذكر "بلاداً موحشة وتعيسة"[1] **كاد** أن يرسو فيها. هـــل رأى إذاً شيئاً ما، عرف سراً ما، رجع من "العالم-الآخر" لناس الــ "هنا" علـــى الأرض بمعلومات غير منشورة؟ ʼΑναβιοὺς δʼ ἔλεγεν ἃ ἐκεῖ ἴδοι (أما وقد بعـــث من جديد فإنه يروي ما كان قد رأى)[2]: تلك هي حالة **Er** المهرج الذي "رجـــع من هناك" لأنه قد ذهب الى هناك، ولأنه تدرب هنـــــاك، ولأن الـــــ-مــــاوراء الموصوف طوبوغرافياً كعالم-فعلي - (ما وراء العالم!)- ليس في الواقع سوى مـــا دون بالرغم من مناظره الخلابة وإضاءته الأخروية. فكيف لا يتحلق رجال الـــبرزخ حول هذا المستكشف سواء كان عوليس، فرجيل، أو دانتي - لكي تـــروى لهـــم تفاصيل الرحلة المرعبة الى جهنم؟ إن من دخل حقاً الى "الأموات" لم يرجع منـــه على الإطلاق، ومن رجع مليئاً بالروايات والتفاصيل الجغرافية لم يدخل إليه أبـــداً. بين المسافر المأساوي المعدوم، لأنه يعرف بإفراط، والمهرج الثرثار الذي لا يعـــرف شيئاً، هناك الرسالة الحدسية **لشبه-العدم**: رسالة مخيبة للآمال، وحتى فارغة، لو تم الاكتفاء بقراءة قواعدية، أي إذا تم السؤال فقط حول البدء، وأيـــــن، وحرفيـــاً؛ وبالعكس ثمة امتلاء شديد الإيحاء والتلميح والدفع (agogique) لو تم التطابق مـــع النية الباطنية للرسالة. لا تستمتعوا الى "الشخص المضحك"[3] الذي يحكـــي لنـــا دستيوفسكي حلمه، لأن هذا المهرج الجديد لا يعرف أكثر من المـــــهرج الأول... للأسف! هذا المهرج هو تارتاريان Tartarin وطلاقة لسانه بالذات تجعله مشـبوهاً؛

(1) Henri DE REGNIER (épigraphe aux Heures dolentes, de Gabriel DUPONT).

(2) Rép., X, 614 b. Cf. Gorgias, 523 a; Phédon , 107 d.

(3) Songe d'un personnage risible. Récit fantastique (1877):Journal d'un écrivain, II,I.

ومثل كل المتشدقين فإنه يتكلم بإفراط عمّا لا يوصف وعما لا يمكن روايته ليكون عارفاً بشيء ما؛ إنه لم يستعلم بأفضل منك ومني. ربما يكون المحكوم بالإعدام والذي يعفى في آخر لحظة[1] هو بالأحرى من يعرف شيئاً ما، لأنه هو من عاش التماس حتى ميليدرام الميلمتر أو الميليايريم الثانية. أو بالأحرى كلا: إن رجل **شبه-العدم** الذي نجا من **العدم**، وكان مباشرة عند عتبة مالارجوع عنه، رجل الساعة الحادية عشر والـ-ما-يكاد، رجل المخاطرة المميتة، الرجل الذي **كاد** (usque ad mortem) (حتى الموت)، لا يعرف، بدوره، شيئاً أكثر، لأنه ليس هناك من شيء **ليُعرف**؛ لنَقُل، إنه وعي ما كان يعرفه مسبقاً ودائماً : لأنه من الممكن أن نتعلم ما هو شائع جداً، - مثلاً عندما "**نتحقق**" منه على أنه حدث فعلي، وعلى أنه متعلق بنا شخصياً. إن امرء ما بعد التماس ليس حائزاً على رسالة سرية، لكنه هو نفسه وشخصياً هذه الرسالة: هذه الرسالة، ما-لا-أعرفه هذا الذي هو لاشيء، هي في آن معاً، وبشكل متناقض النظر المدهوش الذي ينظر به إلى وجود العالم، والنظر المترفع والبعيد الذي يرميه على أعمال البرزخ وتجارته؛ إنه معامل غرابة غير محسوس وهو يضرب كل تجاربنا ويجدد الاستعداد الفلسفي بحصر المعنى لوعي مستمر لمجانية الكل-أو-لاشيء.

III - فوق الحقيقة

أيكفي كل هذا لصناعة "مقام"؟ إن اللحظة، إذ تمنحنا أعيناً جديدة، وتحول إلى الداخل مستقبل التماس، فإنها لا ترتّب ولا تنظم شيئاً حوله. وهي بالأخص لا تفند المقام الثاني بالمعنى نفسه الذي يفند فيه المقام الثاني المقام الثالث، هذا المقام الناقص، هذا المقام قليل الريع، هذا المقام المخيب للآمال وغير الفعال، والذي يمكن تسميته فوضى. من الطبيعي أن الحقيقة الأكثر تماسكاً تجعل الحقيقة الأقل تماسكاً لاغية، وأن المقام الأكثر صحة يصحح ويصلح ما ليس في نهاية المطاف سوى كاريكاتور مقام. والحال، لا شك أن الحقيقة الأساسية "صحيحة أكثر" من نصف-الحقيقة المدركة، أو حتى من حقيقة الواقعة الفيزيائية، أولاً لأن الفكر يُكرّم فيها المبادئ والمسلمات العقلانية التي يجعل نفيها هذا الفكر مستحيلاً، ومن ثم لأن

(1) L'Idiot, 1, 2 et 5. Cf. Victor HUGO, Le dernier jour d'un condamné.

الحقيقة الأساسية هي حقيقة تنجح، كون الماهية "غير موجودة" ليس دون قيد أو شرط، بل كإمكانية تطبيق لامتناه وكإمكانية وجود في أي مكان وزمان هنا أو هناك وفق الخاطر. إذاً، هناك، وبهذا المعنى درجات من الحقيقة: علاقات التجربة ومبادئ العقل، تلك هي حقيقتيّ البشرية المزدوجة لمخلوق شاعر ومفكر... والحال، هل هناك، بهذا المعنى "حقيقة" أولى قادرة على **التحقّق** من الحقيقة الثانية أو تصحيحها؟ هل يوجد بعد الانقلاب من مع إلى الضد، انقلاب على الانقلاب، إنقلاب من الضد الى مع، إنقلاب متساوق ومعكوس قادر على إلغاء الأول، وأن يعيد الاعتبار، في هذه الحالة، لنصف-حقيقة ونصف-مقام التجريب؟ قد تعتقد العبثية المحترفة واللاعقلانية المنهجية ذلك عن طيب خاطر، ويجعلان من "الجهل" واللاأدرية وضد-الرياضيات دوراً واختصاصاً. لدينا هنا بحث عقائدي حول اللغز، وتشييئ لما هو الأقل شبهاً بالشيء أي هذا الـ-ما-يكاد-لاشيء الآني حيث ينكشف الآخر-كلياً على أنه الكل-أو-لاشيء. فضد-المقام هو أيضاً مقام، إذن هو مادون. إن نسقاً لأضداد-الحقائق أو للحقائق المعكوسة ليس فلسفة أولى، بل هو صورة سلبية للحس المشترك. أن نقول أخيراً اثنين زائد اثنين يساوي خمسة (أي **يساوي** خمسة حقاً وبالفعل)، وأن ما هو عينه هو آخر وأن الكل هو أكبر من مجموع أجزائه (محددين الكمية)، ليس هذا بفضيحة فلسفية بمقدار ما هو خدعة امتثالية أو صخب برجوازي. إضافة الى أنه استغلال للعقل لتفنيد العقل. لأن اللامعقول (l'elenchos)، أليس كذلك؟ هو حقاً شغل اللوغوس... فكيف يمكن في آن معاً إنكار العقل والتفكير ضده؟ ينتج عن ذلك: أن حقيقة المقام الثاني تبقى غير مفندة حتى بعد كشف جذرها واحتمالها الأساسي. فحيثما مرت الرياضيات لا يعود بالإمكان تصديق الرأي ولا الأحكام المسبقة الحسية؛ ولكن بعد السؤال الجذري كما قبله، تبقى الرياضيات والمنطق صحيحين كلياً: لأن هذا السؤال ليس نقدياً بحصر المعنى؛ وبالتالي لا يوجد هناك أي خلاصة ولا أي تبعة للاستنتاج. - لنعترف أخيراً: لا يوجد "مقام" أول، لأن الآخر-كلياً ليس **كائناً**: لا وجودَ "ens" ولا ماهية لهذا الوجود الـ ..."ens" المقام هو امتياز ثانوية ما وراء التجريب، ووسيط ميتافيزيقي بين فوضى التجريب وآخر لا أدري ما هو، والذي ليس هو بمقام ولا فوضى وحيث يجب الاعتراف بمصدر القوام، "fons ordinis". في

طوابقنا الثلاثة، هناك إذاً طابق ليس كالطوابق الأخرى، ولا هو مثيل أي شـــيء آخر، لأنه مغاير لكل موجود ولكل ماهية، أي إنه **المغاير–كلياً**، **والآخر–إطلاقـاً**، الـ πάνυ ἄλλως لـ παντελῶς ἄλλο . اللامسمى هذا، والذي هو في آن معــاً لا موجود، ولا أساسي وغير مرئي وغير ملموس، والذي هو مع ذلك نقيض العــدم، يترك السيادة عملياً لمقام ما وراء التجريب؛ فالحافة مراوغةٌ دائماً وتضيع في الغيوم. يعطي المقام المعقول معنى للتجريب أي بمعنى يجعله مفهوماً، ويؤمن من ناحية أخرى نجاح الفعل ويمكن، أخيراً، بصفته جوهري أبدي، أن يتم دائماً التحقـــق منـــه في التجريب. وبالعكس: فهو لم يسبب و لم يضع ما يشترطه. وضده تماماً الآخــــر– مطلقاً بخلق الآخر ببساطة–أو الآخر النسبي لأنه مصدره؛ ولكنه على النقيض ليـس مقروءاً في نص ما وراء التجريب لأنه، إن لم يكن لاشيء، فهو على الأقل **كأنـــه** لاشيء، لأنه شبه–عدم وجود وقِوام، وهو بشكل ما صفر محض أو طريقة غيـاب! فالنَفَس، ونسمة خفيفة هما "موجودان" أكثر بكثير من هذا اللامحسوس، ما لا وزن له، وغير غامضين بإفراط خاصة أمام هذا الالتباس الأسمى! من هنا ميل النظريـــات اللاهوتية الجافة قليلاً الى تحويل الآخر–كلياً الى مجرد أسلوب أو "دفعة": رفع قبعـة مفخمة وبروتوكولية لـــ "fons ordinis" (مصدر) وها نحن متعادلون وإلى الأبـــد مع الشكليات ... أخيراً، لم يتشكل حدس مصدر المقام ليدعم الحقائق الســـحيقة، والوطيدة، بل بالأحرى ليوقظ الشكوك حول قيمتها المقدسة بإيعازه لنـــا بفكـــرة النـــزوة الاعتباطية، والتي ربما، في آخر التحليل، تتعلق بها مثالية المعايير. بـــالطبع كان عند ليبنتز أسبابه ليضاعف التدابير الوقائية ضد القلق وليخفي إشكال الأصـــل الجذري الذي يثيره "الطغيان" من دون أي تحفظ. تظهر الحقيقة غير الحادثـــة، أي بمعنى غير المولّدة وغير القابلة للفساد في آن معاً، تظهر على أنهـــا مجانيـــة وحـــتى اعتباطية للوعي الذي يكشف مداخلها ومخارجها. إذن، إن كان المقام "المعقـــول" هو ما يجعل الفوضى الحسية مفهومة وذات معنى فإن المقام الأعلى لا يـــهدف الى جعل المعقولية الشفافة تماماً والقصوى حقاً للمسلمات والمبادئ الأبدية، لا يـهدف إلى أن يجعلها مفهومة، لكنه يشيد هذه المعقولية ويؤسســـها، يكشـــف لا معـــنى معناها، وإمكان ونسبية ضرورتها، وأخيراً الليل الذي ينبثق منه نورها. أخيراً، مثلما يُعجِّل التأمل في الموت إفلاس الوضعية الحيوية، كذلك تكفي سريرة إعدام واحـــدة

في **شبه-عدم** اللحظة لتبخّث وتضعّف الممارسة؛ وليس للرجل العملي لامبالاة ميتافيزيقية مفرطة ليحتمي من أفكار مُرعبة وغير ذات فائدة لقيادة، وإعادة قيادة أعمال البرزخ: لأن سخرية اللاهائي تسفه بشكل خطير تراتبية القيم المتناهية، وبالعكس، لا تجد الممارسة، التي تحتاج الى التقطيع، والتي هي دائماً تقسيمية، لا تجد ما تفعله بحدس الكل-أو-لاشيء المميت. مصدر المقام إذاً هو شيء ما غير المقام تماماً؛ أو بالعكس، إن الآخر-كلياً، الذي يؤسس المقام، لا يمكنه أن يكون هو نفسه مُنَظماً، مع أنه بحصر المعنى ليس الفوضى، - كون الإنشطار الى مقام وفوضى المؤسستين آنفاً كوهما لاحقين على المؤسسة. بعبارة أخرى؛ إن ما يرسي الحقيقة ليس **صحيحاً**، إن ما يرسي الحقيقة هو بالأحرى ما فوق الحقيقة، ماوراء لا صحة ولا غلط الحقيقة المؤسسة. فما فوق الحقيقة الذي يجعل الحقيقة صحيحة ويرسي اعتباطياً الحقيقة والبداهة وكل القيم ليس هو بنفسه قيمة ولا هو بداهة ولا هو حقيقة. ولو لم نكن نخشى أن نُذَكِر بالأقانيم لقلنا: إن ما هو نفسه يظهر دورياً، تبعاً لتوتر وعينا الميتافيزيقي الذي نعيه به، يظهر على أنه ما فوق معقول، وعلى أنه معقول، وعلى أنه تحت المعقول: ما فوق المعقول بالنسبة لحدس اللحظة، ومعقول خلال عمل اللوغوس العادي، وأخيراً، تحت المعقول بالنسبة للتجربة الحسية؛ كما لو أن المعقول يجد نفسه مندرجاً بين ما تحت المعقول الذي ينظمه، وما فوق المعقول الذي يؤسسه: ذاك آنياً أو نسبياً غير مفهوم، وغير مقدر، nondum intellectum (ماليس بعد عقلاني)، وهذا لا معقول أبدياً، ولا يُعرف هائياً، لأنه **لا يمكن** أن يكون مفهوماً. ليس للحقائق، التي تعطي معنى للموجودات، ليس لها معنى بذاهّا، **لأهّا هي بنفسها المعنى ذاته**: فهي لا تحمل أي معنى تتلقاه من الخارج، إنها كلها وبالكامل **المعنى**، المعنى الذي يقبل بنفسه ما يمكن أن لا يكون له معنى. ليس للأصل الجذري للمعنى معنى، لأن هذا الأصل ليس هو المعنى، لأنه مغاير تماماً للمعنى، مع أنه ليس أخرق حقاً، ولا هو اعتباطي بالضرورة، إذ يمكن لمنبع كل معنى هنا على الأرض أن يسمى حرفياً لا-معنى؛ وهو لا يمنح نفسه بصفته سابق الوجود، ومستمراً دائماً ومتماسكاً، لشيء ما آخر، بل هو اللا-وجود المحض، واللاتماسك المحض؛ الذي يخلقه حقيقة الحقائق، ينسحب من هذه الحقائق ما أن يُفكر بها، - لأن ما يجعلنا نفكر لا يمكن أن يكون إلا مالا يمكن

التفكير به. فالوعي الأكثر هلوانية، الوعي شبه-المستحيل، أقصى وعي ميتافيزيقي، هو بالتالي الوعي الذي ننجح، ونحن جاثمون على "الحدس الثاقب" "acumen intuitionis" بأن نعيه بومض مبدأ مكوِّن محض. وبصفته في آن معاً، مكوِّناً ومكوَّناً، مؤسَّساً ومؤسِّساً، فعل فعال، واسم مفعول سلبي، فإن المقام بحصر المعنى، هو حرفياً ثانوي، أو، وهذا يعني الأمر عينه، لا يعود بإمكانه أن يكون مبدأ الضروري بالنسبة لاحتمال الموجودات، والاعتباطي، وبالتالي الافتراضي لمن يعي هذه الضرورة على أنها واقعة وعلى أنها كلية، إن الـ ordo ordinans-ordinatus يَعِدُ العقل العلائقي بالشباب، وبمستقبل غير محدد لإشكاليته الدؤوبة. هذه الحقيقة الثانية هي حقيقة كاملة وكافية، مع أنها بمعنى آخر ينقصها شيء ما... يجد الإنسان العاقل في سياسته كمخلوق كل ما يعرف، وهو متطابق مع حكمة ماوراء التجريب مثلما يتطابق مع الجدّية الضرورية للحياة بعدم البحث في الـ-ماوراء؛ إذ لا يرغب التفكير الذي يبلغ سقفه الأعلى في ممارسة البرهنة، لا يرغب في ثقب هذا السقف وبأن يلقى نفسه بعد ذلك متشرداً غطاؤه السماء! لا ينقص شيء... ومع ذلك ثمة شيء ما ناقص، - شيء ما وما هو بلاشيء. ما ينقص هذه الحقيقة الكاملة وغير الكاملة؟ ينقص ما لا أدري ما هو، ما لا يُفسر ولا يُبرر ولا يُحس والذي هو بالذات مبدأ القلق الميتافيزيقي: يتحرق الرجل القاعدي المنطق بجنون لينهي ما هو مكتفٍ مع ذلك بنفسه، والذي يبدو له، أنه مهما فعل غير منته؛ كما أن لهذه الرغبة اللامتناهية بشيء ما آخر، قرابة بأيروس "المأدبة" الدنيوي بمقدار القرابة مع الإيروس المقدس لـ "يوحنا الصليبي"؛ ἄλλο τι βουλομένη ἑκατέρου ἡ ψυχὴ δήλη ἐστὶν ὃ οὐ δύναται εἰπεῖν , ἀλλὰ μαντεύεται ὃ βούλεται καὶ αἰνίττεται "إن الشيء الآخر الذي تبغيه روحهم، هو ببداهة شيء ما لا تستطيع أن تعبر عنه، وتترك كشفه للألغاز"[1] و"آلان" Alain نفسه، الذي كان يقول: "يوجد شيء آخر" ألم يكن يُلمح، بلغته، إلى هذا الـ No sé que الهوائي الذي يحيط محيط كل-شيء-فعلي ليس هالة مُهيبة بل هالة معتمة؟ لاعقلانية، في أقوى معنى للكلمة، هي الروح الظمأى ودائماً غير المكتفية، والممزقة بين اكتفاء الحكمة الساكنة والحنين المتناقض، غير المريح، والذي لا يسكن لفوق معقول غير محدد،

(1) Symp., 192 c-d.

الجائعة أخيراً إلى غذاء لا إسم له وما من أحد بإمكانه أن يقدمه لها... هل يعـــرف فقط ماذا يريد، رجل الرغبة الذي يلاحق أميرة لـــه لا وجـــود لهـــا وبرســـوفان (Perséphone) له لا يعثر عليه و**allo ti** له لا يمكن تسميته بمقدار مـــا لا يمكـــن تعيينه؟ إذا كانت الحقيقة الثانية، بغض النظر عن فوق حقيقتها، هي حقيقة معلقـة، حقيقة افتراضية – مثل حلم لا يُركن له. فإن الحقيقة الثانية التي تلامسها نية مـــا فوق الحقيقة، هي حقيقة ضبابية، ومجانية ومراوغة. فالحقيقة التي لا يُركن اليـــها، هي إذاً، وعلى طريقتها الخاصة حقيقة مدعومة تماماً – لأنه لا ينقصها شـيء. إذ لا تحتاج الأشباح لشيء. ولا يطلب مساجين المغارة الافلاطونية، الذين يعتبرون الظل على أنه الواقع، لا يطلبون شيئاً. لكن على العكس، فالحقيقة المستندة إلى ماوراءها هي حقيقة لا قاعدة لها: لأن الـــ–ماوراء يرسي وجود الحقيقة كما هو ولايـــبرره قانونياً ولا معيارياً؛ ولكنه، بالمقابل، قد يبرر، وبنفس الكفاءة، الحقيقة–المضادة لهذه الحقيقة[1]؛ وبالتالي لا يعود هناك ضمان راسخ لذاك الذي **حصل له**، ولـــو لمـــرة واحدة، أسرع حد تماس زائل مع مافوق الحقيقة. ليس ما–فوق–الحقيقة بأعمق من الحقيقة لاسم المفعول السلبي، إنه فقط **أساسي أكثر**؛ أو بعبارة أفضل، انه الوحيـــد **المؤسِس**: لكن يملك ما لا أساس له أساساً، حتى يفقد سرمدية ما–هو–مفـــروغ–منه غير المولّدة والتي لا تقبل الفساد؛ وهو لا يفقدها لصالح مادة أساسية أكـــثر، مثلما هي الحال في انعطاف التجريب الى ماوراء التجريب، بل يفقدها لصالح مـــا–لا–أدري – ما هو غير محسوس، والذي هو إمكانية إلغاء دائمـــة ولا يمكـــن لأي مخلوق أن يعتمد عليه؛ والثقة نفسها، والتي هي النظام العادي في علاقاتنا مع المقـــام الثاني، تأخذ معنى مغايراً غداة اللحظة التي ينكشف فيها ما–فـــوق–الحقيقـــة في اعتباطيته. لقد كانت الثقة، إذا صح القول، الانعكاس المرآوي للسرمدية والخلـــود والأبدية الأساسية في وسط تواصل تجريبـــي ينقاد بهشاشة من حدث الى حدث ما بين حبائل النسيان والتقلبات؛ كانت الثقة تعبر عن التـــوازي بـــين الاســـتمرارية المعقولة والبرزخ المتعرج، لأن الماهية تبقى فيما الوجود موجود. يلقـــي انقطـــاع اللحظة الشك الدائم حول هذا النظام ويجازف بالكفالة الممنوحة الى البرزخ مـــن الآلهة الوصيّة على ماوراء التجريب. فكيف يتم الكلام بعد عن "حكمة" مـــاوراء

---

(1) LEIBNIZ, Discours de Métaphysique, chap. II.

منطقية؟ ثمة حكمة ماوراء تجريبية تشتمل بالضبط على الانعطاف مـــن الفوضـــى التجريبية الى المقام اللازمني: لأن الانعطاف الى المقام الثاني يدشن بالضرورة، إلا في حال السُكر أو الجنون، بالنسبة الى الرجل العاقل دهر الحقائق الأبدية. يصير المـرء، الذي يتجه نحو الأبدية، أبدياً: وبهذه النقطة على الأقـــل، تلتقـــي ذروة التفـــاؤل الليبنتزي، الذي يربط بين **العقلي والحكمي Sapientia وRatio** معاً، يلتقي مـــع ذروة المطلق السبينوزي. لكن إذا لم يكن انعطاف الانعطاف حكمة، فإنه أيضـــاً ليس إعادة الحس المشترك الى وجهه، وإعادة البهجة وكل ما كانت الحكمة قـــد وضعته مقلوباً؛ فانعطاف الانعطاف هو ببساطة إنقلاب-ومض الحدس؛ ما مـــن شيء تغير، وكل شيء تغير منذ التماس غير المحسوس الذي جعلنا نتلمس اللغز.

IV - الآخر والـــ-كلياً - آخر

أساس، مبدأ، شرط...، كل الكلمات التي قد نشير بها الى مافوق الحقيقـــة، تأخذ هنا نوعاً من الإعلاء الاثيري، إن شرط الشرط، الشرط مع دليل هو بـــالطبع "شرط" بمعنى مغاير كلياً للشرط البسيط. فهذا تشريع لطبيعة لانظامية، معيار مثالي وواجب-وجود لتفكير أحمق، لتفكير قابل للخطأ يضلله الجسد ويلهيه. وبصفتـــه قبلياً، فإن هذا الشرط هو ماثل ومتعالٍ في آن معاً. ومتعالٍ أولاً لأنه غير ملـــوث بتجريب حتى المقطر منه والمصفى؛ إن ما وراء التجريب، ولنعيد التذكير بذلك، هو ماوراء تجريبـــي بدفعة واحدة أو "ante-rem"؛ فهو ليس حداً مرافقاً لاســـتقراء غالب وليس حقيقة قبول عام أو شبه-إجماعي؛ فالشرط متعالٍ لأن كونيته وأبديتـه وضرورته لا تنتج عن مقاربة متدرجة وغير موجهة بل تظهر دفعة واحدة في ذروتها المطلقة والشاملة. لكنه ماثل أيضاً ليس بصفته مصافة منفصلة ولا اقنوماً، ولا مبـدأ يقبل التشيؤ بل لأنه ببساطة إمكانية التَفكير الأساسي في كل تفكير مفكر. وهـــو يحكم ضمنياً، ليس بصفته مُكوناً بمقدار ما هو تكويني أو بنيوي، يحكـــم ممارســـة التفكير من دون أن يُحتم في الواقع التفكير على هذا الفكـــر، أي دون أن يُحتـــم عليَّ، أنا الذي أتكلم في هذه الساعة وفي هذا المكان حقاً وبـــالفعل، ان أبرهـــن وأفهم وان أبذل جهداً؛ إن إمكانية التفكيـــر أو جوهرية كـــل تفكـــير هـــي إذاً التشارك الجوهري مع الماهية المفكرة؛ أو بعبارة أخرى، ان الحقيقة الأبدية مع أنهـــا

ليست "تموضع" إيجابي، فإنها مع ذلك تشارك جوهري في جوهرية هذه الحقيقـــــة المفكرة التي تقول أنا، والتي تضيع، تبحث، والتي هي هوية في داخل ذاتهـــــا. وإذا كان من الممكن أن يتم تلويث القانون الأخلاقي، الذي يشبه بالأحرى فعل الحـب أكثر مما يشبه القانون، تلويثه بفعل مشين لأحدهم (لأنه من الأكيد أن يكون **فعـل** الأفعال قابل للجرح بأفعالنا، وأن تلزم خطيئتي، وتؤثر، الى حد مـــا، في الحـــدث الجذري)، تبقى حقيقة الماهية اللاانفعالية، لامبالية بأخطائنا، وهذا أيضا يفـهم، لأن أبدية ماوراء التجريب هي المقام الآخر الذي لا يقاس بأحداث وهفوات التجريب، ولأنه من غير الممكن تفسير فساد ذاك بواسطة هذه أكثر مما لا يمكن تفسير تواصل الماهيات في الثنائية المتوازية (لأن لغز الـــ "Vinculum" هو على الأقل، واقعـــة!) فصفاء الشرط أكثر من طاهر؛ إنه لا-يلطخ: تبقى مثالية المبادئ الضروريـــة غـــير مخدوشة، مهما كان ظن السيد فلان المباشر حولها عندما يفكر بها. كان "ليـــــون شيستوف"، يجب أن يستشهد بهذه الحكمة من "ميتافيزيقا" أرسطو: الضــــرورة لا تقهر ἡ ἀνάγκη ἀμετάπειστόν τι[1]. وما العجز نفسه الذي تكلم عنه ابيكتتــوس، ἀδυναμία περὶ τὰ ἀναγκαῖα إلا الجانب الداخلي لاستحالة-التفكير-المغاير هـــذه والتي هي بالذات تعريف الضرورة؛ ويبقى سوء النية الذي يتغاضى عـــن البداهـــة يسمع، كما يقول مالبرانش العتاب الضمني والاعتراض الأبكم لفعـــل الداخـــل. فالمحال هو بالتالي نوع من التحية يقدمها الغباء الى العقل. فمن يكون حرا بـالدعوة الى التناقض، هل هو، بالصدفة، حر فيما يفكر فيه؟ ثمة "مغاير"**aliter** و"مغــــاير" **aliter**، فمغاير التجريب البحت، هو تعريف الواقعة المحتملة بالذات، لأن المحتمـــل هو ما يمكن أن يكون أو أن لا يكون، أن يكون علـــى غـــير مـــا هـــو عليـــه، ἐνδεχόμενον ἄλλως ἔχειν ؛ أو في حال النظر في الخطأ التجريبـــــي: فـــإن كـــل درجات المغايرة تمثل، مثلما تدرك درجات انحراف الذهن الممكنة، إنطلاقـــا مـــن حقيقة تعينها التجربة فقط. فمغاير التجريب، بالنسبة الى مـــاوراء التجريـــب، أو أفضل، **ما هو مغاير لـــ - ماوراء** التجريب. يشير، بالعكس، إلى المحال؛ فمـــا لا يمكنه أن لا يكون، ولا أن يكون على غير ما هو عليه.- هذا هو فعـــلا تعريـــف الضروري: nequit non esse, nequit esse aliter ... يفشي ما هو غير مـــن لا

(1) Mét., 1015 a 30-32; cf. 984 b 1. Cit, apud CHESTOV, Athènes et Jérusalem, I.

يمكنه أن يكون غير ما هو عليه، بادعائه المقدرة على المستحيل أو التفكير بما لا يمكن أن لا يُفكر به، يفشي إذاً، بهذه الواقعة بالذات، عدمه الخاص ولا معنى ادعائه المتناقض. والحال، فإن "ما هو غير" الحقائق الأبدية هو بالضرورة نقيض هذه الحقائق: لأننا لسنا على "قاب قوسين" من هامش مبدأ الهويّة؛ هنا يلغي قانون الكل-أو-لاشيء، والذي هو قانون الثالث المرفوع، يلغي كل تمييز ولا يترك أي مجال للضلال المتدرج. فإذا كان المغاير لـ-ما وراء التجريب (أو وهو ما يعني الشيء عينه المغاير -للتجريب) هو حرفياً، محال أو "absurdum"، فإنه يمكن أن يقال عن مغاير ما وراء التجريب-انه "Absurdissimum" (عبث غير معقول إطلاقاً). ولنذكر بأن الضرورة هي، وبالتعريف بالذات، ما يستبعد كل مغاير **Aliter** (طريقة مختلفة)، وذلك ليس نسبياً، بل قطعياً وتحليلياً. يُعرِّضُ المحال نفسه بخجل، بالتهريب وكأنه يتم سهواً، والتفكير الذي ارتكبه يُكرم خلسة مصافة المسلمات والشروط القبلية العليا: أما العبث الكلي، فإنه غير المعقول المعترف به بمغالاة. ينكسر الاستدلال الزائف بمواجهة ضرورة اللوغوس التي لا تقهر: إلا أن العبث الكلي، إلا أن ذروة العبثية، إلا أن العبثية القصوى هو الاستدلال الزائف الذي يدّعي أنه اللوغوس بدقة أشد أيضاً. يبقى التفكير المنطقي، أو المنطقي الرياضي، في الاستدلال الزائف، يبقى أدنى من الحاجز، المحال الذي يعرف نفسه بطريقة غير مباشرة وضمنياً بنسق مرجعي للضرورة العقلية؛ وفي العبث الكلي، يموضع الحدس نفسه بأبعد من تصدع اللوغوس والاستدلال المزيف، ويقيم تماسه المتلاشي مع الـ "fons ordinis" ("ينبوع النظام")؛ في ما-يكاد-لا-وجود ما فوق الحقيقة هذا، لا يكون اللوغوس قد رمى بعد الاستدلال الزائف خارجه، لكن نوعاً من البراءة أو اللامبالاة، والتي يمكن مقارنتها بلامبالاة ما قبل الخطيئة، يضمهما معاً في حالة من اللاانقسام، في وسط السديم نفسه. ثالثة الأثافي، بحصر المعنى، ليست التناقض المُولَّد بوقاحة، ولا استبدال نسق حقائق بنسق من الحقائق المضادة لا يقل دوغمائية عن الأول، وفلسفة المعنى الثانية بفلسفة المعنى المضاد أو اللامعنى، والتي ليست أقل ثانوية، وأخيراً المقام الجوهري بمقام مضاد ليس أقل جوهرية، ليست الفلسفة الأولى بفلسفة ثانية مقلوبة. ولنذكر بأن ثالثة الأثافي، هي نقطة في طرف الحد. أبعد من احتمال التجريب المشروط المحتمل، مثلما أبعد من

ضرورة الشرط الضرورية، يشير هذا الحدّ المترنح الى "مبالغة" لا يمكن تصورها لضرورة غير ضرورية، للوحش غير المعقول لضرورة محتملة: لأنه إذا كانت الضرورة هي جوهرياً مُلزِمة للموجودات المحتملة، فإن واقعة الضرورة باعتبارها في ذاتها وفي وعينا بشموليتها وفي كل-أو-لاشيء الخاص بها، هي بذاتها اعتباطية ومجانية؛ ومثلما يُحيل الجوهر الى واقعة الجوهرية، وهي وجود جذري، كذلك تحيل الضرورة الثانية الى واقعة لا ضرورية الضرورة، إلى هذه النافورة الأولى التي علينا أن نحسم مع "لاشوليه" "Lachelier"، أمر تسميتها حرية. في المزاد اللامتناهي الذي يناوب بين ضرورة الحرية وحرية الضرورة، ألا تملك الحرية الجذرية الكلمة الأخيرة؟ والضرورة التي كانت تُسكت كل سؤال تنكر نفسها كضرورة وتعترف بأنها محتملة؛ وبغتة يكتنه الافتراضي نفسه في اللاشرطي. هذا هو تماسنا-الومضي مع هذا المغاير-كلياً الذي لا يمس الذي هو الإمكانية المفارقة للضرورة!

إذاً، ليس شرط الشرط القبلي "قبلياً"، ولا هو"مثالياً". ويكمن اللاسوي، هذه المرة، في أن المشروط هو بالضبط، الشرط المشترط، الضرورة المُلزِمة، أو بكلمة، القبلي. مع ذلك، لا يصير هذا القبلي بعدياً. ففي البعد، كما في القَبل، تبقى الضرورة ما وراء التجريبية كلياً "غير قابلة للتفنيد". ويقتصر التفنيد على خلط الاستدلالات - المزيفة للوغوس - المزيف، وعلى إظهار التناقضات السرية المستترة في طيات الاستدلال. كلا، ما من مأخذٍ أبداً على ماوراء التجريب، حتى بعدما نكون قد خاطرنا بإمكانية قاعدية- منطق ما يغايره. فالاحتمال التجريبي-الفيزيائي المغاير Allòs هو إمكانية قريبة وواقعية بأن يكون كذا أو بخلاف ذلك؛ فالافتراضات المبتكرة بحق تحتفظ بها حرية الإنسان، وتقوم الوقائع الفيزيائية المُفْرَدة (أن تقع حصاة في هذه اللحظة على منحنى Vigne-male)، حتى ولو كانت غير **متوقعة** ظاهرياً، تقوم على حتمية جد معقدة تتنوع فيها الأسباب والمعلولات الدقيقة، وأخيراً، ثوابت القوانين الفيزيائية الكبرى، التي يمكن للتجربة فقط أن تعرفنا بها، ولو كان هذا الثابت يتعلق في النهاية بنظام الطبيعة العام:-تلك هي الأشكال الثلاثة لمقدرة الوجود-المغاير، تلك هي أشكال السماح أو اللعب الثلاثة التي تتركها المبادئ العامة (كما كان سيقول ديكارت) لمعلولات الطبيعة،

والظواهر الملاحظة. تنتج الإمكانية هنا، وهي سماح سلبي كامل بوجود مغاير، تنتج عن إفراط رحابة أو اتساع الحقائق الضرورية: ممكن هو كل ما ليس بمستحيل أو، في هذه الحالة، متناقض. أما الـ ἄλλως القاعدي المنطق، فإنه إمكانية ممكنة أبدياً من دون أي تفعيل على الإطلاق، أي أنه أفلاطوني بمقدار هذا الـ "Aliter" (الآخر-الغير) الليبنتزي الذي ينفي "ستيك" (Styx) الضرورة الميتافيزيقية دائماً وجوده الفعلي في الواقع. تمت الإجابة منذ الأبد بنعم على السؤال المطروح. نعم للوجود، ولمقام هذا الوجود، وبينما يبقى التجريب خاضعاً لتموجات وتقلبات التارة والطوراً، فإن المقام-الآخر لا يبدو مهدداً جدياً بنزوات المغاير-كلياً؛ فالمغاير هو الصحيح-الصحيح وبالاجدر الواقعي (لأن الصحيح سيصير بالأحرى واقعياً في يومٍ ما) -مغاير-المغاير، أي بمعنى المغاير-كلياً هو بالأحرى فائق-الصحة. بالتالي فإن الشرط الزائد ليس بحصر المعنى "تهديداً" للشرط؛ ولكنه مع ذلك ليس مع ذلك صيغة إنشائية أو عبارة تهذيب؛ وأولئك الذين لا يرون من وسط بين الاثنين فإنهم يتجاهلون في هذا بالذات مجانية الوعي الميتافيزيقي. فالشرط القبلي ليس هذا أو ذاك الشرط الافتراضي في علاقة توليفية وطبيعية، بل انه الشرط التحليلي اللازم sine qua non، الشرط العام الذي يستحيل بدونه أي تفكير، وبواسطته يصير كل تفكير ممكناً...، ولكن ممكن فقط! يحدد الشرط التفكير مثالياً من جهة دون أن يفرض أو أن يحتم عليه التفكير فعلياً، إذ لا يحتم شرط التفكير انه يجب أن يتم التفكير بفكر ما هنا أو هناك، هذه أو تلك، في مكان ما وفي هذه اللحظة. بالواقع وبالفعل. فهذا ليس عمله. فمهمة الشرط هي ضبط التفكير، على افتراض أن تفكيراً يجب أن يُفكر في هذا العالم، ولكنه يحكم التفكير حتى ولو لم يكن هناك أي كائن مفكر، حتى ولو لم يكن هناك وجود لأي تفكير لأي حي في الكون: إذن فالشرط نفسه مشروط إذاً، وملازم وهو سلبي أكثر منه إيجابي؛ انه شرط كسول، ἀργὸς ἀρχή ، لأنه شكلي وغير فاعل. غير فاعل ولكنه ليس اطلاقاً غير فعلي. ليست هذه الشكلية دون أي مضمون، ولا هذه النسبية دون أي حقيقة مطلقة أو جازمة. لنقل أن هذا الحلم هو حلم يقظة... لأن الأمر لا يتعلق بأوامر افتراضية لتقنية ما، بل يتعلق بالمنطق وبضرورة تفرض نفسها آجلاً أو عاجلاً على الذهن في إحدى تجاربه الأشد امتناعاً للرد. فالشرط مع أنه غير كاف، ليس مع

ذلك أقل واقعية! فشرط يوظف العقل في امتلاء الضرورة الكامل هذه لا يمكنه أن يجد أصله إلا في ما فوق الحقيقة الذي لا يمكن تصوره. يستطيع ما فوق الحقيقة، ما لم يستطعه "الشرط الكسول"؛ وهو لا يمكن تصوره لأنه يمنح الفعلية التي لا يمكن تصورها ولأنه مكتفٍ ومموضع في ذلك: ويضفي على ما يمكنه بقاعدية المنطق (وليس منطقياً أو ماوراء التجريب) ان تكون مغايرة تماماً واقعة كونه كذا أي ما معناه واقعة **وجوده** ككذا بدلاً من آخر تماماً، واقعة سحيقة يجد المغاير انطلاقاً منها نفسه **منذ الأبد** منفياً والضرورة المتراصة مقيمة مثل آنفاً منذ الأبد وما هو مفروغ منه غير مولّد. هذا المغاير-كلياً، والذي فهمنا انه لم يكن "مقاماً"، بل الإمكانية التي لا تقبل اللمس ولا التمثل لمقام ماوراء التجريب بأن يكون غير ما هو عليه، أي – غير ما هو غير-التجريب – هذا المغاير-كلياً هو ليس خلف جدار الجوهرية، جدار ما فوق الجوهرية والأكثر ارتقاءاً أيضاً. وبشكل عام، من المهم أن نُبعد عن كلمات مافوق الجوهرية، مافوق الحقيقة، مافوق الشرط، كل فكرة "تجريبية التشكل" سخيفة عن المزاد أو ما فوق التصنيف أو السّبق. فالشرط، في هذا الصدد، هو أعلى مصافة. ووظيفته كشرط هي في أن يضع شروطاً للتجريب اللاامتماسك والمخيب للآمال. والحال، بأي ضرورة أخرى يمكن بدورها لهذه الضرورة أن تكون مشروطة؟ بالطبع ليس بقاعدة جديدة تكون أيضاً – ضرورية أكثر من الأولى – لأن هذه القاعدة الأخرى هي التي ستكون عندئذٍ ضرورة التجريب، وبذلك نبقى دائماً عند مقام ماوراء التجريب... أليس قدر كل تضخم أن يكون هذا العجز عن أن ينجز بحق "العبور الى نوع آخر"؛ لكن ما ليس شرط الشرط ولا قبلية القبلي ليس بأكثر منه نزوة تجريبية... من الأكيد أن هذا الـ-ما-لا-أدري- ما -هو لا يشبه أي شيء! فإذا كان التجريب المتقطع موجوداً دون أي تماسك ولا استمرار، وإذا كان ماوراء التجريب الجوهري متماسكاً ومستمراً من دون وجود، قد يُمكن القول إن قاعدي المنطق هو ما يجعل تماسك الجوهرية غير الموجود موجوداً، تماماً مثلما ماوراء التجريب هو بعينه تماسك الوجود اللاامتماسك؛ ليس بمعنى أن ماوراء التجريب **يجعل** أي شيء يتماسك، أو يستمر، في المعنى الخلاق للفعل المساعد "جعل" "faire"، كوّن الماهية بالضبط هي **أبدياً ما يسبق الوجود غير الموجود في الوجود**، ومن جديد ودائماً: سابقة الوجود إلى

مالانهاية، وآنفاً -هنا غير المخلوقة اللازمنية والمنجزة كلياً، ما لابداية لها ولانهاية، فليس لـ "جعل" من معنى إلا بالنسبة الى الوجود، الذي هو انبثاق وتدفق، والذي يُرْجع دائماً الى المبادرة البدئية. للأسف، فإن تناوب الماهية والوجود منفصل بالكامل ومُنَضد بشكل يتركنا خارج مافوق الحقيقة، وبكلمة شبيه بصمام الموت الذي يستحيل الرجوع منه، لدرجة يُبرر فيها اعتقاد المخلوق بأنه ضحية مكيدة: فالارتقاء من التجريب الى ماوراء التجريب لا يتم سوى بالترفع المباغت والشامل عن أسئلة الـ متى؟ وأين؟... ولا يجدر لاستشفاف الـ ماوراء إدراك الماهية في الوجود (لأن هذا الوجود هو تجريبي بالضرورة، ولا يمكن للماهية إلا أن تكون تجريداً له) بل يجدر التقاط وجود الماهية الجذري (وهذا ما لا يمكنه أن يتم إلا في مايكاد-لاشيء لحظة الحدس). فالمغاير-كلياً الذي يجعل الماهية المستمرة موجودة هو نفسه غير موجود... ولا بالأحرى غير مستمر. حرفياً: إن ما يمنح الوجود لا وجود له، لأنه إذا كان ما يمنح الوجود هو نفسه موجوداً، فإنه يفترض بدوره مانحاً آخر للوجود. والحال إن مانح الوجود يمنح الوجود في آن معاً للماهية، والوجود بشكل عام، والكائنات التجريبية الحادثة، فهو إذن غير موجود بمقدار ما هو لامتماسك ولا مستمر، أفلا يكون مانح الوجود غير الموجود، بالصدفة من طبيعة القرار؟

الفصل السادس

الطريق السلبي

1 - إيجابية موجودة وإيجابية نظرية

تنقطع الخليقة عن المطلق بحجاب الضرورة الثانوية التي تتوسط زخارف التجريب الثالث الصغيرة في ظهورها وكسوفها والارتجال **القاعدي** المنطق للـ-ماوراء... تسد علينا هذه الضرورة التي تشاركنا بضراوة وجودنا وجوهرية تفكيرنا، تسد علينا كامل سماء مافوق الماهية وذلك دون أي فضلة ولاخيار **ولا طرف** إمكانية؛ وبصفتها استحالة القدرة-بوجود-مغاير تشبه الضرورة حاجز الموت العازل الذي لا يمكن عبوره إلا باتجاه وحيد. هذا المغاير-كليا غير الموجود وغير الجوهري، مافوق الجوهري مافوق الموجود مرتين والذي يمنعه عنا بدقة غطاء التناهي لا يمكننا أن نعيه، في أدنى-وجود اللحظة، إلا وعيا يكاد يكون هو نفسه غير موجود، أي بمعنى وعيا حدسيا ويتعدى الاستدلال: هذا العرفان-البرقي gnose-éclair، على الأقل، هو العلم الإيجابي الوحيد عن مافوق الحقيقة الذي يمكننا ادعاؤه؛ إن علما استدلاليا-تاريخيا إخباريا عن مافوق الحقيقة هو تناقض، إن علما مؤسسا على الذاكرة وعلى استمرارية البرزخ يحكم على نفسه هنا بالسلبية. لأن، هذا، شأن قلب العبارة الساحر، شأن التناوب الذي يشكل كل مفارقة الفلسفة الأولى: فإن الوضعية الأعلى، ولأنها تموضع صرف، لا تعطي مجالا إلا لفلسفة سلبية؛ وإذا تم لمحها في اللحظة، يكون انكشافها وضعيا بالطبع، ولكن هل تبقى من "الفلسفة"؟ والعكس بالعكس، لا تبلغ الفلسفة الإيجابية الشائعة، تلك التي تؤكد، وتمنح وتطنب في التواصل، لا تبلغ إطلاقا سوى سلبية الموجود: بحيث ان الايجابية لا تعطى في الآن عينه في الموضوع المعروف، وفي فعل المعرفة وفي الفعل كتأكيد وفي الموضوع كوضعية وجود... ما عدا حين يتعلق الأمر بالضبط بالتطابق الاعجازي للايجابيتين في مركز شبه نقطة الحدس. والحدس أليس هو كذلك لا

شيء! وكذلك هذا "الوميض" (Scintilla) أليس هو **لحظة** وليس أبــــداً **كائنــــاً!** خارج **شبه-العدم** المتلاشي هذا، يكون الموضوع إيجابياً عندما يكون العلم سـلبياً؛ وعندما يعتقد العلم نفسه إيجابياً، فإن الموضوع هو الذي يكون سلبياً. ذلــــك أن هناك إيجابيتين جد متمايزتين، تصدق الواحدة منهما بنقض الأخـــرى: الإيجابيـــة الموجودة (ontique) بالتعارض مع السلبية اللاموجودة **(méontique)**، والإيجابية **النظرية** بالتعارض مع السلبية الافتراضية؛ تقدم الأولى بالنظر الى كثافتها وحجمـها الموجودين، ألف ممسك للجزم والوعظ، إلا أنه على العكس يجب اعتبارها كـأدنى تموضع أو اسم مفعول سلبي لفعل التموضع، أي بمعنى (res posita) ؛ والإيجابيـــة "النظرية" ، لأنها بالاحرى عدم وجود، ترفض كل إســـناد وكـــل κατηγορία أو منطوق حاسم، إلا أنها بالعكس وضعية محمولة إلى أقصى درجـــة كثافـة لهــا. فالإيجابية الموجودة، وهي سلبية نظرية أو فرضية، ليست إيجابية الوضعية، بل إيجابية الشيء الموضوع: تلك هي من دون أدنى شك إيجابية الوضعية وإيجابية هذه الأذهان القوية التي نسميها رؤوس إيجابية لأنها لا تؤمن إلا بما تلمسه أو تقدره. لأنــــه ذاك هما نمطا الإيجابية الموجودة نفسها: هناك **وجود (Esse)** للاستمرارية التجريبية الـتي يمكن وصفها وروايتها؛ وهناك **جوهر (l'Essentia)** هذا **الوجود Esse**، والـــذي يشكل الماهية الأبدية لتواصل ما وراء التجريب. ففلسفة التجريب تأكيديـــة لأن مادتها هي في البدء المعطى الواضح وبداهة الإدراك الحسي المباشر، - ومع انها ثالثة في الحقيقة، فإنها حرفياً الأولى بالنسبة لنا (πρὸς ἡμᾶς) ؛ فجمع الصور هنا يعطـــي حجماً؛ وهنا الكثير للمقارنة والكثير للادراك! لكن هذه الفلسفة الإيجابية هي مـن ناحية أخرى سلبية مرتين، لأن كثافة وجود التجريب هي في الواقع غير أساســـية وهوامية، ولأن هذا اللاتماسك لا يجد تماسكه إلا في العلاقات الأساسية التي تحـدده، ولكنها هي نفسها ليس لها أساس **ماوراء منطقي**. فكل ما هو إيجابي في التجريــب هو بالضرورة متناه وطبيعي وجزئي وزردة في البرزخ: يعني أنــه ظـــاهرة تتعلــق بظاهرات أخرى، كما أنه في الوقت عينه برهة من تواصل الـ قبل والــــ بعــد prius و posterius؛ فصل يُرد الى فصول أخرى! ومثلما يتأكد كل وجود فـردي مقابل تخليه المتعدد عما يحيط به، في الزمان والمكان، كذلك الإيجابية الموضوعة تبرز على خلفية سلبيات مانعة التي يشكلها التلوث الوراثي ومقابل كل هنــا، هـــذا-

هكذا، وكل اسم مفعول سلبي؛ أخيراً يستبعد التأكيد عن نفسه ضمنياً، عـــالم لا يحصى من الممكنات والذي برفضه له يضيق عليه في خياره التأكيدي. هذا الفـرض لكل من يريد أن يكون شيئاً ما أو شخصاً ما، الفرض بالامتناع عـــن أن يكـــون الكل وفي كل مكان ودائماً، هذه التضحية بكلية الوجود وبالأبدية، أخيراً هـــــذه الضرورة في تصنيف مكاني-تاريخي-فردي، هي أقدار الوجود المتكوّن ما ان يتـــم إدراك هذا الأخير خارج الجود المحض الناقل والمكوِّن، لاحقاً على مبدأ الهويـــة أو اللانفوذية "jam decretum" (داخلية): لأن هذا المبدأ هو الذي برميـــه الآخـــر خارج نفسه، يمنع الموجودات من أن تعيق نفسها بتواجدها معاً في الوقت عينـــه الذي يجبرها فيه على أن تعطي تعريفاً لنفسها "altera extra alteram" (واحـــدة خارج الأخرى) في هذيتها المُستَدركة. أليس هذا السقوط **لكل واحد** خارج **الكل في الكل** هو ما يجب أن يُسمى تناوب؟ أما فيما يخص الفلسفة الثانية، فإنها إيجابيـة في إمكانية التفكير اللامتناهي لمعطى قصدي حيث يمكن للكل أن يكون على علاقة مع الكل، وحيث يمكن أن يُعزى الكل الى الكل، وحيث الحتمية نفسها تُقـدم الى العقل، وهو العضو الذي يرسي العلاقات، تقدم إشكالية لا ينتهي تعقيدهـــا، ولا يتوقف تجددها؛ وفي جمع الدلالات الذي لا يحصـــى والـــتي تشـــكل مـــا وراء التجريب، يوجد إلى ما لا نهاية ما يمكن التفكير به وإرساء علاقات له، وكل ما هو موضوع معرفة على مستوى اللوغوس بكونه، في الضربة عينها، واحدٌ زائد. لكـن إذا كان التفكير هو إقامة علاقات من دون الاعتماد في مكـــان مـــا عـــل ذات-موصوفة ولا معرفة الماهية في ذاتها، وإذا كانت ضرورة التفكير نفسها أو (بعبـــارة أخرى) استحالة التفكير المغاير لا تبالي بأي مضمون ملموس، يجب الاعـــتراف أن الإيجابية التي يمكن تفكيرها، وهي مع ذلك الأغنى، لها هي شـــيء مـــا افـــتراضي وشكلي. تبقى العلاقة هي نفسها، سواء وُجدت المترابطات أم لم توجد. إن هـــذه الحشمة العلائقية التي تمتنع عن تفكيك **الفاعل بنفسه in se**، وتبقينا ما دون الـــــ "في-ذاته" (inséité)، هذا الكف (ἐποχή) الذي يكبح إنـــزلاق الحكم الافـــتراضي الجاهز للانعطاف إلى تأكيد قاطع، هذا المنع لـــ ἐστίν المعطوف والموصول بما قبل التبشير من اكتساء لهجة ἔστιν المطلقة ومن استيعاب الصفة داخل الفعل-، كـــل هذا يكشف بوضوح سلبية الإيجابية الثانية. فما هو بالذات شرط وامكان معرفـــة

الماهية هو نفسه بالواقع ipso-facto إذن عائق لمعرفة الـ "في-ذاته"؛ أو العكس بالعكس: إن ما يمنع التفكير في الماهية "في ذاتها" أو بالمطلق هو في الواقع وسيلة للتفكير بها "في آخر" بمعنى نسبياً؛ فما لا يمكن معرفته هو بشكل مفارق وبسخرية شرط المعرفة! فناقل العلاقة يتجاوزنا؛ واللانسبي من جهته هو حرفياً، ما لا يمكن تفكُره، لأنه لا يقبل إلا "الحشو". والحال، كيف سيكون هناك، لو سمحتم، لوغوس لـ ταὐτόν ؟ كيف لا يكون اللوغوس "مغاير منطقياً"؛ فاللوغوس المنطقي الذي يُقيم العلاقات، وعقلانية المنطق الرمزي الذي يعلق العلاقات ويرسي وصل الصلات أو "المماثلات" يشبهان بالتالي نزهة من مُغاير الى مُغاير، من موضع الى موضع آخر، من نعتٍ الى نعت، تكرار لا ينتهي ولا يلمس الأرض أبداً ولا يهتم بأي وجه ولا يرسو في أي مكان. ينحو التعقل الأساسي إذاً، وهو إعادة خلق لعلاقة عقلانية بواسطة هذه العلاقة العلائقية، التعقلية والذكية والتي هي التفكير، ينحو إذاً لا عرضياً نحو التعقل الجوهري كأنما ينحو باتجاه حده الذي لا يمكن إدراكه: منتظم ليجعل جوهر الحقائق الأبدية شفافاً. فإنه لا يقبل أن يكون تعقلاً إلا لأنه يتخلى عن إدراك الـ **abs relationibus**، وفي ذاته، ذاته الصافية هذه، هذا **الفاعل** المطلق الذي يستطيع ومض الحدس فقط أن يحزره.

إذن، الفلسفة الثالثة والفلسفة الثانية هما وفي المعنى الذي يعطيه شيلينغ لهذه الكلمة، فلسفتان سلبيتان: لأن مادة تلك هي التواصل **غير المُؤَسس**، ولأن معطى هذه هو التواصل اللامتناهي، وهو **الأساسي** وغير المؤسس في آن معاً.- أساسي بما أن التواصل هو "الأساس" المنطقي-الرياضي للاستمرارية، وغير مؤسس بما أن شرط التجريب الذي يضع الشروط يبدو هو نفسه كشرط مشروط ومبدأ افتراضي وأساس معلق، بأساس لا قاعدة له ولا دعامة. أساس من دون أساس، عندما يتم إدراكه في فعاليته العارية. يجب أن يتم البحث إذاً ومن دون أي شك في الآنية **المؤسِسَة** عن الإيجابية العليا، تلك التي ليست حتى أساساً بل "تأسيساً" صرفاً وفعل التأسيس، الذي ليس مؤسَساً ولا غير مُؤسس ولا أساسي، والذي إذا صح القول يشبه **المُحَرِك الأرسطي الحركي الصرف**، دون أن **يشوبه** اسم-المفعول-السلبي. والحال، إذا كان الأساس لا أساس له، وكان بالتالي ناقصاً وغير كاف، كمبدأ لم تُبرر شرعيته وقيمته **قانوناً**، فإن التأسيس هو بالأحرى، بدون أي عمقٍ؛ ولا يمكن

حرفياً سبر فعل التأسيس، ولفظ "boehmiste" لما لا أســـاس لـــه (Ungrund)، والذي يعني ليس-أساساً، هو من دون شك تعريفه الوحيد. ومثلما الفلسفة الثالثـة هي ثالثة في ذاتها، وأولى بالنسبة لي، والفلسفة الثانية هي ثانية في-ذاتها وبالنسبة لي في آن معاً، كذلك فإن الفلسفة الأولى هي ثالثة بالنسبة لي، ما لم تكن تماماً غـــير موجودة؛ حتى ليمكن القول انه بالنسبة لأغلب البشر لن يصل أوان الفلسفة الأولى إطلاقاً؛ إنها التنقيط المحتشم للدين، إنها منطقة ما لا يمكن تخيله-ولا تفكره، عنـــد عتبتها يتوقف اللوغوس والحكاية كما تتوقف الرواية عند أطـــراف ما لا يـــروى- إذاً ما وراء الإيجابية غير المؤَسَسَةِ كما وراء الإيجابية الأساسية هناك إيجابية مؤسِسَة تعارض الإيجابيتين السابقتين بالطريقة عينها التي يتعارض فيها الفعّال مع الســلبي أو فعل الخلق مع الخليقة: فالخليقة إيجابية لأنها وجود زائد، أثر مولود وذرية مستمرة؛ إلا أنها سلبية لأنها تحديد وانكماش وإضعاف للقريحة الخلاقة، ولأن الانتاج يَضْعف في منتوجه، والعملية (operatio) في "opus" ناتجها. وبالعكس تماماً فالخلق ســـلبي بصفته لا-ماهية وبصفته لا-وجود: فهو لا يقبل الجوهر، تواصل وأبدية قصديتين، ولا يحتل حجماً في الحيّز؛ إلا أنه إيجابي كونه بالأخص، الإلهام اللامتناهي، وفعـــل الإيجاد "غير الموجود"[1] قبل أي تحديد أو تأطير لامكاناته. والحال، ليس الخلق لا-ماهية شأن الوجود التجريبـــي غير الأساسي، ولا لا-كائن، شأن ماهية ما وراء- التجريب غير الموجودة: إنه بالأحرى ما فوق ماهية، ومرتان وجود فائق أكثر مـــن الماهية، وبالأحرى وراء ما وراء الوجود. فالإيجابية الأساسية، وهي إيجابية كسولة، وغير مؤسسة نسبياً، هي سلبية أولاً لأنها تشترط من دون أن تضع، ثم لأنها **تجـــد نفسها** بعد كل شيء **هنا** أيضاً ولأن ضرورتها هي واقعة. فقط الإيجابية المشـــيِّدة، الخالية تماماً من كل أمر واقع، قد تكون حرفياً "لا شرطية"، أو ببســـاطة أكـــثر نظرية. فالإيجابية المكوِّنة للأطروحة هي بحق إيجابية مطلقة، وسلبها نفسه هو إيجابية زائدة، لأنه يتقلص الى نفي الشيء الموضوع، الذي هو نفسه سلب؛ صحيـــح أن اللحظة بالنسبة لرجل التجريب هي سلب البرزخ، الذي هو إيجابية متداولة وقـذرة وكثيفة وملموسة: لكن على العكس، فالبرزخ، من وجهة نظر الميتافيزيقـــا، هـــو انبساط وتخفيف للحظة، أو على الأقل مالا تستشفه الخليقة، المحكومة بتواصـــل

(1) Néologisme de Leibniz, apud Couturat, op. cit., p. 534.

متواصل بدأب، لا تستشفه إلا كلحظة. فالانعطاف من التجريب وما وراء التجريب الى ما وراء المنطق، هو أيضاً، ومن هنا بالذات، انقلاب من الإيجابي الى السلبي، إنقلاب من الزائد الى الناقص. فإذا كانت الإيجابية النظرية، التي تجعل الماهية تدوم، والكائن يوجد، لكنها لا توجد بنفسها ولا تدوم، إذا كانت الإيجابية إيجابية فإن إيجابية الماهية الافتراضية، والتي تشكل حقيقة الـ-وجود ens البسيطة هي إيجابية سلبية، بينما إيجابية الوجود الافتراضية مرتين، هي إيجابية سلبية مرتين. فنحن إذاً نميّز بين **إيجابية نظرية**، تكون أيضاً لاوجود، أو بشكل أفضل وجود فائق، والتي تقول نعم لكون الماهية كما تقول نعم لعالم الوجود esse ليكون عالم-كون الوجود الأساسي **esse** وقد وضع مرة، **إيجابية أساسية** هي أيضاً مجرد سلبية افتراضية، وإيجابية موجودة، وهي أيضاً سلبية افتراضية مرتين. أليس من الأسهل أن تتعرف في هذه التراتبية على الـزياح الأبدي للفعل والتفكير والوجود؟

II - سخرية العضو -العائق

سخرية عميقة لقلب العبارة! ليس هناك ما يقال حول **الفعل** الذي وجوده صفر، وهناك الكثير ليقال حول **الوجود** الذي **فعله** صفر. كلما كان الوجود لا متماسكاً ولا أساسياً وهوامياً، كلما منح إمكانات أكثر للحكايات وللثرثرة. ولذلك كلما كان برزخ المعيشة على هامش المصير، كلما كان أغنى بالتسلية وبإمكانيات التدبير، كلما صار أفضل استعداداً للمشاغل والأعمال - ليس لهذا "العمل"(ποιεῖν) وهو المحرك والموحي والمؤسس، بل "لاعمال" التواصل هذه المهربة والمحبوكة والمتآمرة. لذلك يصف باسكال علاج التسلية ليتلهى الأنا عن التفكير بمصيره الخاص ... إضافة الى أنه لا شيء هناك للتفكير. وأكثر خطاب لفظي هو ذاك الذي يتناول موضوعه أشغال **المغارة**، وظلال هذه المغارة وظلال هذه الظلال، وصور هذه الظلال وأشباح هذه الصور. مُخْتَصرة بشكل مغاير تلك العلوم التي تختص بصلات الكبر، وبسيط بشكل مغاير **اللوغوس** ليس اللوغوس السردي بل الجدلي الذي يعالج الحقائق الأساسية وعلائقها. لكن يتضح، ما وراء الماهية، أن البرهنة الهندسية (more geometrico) نفسها مهذارة، بافراط: فالمقبول هنا هو الصمت... الصمت أو فالمجاز الأسطوري؛ كما أن الحدس في هذا الصمت هو

نوعٌ من التمزق الآني، ومثله مثل استدلال مكثف الى حالة الوجود-الأدنى، لوغوس متحول الى شرارة. لا يجد الجدل الزائد، ما يقوله حول الإيجابية العليا المحض لفعله الذي **يضع**، لأن الفعل إيجابي ليس لأن فيه الكثير مما يدعو للتفكير والكثير مما يقال حوله، ولكن ببساطة لأنه **يضع**، ولأنه بالضبط ما لا يمكن تفكيره الذي هو وضعية؛ وإذا كان الوجود غير الفعال غني بتعدد أشكاله وبوفرة وجوده، وإذا كان التفكير غير الفعال غني بدلالاته التي لا تحصى وبعمقه، فإن الفعل الذي لا يمكن تفكيره وغير الموجود في آن معاً، هو غني غني بجوده فقط؛ إن الوضعية التي ليس لها وجود (بعبارة أخرى لا نفي لها) والهبة التي لا مُلك لها (ولا أفكار مبطنة) هما شكلان لنفس النعمة الخلاقة، التي هي مجموع متناهي الفقر والعوز - لأنه لا وجود لها ولا قيمة - وغنية للغاية - لأنها تعطي قيمة ووجوداً لكل ما هو قائم. ألا يعكس الايروس أو الرغبة الانسانية في حياة الخليقة صورة عن هذه الوفرة التي لا تنفذ، ولا يمكن مقاربتها، والتي هي أيضاً تدفقٌ من دون وجود ولا ملك؟ وعلى النقيض من كل تملك بخيل وفي تخلٍ كامل عن الذات، تنحو دينامية العشق بالتالي نحو فوران متسامحٍ، على أنه حدها. فحيث يتوقف السرد، والجردة والجداول يجد الحدس الدقيق سبباً للوجود. ينسل اللوغوس، الذي يوازي عرض قاعدته جمع الوقائع التافهة الزاخر والمزهِّر ومتعدد الألوان والأشكال، ينسل حتى لا يعود إلا طرف دقيق، حد رقيق لا يُميّز عن النقطة. لأنه عندما تلتقي نقطتان لا تعودان تشكلان إلا نقطة واحدة. لأن الذهن المدقّق في اللحظة، والسر النظري المدقّق في **القرار (fiat)** ليس إلا عين اللحظة نفسها. بالتالي فإن من يَعِدنا بفلسفةٍ إيجابية عن الإيجابية المحض ليس إلا مشعوذاً، كون العرفان الملائكي لـ **(Actus purissimus)**، بالنسبة للخليقة هو متناقض تناقض وحش اللحظة المستمرة، أو البرزخ الآني. ألا تعني الإيجابية المحض، استحالة المعرفة، وقد امتزج الموضوع والفاعل في الـ-ما يكاد-لاشيء نفسه، استحالة معرفة الشعلة الصرف لوميض الحدس حارق ومشعل الذهن؟ قد يقال ان الفكر لا يستطيع أن يفكر في درجات الحرارة غير المحتملة لهذا الـ-"نعم" المتأجج غير المزوج بـ **لا!** فالتفكير الإيجابي لا يكون ممكناً إلا بمزج الإيجابي والسلبي، أي أن العائق الذي يمنعه هو نفسه أداة امكانه. هذه المفارقة الساحرة لـ "برغم"، هو، وليس بصفة عرضية **بل بصفته**

"**بوغم**"، هو "**لأنه**"، هي كل سر صلات الروح بالجسد؛ لأنه إذا كان العضو يجد في نفسه عقبة العائق، فإنه من الأصح أيضاً القول: إن مقاومة العائق، والانحصار بالعائق الذي هو العضو-العضو، أي بمعنى وسيلة الإدراك، والتعبير والوجود الفردي. لا يشكل العضو-العائق عائقاً محضاً إلا بالنسبة للوعي غير الجدلي ويعود فيعثر على كل تعقيده الخصب للارادة الإضرابية والمتساوقة مع وسائلها. هناك نوعان متعاكسان من التبسيط واحدهما، صفائية الـ Quamvis وتعتبر الجسد مجرد واجهة أو عائق ضروري للروح المانوية، والآخر صفائية الـ Quoniam وتعتقد أنه من الممكن قراءة الروح قراءة مباشرة وخالصة في الاشارات الحسية: كلاهما يجهلان مأساوية التناقض والتعقيد الجدلي، ويستخفان بقلب العبارة الذي يشكل قانون الوجود غير الصافي، كلاهما يغفلان عن السخرية الميتافيزيقية وسوء الفهم الذي ترعاه حول الظاهر والملتبس. قد يقال عن طيب خاطر أن العضو-العائق يشكل حالة توسط خاصة، شرط أن نبعد عنه كل فكرة حول تفاؤل الغائية وagogique ... فليس العائق نقيض الأطروحة المرصود ليحل في توليف مُصلّح، بل أنه يجد نفسه في تركيب ثابت تحال فيه التناقضات أبدياً واحدها الى الأخرى. هكذا فالجسم في الحيز شأنه شأن الزمن في المتوالية. إن العضو-العائق الحقيقي لما وراء التجريب، ليس التوسط، وهو تعليق مؤقت وإلى حين للنهاية، بل العلاقة نفسها، وهي مزيج لا فكاك منه من وجود-ولا - وجود. لم يخطئ "**السفسطائي**" بزعمه الوجود النسبي للاوجود، مدعياً انه بذلك ينقذ مبدأ الغيرية الحيوي، وينقذ معه التبشير بشكل عام بالطبع. إن "فدية" إيجابية الإسناد، هي تجاهل هذا الفاعل المحض اللانسبي، غير المحمول، وما وراء كل الصفات: إلا أنه قد يكون من الأصح أيضاً القول: إن عدم معرفة ما لا يمكن معرفته، النتيجة ضرورية لتناهينا، هو شرط الإسناد. هكذا يمكن القول مع "نوفاليس"[(1)] ، يقوم المُفكّر على ما لا يُفكر به... فالموجود يكون لأنه ليس إلا ذاك أو ما هو عليه: فقانون الـ "شيء ما" و"شخص ما" هذا يصح للتأكيد بمقدار ما تصلح سلبيات ضمنية لا تحصى في تقليص وتحديد تواطئه. لا يمكن إذاً لايجابية غير مشوبة بـ "لا" أن تكون علاقة. تضع الإيجابية الصحيحة الإيجاب، العلاقة، وتُعلن العلاقة الموضوعة أو المشيدة-وهذا هو بالذات

(1) Kluckhohn, III, 15.

معنى κατηγορεῖν – "quatenus" الفعل الوضعي هذا أو ذاك: إلا أنـــه لا يمكـــن للعلاقة أن تؤكد الوضعية نفسها.

III - كل النعوت ما عدا واحد؟

الفعل النظري هو إيجابية محض، ومع ذلك (أو بسبب ذلك بالذات) لا يمكن الوصول إليه إلا عن الطريق السلبي أو بالأحرى لا "يدركه" إلا الحدس والذي هو، بالتالي، إيجابي بمقدار الفعل نفسه: ولنُذَكر أن تطابق هاتين الايجابيتين لا يتـــم إلا في إنية التماس؛ واللمس الذي يتكلم عنه الصوفيـــون[1]- θίξις καὶ οἷον ἐπαφὴ ἄρρητος καὶ ἀνόητος – ليس إذاً "جس" فظ، بل هو "مسّ" عابر أكثر من منام. ومن جراء ذلك فإن ما يضع كل الباقي ليس متموضعاً بالمقابل، بل إنه بالأحرى منفيّ وملغيّ ممن يضعه. وهذا ما يُفسر كون اسم مفعول سلب اللوغوس والإيجابيّة المكوّنة ليسا إطلاقاً ايجابيين معاً في اللحظة عينها: فعندما يكاد الفعل الوضعي يظـــهر إيجابيـــاً، فذلك يعني أن اللوغوس سلبي، والعكس بالعكس عندما يكون اللوغوس إيجابيـــاً، تكون الإيجابية المحض منفية؛ "... نحن نقول ما ليس هو، أما ما هو فـــلا نقولـــه؛ λέγομεν ὃ μή ἐστιν, ὃ δέ ἐστιν οὐ λέγομεν[2]؛ وكما سيقول انجيليوس سيليســيولي Angelus Silesius ، مطبقاً قلب العبارة نفسه على معرفة الذات: أنا لست مـــا أعرف، ولا أعرف من أنا! يفصل قانون التناوب بين اللوغوس والوضعية. لنـــبرهن على التوالي أن نفي الطريق السلبي لا يقود إلى **إلغاء كل النعوت ما عدا واحـــد**، يكون هو الصالح، ولا على خلط كافة النعوت للحصول على **توليف لا شـــكلي**، ولا على الحصول شيئاً فشيئاً على هذا التوليف نتيجة لتوسط **نفـــي الأطروحـــة الجدلي** - ففي البدء لا تعيّن السلبيات المتعاضدة ولا تحصر بشكل غير مباشر مكان المجهول الفارغ، ومثلما في التحقيقات القضائية، حيث، ونتيجة لعدم إمكانية معرفة المذنب من المرة الأولى، فإن الاستبعاد المنهجي للفرضيات والاســـتنفاذ العقـــلاني لكافة الحلول الممكنة يحصر الشكوك شيئاً فشيئاً حول الهذيّة الوحيدة والأخـــيرة،

---

(1) PLOTIN, Enn.,, V,. 3, 10. Cf. 17: νοερῶς ἐφάψασθαι φωτός . Cf. VI, 6, 8; VI, 8, 18; VI, 9, 9; I, 6, 4.

(2) PLOTIN, Enn., V, 3, 14.

بحيث نضع يدنا عليها أخيراً من دون أن نسميها وبمجرد تقلص حقل التخمينات ... بالطبع قد تؤدي عدة سلبيات، عندما تكون الدائرة قد أغلقت، إلى تعيين ووضعية. **والطريق السلبية La via negativa**، هنا هي ضرورة ببساطة لوهن ملكات النفاذ الطبيعية عندنا، فهي لا تقودنا الى المغاير-كلياً الذي لا يمكن إطلاقاً وميتافيزيقياً قياسه مع اللوغوس؛ فهذا المغاير-كلياً المزعوم هو كالآخرين! ليس فقط لا يختلف عنهم جوهرياً، بل أنه **واحد منهم**... إنه ليس جاك ولا بيار ولا جان: إنه إذاً بول Paul. بالتالي، ليس الطريق "السلبي" إلا طريقاً إيجابياً بشكل رجعي، أو هو تأكيد مؤجل؛ ويصير السلب أتوماتيكياً وضعية عندما تكون الدائرة قد أقفلت. ربما كان اكتشاف المُذنب كما كان سيقول ليبنتز، من بين مئة ألف آخرين، مهمة توازي شرب البحر، مشروع إحصاء وتحقيق دقيق، وليس مغامرة ينخرط فيها السر ما فوق-الطبيعي للمغاير-كلياً. فصبر الباحث الذي يتم تعويضه عليه بالضرورة مطلوب هنا، ولكن ليس الجرأة التي لا أمل فيها. والحال لا تنجح هذه التحريات التي تؤكد من خلال النفي **(apophatiques)** لا تنجح إلا بالنسبة إلى كليات المجموعة، المجموعات الممتدة التي يمكن استنفاذها بالعد أو بالاستقراء الكامل. لكن حقل "الفرضيات" التي نجهد بأن نتعرف الى أي منها هي "الأطروحة"، هذا الحقل ليس كُلية مغلقة: هذا الحقل هو كلية منفتحة ولا متناهية وحرفياً لا تَنْفَذ حيث الصفات حرفياً لا تُعد واحصاؤها، بالتالي، حرفياً **لا يمكن أن** ينتهي. لا ينتهي بمعنى أنه **لا يمكن** أن يُنجز. إضافة الى أن الأطروحة ليست إحدى الفرضيات، فرضية مثل الفرضيات الأخرى، فرضية متوجة، فرضية إلهية. يجهد "بيار روستوف" في "**الحرب والسلم**" أن يتعرف على ألمع ضابط بين الضباط الخارجين من الكرملين، **ضابط يكون هو القيصر**: لكن الميتافيزيقا لا تسعى إلى أن تتعرف على من مِن المدعويين لديه هالة حول رأسه، ويكون بالتالي الله. كلا، ليست الأطروحة فرضية مع هالة فوق الرأس، فرضية تكون الله! ببساطة أكثر أيضاً: لا يكمن إشكال الفلسفة الأولى بمعرفة من نبحث عنه، عموماً لأن الفعل النظري لا يقع في مكان ما، ولا هو **واحداً بين آخرين**، هذا أو ذك. إن علماً غير كامل وغير مفصّل ينتظر المعلومات التي ستسمح له بتعيين الغفِل وبملء المكان الأبيض. والحال، فالله ليس سيد "س" وقتياً، أي بمعنى حتى معرفة أوسع، بل انه

التغفيل ماهيته وإلى الأبد ما لا يمكن أن يسمى... إن العثور على المغاير-كلياً ما وراء المنطقي في وسط صفاته وعلى الماوراء في الـ-ما-دون ليس فقط هو شرب البحر، بل إنه المحيطات بل وحتى محيط هذه المحيطات الى ما لا نهاية وقد شُرِع في عد قطراتها. ليس مطروحاً أن يتم من بين ملايين الصفات غير المناسبة لله أن يتم العثور بأعجوبة على صفة توافقه-لأننا نهجس قبلياً أنه لا يمكن لصفة متناهية أن توافقه. لا تقود طريق التجربة المألوفة السلبية ظاهرياً، لا تقود إلى هذيّة لا وجه لها، بعبارة أخرى الى شيء أو الى اسم علم: فهذا المجهول مؤقتاً، والذي سيُعرف بعد قليل، يدعى سيد فلان. تصل الطريق السلبي الى موضع فارغ. ذلك أن الأمر لا يتعلق هنا بفهم ماهية الشخص، بل بتعيين علة أو الإشارة الى الفاعل المسؤول عن فعل. الذي "**فعل**"؟ quis fecit! (من عمل)؟ أين ومتى؟ تُعرّف مقولات التجريب المجردة السؤال البسيط إجمالاً الذي سنشرع بالرد عليه. بيار هو الذي قام بالفعل. لكن من يكون بيار Pierre؟ بينما فاعل الـ "fecit" هو "أحدهم"، هذا أو ذاك، فإن فاعل الـ "يكون" هو الفاعل بامتياز، الفاعل الأساسي أو ماهية الـ "Quis" الـ "من"، الذي لا يمكن تعيينه بالاقصاء، بل يجب فهمه مباشرة بالمشاركة الوجدانية. والحال، ليس المخلوق المتناهي مخلوقاً إلا لأن **الوجود** و"**الفعل**" فيه هما غير ممتدين معاً: فالمرء **يفعل** أقل بكثير مما هو عليه، أي بمعنى انه يُعبر بأفعاله بشكل جزئي للغاية؛ بينما يمكن دائماً تعيين الفاعل الحقيقي بالاستدلال، تبقى ماهية الجوهر **Esse** في الخلف والما وراء مثل سر يتعذر إدراكه على التجريدات الاناسية. لكن ما الذي يمكن أن يُقال حينئذٍ عمن يشكل "**الفعل**" ماهيته كلها، وكل فعله سر للامتناه لا يلمس ولا يمكن تعينه ايجابياً؟ ليست فلسفة هذه "**الماهية**" (Esse) السلبية والتي لا يمكن سبرها ليست مجموعة مقدمات لدوغمائية تأكيدية، بل هي سلبية الى ما لانهاية، بل هي لم تنته إطلاقاً من إحصاء ونفي كل هذا وذاك الذي تعينه ببلاهة نبوءات اللاهوت الدوغمائي للإيجابية المحضة التي لا يمكن اسنادها.

IV – توليف لامتبلّر للنعوت؟

هل من الأفضل أن تُرى الوضعية المحض على أنها المجموع المتناهي أو اللامتناهي لكل النعوت؟ فمن يكون قد اجتاز الى ما لا نهاية وبشكل مستحيل

حلقة هذه النعوت عليه أن يجتاز أيضاً لا متناهياً آخر ليعبر من جملة التحديـــدات النعتية أو الافتراضية، إلى الأطروحة اللاشرطية نفسها. سواء كان إلى ما لانهاية مــا وراء مجموع متناه أو إلى ما لانهاية ما وراء مجموع هو نفسه لا متناه، ففي الحــالتين يفرض علينا الما وراء قفزة المخاطرة والانعطاف المباغت. فليس الفعل النظري نعتٌ مميز معترف به كملك النعوت، ولا هو مجمل النعوت كلها في نعت رسولي كبـير؛ وبالتالي فإن الطريق السلبي الذي يُرفض له أي نعت مأخوذ وحده، لا يعود يظـــهر كمقدمة جدلية للطريق الإيجابي أو كرفع ركام جدلي للوصول الى العرفان الإيجابي: فلا يشكل الطريقان مساراً متصلاً، ولا ارتقاءاً وحيداً؛ بل بالعكس لا يكـــون، في معنى ما، قد بدأ شيء عندما يكون اللاهوت اللاشرطي قد اكتمل (على افـــتراض أنه بامكانه ذلك)؛ بالتالي لا يتقيد الحدس التماسي، المتقطع وفقاً لماهيته، إطلاقاً مع الخطاب السلبي. قلنا ان "positio ponens" ليس محمولاً ممـــــيزاً، ولا – مقاربــاً للاسنادات المتناقضة التي يرفضها كل على حدة، ولكن وهي السلبية منفصلة تصير إيجابية عند أقصى حد في نوع من إسناد الاسنادات: – كأنما على مجمل الإسنادات أن تكون محصلتها أو مركزها أو نقطة تلاقيها إسناد كلي. كأنما نعوت لا تكفـــي وهي منفصلة يجب عليها وقد طُحنت معاً، ان تعيد تشكيل نعت كامل. وهـــــذه صياغة أخرى أيضاً لعدم امكانية الاسناد هذه. إن الوضعية المحض التي ليـــس لهــا وجود هي أيضاً من دون شكل. إلا أن هذا اللاشكل ليس بؤرة كل الاشـــكال، المنضدة والمرتبة بطريقة تعيد ترميم صورة خليط ما فوق الماهية؛ وهذا اللاشـــكل ليس مجموعة، ولو لامتناهية، من التحديدات الجزئية، ولو كانت لا تحصى، ولـــو لواحدة تحيّد الأخرى في خواء أو سديم الشكل – بوجه – عام، أي الشكل الـــذي لا شكل له. أولاً ليس هناك شكل–بوجه–عام، لأن شكل كل الأشكال هو أيضــاً محدد له صورته – σχῆμα – وتشكيله الخاص. بناء عليه، لا توجد فلسفة سلبية لما لا شكل له يمكنها، وقد بدأت **بعدياً** في عالم الاشكال وصور الظل، يمكنـــــها أن تأمل بالعثور على ما لا أدري أي "لا أساس" "ungrund" بنهاية إحصاء كـــــامل لكل هذا وذاك مرفوضين واحداً واحداً ومقبولين كلهم معاً. كلا ليس اللاشـــكل المطلق ليس التحييد المتبادل للاشكال المتناقضة: بل هو، في "مقام مغـــاير كليــاً"،

الحركة النظرية التي **تضع** الأشكال؛ وكما يقول أفلوطين بعمق شديد[1]: إن مـــا **يفرض** الشكل **ويضعه** لا يمكنه أن يكون بنفسه إلا لامتبلر،ἄμορφον, ἀσχημάτιστον أو ἀνείδεον : لأن الحركة كونها نقيض الوجود والشيء، هي وبالتعريف بالذات لا شكل لها، أو πρὸ εἴδους . والعكس بالعكس فهذا الشكل المحدد بـــدوره، هـــو سلب (وليس وضعاً على الإطلاق) هذا الفعل بدون شكل الذي **يعرضه** لا بـــل **يحمله**؛ فكل خبر عن الفعل الإيجابي المحض هو "وديعة" لهذا الفعل، وبالتالي نفـــي، كون الاستبداع هو الوجهة السلبية التي تعرف بها الوضعية نفسها على الخليقة. لأن كل تحديد هو سلب. **فعلم التشكل** بالتالي هو الوصف الإيجابي للشيء الموضـوع، أي بمعنى الخطاب حول ɥádon أو الشكل الذي فُرِغ من تشكله، الذي هو خليقة، اسم-مفعول-سلبي واستدارة شكلية في نهاية تكور: يتم إدراك الوجود بـــالفعل في حقيقته المنظورية والوجودية، حقيقة يستحق كمالها الأعلى إسم **الجمال**؛ عند هذه النقطة من القضية الفاعلة صار الأثر آية. قد تقول فلسفة الأقـــانيم إن الجمـــال، إشراق الخير، هو بطبيعته من مستوى ثان: لأنه شأن كافة أفعال الوضعية المحـــض الماضية – res jam posita, opus operatum forma formata et formosa, ordo ordinatus – يأتي بعد مبادرة، الوحيدة البدئية، للوضعية التي من دون شـــكل – فمنبع الأشكال إذاً πηγὴ τῶν μορφῶν لا شكل له! أيكون الجمال القديم، الجمال غير الجميل منبع الاشكال الجميلة، أيكون هو البشاعة؟ هذا ما يُسعى الى قوله[2] لو تم التذكير بأن سقراط كان بشعاً؛ ويتعارض **ايروس "المأدبة"** مـــن جهتـــه مـــع افروديت، مثلما يتعارض مع لُعب أغاتون المعطرة، والتي هـــي حـــب محبـــوب، عارضات الحلاق وكوبيد الترف: اغاتون لوطـــي **المأدبـــة**، وليزيـــاس لوطـــي **"فيدروس"**، هما على طريقتهما الخاصة مخلوقات هذا "الاطراء" المقزز الذي يربـــط به جورجياس علم البيان والسفسطة. غير أن هذا لا يزال طريقة تجريبية في التعبـــير. لأنه كما أن ما فوق المقام ليس بالأحرى فوضى بل لامقام، كذلك فإن ما فـــوق الجمال ليس بالأحرى دميماً بل لاشكل. كان برغسون يقول إن الفوضى هي أيضاً نوع من المقام، ولكنها مقام خائب ولا يمكن استعماله: دورنا بـــأن نضيـــف أن

---

(1) Enn., VI, 7, 17. Cf. V, 5, 6 et 11; VI, 9, 3. Jean CHRYSOSTOME, Περὶ ἀκαταλήπτου, IVe Homélie, 730 d (éd. Cavallera, Daniélou, Flacelière), 1951.

(2) Le mot russe qui désigne la laideur, bezobrazié, vceut dire: "privation de forme".

الدميم هو شيء ما مثل الفشل أو هو شكل محبط، جمال مفلس أو تحفة ناقصة. فاللاشكل الأساسي، في الواقع، هو ما وراء تصدع الجميل والبشع، مثلما البراءة هي قبل نفي أطروحة الخير والشر وقبل الإنشطار الواعي الذي يلي تخلق الأغواء، وحدث الخطيئة الطارئ. إذ يخفي سقراط تحت شكله الخارجي، كنوزا من الحكمة[1] ستتجلى جمالا: كذلك فإن سقراط كخالق للقيم هو حسي، بمقدار ما ان ايروس هو سقراطي في بساطة هيئته. لا يساهم اللاشكل في جمالات التجريب - لأنه لن يكون شيئا آخر سوى شكل مجهض، شكل مرصود للفشل: انه بالأحرى المختبر الذي تعد فيه كل الأشكال، الجميلة منها والقبيحة. فاللامتبلر المبادر، الجذري الذي لا يوصف، اللامتبلر المتقدم على كل تشكل وواضع كل تحديدات الحيز المرئي المناسبة، ليس بشعا بمقدار ما هو غير مرئي. غير مرئي إلا بالاستشفاف، لا يمس إلا بالتماس: لأن التماس الدقيق ينفي الاتصال الممتد مثلما ينفي الإستشفاف المتقطع الرؤية المستمرة. فاللامرئي-الذي لا يلمس، هو الفعل قبل الفعل – res acta – الذي يشكل مستودعه. قرار ما قبل الفعل، بل القرار ما قبل القرار، قرار التقرير الى ما لانهاية أو، كما كان سيقول ليبنتز **voluntas volendi**، المبادرة الأكثر ابتدائية دائما، والتي يشكل القرار **fiat** حدها، أي ما معناه اختلاج اللحظة الذي لا يلمس. مهما كان اللفظ الذي نعطيه لها، سواء كان شكلا أو شيئا، فإن الوضعية المبادرة قد استبقته! لأن الشكل لا قوة له، مثلما القوة لا شكل لها. تتقدم العملية الأثر، لكن العملية نفسها كان قد تم تحضيرها بارتجاج الوحي الشديد السرية. بالطبع تشبه الترسيمة الدينامية الأثر التي هي حدس له أكثر مما تشبه الحركة نفسها المنتجة للاشكال شكلا: ومع ذلك فإن لهذا التكوين الشكلي، ماوراء البيولوجي، ماوراء التاريخي، والميتافيزيقي له طبعا صلة ما مع سر الوحي! فالفعل الذي لا شكل له هو موح أبدي للوجود: لأن ماوراء "هذا" الوجود (τόδε τι)، هناك وحي، حضانة، أو إرتجال أبدي هو الإيجابية التي لا تدرك. يجب أن نكون بأنفسنا ملهمين لكي نفهم هذا الإلهام. أليس الحدس ملهما؟

(1) Cf. Symp., 215 b, 216 d; Phèdre, 279 b.

V - نفي أطروحة جدلي؟

لا يُستخلص الفعل بدون شكل، والذي ليس شكلاً نعتياً مميزاً بين الأشكال الأخرى، ولا توليفاً غامضاً لكل الأشكال، لا يُستخلص مثلما في لحظة "tollens ponens" لنفي الأطروحة، إنطلاقاً من إلغاءات ايجابية جدلياً وبالواسطة. فإذا كان هناك انبثاق مولّد للوجود حقيقي وتاريخي **للواحد** (πρόοδος) ، فإنه يمكن أن يكون هناك أيضاً جدلية حقيقية: تلك هي حالة هذه التأويلات المبسطة للفيض التي تجعل من الانعطاف انبثاق معكوس؛ فيسلك الصاعد، إذا صح القول على خطى الله -، أو بعبارة أخرى، تسلك حركة الجدل الدينية مراحل القضية نفسها التي تفسر الفيض بالمقلوب. فهذا يصير مبدأ (ἀρχή) لهذا ما كان خاتمة (τέλος) ذاك. يضمر العديد من الفلاسفة المتفائلين هذا التناظر المرآوي، هذه الموازاة بين نشوء الكون والسّلم الجدلي، الممتدّين معاً واحدهما الى الآخر. والحال، ليس هناك امتداد مشترك لسبب بسيط وهو أن الانعطاف والخلق ليس لديهما استمرارية ممتدة. مما لا شك فيه أن أسبوع نشوء الكون هو مجاز، مثلما الانبثاق نفسه هو أسطورة زمنية حول الآنيّ ؛ وبالتالي فإن عكس أيام الخلق السبعة للعودة الى **المطلق** هو مجاز المجاز. ولا يمكن رواية الانعطاف بأكثر من الخلق المُفْترض انه يناظره. تنقبض الوضعية في نقطة، وفي هذه النقطة تتطابق مع الانعطاف نفسه. تدعى هذه النقطة اللحظة. هذا "التركيز المحرقي"، أو بالأحرى هذا التماثل بين **الوضعية والانعطاف** ليس سوى **الحدس**. إن وضع الوجود، أي الفعل مع الانعطاف هو **فعل-الوجود**؛ التوحد بين فعل-الوجود هذا مع التموضع معه: ذاك هو الحدس، الذي هو لا انقسام الحدث الانفعالي والقرار النظري. ألا تشكل نقطتان متزامنتان لحظة واحدة وما يكاد-لاشيء واحد؟ فليس هناك امتداد مشترك في البرازخ قبل **تطابق** لحظات. ينعقد السرد المزدوج، في أقصى مدى، في سرد لامتناهي الصغر ينتهي بمجرد أن يبدأ والذي هو بالأحرى حدث مباغت: حدث لا متناه في بساطته حيث يتطابق فيه الألف والياء وتكون نهايته مبتدأه **على الفور**... ألاً يشير تلقين الأسرار (τελεῖσθαι) في آن معاً على الإنجاز والتنصيب، وان الفاتحة هي انجازاً؟ لأنه يمكن القول ان اللغز le myste، يبدأ في مثل هذه الأشياء من النهاية! ذاك الذي يقول عنه يوحنا الذهبي الفم (Chrysostome) انه لا يمكن حتى البحث عنه، لأنه ربما... كان قد عثر عليه

آنفاً!: – وما لبث أن ضاع من جديد؛ ضاع بالضبط في وميض اللقاء. عثر عليه – لكن وميض اللحظة – في يأس إضاعته... لأن هذه اللقية المولودة – الميتة هي في كل الأحوال سلب "وجدهما" (Heuréka) نهائي وامتلاك فعلي! بالاجمال، اكتشاف مخيب الذي هو ضياع متواصل، والذي لا يمنع مع ذلك هذا اللغز الابتدائي والنهائي في آن معاً من أن يكون مكتشفاً بدلاً من قبوله السعي في أثره. والباحث، في كل الأحوال، يبحث لكي يتظاهر، وفلسفة النفي apophatique هي تحليلية أقل منها كشفية. وذاك الذي، مثلما يقول برغسون، يقضم مسألة أو يقرضها قطعة قطعة يمكنه أن يتباهى عندما ينتهي منها بأنه يمتلك الحل بصفته ملكية دائمة أو بأنه ملكية عادية: لكن من يُدرك السر من الضربة الأولى وبدفعة واحدة، فإنه يتركه وبالضربة نفسها يفلت؛ لأنه ما من سر إلا ويستشف في الهلاك بالذات، كما أنه ما من سر إلا ضائعاً ومنسحباً في شرارة الاستشفاف نفسها. وما كل نظام بحث آخر أو لقية سوى غش ودعابة.

Alle welche dich suchen, versuchen dich, Und die so dich finden, binden dich"

هذا ما يفسر طابع الثبات الغريب، للصلوات السلبية التي لا تنتهي: فهذه التراكمات لا تتقدم، كما لا يقربنا السلب المتتالي من النهاية بأكثر مما لا تنمي آيات المزمور، استدلالياً، أي تفكير؛ ولا نشعر هنا، مثلما في **"جمهورية"** أفلاطون، بالتوليف التدريجي والامتحان الدافع لاثنين أو أكثر (ἐξέτασις, ζήτησις) ، روح الحوار، بل على الأكثر بتخبط روح متوحدة. قد يقال: لا يغنينا الجدل عن بغتة نهائية... ومع ذلك (ἐξαίφνης) ، فيما دون القفزة فإن اللحظات اللاغية (ἐφεξῆς) بنفيها وتجاوزها كل المصافات الافتراضية، ترفعنا في كل مرة درجة باتجاه غير المشروط الأعلى: فاللحظة التي تم تجاوزها كنفي في التوسط، هي نسبياً صحيحة، وتندرج في **غير الافتراضي الأعلى** (Anhypothétique). لا يشكل السلب في **الفلسفة السلبية** apophatique "لحظة": ولا نكون بالتالي بعد مئة ألف سلب أقرب الى ما يفوق الوصف منا بعد سلب واحد. أيكون ذلك لأن استئصال النعوت يقود شيئاً فشيئاً الى تعرية الحقيقة من حجبها؟ إضافة الى أنه يجب أن تكون هذه الحقيقة ذاتاً جوهرية، أي بمعنى شيئاً، وانه يمكن، كما تأمل الدوغمائية،

الحصول على هذا الجوهر في عريه: حتى التجليات السرية تفترض ضمنياً التمييز بين معنى عميق أو باطني ومظهر خارجي. والحال، نحن نعرف، أن الوضعية المحض ليست لوزة في قشرها، وليست تحديداً نوويّاً أو مركزياً مغلفاً بالنعوت، وليست بشكل عام الجوهر العاري منزوعاً عنه صفاته المحيطة به... أو إذا كان يُفضل صور أخرى: ليس ما نبحث عنه تبراً خشناً، يكبر فيه مقدار الذهب وماهيته كلما نظفناه من الشوائب التي تسجن المعدن الصافي، ليس السبيل السلبي تنقية تدريجية من التلوث.

VI - الأطروحة غير الافتراضية وقمة الروح

هناك إذن أطروحة سبّاقة ليست نعتاً أو فرضية بين فرضيات أخرى، ولا هي توليف لكل النعوت ولا خلاصة نفي أطروحة بواسطة الجدل، أطروحة غير افتراضية (protothétique) ونظرية أولية غير ملموسة وسابقة على كل متابعة. ليتم الكلام عن هذا الذي لا لون ولا شكل والذي يتعذر لمسه[1] ἀχρώματος, ἀναφής روى فيدروس **(Phèdre)** أسطورة. وبالواقع، ما فوق الماهية هذا والذي ليس شيئاً بين الأشياء الأخرى يُبرر على نطاق واسع اللاهوت السلبي لكل من فيلون اليهودي Philon le Juif، وأفلوطين ودونيس الاريوباجي المتحل Denys l'Aréopagite. أبرز "اميل برهيه" بعمق عند بروكليس Proclus[2]، نظرية في النفي هدفها تحرير الفاعل من (ما ليس بعده شيء) (non plus ultra) من التأكيد المحدد الذي يخضعه Proclus لمحموله. فإذا قيل: لا تتكلم الروح ولا تصمت، فيعني ذلك تقدر الروح على توليد الكلام أو الصمت عند الحي؛ وإذا قيل: ليست الروح جسمانية، فيعني: الروح علة الجسم الخ. وهكذا فالسلب يحرر، وكل خطاب (cataphatique) حول "**الأول**" هو كذب. " Ἄφελε πάντα" يقطع كل شيء" يهتف أفلوطين[3]. ويقارن **مُطلقه** مع الأبولون الفيتاغوري، الذي كان نفياً

(1) Phèdre, 247 c.

(2) L'Idée du néant et le problème de l'origine radicale dans le néo-platonisme grec, Revue de Métaphysique et de Morale, 1919, p. 458. Proclus, in Parmen. (Cousin), p.1074, 1-21.

(3) Enn., V, 3, 17 (fin). Cf. III, 8, 10: ἀφελὼν τὸ εἶναι... ; V, 5, 13; VI, 9, ἀποθέσθαι, περικόπτειν VI, 8, 21: ἄφες

للمتعدد: ἀπόφασις أو ἄρσις τῶν πολλῶν [1]. معروفة صلوات الصفات المانعة التي لا تنفذ والتي يمنحها كل من اللاهوت الديونيزوسي[2] والأفلاطوني المحدث، **للمجهول الأعلى** خاصتهما. لهذا الذي لا يمكن وصفه (ἄφθεγκτον, ἄρρητον) [3] الذي لا يمكن أن يقال عنه شيء، والذي هو بالمطلق خارج كل المقولات: ولا يمكن تسميته ولا تقصيه ولا سبره ولا قياسه ولا روايته... من خلال هذه الإستئصالات المتكررة، وعند حد "النفي" **apophasis** التعدادي والتراكمي، وليس أبدا في مجرى تطور أو تعميق جدلي-استدلالي، يسمح ما لا يمكن وصفه بتفوق وفائق الإيجابية المحض الذي لا يمكن روايته، يسمح بأن يحدس (Cur quaeris nomen meum?) يرد الملاك على يعقوب[4]. وبتعاليها عن اللوغوس مثلما تتعالى عن المثل "eïdos"، وبانكارها التحديدات التجريبية وليس فقط التصويرية بل الاسمية، تمتنع الفلسفة الوضعية السلبية عن تساهل مزدوج تعمد إليهما فلسفة السلب الإيجابية وتقبل بأن تكون في آن معا ضد التشكيلية وضد الجدل. بالطبع، كان علم المفارقة الأكبر قد نقض - لعبا أو تحديا - طابع الاسناد المتناقض، إلا أن ذلك قد كان على مستوى الجدل وكردة فعل ضد العقل وضد العلم وضد التفكير نفسه بصفته بحثا عن الحقيقة. أما بارمنيدس ومليسوس، فإنهما حقا مقتنعان بإفراط بأن الوجود موجود (ἔστιν) حتى لا يعتقدان بأنه أيضا ما يمكن التعبير عنه والنطق به: φράζειν أو φατίζειν [5] وعلى العكس، سيقول أفلوطين: "انه ليس حتى هذا-يكون"[6] فهذا الذي لا يقبل الوصف الذي يقبله "ستيلبون" Stilpon في مجال الاسناد ويستبعده "أفلوطين" أيضا من مجال الوجود **Esti** هو في كل الأحوال ما لا يمكن وصفه مفهوميا، بينما لا وصفية الأفلوطينية أو

---

(1) Enn., V, 5, 6. Cf. PROCLUS, in Parmen., p. 1094, 29.

(2) Voir à ce sujet l'excellent Index terminologique dressé par Maurise DE GANDILLAC à la fin de sa traduction des Œuvres complètes du Pseudo-Denys (Paris, 1943).

(3) Enn., V, 3, 10 et 13. Cf. Sophiste, 238 c, e (sur le non-être).

(4) Gen, XXXII, 18; Êphés, I, 21: ὑπεράνω... παντὸς ὀνόματος ὀνομαζομένου... (cité par Jean CHRYSOSTOME, op. cit., 729 c et 742 b).

(5) Vers 43: Χρὴ τὸ λέγειν τε νοεῖν τ'ἐὸν ἔμμεναι.

(6) Enn., VI, 7, 38.

الديونيزوسية هي لا وصفية الأساس الجذري: فلم يعد النفي هذه المـــرة كمـــا في المناظرة منع حمل مفهوم على مفهوم آخر، بل إيثار لسبل الحـــــدس اللاعقلانيـــة والفعل الحاسم. لأنه إذا كان **الواحد** البرمنيدي يشير الى استمرارية الموجود الأبدية مع كمال العلاقات التي تشكله، فإن **واحد l'Un** الفلسفة الأولى يشير، فيمـــا وراء هذا الموجود الى المبادرة التي تضعه. هذه المبادرة هي ما لا يلمس، وحرفيا لا توثـــق inétreignable، ἀπερίληπτον [1]، كان فيلـــون اليـــهودي Philon le Juif، يقول: Ἀκατάληπτον ، وذلك قبل جان كريستوسوم بكثير[2]. لاســـيما وأنـــه لا يمكن "قيافة" الواحد في الـــ Hénoïde: النعت بالنفي الذي تســـــتخدمه ترجمـــة Septante **السبعينية** لكتاب يعقوب، ومع Septante **السبعينية** القديـــــس بـــول ودنيس الاريوباجي المنتحل ويوحنا فم الذهب، J.Chrysostome، يعبر هذا النعت بالسلب قبل كل شيء عن أن الموطئ قد ضاع، وأن الجدل لا يقود إلى أي مكان، وأنه لا يمكن أن يكون هناك تقص ما لم يكن هناك من أثر، وأنه إذا لم يكن مـــــا فوق الأساسي αὐτό بنفسه غير قابل للاستدلال (ἀνεξιχνίαστον) فذلك لأنـــه لا يوجد ἴχνη أو بقايا حسية. لا يمكن قيافته إنطلاقا من التجريب، وهو فلسفة ثالثـة، ولا يفهمه تفكير ما وراء التجريب، وهو فلسفة ثانية، κατάληψις، يتعذر بـــــالمعنى القوي، بلوغ الإيجابية الأعلى: ἀπρόσιτον ou ἄβατον ؛ أي، يحدد يوحنـــــا فـــم الذهب[3]، ما معناه، أنه ليس فقط لا يمكن العثور عليه، بل انه حتى لا يبحث عنه. فذاك الذي لا يمكن التفكير به استدلاليا ولا ادراكه بالحواس لا يسمح حتى "بـــدء مقاربة"، προσόδου τὴν ἀρχήν . لا تؤثر علامات اللوغوس الايجابية، كمـــا يقـــول برهييه[4] Bréhier، على هذه الوضعية التي لا يمكن التعبير عنها، وغير القاطعة كليا التي يجعلها الاريوباجي الـــ γνόφος [5] تخيم حولها، "ظلمات أشد نورانية مــــن

---

(1) Saint Jean CHRYSOSTOME, op. cit., Cf. Enn, V, 5, 6: γελοῖον... περιλαμβάνειν; et VI, 9, 3.

(2) Ὡς ἀνεξερεύνητα τὰ κρίματα Αὐτοῦ καὶ ἀνεξιχνίαστοι αἱ ὁδοὶ Αὐτοῦ : Rom., XI, 33, Cf., Ephés., III, 8: τὸ ἀνεξιχνίαστον πλοῦτος (sic) τοῦ Χριστοῦ Jean CHRYSOSTOME, op. cit., 1re Homélie, 706 c; IVe Homélie, 729 d-730 a.

(3) IVe Homélie, 728 d, 729 a, 729 d; IIIe Homélie, 721 b, citant I Tim., VI, 16.

(4) Art. Cit., p. 474.

(5) Théologie mystique, I, 997 b.

الصمت" والتي تثبط همة كل بيان، كيف يمكن لتطابق المتناقضات هذا، كيف يمكن لتماثل النور والليل هذا أن يكون قابلاً للبيان؟

وبما أن "السبيل" السلبي لا يقود حرفياً الى شيء، لا يقود إلى أي مكان، وهو حتى ليس، بحصر المعنى، سبيلاً مثلما مسار الجدل أو الاستدلال هما سبيلان، هل يجب الاستنتاج أن هذا السبيل ليس له من منفذ؟ أيكون السبيل السلبي via negativa درب مسدود؟ إن أغلب ما قد تكون هذه الأسئلة تبرهن عليه هو أن السائل لم يتخل بعد عن خرافته الدوغمائية... في الحقيقة، لقد سبق لأفلوطين أن أجاب على هذا السؤال: إننا نبين السبيل... Λέγομεν καὶ γράφομεν πέμποντες εἰς Αὐτὸ καὶ ἀνεγείροντες ἐκ τῶν λόγων ἐπὶ τὴν θέαν ὥσπερ ὁδὸν δεικνύντες... [1].
لا وجود لمسار فكري قد يقربنا متراً بعد متر ويوماً بعد يوم من الهدف مستهلكين مسافة المتناهي اللامتناهية الى ما لا نهاية: لأنه سيان أن نقول أنه لا يمكن إطلاقاً إلغاء المسافة استدلالياً (مطلوب زمن هو نفسه لا متناه لقطع مسافة لا متناهية أو لإتمام مسار لا متناه)، أو أن نقول، لا يوجد، فعلياً وعملياً، هدف؛ فما هو لا متناهي البعد، وبالتالي غائب الى ما لانهاية، كأنما هو غير موجود؛ ولا هو عموماً، بشيء أو وجود. ولقلب هذا الغياب الى حضور، وهذا اللاوجود الى وجود، يلزم أكثر بكثير من سير أو حجّ جدلي، وأكثر بما لا يقارن من مقاربة تدريجية: يلزم، ومرة واحدة وحتى النهاية، معجزة اللحظة المباغتة. فتشييء الهدف، يعني تخفيض قيمة الحركة التي تقربنا منه، والذي ليس، شأنه في ذلك شأن كل توسط. إلا الحل الوحيد الباقي. ما أن يتم التخلي عن هذا المعبود السكوني العنيد، حتى لا يعود هناك سوى شيئان يؤخذان بالاعتبار: **التحريك والتحول**. المهم في البدء هو السبيل نفسه، πορεία ، السبيل والرحلة بالمجمل، الرحلة وليس هذا المقصد أو ذاك، وفيما بعد وخلال الرحلة، التبدل المباغت الذي لا يمكن الاستحواذ عليه من دون السفر الى ما لانهاية في المكان عينه. إن الـ exaïphnès الوحيد الحاسم والكافي هو وحده الذي يجعل السبيل السلبي فعالاً: ذلك أن السبيل السلبي من دون هذا **المباغت**، ليس حتى بداية لادراك ما لا يمكن الوصول اليه، ولا حتى بداية هذه البداية؛ لأن ما لا يمكن مقاربته، يستبعد كل تقريب. بعد التصفية التدريجية، إليك

---

(1) Enn., VI, 9, 4.

التصفية المُنعِمة وهي التطهر الوحيد الحقيقي والتحول الوحيد الفعلي لكامل الروح. هذا التطهر هو الحدس. ولا تهيء، بحصر المعنى، سلبيات الفلسفة السلبية لطفرة أخيرة تكون "زائدة" دائماً: لكنها ربما ساعدت في أن تخلق فينا "حالة النعمة" أي بمعنى أنها تهيء الذهن للتحول المباغت الوحيد الذي يسمح له بأن يتجاوز اللامتناهي الأخير الفاغر بين مقام النعوت ومقام "الأطروحة" المغاير-كلياً. هذا المعنى بالذات، تفيد الرموز، تبعاً لأفلوطين، في "الاشارة الى السبيل" وفي إيقاظ الروح. لكن عندما، في هذه الشروط، تتجرأ أفعال جهودنا، على بيان ما لا يوصف، فإنها لا تشير إلا إلى مواقف روحانية والى إخفاقات الروح[1]: لقد أبرز "برهييه" بقوة عند الدمشقي، روحانية السبيل السلبي هذه. حتى تبسيطات (haplôse) الصوفيين تأخذ مذ ذاك معنى محدداً: المقصود، كما كان سيقول أفلوطين هو "دمج" تفكيره συστῆναι εἰς ἕν [2]؛ وبما أنه لا يتم لمح **الواحد** نفسه إلا مثل ما يكاد-لا شيء عند طرف اللحظة، فالمقصود أن يصير التفكير صغيراً وبشكل نقطة **ويكاد-لاشيء. غير موجود** بمقدار إيجابية **الواحد** المحض هذه. وبما أن الحدس هو شعور فائق الحدة ورؤية مشحوذة إلى ما لا نهاية، هو كذلك ما يكاد-لاشيء التفكير، هذا التفكير الأقل المنسول بشدة والفائق النفاذ، الذي هو آخر أقصى تفكير قبل لا-التفكير. هكذا تنسل الروح بفعل الاستئصالات، إلا أنها لا تصل فعلياً الى قمة ذاتها إلا في أرفع مغامرة حاسمة. فبساطة **الواحد** العليا ليست شفافة بالكامل إلا لتفكير هو نفسه مبسط حتى هذا الحد الأقصى من الشفافية الذي يصير بعده اللامحسوس واللاموزون واللامرئي عدماً. فشفافية منطبعة على شفافية لا تشكلان إلا ما يكاد-لاشيء واحد، شبه-لاوجود عينه... كريستال فوق كريستال! فكل تعقيد هو تمكين للإشكالية الاستدلالية لكنه عتمة للتفكير. وعلى العكس، ففي البساطة المطلقة، في البساطة التبسيطية، لا تعرف الاشكالية الاستدلالية والمطنبة الخطابة من أين تبدأ، لكن الحدس يكون قد صار ممكناً. فبساطة الموضوع وبساطة الفاعل، وقد تطابقتا في بساطة اللحظة دون برزخ، يشكلان بساطة مثلثة وفريدة: هذه البساطة هي الهوية المتلاشية لثلاث ما يكاد-

(1) Damascius, éd. Ruelle, I, p. 7, 1-8 . Cf. Enn., VI, 9, 3, fin (πάθη).

(2) Enn., V, 3, 16. Cf. VI, 9, 5.

لاشيء. فالحدس إذن هو دقيق وتماسي في آن معا. بمعنى أن الحدس ليس فقط (مهما بدت مزاوجة هذه الكلمات عبثية) حالة حدية طرفية هي بالضبط نفي حالة، ونقيض "مظهر خارجي" "habitus": والحدس أيضا "تماس" دقتين في وحدة الوجود – الأقل الثنائية؛ يمكن النظر إلى هذا الوجود-الأقل **acumen mentis** و**acumen entis** في آن معا – يمكن النظر اليه كما كل قمة، طورا على أنه قمة لمنحدر ذاتي، وطورا كقمة لمنحدر موضوعي؛ وطورا كنهاية صعود وطورا كمبدأ نزول.. هبوط أو صعود وذلك تبعا لوجهة النظر: بالطبع يتطابق المنحدر والمنحدر المقابل في قمة واحدة، في نقطة واحدة مشرفة هي الحدس ولا يمكن لأي امرئ أن يقيم فيها (لشدة حدتها). الحدس، النقطة مسببة الدوار، وقمة أخطر بهلوانية وأسمى معجزة في الوقت عينه، هو إذا تطابق حركتين متعاكستين واحدة تأويلية باطنية أو صوفية épistrophique والأخرى نظرية،تبطل واحدتهما الأخرى، تجمدها وتؤبدها في محطة-وميض اللحظة. ولا يمكن اعتبار أن هذا الحدس الخطير والمحير والاعجازي ينجز فعليا استحالة ما وراء المنطق: لأن انتصار الحدس هو بفعل الواقع وتبعا للبرزخ فشل وعجز عن الاستمرار. مهما يكن فإنه من المشروع هنا أن نتكلم عن "حالة نعمة" لأنه من المفهوم أن هذه "الحالة" ليست "مزمنة" ولا اعتيادية بأكثر من حالة ذروة: وقد تكون حالة النعمة أو بالأحرى **لحظة النعمة**، حرفيا لحظة حياة مطابقة لمجانية النقل الوضعي؛ ونقول تطابق حيث يجدر بالضبط القول تشكل-تشكل، وبالأحرى تشابه، تماثل خاطف: لنقل إن هذا التبسيط "haplose" هو أيضا "homœose" مع منحنا التقليد المحول ليس معنى تأليهيا نهائيا ومشعوذا، بل معنى مباغتة تكاد تكون غير موجودة. نعم، لا يظهر الصفاء إلا للأنقياء، لكن هذه الأرواح الصافية، لكن هذا الكشف نفسه هما الاستشفاف المتلاشي وصفاء مليونيم الثانية المخيب جدا! في نقطة النعمة هذه يصير انعطافي (للحظة) الوضعية بعينها؛ الوضعية الموضعة، ويصير الفعل النظري المحض (للحظة) يصير انعطافي الخاص. لا يجعلكم النفي تقتطعون، بقوة الاسنادات غير المحددة، نطاق تعيين أخير، لكنه ربما يجعلكم تقلدون بأنفسكم حركة الوضعية، أن تصيروا أنتم بأنفسكم هذه الحركة بعينها. الحدس هو إيمائية الوضعية أو، بعبارة أفضل، وضعية موجزة؛ غير أن الخليقة، في الحدس، لا تكون خالقة إلا باعادة خلق آنية.

VII – المجازي المغاير –بالمطلق

يوضح أفلوطين ما يلي: من يريد أن يعرف **الأول** (πρῶτον) بعدياً، بعبـــارة أخرى،ἐκ τῶν ὕστερον، من الآثار والإشارات الحسية[1]، ليس فقط لا يعرفــــه إلا "بواسطة آخرين" δι' ἑτέρων ، بل انه أيضاً يتكلم حوله (περὶ αὐτοῦ)عوضـــاً عـــن عرضه بنفسه (Αὐτό) [2]. Péri : أي **بخصوص وحول** الكل بمجمله! يبدو أن هـــذه الصيغ العميقة قد هجست بهشاشة ولا أمانة وعدم جديـــة ميتافيزيقـــا الـــــ – **بخصوص**. ميتافيزيقا **بخصوص**: ألا يرجع الهذر المتميز والذي يقدره اليوم عدد مـــن رجال اللاهوت والميتافيزيقيون ومنظرو الجمال في هذه الأيام الى هذه الميتافيزيقـــا؟ هناك فلسفة كاملة مواربة تتقن فن تحويل ومواربة وتهريب الســــؤال الأساســـي الوحيد. فأولئك الذين، باعتقادهم أنهم يتكلمون عن الموت، يخطبون إمـــا حـــول مادون-الاحتضار، وهو أيضاً حياة، وإما حول الـــ-ماوراء الذي ليس إلا تخريفـــاً بخصوص حياة الآخرة، لكنهم لا يدركون أبداً اللحظة نفسها؛ وأولئك الذين تحت غطاء التفلسف حول الخلق يقومون إما بعلم نفس (أو برواية ســـيرة) الخـــالق أو يعمدون الى وصف الخليقة؛ وأولئك الذين بادعائهم معالجة الواقعـــة الموســـيقية، يتكلمون أدبياً بهذا الخصوص، وأخيراً كل أولئك، الذين ليتكلمـــوا عـــن الحيـــاة والحرية والنوعية يخلطون أشياء بأشياء أخرى، كلهم، إنهم كلهم يجانبون الأساسي؛ ولعدم رهافتهم، فإنهم جميعاً يفوتهم ما لا يمس أو لا يدرك لا متناه الدقة هذا، الذي لا يُدرك إلا بتماس، أي بمعنى بلمس ملائكي وشبه ما فوق حسي؛ وبتوجههم نحو المفعول به فإنهم يقعون جانباً، وعلى حافة النعوت التي تحـــدد وتغمـــر الواقعـــة الأساسية. وبالأحرى، فإن أولئك الذين يدّعون أنهم يبحثون في سر الأسرار، فإنهم لا يقومون بشيء آخر سوى رواية أقاصيص وحكايات وعلى هامش هذا الســـر. كيف لا يخطر لنا أن نقول لهم: ليس هذا هو المقصود... إنكم تتكلمون عن شـــيء آخر! – فهم يشبهون صحافيون وُضِعوا عند باب مؤتمر دبلوماسي يُقرر فيه مصـــير

---

(1) Σημαίνειν :Enn., V, 5, 6; VI, 9, 5; VI, 7, 38. Cf. III, 8, 9.

(2) Enn., V, 3, 14; V, 5, 10.

الكرة الأرضية في جلسة سرية، فتقتصر مهمتهم على أخذ الاخبار التافهة والإشاعات من البوابين. لأنه هنا يظهر بوضوح عجز الفيلسوف المحزن، وجهله المدّعي بالأسئلة الأساسية، والطابع غير الفعال والخطابي والمضحك والمجازي للتعازي التي يغدقها علينا، والشفاءات التي يجلبها لنا والتفسيرات التي يقترحها علينا: فالشيء الوحيد الكبير، والوحيد الذي يستحق عناء أن يُقال، هو أيضاً الوحيد الذي يُمر عنه بصمت محتشم. فلسفة تدعو للرثاء، دائماً وبشكل لا شفاء منه على هامش السؤال الحقيقي! وهكذا غالباً ما تكون نفسانيات واجتماعيات فكرة الله توريات علمية للابتعاد عن هذا الموضوع الخطير الذي هو الله بنفسه. ومن يدري، أن تاريخ الفلسفة نفسه لم يكن قد صار جزئياً، شيئاً ما مثل مواربة ضخمة مراوغة تجنب الفيلسوف أن يتصدى وجهاً لوجه مع الإيجابية الأساسية؟ تلك هي طريقة أخرى، لفلسفة الفاعل المتعدية الوضعية، أن تُستَبدل بفلسفة هامشية هي فلسفة الكناية والنعوت: فالبعض بدلاً من أن يتفلسف مباشرة حول اللغز بصفته مرفوعاً فإنهم يصفونه في تمثلاته، ويثرثر الآخرون حول ما يعتقدون أنه **المطلق** ولا يتفحصونه في ذاته بل منعكساً في أفكار الآخرين أو مذهب الآخرين... من جهة، تترك الفلسفة المكان لعقيدة المحبة **philodoxie** وآراء الوصف المناسب للظاهر من جهة أخرى.وحتى لـ علم اللوغوس وهي كلها أنماطٌ من فلسفة بخصوص الـ الخصوص. يقول غابريال مارسيل، الكلام عن الله، هو كلام حول شيء آخر؛ لكنه أيضاً عرض أو نسخ لـ "**placita**" الآخرين. دائماً "عذر" و"آخر" "**aliud**"، ودائماً "مجاز"! لا يملك هاو عقيدة المحبة، أي الفلسفة الثالثة حيث ينوب رأي العقيدة **Doxa** عن الحكمة **Sophia** la sagesse، لا يملك ما يكفي من الحِيَل ليغير حديث الأطروحة الى النعوت وليلتجئ، بسعي نابذ، الى دلائل الهويّة الثانوية أو النعوت التي يمكن سردها للنوعية التي لا يمكن وصفها؛ فالمجاز، وهو "circum"، أي انه يدور طبيعياً في مواربات ظرفية، يحل محل خط الحشو المستقيم. ربما هكذا كان أفلوطين وبرغسون يتمثلان ذكاءاً يبدو أن وظيفته هي أن يدور حول[1] περί ، بدلاً من أن يواجه مباشرة، مثله مثل الحدس، الفعل

(1) Ἔξωθεν περιθέοντας , dit PLOTIN: Enn., VI, 9, 3 (sub finem).

النظري نفسه: يرسم الذكاء، وهو فريسة رهاب النقطة المركزية، حول نفسه مراوغات حذرة ولا يترك الدائرة... فالتفلسف حول الأساس، هو إذاً الكلام عن شيء آخر و"نحن أيضاً" يلاحظ أفلوطين، "نحن أيضاً، من يتكلم من هذه اللحظة، نقول شيئاً آخر" οὕτω καὶ ἡμεῖς νῦν λεγομενἕτερον[2]. تشبه الواقعة الأساسية تلك النجوم شبه اللامرئية في السماء: لا يمكن تبينها إلا بالنظر الى جانبها أو بإجالة العين حولها بسرعة... ذلك أنه يمكن لكلمة "مجاز"، (Allégorie) وallo هذا المجاز، أن تحمل معنيين. وἌλλο هي من جهة "الشيء الآخر" لتورية متصنعة الحياد والمواربة البرجوازية: تلك هي حالة التلميحات الثمينة حول الموت أو حول الحب؛ ويشتمل المجاز هنا على تحويل الحديث. وعلى التظاهر وتحاشي تسمية الأشياء بأسمائها، – ليس لأنه من المستحيل فعلياً التلفظ بهذه الأسماء أو طرح هذه الاشكالات، بل ببساطة نتيجة خجل أو جبن. ذك هو أيضاً "غير" المجاز والتماثل الاستعاري أو الرمزي: انه رهاب المباشرة والهلع أمام اللحظة الذي يقودنا هكذا الى تغطيس اللغز تحت الهذار التأويلي، وإلى التضحية بالمباغتة الفجة احتراماً للياقات البرزخ. أو ربما كان التخمين باللغز نفسه هو الذي يوحي بغموض بهذه الكنايات: فالكائن المتوسط باحساسه المسبق بما فوق طبيعية النهاية والانبعاث، يخفي اللحظة ويتظاهر بأنه لا يهتم في الحب إلا باستمرارية أو دوام نوعي، وفي الشخص إلا بتجريد مفهومي؛ الموت هو لاشيء–بالنسبة لنا! يعين غير الكنايات المحيطية ببساطة شيئاً آخر غير الوضعية المحض وبحصر المعنى: لكن هذه الأشياء الأخرى هي أشياء، والوضعية بنفسها (إذا لم يُحكم بغير الظاهر) هي شيء من هذه الأشياء، – شيئاً لا يزال مجهولاً وتُخشى تسميته؛ إنها فلسفة النعوت ، بمعنى إنتماءات وصفية وظروف نظرية هامشية **périthétiques**، تسعى الى بلوغ هدفها بشكل غير مباشر وتنزلق أو تنحرف عن الجوهر نفسه نحو المحيط القشري لهذا الجوهر. – لكن يمكن لـ – **غير** أن يشير أيضاً الى الـ – **دائماً** – **غير** الأطروحة نفسها، أي الوضعية بحصر المعنى: كانت النعوت منذ قليل شيئاً غير جوهرها، والآن فإن الوضعية المحض هي شيء غير كل النعوت التي يمكن تعينها. ذلك أن الوضعية التي

(2) Enn., VI, 9, 10.

تضع كل الأشياء لا يمكنها أن تكون شبيهة بما تضع؛ ليست من نفس مقام هؤلاء الآخرين؛ ليست شيئاً بين الأشياء. والمجاز السطحي هو أيضاً فلسفة الشيء لأنه يستبدل شيئاً بشيء وغير بغير: انه فن الإجابة المراوغة وإخفاء الإشكال الصعب، واستبدال **الحب بالصخب**، واستبدال الكلمة بتعريفها؛ وهو في ذلك لا يتفوق على دوغمائية الحس المشترك أو على الدبلوماسية الاجتماعية بالإجابة المجانبة والمخرج المراوغ. من هنا هذه الحشرية المثيرة للنزاع وغير المتحفظة والتي غالباً ما نبذها[1] كل من فيلون اليهودي، أفلوطين ويوحنا فم الذهب، والتي هي واقع πολύλαλος ، الخليقة المنهمكة والثرثارة. لا يعود الكسل عن مواجهة الإشكال مباشرة، بل العجز عن استنفاذ امتلاء اللغز ما يجعل "جان دولاكروا" يتعلثم[2]. ويكتفي المجاز الطائش بصفات الأطروحة الساكنة: إلا أن عذاب ما لا يمكن التعبير عنه هو وعي الواجب مضاعفاً الى ما لا نهاية التحديدات المتناقضة **لمطلق** يجمع كل النعوت بنفيها كلها. ولنسترجع: ليست الوضعية المطلقة بحصر المعنى مقام- مغاير - كلياً، بل هي بالأحرى مغايرة تماماً للمقام، مغايرة كلياً لكل مقام. ليست، مثلما في المجاز التجريبي نسبياً-مغايرة، غير هذا أو ذاك، في مكان مغاير لهنا، مغاير لكذا، فيما بعد الآن...: لأن في التجريب هناك جمع **ذاك** هو جمع **هوذا** مستقبليٌ، ثمة كثير من **هناك** تصير مع الوقت والحركة **هنا**، وغياب كثير مرشح للحضور، وكل الـ **Nondum** من دون استثناء هي اليوم غداً! ألا يجعل نسق **هوذا** المرجعي، المعرّف مثل **هذا**، **هنا**، **وهكذا**، ألا يجعل كل تأجيل مؤقت، وكل انتقال متناه. وكل فساد نسبي؟ كلا! فما ماهيته أن يكون وجوداً مغايرٌ، والذي هو، إذا أمكن القول، في ذاته مغاير كلياً وبدعوته، دائماً غير، وغير بالاطلاق، غير أبدياً، لأنه إلى ما لانهاية، غير أي غير آخر، ذاك الذي ليس فقط وجهة أخرى، وليس فقط فيما بعد، ذاك لا يفسر فقط المقولات الطبيعية الحادثة. هذا ما هو **دائماً تماماً**

(1) Πολυπραγμονεῖν, περιεργάζεσθαι, φιλονεικεῖν : Enn., 1, 3, 4; IV, 8, 4; V, 3, 3 et 10. Cf. II, 7, 11. Jean CHRYSOSTOME, op. cit., 704 c, 705 a, 707 b-c. 710 d, 711 b, 712 a, c-d, 713 b, 714 b, c, d, 715 a, d, 716 a, 721 d, 723 c, 727 c, 728 c, 729 b, 741 a, 742 b, d, 743 a.

(2) Œuvres (Bar-le-Duc, Saint-Paul, 1937), t. IV, p. 319. Et la strophe VII du Cantique spirituel.

غير – أي – غير بكونه شيئاً غير أي شيء، لا يمكنه أن يكون إلا anti-res أو لا-شيئ؛ لكنه أيضاً ليس علاقة، مثلما هي حال المغاير ما بعد التجريب التكـــــراري والتأجيل غير المحدد: انه غير المعيّن أبعد من كل تكرار، ودائماً أبعد الأبعــــد؛ وإذا سمح في النهاية إعطاء اسم لما لا يسمى هذا، والذي هو، كما يقول القديس بــول، وبالتعريف بالذات: "فوق كل اسم مسمى"، نقول ببساطة انه، كمرفــــوع، انـــه نفسه: **Autos**.

الفصل السابع

ما هو عينه

I – الفاعل المحض غير النسبي

من جهة أشياء التجريب الأخرى كلها، وهي فعلاً أشياء، ولكنها ترجع كل واحد منها الى الآخر، ولكنها جميعاً شيئاً آخر غير أساسها نفسه. من جهة أخرى، فإن ما هو **نفسه** نفسه هذا هو ليس فقط غير كل الآخرين (لأنه يمكنه أيضـــاً في هذه الحالة أن يشير بطريقة متواطئة الى آخر مكان فارغ لآخر مجـــهول ولآخـــر ذاتية hæccéité)، بل هو مغاير حتى لنفسه! وهكذا فالكل مغاير: الموجودات غـير الأساسية التي تتحدد كل واحدة بالنسبة للأخرى، الماهيات غير الموجودة وهـــي محض علاقة، ولكي ننتهي، المغاير تماماً غير المحسوس الذي هو مغاير للكل، مغـــاير كل غير حتى ذاته! لأنها هذه هي المفارقة التي يجعلنا نواجهها: فمغاير أدنى مجاز هو مغاير لنفسه Αὐτός ἢ ἄλλος ؛ وبالعكس فإن **ما هو نفسه** هو في آن معاً نفســـه ودائماً مغاير، Αὐτός τε καὶ ἄλλος αὐτοῦ : انه بشكل متناقض عينه وغـــيره **ipse** و**alius** معاً؛ إنه نفسه، وهو ليس نفسه؛ انه نفسه، ولكنه ليس لديه "نفســـه". إن يقال أن **ما هو نفسه** هو لا شيء ولا حتى نفسه (وبالأخص ليس نفسه!)، وانـــه بهذا بالذات يعرف نفسه، إذا أمكن القول، هو ان نعبر بعبارات جدلية عن الطـابع الآني، أكثر منه جوّي، ومحبط لانكشافه، إنه الموافقة على أنه ما يكاد يُعثر عليـــه حتى يضيع للتو من جديد وانه لا يمكن حصره إطلاقاً إلا ببهلوانية وعند عتبة الـــ **allos** والــ **autos** التي تكاد تكون غير موجودة. هـــل يمكـــن لـــ "autos" "انطوائي" نهائياً ومثبت أن يكون أيضاً وضعية بدئية؟ قد يكون من الأجدر تسميته ما هو نفسه. من دون الــ التعريف، بمعنى استدعائه ليُحتفظ له بطابعه الاثـــيري والجوي، لأن الــ ـ**ماهو نفسه** المعرف كمفهوم يختلف عن ما هو نفسه بمقدار مـا يختلف الأنا الذي يقول حاضراً أنا،ـ أو أنت الــ ـأنا الذي يقول في هذه اللحظة

أنت. لكن بالاختلاف عني أنا نفسي، الذي يصير ذاتاً لي أو أنا جوهـــري في رأي الآخرين، لا يملك الفاعل المحض الخلاق، بصفته هو نفســـه مرفوعـــاً، لا يملـــك "semetipsum". ليس لأن فعل تفكير هذا αὐτός حول ἑαυτόν خاصته لا يمكـــن تصوره قياسياً، إذا فهمت **الذات** soi على أنها كونية الأشياء الموضوعة: بل انـــه ليس هناك فعلاً متعدياً يمكّن هذا العامل المحض أن يصير مفعولاً به جامداً، ليـــس هناك من فعل يظهر فيه ما هو نفسه علـــى أنـــه res acta. هـــوذا إذاً إشـــكالنا المستحيل: فـــ-الـــ-ما هو نفسه، بصفته فاعل كل الفـــاعلين، واصفـــي كـــل الفاعلين، أو بعبارة أفضل، الفاعل الوحيد المحض على الاطلاق، هو أول لفظـــة في الفلسفة الأولى؛ ومع ذلك، فإن هذا الفاعل الخالص، كونه لاشـــيء، ولا حـــتى نفسه، هو نقيض كل "جوهر"! لقد بحث أفلاطون Platon بشغف عن هذا الـــــ **"Autos"** الذي هو بامتياز ما لا يمكن اختزاله ولا استنتاجه والأصالـــة الأكـــثر جوهرية والـــ **nec plus ultra** لكل نكوص. وفي لغة **تخلقية** يظهر لنا الكتـــاب السادس من **"الجمهورية"** الجدلي صاعداً من النسخة الى النموذج، ومن النمـــوذج الى نموذج هذا النموذج ليصل أخيراً الى نموذج كل النمـــاذج، ذاك الـــذي هـــو النموذج البدئي أو النموذج المثالي الذي لا يرجع إلا الى ذاته: هذا المثـــال، هـــو الحقيقة التي تدرك ليس في انكسارها غير المباشر، كظل أو انعكاس، بل تُـــدرك في مباشرتها الملموسة: ليس نسخة البتة، ولا الظاهر، ولا رمز ثانوي، بل الأصل مـــن دون أي دليل؛ ليس البتة الحقيقة المصطنعة، الحقيقة بالإنابة أو بتوسط وسيط، بـــل الحقيقة **بنفسها**، **Ipsa**. وتفضل حوارات Phédon، Banquet، Phèdre، **فيدون**، **المأدبة**، **فيدرس** بوجه عام اللغة التطهرية: يسعى ديوتيـــم Diotime الى وحـــدة الجمع، ومن ثم الى وحدة هذه الوحدة، وفي النهاية الى **الواحد نفسه**، τὸ ἓν αὐτό، ذاك الذي هو **الواحد** الجوهري، أبعد من "كل واحد من" النعوت ومن مفردهـــا، أو، كما تقول **"الجمهورية"** (1)، الجميل في-ذاته αὐτὸ τὸ καλόν أبعد من الأشـــياء الجميلة (τὰ πολλὰ καλά) . تبعاً **لفيدرس** Phèdre، هناك شفافية نقية، تجريد محـــض لا لون له ينكشف مثل الحقيقة الفجة والعارية عندما تنمحي لوحة الانطباعـــات

(1) VI, 493 (αὐτό τι ἕκαστον, par delà τὰ πολλὰ ἕκαστα) Cf. 507 b, 510 b; 511 e εἴδεσιν αὐτοῖς δι'αὐτῶν εἰς αὐτά.

المتعددة الألوان والمبرقشة: تُعلم "الانطباعية" العابثة، الانطباعية الجلدية، والسطحية حرفياً أن تعلم سجادة النوعيات وبرقشة المظاهر المثيرة للاعجاب هي ما هو نفسه الوحيد بينما يدعونا التطهر الى حرمان تقشفي بصفته الوسيلة الوحيدة للعثور على الحقيقة "التبسط"، الحقيقة من دون قيد أو شرط، تحت أعباء النعوت: لأن البساطة العليا، لأن ما هو نفسه المحض لا يمنحا إلا عند نهاية تبسيط؛ تقشف، تطهر، تبسيط — ἄσκησις, κάθαρσις, ἄπλωσις — تجهد فعلاً في نفس الاتجاه! والتبسيط قبل كل شيء هو حذف ملاحق ما هو نفسه النعتية وغير الأساسية. هكذا يأخذ السبيل السلبي والاستئصالات التي ترافقه تأخذ معنى جديداً: "يجب حذف كل ما يبقى والاقامة فيه وحده، وان نصبح **هو وحده**، متخلين عن كل ما نغلف به أنفسنا..."[1]. قد يكون هذا هو معنى الوحيد، الوحيد لوحده (φυγὴ μόνου πρὸς μόνον) وهي كلمة "التاسوعات Ennéades" الأخيرة- هذا الوحيد-لوحده، هذه المواجهة وجهاً لوجه هي ثنائي ما هو نفسه الصغير وهو مخلوق، مع ما هو نفسه بكل ما هو نفسه. كذلك فإنه ليس من النادر أن يعظ أفلوطين، مازجاً القدوة ولغة التقشف التلقيني، يعظ باللامبالاة تجاه الأشياء الثانوية (δεύτερα) والمجازات: "ليس الصورة! هو نفسه... Οὐκ ἄγαλμα οὐδ' εἰκών, ἀλλ'αὐτό[2]. وبلغة العلية، أخيراً، يختلط البحث عن الـ **Autos** مع البحث عن العلة المحدثة المحض، مع العلة نفسها، مع العلة التي لم تعد معلولاً للاشيء والتي تُوجد كل موجود. - إن الفاعل ليس البتة غير المحض، بل المحض، ليس النسبي، بل المطلق، ينكر كل بيان متعلق به: والمستحيل هنا هو أن يكون لـ κατά للـ κατηγορεῖν نظام هذا الفاعل الجذري الذي هو خارج المقولات، هو أن κατηγορούμενον أو أي مُسند أن يُمكن اسناده الى ما هو نفسه بنفسه. وتُستخدم كافة الصيغ اللاهوت السلبي apophatique، عند أفلوطين Plotin، للتعبير عن هذا الرفض: لا يمكن للوحدة أن تتأكد من الواحد[3] لا يمكن للواحد أن يقول: ἀγαθόν εἰμι ، ولا: ἐγὼ εἰμι — أنا الخير،

(1) Enn., VI, 9, 9: ἀποθέσθαι τὰ ἄλλα δεῖ καὶ ἐν μόνῳ στῆναι τούτῳ, καὶ τοῦτο γενέσθαι μόνον περικόψαντα τὰ λοιπὰ ὅσα περικείμεθα. Cf. V, 3, 17, fin; V, 5, 13.

(2) VI, 9, 11, Cf. VI, 9, 6: αὐτὸ γάρ ἐστι .VI 8, 21 (sub finem).

(3) VI, 9, 5.

أنا هو أنا[1]؛ ولا بشكل عام: εἰμὶ τόδε ـــ أنا أكون هذا[2]. انه ليس حتى الـــــ - "يكون"، ἔστι οὐδὲ τὸ"Εστιν ولا بالاحرى "كائنا" (ὄν) [3]. وإذا كان كــل إدراك حسي يفترض برقشة متعددة الألوان، ποικίλα χρώματα ، فإن كـــل لوغـــوس ينطوي على علاقة ومع العلاقة على غيرية تفاضلية، ἑτερότης ، كـــون النســـبي Autos و Allo في آن معا: وبدون ἄλλο καὶ ἄλλο الاستدلال هذا يضيع الفكـــر فعله[4] ويتوقف عن التفكير. هل يمكن حتى القول أن محمولا ما ينتمي الى ما هـــو نفسه[5]؟ والله بحصر المعنى ليس إلهيا، والنعت، أيا كـــان، اســـتحضار أو تحديـــد "quatenus" ترفضه الإيجابية المحض سلفا؛ لأن **المطلق** ليس لـــــ "quatenus"؛ لأن **المطلق** ليس **بما أنه**. كذلك يغرينا القول، وبطريقة في التعبير وللتدوين بكل قوة ما بعد المنطق في لغة اللوغوس، وغير النسبي في لغة العلاقة: ذاك الذي ليس له صلة بالآخر، ἕτερον، ينتسب على الأقل الى ذاته،؛ ذاك الذي لا يقدر أن يكون ἄλλο لـــ κατ'ἄλλου [6] ربما كان καθ'αὑτό ... أو في ذاته قلنا، انه لا يمكن لحرف جر (سواء كان περί، κατά، εἰς أو ἐν) لا يمكنه أن يتقدم الوضعية السباقة، لا يمكن لعلاقة مجرورة أن تحكم الفاعل الوضعي المحض، الذي هو **المطلق نفسه**: على الأقل يكون الفاعل المحض مكملا لذاته، على الأقل تعيد مفارقة "العلاقة مع الذات" نوعا من إيجابية القواعد السلبية لفاعل متعد النسبية. هكذا يحقق الـــ αὐτὸ καθ'αὑτό [7] تحالف كلمات متناقضة لـــ-ما هو نفسه مضاعفا أو منشطرا، لكن بحيث أن مـــا هو نفسه الثاني، بحمله الذهن الجلف للضمير المنعكس، يدل علـــى **ذات** الأول أو الأنا الميتافيزيقية semetisum de l'ipse: هذا **التحفظ** الغريب، هو، إذا أمكن قول ذلك، هو **ما هو نفسه بصفته هو نفسه**، ما هو نفسه محمولا على مفعوله الخـــاص وحاملا لعارض ثانوي. والحال، هل **المطلق** اللانسبي هو علاقة مع نفسه بوجه آخر

---

(1) VI, 7, 38.

(2) V, 3, 10.

(3) VI., 7, 38; VI, 9, 3; V, 3, 13. C'est le "What is" de Burnet.

(4) V, 3, 10: ἠλογώθη .Cf. *Phédon*, 78 c : ἄλλοτ' ἄλλως. 'Ετερότης : V, 3, 10; VI, 9, 6.

(5) ὅτι αὐτῷ ὑπάρχει : VI, 7, 38.

(6) VI, 7, 38; VI, 9, 5.

(7) Μονοειδὲς αὐτὸ καθ'αὑτό : Phédon, 78 d; Enn., VI, 9, 3. Entre autres: Parménide, 133 d et sq.

غير المجاز؟ لأنه أخيراً، إما أن تُبعد الصعوبة بنقلها الى داخل فاعل هـــذه العلاقـــة المماثلة... ومن لا يرى أن لغز ما هو نفسه المحض الذي لا يُسند يبقى كـاملاً؟ أو أن هذه العلاقة المماثلة ما هي إلا صورة من البيان، مثلها مثل قبة السماوات؛ كلمـــــة تقال، لكنها ليست فكرة. ونحت احرار بعد ذلك (لأن كل تخريف هو مسموح به هنا). أن نتكلم مع "بوهيم"Bœhhme و"شيلنغ" Schelling عـــن صـــيرورة الله الداخلية! لكن الأمر لا يتعلق بنا بأن يكون من الممكن فعلياً التفكير بعملية دائريـــة أو باسناد دائري... وذلك الذي يدعي أنه يفكر بما هو نفسه وليس بـآخر، ولا في آخر، ولا فيما يخص آخر، بل "في ذاته"، وبذاته، "in se" و "a se"، ذلك يمكنـــه بالطبع أن يقول انه يفكر في شيء ما، لكنه ليس حراً، بأن يكون لديه شـــيئاً مـــا للتفكير، فحروف الجر بـــ، في، عن، الخ...، ليس لها أي معنى إلا من الواحـــد الى الآخر، وليس من ما هو نفسه الى ذات ما هو نفسه ذاتها: وهكذا، يدل الموجـود-في، على أن الواحد هو في الآخر **(inest)** أو أن المحتوى هو في الحاوي، والوجود-الذي ينتجه الواحد بالآخر، أو المعلول بالعلة؛ وأن الوجود- مع الواحد والآخر هما متمايزان لأنهما معاً.

غير أن الـــ inséité أو aséité ليسا سوى حيل من اللغة الانسانية للعثـــور على تصنيفات العلاقة المكانية (συνεῖναι, περιεῖναι, ἐνεῖναι...) فيمـــا لا يمكنـــه، بصفته الكل والواحد في آن معاً، لا يمكنه أن يكون نسبياً بالنسبة لآخر. حتى الـــ "secum"، المثقل بالمعنى عندما يطبق على تعقيد والتباس وعمق الوعي البشـــري، الـــ "secum" مطبقاً على **الفاعل** المحض الذي لا ينقسم، هو مجاز بمقدار الـــ (in-se)؛ وهكذا ينكر أفلوطين، على **الواحد** كل وعي (συναίσθησις)[1]: ربما تكـــون البراءة هي الاسم الحقيقي لهذه النعمة التي لا تفكير لها، لهذا الـــ Autos دون حب الذات philautie، لما هو نفسه هذا من دون أي مجاملة، أخيراً لهذا **الفاعل** الـــذي هو حمل تام ووضعية بالكامل. كما أن **الفاعل** المحض ليس أيضاً حشـــواً مغلفـــاً. فالحشو تفكير مزيف، ودلالة-مزيفة، لأن السكون المفكر يناقض في داخله شـــكل اللوغوس مثلما يكذب حب الذات دعوة الـــ φιλεῖν ، التي هـــي حـــب ليـــس الذات، بل آخر: أليس الحشو أي حرفياً لوغـــوس الـــ ταὐτόν ، أو الاســـناد

(1) VI, 9, 6; V, 3, 13; VI, 7, 38 (contre la νόησεως νόησις).

الدائري، أليس هو وحشاً؟ ألا يكذب الحشو، وبتعريفه بالذات، وظيفة الارتبـــاط المتبادل، وهو إقامة حكم علاقة بين الواحد والآخـــر؟ أليـــس كـــل لوغـــوس، وبالتعريف بالذات أيضاً، هو علم المتغير؟ إن "علاقة" نفسه بكاملها مـــع نفســـه بكاملها ليست سوى تكرار لوجود هو في كلا المرتين نفسه نفسها في كل الأوجه: أو، بعبارة أفضل، تستبعد الهويّة كل "اعتبارات" اللحظة التي تحملها كلها، والحشو هو مجرد تكرار solo numero، إعادة من دون أي ترقي ولا تقدم، وطئ في نفـــس المكان. من المتفق عليه أن "أ هي أ" ليست تفكيراً. ومع ذلك، فإن ما لا يُفكر فيـــه هذا هو الشرط الضمني لكل إمكانية تفكير. ينقضي التفكير في هـــــذه الشـــفافية التفاضلية لهوية من دون أي إشكال؛ والتفكير، الذي لم يعد يجد ما يعلكه، يمـــوت جوعاً في الفراغ. فلا يمكن التفكير في الهويّة المحض، إذا صح القول، لإفراط إمكانية التفكير، لأن التفكير في هذه الهويّة مفرط في كثافته، ومفرط في بساطته ومفرط في تألقه، ولأنه في منتهى المعقولية: فليست البداهة الاسمى، وهي النبع النوراني لكـــل وضوح، ليست واضحة وضوح ما تنيره، حتى أنه يمكن القول أن هاجرة النور هذه هي في ذاتها منتصف ليل الظلمات؛ لأن ما يجعل التفكير بالباقي ممكنـــاً لا يمكـــن التفكير به نفسه، لا يمكن لشرط التفكير أن يكون من الممكن التفكير بـــه، ومـــا يُمكن من الفهم لا يمكن فهمه! حيث كثافة ما يفكر به مفرطة القوة، والبداهـــة مفرطة الحدة، والبعد عن نفسه وعن الآخر ضئيلة بافراط، لا يعود هناك تفكـــير؛ وبالعكس يبدأ التفكير من جديد عندما يتوقف أو يُمنع من التفكير؛ منـــذ قليـــل كانت قمة الإيجابية هي التي تنقلب الى عائق والى سلبية، والآن فإن العائق هو الذي ينقلب إلى عضو، والسلبية تنقلب إلى إيجابية، وعائق التفكير سينقلب الى وســـيلة للتفكير، العائق هو الذي يصبح، **بصفته** عائقاً أداة. سخرية المفارقـــة والانـــقلاب الجدلي! لم تكن العلاقة كامدة بما فيه الكفاية لتكون رؤيتنا شفافة... تزودنا الغيريـــة بالستارة، التي بخدمتها الفاعل والمحمول، تشبع اللوغوس بالهواء، أي بمعنى الحكـــم والجملة في آن معاً، الاستدلال والقول. مع هذا الفارق الضئيل للاسناد الابتدائـــي، لقد ضُمن لنا نضمن أقل ما يمكن تفكيره. وبتأكيده الإيجابيـــة النســـبية لعـــدم- الوجود، ألم يكن **سفسطي** أفلاطون يسعى الى تدارك الاختناق الايلـــي، المميـــت لكل من الاسناد والعلم؟ فالظلال التي تسقطها المنازعات والمتعارضات الواحـــدة

على الأخرى، والنتوء الناتج عن الغيرية تنوع نور الهاجرة وتعطي مـــادة لعمـــل التماثل التوليفي. يتوضح التفكير ويزهر بفضل العائق. لكن الوضعيـــة المحـــض، ليست، مثلها مثل الهويّة، لا يمكن التفكير بها، والتي تجعل التفكير ممكناً، مجـــهولاً يُمكَن من المعرفة، مُبهماً يُمكن من الفهم: إنها بالاحرى ما يجعل مبـــادئ العقـــل تظهر على أنها عبثية أو على الأقل مجانية وحادثة؛ وبينما الهويّة - هـــي بـــالذات مركز المعقول والمصدر غير المتحرك لكل حركة تفكر، فإن الوضعية المحض هـــي اللغز الذي لا يمكن سبره، الذي يجعل الحقائق الأبدية باطلة وعارضة مثلها مثل كل البداهات الموطدة على أشد ما يكون. وبمقدار ما تنقطع تتفاوت، وتتمفصل بـــين المفاهيم، ولكن وبهذا بالذات يصير من الممكن التفكير بها، تكون الهويّـــة حرفيـــاً ماهية الماهيات أو العنصر الخامس لـــ-مابعد التجريب: فالوعي ما بعد المنطقـــي الذي نمنحه لأنفسنا عن هذه الهويّة كواقعة بشكل عام، وكواقعة اعتباطية، هـــو بالضبط وعي الوضعية المحض. ذلك أن الأمر لم يعد يتعلق هذه المـــرة، بالماهيـــات (فالماهية، مهما كانت شفافة، تبقى مما وُضع)، بل يتعلق بالفعلية الواضعة نفســها: تضع الوضعية نفسها جذرياً، وبتموضعها، تضع كل أسماء المفعول السلبية، كـــل أسماء المفعول الموضوعة، فهي إذاً بكاملها فعل غير ملموس ومحض، إسم فاعل فعال أبدياً. ومثلما تناقض الـــ positio poneus كل res posita، كذلك فإنها تنـــاقض كل مبدأ غير متغير: قد يمكن القول أن الـــ Auto في ذلك، هو بـــالذات نقـــض الهويّة. كلا، لا يتطابق ما هو نفسه مع ما هو نفسه؛ كلا، لا يمكن فهم **الفـــاعل** المحض بأي تحديد متواطئ. .. والله ، يحصر المعنى، ليس الله؛ فالله أكثر من الله، الله هو غير ذاته، يقول أفلوطين[1]: πλέον ἐστὶν ἢ θεός . وعند أفلاطون أيضاً، تعـبر، في البدء، مقارنات الـــ Hormé الميتافيزيقية أن ما هو نفسه، مكذباً المبدأ العقلـــي الأشد عمومية، يفلت من ضرورة أن يكون ما هو عليه. وعندما يكشف يـــهوه Jéhova، في ظهور الدغل المضطرم، يكشف **لموســـى** "Ego sum qui sum" ، يكون ثمة طريقتان لسوء فهم هذا الحشو: فإذا كان أول Sum، موصول باســـناد عادي، يُعرف الله نفسه على أنه مماثل لكلية الموجود السرمدي والسحيق. هكـــذا

(1) VI, 9, 6; V, 3, 14: μεῖζον, κρεῖττον. VI, 7, 22: πρὸς ἄλλο..., μεῖζον κουφίζεται . Tant qu'il y a quelque chose ἀνωτέρω τοῦ παρόντος, αἴρεται. Νοῦν ὑπεραίρει. 31 : ζωὴ πλείων. Ζητεῖν. Cf. *Rép.*, VI, 506 *d-e* πλέον (τί ποτ'ἐστίν).

ترجم السبعينية Septante[1] Ἐγώ εἰμι ὁ ὤν ، بأن تجعل الله يقول بـــالضبط نقيض ما يؤكده **واحد** أفلوطين عن ما هو عليه نفسه: لأن **الواحـــد**، بـــالضبط، سيرفض أن يقول εἰμι ὄν ؛ ولأن استبدال ὄν بـــــ ὁ ὤν ، الموجـــود المحـــايد بالشخص الموجود لا يخفف إلا قليلاً شيئية هذا اللاهوت - المزيف. وفي منحـــى الفلسفة الثانية، قد لا يعبر التكرار الانطولوجي للضمير الأول في صيغة مفارقة عـن دائرة وجوب الوجود بالذات، بل هو ببساطة عن تحصيل حاصل. في الواقـــع، لا يوجد سوى فلسفة أولى، هي الفلسفة التي فيها ما هو نفسه يضع ما هو نفســـه، ومعه الوجود كله؛ وليست صيغته: **أنا الذي يكون** (ولا بالأحرى، **ما هـــو**) لأن هذا التعريف هو الشكلي والوجودي. لوحدة كلية؛ ولا أيضاً **أنا ما هو أنا**، صيغـة تصير فيها المعادلة الحلولية المائلة مجرد حشو، تحصيل حاصل ما بعد تجريبـــي؛ بـــل ببساطة **أنا أكون، أنا من أكون**، وهذا ما هو إعلان وجود ويكاد وضعية جذرية، أكثر من تعريف بالماهية: فلا يعود الفعل هنا الوجود Être الموصول بالتلازم، ومـــا العلاقة المخففة هنا إلا لتقود الى الماهية الإلهية: الفعل هنا هو الخبر الحاضر أبديـــاً والـــ Sum المطلق للأطروحة الذاتية، أي بمعنى نقيض العلاقة. وبدوره الــ "أنـــا"، لم يعد أي فاعل لفعل قد يصبح هو بدوره فعل أي فاعل آخر، بل هو لا يشـــكل إلا واحداً مع هذا الفعل: Ἐγώ, Εἰμι ليسا إلا فعلاً واحدً ولغزاً واحداً... والأنـــا النظري الذي كان محموله، في المعادلة الحلولية مفهوماً في الضمـــير الغـــائب، وفي الحشو ذاته الخاصة بصفتها مفهوماً مجرداً، هذا الأنا قد يشبه الأنا بأقل ما يشبه أنا: أنا نفسي الذي يقول أنا في هذه اللحظة بالذات. إن ما هو نفسه هذا، والذي هـــو مثل الأنا، instar mei، مع انه ليس "انا"، وليس أبداً الضمير الثالث التصوري، مـــا لا يمكن تعريفه هذا، الذي ليس أنا الأنا، قد يكون بالأحرى **أنت—نفسك** بمقـــدار ما يكون، هو الفاعل بامتياز، موضوع تضرع مباشر. فإذا **كان الذي هـــو** كـــل الموجود الأزلي، فإن ما هو نفسه الذي هو أنت نفسك، سباقاً في ماهيته الوجوديـة الخاصة ومتطابقاً بكامله مع لغز **أنا** أكون الذي لا يمكن وصفه، يكون بدوره قراراً نظرياً، أي بمعنى، ليس كلية أزلية البتة، بل هو أساس جوهري.

---

(1) Exode, II, 14. A opposer à Enn., V, 3, 13.

II — الفقد في العثور

قد يبدو في هذه الشروط أن ثمة من يحجزنا في إحراج إساءة التعبير أو التضرع. فكيف يمكننا، من جهة، أن نجيد عملنا أفضل من **الواحد** نفسه، الذي يسمح له أفلوطين بأن يكرر فقط: εἰμὶ εἰμί أو ἐγώ ἐγώ[(1)]؟ قد يقال إن "تمتمات" "**balbuciendo**" يوحنا الصليبي Jean de la Croix"، تشبه التجلي الصوفي في خليقة هذا الحشو المتمتم ... وخارج التكرار، الذي يجعل الوجد غير متميز عن التكرار الآلي الذي لا يعمل التفكير به، قد لا يبقى لدينا وسيلة سوى أن ندعو ونتضرع: ولما كان من غير الممكن أن يُضاف المطلق إلى أي علاقة، فإن الكلمة المباشرة بدون أي فعل، وقد تكون صلتنا الفريدة مع عزلة المطلق، حوارنا الوحيد مع مناجاته الباطنية، سبيلنا الوحيد الى توحد الذات السنية... أيكون هذا المرفوع المطلق على الأقل، وهو الفاعل في عملية إخبارية لازمانية، النداء الدعائي، لرفعنا الكلفة في المخاطبة. وهذا ما يفعله مؤلف المزامير عندما يكدس **المناجاة** بدلاً من تطوير الأفكار، عندما يستبدل الخطاب بالتراتيل واللوغوس بالهللويا .... ربما كان هذا التخلي من دون قيد أو شرط عن التفلسف هو نفسه نتيجة لحكم دوغمائي مسبق، لفكرة أنه ليس هناك من وسط بين التحليل العقلاني والصلاة مولّدة اليأس أحياناً، والاستسلام أحياناً أخرى، لرحيق الهذيانات، كما يقول "بروكليس" بعد "**فيدرا**". وأفلوطين، الذي يعتقد أنه لا يُشيء **الواحد** لأنه يسميه Τἀγαθόν بدلاً من τὸ Ἀγαθόν[(2)]، لا يقاوم أفلوطين دائماً إغراء جعل الـ τὸ Αὐτοαγαθόν و τὸ Αὐτοκαλόν أقانيم أو مفاهيم؛ لفرط ما لا يمكن مقاومة الانجذاب الذي يجرفنا من **الذات** Ipse الى **الهذية (ipseitas)** ومن "ما هو نفسه" إلى "ما هو بنفسه" أو إلى **(l'autokalon)** الاحترافي! غالباً ما يشبه الجدليون الساعون وراء "ما هو نفسه" أولئك الغطاسين الذين تكلم عنهم جان كريزوستم[(3)] الذين يغوصون في أعماق البحر ليعثروا على قعره: إنهم يحفرون الظاهر على أمل أن يعينوا تحته هذه – القاعدة الأساسية، ὑποκείμενον ، وهي العنصر النواتي الصلب

---

(1) V, 3, 10.

(2) VI, 7, 38. Cf. I, 8, 13.

(3) Περὶ ἀκαταλήπτου, 721 b-c.

للوجود؛ معتقدين أنهم يحطون من قيمة الظاهر، لكنهم على النقيض من ذلك، فإنهم يشجعون الظاهراتية والإدراكية وانطباعية أولئك الذين، مثل بركلي، ينكرون الطابع الهوامي للجوهر؛ يغوصون للبحث عن الحد-الذاتي l'Autos-limite ويتجاوزون الظاهر من دون أن يتوقفوا، من دون أن يلاحظوا أن اللغز إنما هو ملازم لواقع السطحية بما هي عليه. "ما هو نفسه" ليس عميقاً بحصر المعنى، لكنه هو بالأحرى ما لا يمكن سبره: فالأساس "Ungrund" هذا هو أيضاً سطحي. وبهذا الصدد ليست الماهية "ما هو نفسه" بأكثر من زبد الصفات الثانوية والنعوت، المتقلب والمتلون بألوان قزح. إذا كان الذات l'Autos شيئاً، فإن الحق يكون مع التوهم: هذه هي الخيبة التي لا يمكن أن تتحاشاها الدوغمائية. يشبه الجدلي زائراً يطلب جلسة ليرى الملك نفسه، إنه لا يطلب مقابلة رئيس الوزراء، ولا مساعده ولا رئيس الديوان؛ ولا رئيس الحجاب... إن ما يطلبه هو **فخامته** شخصياً. والحال الآن، أن الأمر يتعلق **بجلالة** الجلالات الذي لم يره أحد ولن يراه أحد على الاطلاق ولن يكون **باستطاعة** أحد أن يراه؛ وما المفهوم الذي يُقدم لكم، وبالرغم من تاجه وصولجانه، ما هو إلا عارضة مضحكة. عدّة متوهجة فارغة تماماً؛ "إن أحداً لم يرَ الله"[1] يقول جان، كما قال يهوة من قبل: "لا يمكن لأي امرئ أن يرى وجهي وأن يبقى على قيد الحياة". نحن في وضعية متلقن يكتشف، بعد سلسلة طويلة من الرؤى الأكثر فأكثر باطنية، يكتشف محراباً فارغاً. ما من أحد خلف الستار! وما من شيء في مقدّس! لقد كان اللغز مخاتلة. وفيما يتعلق بالذاتي l'Autos يحتفظ قديس القديسين لوجدِنا بمكان فارغ أو بثقب أسود. إن صغر كل حقيقة هذا هو بالتأكيد أسمى رؤية لجدل متعمق... وطالما نحن نبحث عن "ما هو نفسه" هذا، فلن نكون قد عثرنا عليه، لأننا لما نزل نبحث عنه، وما أن نجده حتى لا نعود نملكه، لأنه ليس بحصر المعنى ما يمكن لقاؤه لأنه ليس وجوداً قد يختبئ في مكان ما، ولا شيئاً صلباً يمكن أن نعينه أو أن نحيط به شيئاً فشيئاً؛ لقد أضعنا، بالاجمال، ما لم نجده على الاطلاق! أو بالأحرى، لا! لقد أضعناه عند **العثور عليه**! كلا، لم تتم

---

(1) Θεὸν οὐδεὶς ἑώρακεν πώποτε : I, 18. Cf. VI, 46. *I Ép. Jean*, IV, 12 : Θεὸν οὐδεὶς πώποτε τεθέαται. *I Tim.*, VI, 16 : ὃν εἶδεν οὐδεὶς ἀνθρώπων οὐδὲ ἰδεῖν δύναται. *Exode*, XXXIII, 20. *Deut.*, IV, 12 (οὐ δυνήσῃ ἰδεῖν τὸ πρόσωπόν μου. Οὐ γὰρ μὴ ἴδῃ ἄνθρωπος τὸ πρόσωπόν μου, καὶ ζήσεται). ***Corpus hermeticum*** (éd. Budé, 1945), 5e **Traité.**

إضاعته بعد أن تم العثور عليه، بل ضاع في الحال والتو. نبين العثور عليه، وإضاعته لا يوجد فارق زمني، لأنهما متصلين، بل هناك حقاً لحظة: لأنه من الواحد الى الآخر، ثمة شيء ما، حدث ما، نوتة وتحول. انقطاع مستمر أو استمرارية متقطعة، فاللحظة هي المفصل الذي يتمفصل فيه، مباشرة، العثور والإضاعة. إن حد العثور-الإضاعة هذا والذي لا كثافة له ويلتقي عنده الحدثان في ومضة، هو القطع الأدنى والبدئي المطلوب لكي يُنتج فعل الـ "ليكن" (fiat). إن ما يُمكن البحث عنه منهجياً ويتم الحصول عليه شيئاً فشيئاً، يمكن أيضاً الاحتفاظ به باستمرار؛ والعكس بالعكس، فما نلقاه دفعة واحدة باشراق مفاجئ، يُضيّع دفعة واحدة وفي نفس الثانية دون أن يكون بالإمكان تخليده ولا تثبيته ولا رسملته. هكذا يتم العبور دون أي توسط من الـ Nondum إلى Jamnon، ومع ذلك ثمة نقطة تكاد أن تكون غير موجودة حيث ما- ليس- بعد هو ما- فرغ- منه، حيث ما- فرغ- منه هو ليس-بعد: هذه العتبة غير المحسوسة، هذا الـ kaïros الذي لا يمكن إدراكه هو الحدس، الذي برهنا أنه يشير إلى رأس المعاصرة الدقيق، إلى حافة الحاضر الجلي والملائم، **الفرصة** الفاعلة لمرة وحيدة. بدوره الذاتي l'Autos، هو ما لا نملكه على الإطلاق: قبل، لأنه من المبكر جداً، وبعد، لأن من يعتقد أنه يمسكه لا "يملك" شيئاً وليس هناك، مع ذلك، ما يُملك. بحيث أن الـ "ما هو نفسه" يفلت، وفي تعريفه بالذات، من كل "عادة" **(habitus)**، سواء أكان ذلك في طريقة الوجود أو في طريقة التملك. فما نكاد نعتقد أننا في حضرته حتى يهمس لنا صوت: إنه ليس هو، إنه ليس بعد هذا، إنه ليس هذا على الاطلاق؛ إنه شيء آخر! مثلما يشتاق العشاق دائماً لشيء آخر، كما يقول "أريسطوفان" في "**المأدبة**". الـ "ما هو نفسه" هذا المراوغ، الذائب والضبابي ليس شيئاً، حتى لو كان هذا الشيء هو بنفسه: إنه ذات Ipse، هو بالضبط وبشخصه وليس مثيلاً Idem، شيء مماثل لذاته؛ إنه ما لا يمكن وصفه ولا بلوغه Ipse ipsissimus الذي يحبط إلى ما لانهاية جدل التعمق.

III – الهذية الشخصية وعينه بالذات

غير أنه ما لم تكن فلسفة تحصيل الحاصل ما بعد التجريبية، التي تنقل علاقات الـ (allologie) العادية الى داخل المطلق، إذا لم تكن نفسها سوى

استعارة ومماثلة مجازية، فإن فلسفة tautégorie ما وراء المنطقية وهي حدس الـذات الفوري تكون ممكنة. وتكون إيجابية الـ **tautégorie** الفورية "حد" الاستعارات السلبية، النعتية والمهذارة؛ وتكون نقطة-الذاتية le point-Autos مقصدها. وفي امتداد **الماهية**) الأساسي كما في عمق الذاتية الهذيّة المتفهم والضيق والملموس، تشير الهويّة الى نقطة تقع في اللانهاية، نقطة هي، نقطة-العدم أو **شبه-العدم** انطلاقاً منها تتوحد الماهية والذاتية: في هذه النقطة غير الملموسة والعابرة حيث يكون الفاعل "ما هو نفسه" حقاً، تكون الماهية أيضاً غنية التفرد بمقدار تفرد شخص وتكون الذاتية نوعية بمقدار الجوهر. بالطبع، تُعرف الماهية أو تُصنف تبعاً للنوع وللاختلاف المتعين: إلا أن هذه الماهية "نفسها" لا يمكن تعريفها، لكن هويّة الماهية تفيض عن كل إسناد مفرد؛ لكن الكيفية **quid** لأي **aliquid** تبقى الى مالانهاية أبعد من الملازمة التقسيمية التي تتوضح في أحادية الرابطة "يكون". مثلاً، ما هو **الإنسان** جوهرياً؟ يدخل مفهوم الإنسان كفاعل في عدد لا يحصى من التعريفات الجزئية، أي بمعنى أنه يتلقى عدداً لا يحصى من النعوت الافتراضية التي يتضح، في حال أُخذ كل نعت بمفرده، انه جزئي وغير كاف؛ والعكس بالعكس: يمكن لعدد لا يحصى من النعوت الظرفية والصفات الخارجية يمكنها أن تصير نعوت الفاعل إذا حُملت الى هذا الفاعل برابطة؛ لكن الفاعل نفسه وبنفسه هو دائماً آخر ودائماً **أبعد**، لكن ماهية (τί ἐστίν) الفاعل وهي كل هذه المحمولات ولديها كل أنماط الوجود هذه، هي بنفسها لغز. فإذا كان التعريف هو ببساطة التصنيف؛ فإن الماهية تقبل أن تُعرف في الوقت عينه الذي تخدم فيه تعريف الموجودات: إلا أنه لم يعد بمقدورنا أن نقول ما هي هويّة الماهية هذه في نفسها، وبالتالي فإن واقع الماهية نفسها لم يعد من الممكن تعريفه ولا إدراجه ولا إسناده. لا يمكن سوى مقارنة الفاعل الوحيد لمحمولات متعددة بفاعلين آخرين لا تقل فرادتهم عنه لتتم الإشارة بالتلميح، من خلال التماثل والاستعارة، إلى فكرة هذا الفاعل الملموسة، مثلما تتم مقارنة اللون الأحمر الذي لا يمكن تعريفه بصفات أخرى لمسية أو سمعية أو شمية، توازيه بعدم إمكانية تعريفها وذلك باللعب على تناظر الأحاسيس. والطريقة الاستدلالية الوحيدة، خارج هذه المقاربات الشاعرية، لكي يوحى للذهن **بالماوراء (Epékeïna)**، وبما لا يمكن تعريفه هي التعريف الدائري حيث يستند الفاعل على

نفسه مجيباً على السؤال "من هذا؟" بالسؤال. تلتقي إذاً، أحادية الماهية، عند الطرف الآخر، أحادية الذاتية، التي هي التحقق الملموس والخاص لما لا يمكن التعبير عنه الذي تتداخل فيه كل المحمولات الافتراضية وتتجسد جسدياً. فالشخص، بلحمه ودمه، هو الهويّة الحية لهذه الصيغة النادرة النوعية. وهذا صحيح على الأخص بالنسبة الى الضميرين المميزين - وليس الثالث وهو مجرد ومفهومي، بل للضميرين الأولين: لأن ما يجعل من تجاربي كلها أنها خاصتي، وأنني أنا أنا بالنسبة لنفسي، هذا الشيء ليس جوهرياً بشيء، أو يكاد يكون لاشيء، لأن كل ما يمكن تعينه وتلمسه في الأنا هو في الضمير الثالث، ذاك الذي هو هو شيء وأي كان بين ألف آخر؛ مع أن بداهة الـ **ipse** التي لا يمكن تفسيرها تستعيد تشكلها من دون توقف في التبخر نفسه الذي يُظهر ميوعة الأنا-لذاته. أما فيما يخص المتميز "الآخر" في هذا الثنائي المُغْرم فإنه أبعد إلى مالانهاية من أنماط العلاقة التي أقيمها معه، والوظائف التي يملأها، والنوع الذي ينتمي إليه، والدائرة التي يتعلق بها، والمعتقد الذي يستند إليه: إنه أنت، هويّة حب أو كره وموضوع كلمة مباشرة، لغز لا يمكن مقارنته، لا تقليده ولا استبداله ولا يمكن النفاذ إليه لـ "شاكلتي" "instar mei". إن الأنا بتموضعها بالحب والشجاعة أو حدس "عودة المسيح"، في حضور الحضور: تتعرف في قريبها المباشر على شريكها الأخوي، ذاك الذي يشبه الأنا، ولكنه ومن هنا بالذات، ليس أنا، والذي يشكل في الآن عينه أنا لذاته وأنت لي- مثلما أكون أنا بالنسبة لنفسي-أنا وأنت بالنسبة له: ألا يشتمل آنفاً هذا التبادل أو ثنائية الأنا والأنت على كل لغز النحن الذي يتجاوز المنطق وهكذا فإن إنسية الإنسان، بصفتها واقع الماهية! الإنسانية المجاني، هي هويّة، وبالتالي لغز؛ إلا أن هذية بيار بصفتها صيغة نادرة وظهوراً فاعل لمرة وحيدة في الكون وفي التاريخ، هي أيضاً بدورها وبامتياز ما لا يمكن التعبير عنه: لأن **diaphora** **"ديافورا"** التي لم تعد تُعين بل تُفرِد والتي هي حتى ما وراء النوع الأخير والتي تعين هذا الفرد بصفته فريداً، أقول: الـ "ديافورا"، الأدق تفاضلية، هي وبتعريفها بالذات ما لا يمكن تعريفه. وما قيل في الإنسان بشكل عام يجب إعادة قوله بخصوص النوعية: لأنه في كل نوعية ثمة **quale** لا يمكن وصفه - سواء أكان قلب الشجاعة أو إرادة المشيئة - هو الهذيّة "ipséité" المُختَبَرة **بنفسها**؛ هكذا تنسل الإرادة الى فعل إرادي، والفعل

الإرادي الى مشيئة والمشيئة الى "ليكن" **"fiat"** فوري لذهن مصمم في أقصى حد، على استشفاف "scientilla" القرار الدقيق.

ما يصح على هذيّة الفاعل النسبي يصح: بالأحرى على فاعل كل الفاعلين، ذاك الذي، لعدم دخوله بأي علاقة إضافة، يجب اعتباره على أنه الفاعل المطلق الصافي؛ ذاك الذي، لكي نوجز، ربما آن الأوان لندعوه بـ الله. قلنا إن هذيّة الفاعل النسبي تبقى الى مالانهاية أبعد من مجموع المحمولات التي يمكن إطلاقها عليه: مثلاً: "الإنسان فان" لا يقول شيئاً حول طبيعة الإنسان ولا حول لغز الموت، بل ينقل التشديد من"في ذات" **inséité** الفاعل الجوانية الى العلاقة التي يؤكدها الفعل، أي أنه يحوّل الانتباه من "ما هو نفسه" الذي لا يمكن تفكره لو أخذ بالمطلق، إلى إسناد الواحد إلى الآخر. مع ذلك من غير الصحيح القول إن هذا المنطوق النسبي لا يعلمني شيئاً حول الماهية. هذه الصلة ليست الحقيقة، ولكنها أيضاً لا تخْفي عنّي هذه الحقيقة؛ إنها بالأحرى أحد عناصر **الحقيقة** الشاملة اللامتناهية، مع أنها ليست هذه **الحقيقة نفسها وفي نفسها**. بالطبع لا يكفي أن نضيف الى المنطوق السابق أن الإنسان هو أيضاً حي عاقل، وحيوان اجتماعي، وكائن يتمتع بلغة، إضافة إلى أنه مخلوق حر قادر على الضحك، والبحث، الخ...، لنحصل "في الآخر" على مفهوم الإنسان -في-ذاته، مثلما يكفي أن نضاعف الى مالانهاية عدد الأضلاع لكي نصل الى المضلع المندرج في الدائرة: فأبعد من أن يعيد تلاحم المنطوقات الجزئية فيما بينها إلى مالانهاية تشكل فسيفساء الماهية بواسطة تكتلها، فإنه لا مفر من قفزة متقطعة تسمح لنا وحدها، وأبعد من كل جمع متناه، تسمح أن نضع بساطة الذاتي l'autos المتناهية التعقيد، وغناه البسيط الذي لا يمكن وصفه. لكن إذا كانت هذيّة الماهية - تبقى باستمرار بخلاف مجموع كهذا، ودائماً مغايرة له، فإن كل علاقة إذا أخذت كل واحدة بمفردها، ليست بأقل من عنصر إيجابي من الـ "ما هو نفسه"؛ كل علاقة مأخوذة بمفردها هي جزء من الرسالة، مع أن مجموع كل هذه المحمولات لا يعيد على الإطلاق تشكيل الرسالة كاملة... بالطبع يمكن القول إن الإنسان ليس هذا ولا ذاك: إلا أنه ربما كان من الأصح القول إنه تقريباً كل هذا، زيادة الى آخر ما لاأدري مما لا يمكن قوله؛ فالإنسان ليس حصراً هذا ولا حصراً ذاك، وفلسفة الإنسان السلبية هي بالأحرى إيجابية إلى مالانهاية حيث يُعبر السلب ببساطة عن

نقص كل محمول منفصل. أن نُعرّف فرنسا مثلاً، يعني الاختيار من بين تعدد وجهات النظر الأحادية الجانب التي تظهرها لنا إما ككيان جغرافي، وإما كقوة سياسية، أو تقليد تاريخي، أو حتى كنمط حياة، وطريقة في الشعور أو تصور الوجود: والحال، ومع أن أياً من وجهات النظر أحادية الجانب والمنفصلة هذه لا تتضمن ما يشكل ماهية فرنسا - عينها **France-ipsa**، مع أن مئة من هذه الوجهات الأحادية الجانب مجتمعة لا تشكل حتى بداية لوحدة كلية الوجهات، فإنه لا يمكن إنكار أن كل واحدة من هذه الوجهات الأحادية الجانب تحمل مساهمة إيجابية في الرؤية الكلية الوجهات لما هو نفسه؛ والحال، فإن من يجمع آفاق وجهات النظر كلها في آن معاً، شأن مونادا المونادات عند ليبنتز، لا يعود لديه **وجهة نظر**، بل **رؤية**. هذا العرفان الحصري بكل موقع، بكل بديل بكل ضيق مشوه، هو ما يجدر بالطبع تسميته **بالحدس**. بالطبع، لا يمكن الحصول على هذيّة فرنسا، بطريقة الصورة المركبة، بتنضيد عدة خرائط جيولوجية وفيزيائية ومناخية، وللخطوط الحديدية والإدارية فوق بعضها البعض...، يشكل توليفها فرنسا نفسها- ولأنه يجب أن يكون مجموع فرنسا ذات البعدين هذه لامتناهي العدد... ومع ذلك فإن كل واحدة من وجهات النظر هذه -تهيئنا بشكل ما لنوع من الإسناد المباشر والكلي تكون فيه رابطة "يكون" "est" مأخوذة في آن معاً، في كل امتدادها وكل دلالاتها، بدلاً من أن تكون جزئية أو رمزية؛ إسناد-أقصى، يتجاوز الإستدلال، تكون الهويّة العارية صيغته التي لا يمكن تفكّرها، "فرنسا هي فرنسا". في الحدس يجد تحصيل الحاصل هذا، وهذا اللانسبي يجدان معنى ملموساً وغنياً. من جهة أخرى، يُعبر هذا المطلق النسبي الذي هو الهذيّة الإنسانية، يعبر عن نفسه، جزئياً على الأقل، بإشارات وأرقام: فالأسلوب والثياب والكتابة والتخيل، تشبه بالأحرى تمظهر فعل وضعي نسبياً. وتجعل هذه الأيقونية، الجدل والتأويل ممكناً، أي بمعنى تأويلاً للرموز: وبواسطة رتبة الرموز الهيروغليفية يُحبك تعاطف عرفاني بيننا وبين اللغز اللامرئي. حتى أنه هناك نظم إشارات مميزة تُسرّع حدس الهذيّة. فالتدوين التجزيئي الذي قد لا يكون بالنسبة إلى ذرية مفهومية إلا جزءاً من ألف جزء آخر يشكل موضوعَ تجمع آني، ينكشف فيه اللغز فجأة. تلك هي مهمة الفن والشعر. فمن بين كل وجهات النظر، مثلاً، التي يمكن أن نتبناها حول مشهد ما-

وجهة النظر العسكرية والتي هي ترسيم لأرض صالحة للهجوم أو للدفاع، أو وجهة النظر الزراعية وهي مفهوم حول بعض الزراعات، أو الجغرافية وهي قراءة لبعض التشكلات الفيزيائية أو الجيولوجية، أو حتى وجهة النظر السياحية، وهي مشهد أكثر أو أقل جاذبية، من بينها كلها ثمة وجهة نظر، ليست بالضبط وجهة نظر، بل رؤية، لأنها تختصر في داخلها كافة وجهات النظر الأخرى وتبدو تابعة لها، ولأنها الوحيدة التي تجعلنا نلج الى ماهية المشهد، أي ما به يكون المشهد هو نفسه بحق: تلك هي **رؤية** الرسام. فالفاعل الذي لم يعد مختلطاً، بل صافياً، وحتى اصطفائياً، بكلمة الفاعل بامتياز، الفاعل κατ' ἐξοχήν لم يعد فقط شيئاً آخر، ولا حتى أكثر بكثير الى ما لا نهاية من كل صفة منفصلة: إنه ليس على **الإطلاق** هذا أو ذاك. يُبنى علم الشخص الإنساني نصف-السلبي ونصف-الإيجابي شيئاً فشيئاً مكملاً ومعمقاً الى مالانهاية الـ **non-tantum** و"ليس-فقط" تأكيداته الأحادية الجانب. والحال، ليس هناك علم، ولو جزئي، خاص بالله. هنا، الخطاب عموماً هو غير ملائم، اللوغوس عموماً هو غير قادر؛ هنا، هدف التعريف بالذات هو شعوذة وغش؛ هنا كل رواية هي أسطورة وكل وصف خدعة. إذ إن الله ليس فقط لا يمكن تعريفه، شأن الهذيّة الحية، ولا حتى فقط لا يمكن وصفه شأن الموت: إنه في آن معاً يمكن وصفه ولا تعريفه، أي أنه جذرياً لا يمكن التعبير عنه. تَقبل الهذيّة الحية رواية السير الذاتية، حيث يستخلص الروائي منها حوادث اللغز الجوهري؛ وفيما يختص بلغز الموت، فإنه لا يترك مجالاً سوى للهذر الذي يدعو الى الرثاء، وإذا كان الخطيب يعتقد أنه يتكلم عن لحظة الموت بالذات، فإنه لا يكون قد تكلم إلا عن برزخ الاحتضار وهو ليس بأقل من حدث وقعي ومألوف. أما **اللغز الأعظم** le Mysterium maximum، فإ نه بكونه لغزاً من طرف لآخر، وليس سوى لغز، ولا يمكن أن يقال بخصوصه أي شيء على الإطلاق. ولأن الموت يُغلق، بعنف، الكل المنفتح دائماً والذي كان يشكل الشخص الحي، فإنه يعين (من دون أن يفسر) لغز الهذيّة: لقد حُددت "الرسالة" وصارت، بعد أن تم عبور عتبة المصير، شيئاً منتهياً، أو يمكن تعريفه، درباً منتهياً ومحدداً. والحال، ليس للهذيّة الإلهيّة من تعريف آخر سوى الانفتاح نفسه، الانفتاح اللامتناهي الذي يستحيل تماماً، تعريفه أو حصره أو فهمه، "ولا يعبِّر" الله "عن نفسه"، بحصر المعنى، ولو جزئياً، بواسطة

الخلق، إلا إذا تكلمنا بالاستعارة أو بالطريقة التي يعبِّر بها العبقري عن نفسه بواسطة أثره؛ إذ إن ما يتم التعبير عنه من اللامتناهي في المتناهي لا يمكنه إلا أن يكون متناهياً، أي بمعنى مغايراً للامتناهي الى مالانهاية، ولا يمكن إطلاقاً قياسه على المطلق. كلا، لا يتضح مجد الهذيّة العظمى في بهاء غياب الشمس وفي شفق القطب الشمالي، ولا تنجح براهين مركزية الكون الكوزمولوجيا المتفائلة سوى في جعل جلالة ما بعد منطقية محض، وهي بذلك مافوق طبيعية، في جعلها تجريبية، ولا يتكون عرفان الهذيّة من التدعيم التدريجي لقناعة، مثلما يحصل في الاستدلالات الإحصائية، ولا ينبثق عن تجربة متميزة، مثل شعلة الحدس المباغتة: إنه وحي ميتافيزيقي يولده لاشيء بدلاً من "ما يكاد-لاشيء"، يموت ما أن يولد؛ وليس على الإطلاق الـ "وجدتها" Heuréka التي تخص إشارة نمطية، بل إيحاءاً من العدم ex-nihilo وتلميحاً إعجازياً “ad quodditatem”، وانعطافاً من الكل الى الكل. لذلك فإن مجرد التفكير بأنه يمكن للاهوت أن يلعب بالنسبة إلى ipse ipsissimus (ما هو عينه بالذات) الدور نفسه الذي تلعبه الإناسة بالنسبة الى ما هو عينه (ipse)، بلا زيادة هو ادعاء سخيف: لأنه إذا كان بإمكان تجريدات الإناسة "الإنسانية" أن تكون في بعض الحالات، وبواسطة إشراقات الحدس، درباً نحو ما هو بذاته، فإن التجريدات اللاهوتية والتي غالباً ما سخر منها شيلنغ وكيركيغارد، ليست سوى دعابات طموحة. سواء ألصقنا إسم الله بـ "العلم" “Logie” أو "الكتابة" “graphie”، وسواء فضلنا الاستدلال أو الوصف...، فإن تشدقاً كلامياً يساوي الآخر، أليس كذلك؟ ويحذر الميتافيزيقي هنا من أن ينافس swedenborg، كما يرفض أن ينافس ما كان كانط يسمّيه "علم اللاهوت المتفاخر". يوجد بيولوجيا وسيرة ذاتية وكوزمولوجيا وكوزموغرافي، جيولوجيا وجغرافيا، ولكن ليس هناك علم لاهوت بأكثر مما ليس هناك "كتابة لاهوتية"théographie أو "كتابة ملائكية" angélographie: لأن الله، الذي ليس بكوسموس، ولا bios، ولا حتى théo، فإنه ليس كذلك ملك المفاهيم أو أوّل موظف في الكون. حتّى أنه علينا أن نتخلى عن المماثلة بين **الفن** والدين، ذاك الذي قد يعطينا حدس الـ "ما هو عينه" **ipse** أو **اللغز الكبير**، وهذا الذي قد يعلن **اللغز الأعظم** **Mysdtgerium maximum** أو "عينه بالذات"**Ipse ipsissimus**: لأنه لا يوجد

أي موازاة أو تطابق بين إيجابية الجمال التشكيلي وعدم إمكانية التعبير عن "**مـافوق الحقيقة**" غير المتشكل؛ والمماثلة بين الجماليات والأخلاق، الغالية جداً على قلـوب الرومانسيين، تترك المكان لنوع من الانبثاق. و"ما هو بذاته" ipse نفســه بحصــر المعنى ليس طريقاً لـــ "ما هو عينه بالذات" **Ipse ipissimus**: لأنه إذا كان ثمـــة مسافة لامتناهية تفصل بين كل النعوت ولغز الـــ "ما هو عينه" ipse مــــا فـــوق الطبيعي، فهناك لانهاية مما لانهاية له من اللانهاية يجب اجتيازه للعبور مــــن هــذا اللامتناهي-النسبي الى ذات المطلق اللامتناهي لانهائياً لـــ "ipse ipissimus"؛ وإذا كانت الهذيّة البسيطة، بصفتها فاعلاً وضعياً، تختلف ميتافيزيقياً عن أسماء المفعـــول السلبية، فستكون هذيّة، الهذيات أيضاً فاعل الفاعلين ووضعية الوضعيات ولغـــز الألغاز؛ اللغز في كل لغز! وبينما يتأرجح من دون توقف، اللغز الحـــي، المتكلـم والمفكر، واللغز المسمى **إنساناً** بين وحدته التي لا يمكن التعبير عنها، ولا مقارنتـــها وبين جوهرية المفهوم، تتطابق الذاتية والماهية في بؤرة اللغز الأعظم، أي في المركــز المستشف بالكاد لهذا الوجود فائق-العبقرية والذي يجب أن نحسم أمرنا بأن نسميه الله: فالماهية من دون الذاتية ليست إلا كياناً مجرداً، لكن الذاتية من دون الماهيـــة ليست إلا وثناً.

الفصل الثامن

الـــ "ما- لا- أعرف"

I – لغز "بما لا يعرف Nescioquid"

وهذه الآن التجربة-العكسية للهذيّة. ينقص تواصل التجريب شيء ما، مـــا هو بمجهول على الإطلاق Nescio quid، بل على العكس ما أعرفه جيـــداً، scio quid شيء معروف هو أيضاً "aliquid" مع أن هذا الشيء ليس بشيء؛ ينقـــص التجريب غير الأساسي حقيقة أساسية يمكن تعينها بصراحة لأنها بالأحْرى واقـــع: فخارج الحقيقة، ما من ممارسة فعالة، ولا نجاح، ولا أحداث؛ حكاية غير مبرهنـــة، وشهادة غير محققة وبناء شيد دون أخذ قوانين الفيزياء بعين الاعتبار، هي أشـــبه بالفشل وبالواقع غير المكتمل. ينقص للتواصل الجوهري؛ مهما بلغت شدة لحمتـــه وسداه، ومهما تعذر تعيين فجوته، ينقص شيء ما فوق أساسي، ينقص مـــا-لا-أعرف أكثر من أساسي ولا أستطيع أن أسميه ولا أن أحدده ولا حتى أن أفكر بـــه، ينقص شيء ما وما من شيء بناقص، ينقص شيء ما ليس بشيء... لكن أليس هذا اللاشيء أكثر إلى مالانهاية من أي شيء ذي حجم؟ ما ينقـــص التجريـــب غـــير الأساسي ليس فجوة في الفضاء، ولا "عيباً" في تشكله البصري: مع ذلك، يُعبر هذا النقص بطريقة ما عن عدم إكتمال؛ ومع أن ما ينقص في العلاقات المغتصبـــة وفي العلاقات الرياضية هو غير مرئي فإنه مع ذلك عنصر يلاحظ غيابه بوضوح ويمكـــن تعينه. ما ينقص ماوراء-التجريب ليس فقط لا-شيء، ولا فقط لا-وجود، بل هو أيضاً لا-ماهية: مثل جمال "غير مكتمل"، لا يرجع عدم اكتماله الكامل دائمـــاً الى غياب هذه السمة المحددة أو تلك التي لم تلاحظ أول الأمر، بل الى غياب لا يمكـــن تعريفه لهذه الفتنة التي لا يمكن إدراكها، إلى غياب هذا اللطف المنتشر والمنشـــور في كل مكان (χάρις ἐπιθέουσα τῷ κάλλει) [1]، والذي يكسو، تبعاً لأفلوطين، كل

---

(1) Enn., VI, 7, 22. Cf. 1, 6, 1-2.

أثر في (بما لا يُعرف) (**nescioquid**)، أثيري. المسؤول عن ذلك ليس نقص التحليل، بل عجز التفكير... كما أن اللغز أيضاً ليس شيئاً ما موجوداً لما نزل نجهل إسمه، مثلما هي حال السر، بل هو لا شيء لا يمكن أبداً التفكير به، فقط نشعر بغيابه أو حضوره. كما يمكن دون أي مجازفة، أن نتصنع تجاهل ما ليس من الضروري قطعاً العلم به، (ذلك أنه لا يوجد بالواقع شيء، "للعلم" به)، والذي مع ذلك يقتضيه كل فعل من أفعالنا وكل فكرة من أفكارنا. يشجع حضور هذا اللغز أو غيابه المتعذر نقله، كل الخلافات التي هي منبع سوء التفاهم... أليس الخلاف هو بالذات نمط الخطأ الذي لا مادة له، الخطأ الحقيقي الذي لا يختلف عن الحقيقة إلا برنينه ونيته المتعذر لمسها؟ لقد فتح من الآن فصاعداً باب الإلتباس. لكن، وبهذا بالذات فإن ضبابية هذا التحفظ ولا حسيته هي نقطة ضعف الميتافيزيقا، مثلما الحيوية التي ما-لا-أدري-ما-هي-ذاتية **Autos** وهذيّة الجهاز العضوي- هي نقطة ضعف النظريات الحيوية، مثلما الحرية نفسها هي نقطة ضعف الفلسفة وقضيتها الخاسرة سلفاً: كل مكتسبات الحتمية المادية أو أوالية الفيزيا-كيميائية هي "زائد" وتطور إيجابي، وبغباء تعطي الإحيائية الحق لإيجابية الإيجابية - الموضوعة بتشيئها الهذيّة الوضعية التي لا يمكن تعيينها. ومعنى ذلك أن نلحق العدو على الأرض التي اختارها وأن نتركه يفرض علينا السلاح الذي يختاره. لو كان الله شيئاً ما أو شخصاً ما-شأن رئيس محكمة التمييز الأول - مثلاً - لكان الله غير موجود: لقد شكلت هذه التهورات دائماً انتصار الإلحاد، مثلما بداهة ما فوق الطبيعي غير البديهية كانت بشكل عام انتصار النزعة الطبيعية، مثلما ازدواجية الخير والشر هي انتصار الإيجابية اللاأخلاقية. إن الطبيعة- هل يجب تكرار ذلك؟ - هي طبيعية بكل كثافتها، إمكانية رؤية وتفكر إيجابيان، إلا أن واقع الطبيعة -بشكل- عام هو ما فوق طبيعي: والحال، إن الخضوع لقوانين الطبيعة هو ضروري بمقدار ما هو "غير ضروري" لغز الطبيعية المجاني والحادث والاعتباطي! هذا اللغز هو هذيّة، وبالنتيجة **nescioquid**. الله هذيّة بكامله، ولا شيء غير ذلك، لأن نعوته نفسها ليست، مثل نعوت الحرية أو الحياة، أرقاماً خارجية لفاعل محض. وهناك أفضل من ذلك: عدم كفاية منطق "مفرط" بكامله، والانـزعاج الذي لا يمكن تفسيره الذي يعترينا من جراء مهنة عندما ينقصنا فيها الإخلاص والإلهام والشجاعة، مع أنها مهنة

مناسبة من كل وجهات النظر وتقنية لا عيب فيها. وماذا يعني ذلك، إن لم يكن يوجد ما بعد المنطق، أو بشكل أفضل، أن ثمة "واقع" لما بعد منطق اللوغوس؟ من أجل هذا الواقع اللاملموس، على الرغم من أنه أكثر حقيقية من الحقيقة، وأكثر حميمية من قواعد الاستدلال، كان باسكال قد ابتكر **الذهن المرهف** وهو ذهن هندسي فائق وإدراكه اللاعقلاني للـ nescioquid. ومن يعلم إذا لم تكن الرهافة الضرورية لإدراك ما-لا-أعرف. ما-هو في وسط الطبيعية، إذا لم تكن مثل شعور مسبق **للرهافة الفائقة** التي تحزر فيها دقة الروح، وبتماس آني لاموجود. تحزر لطافة ما-لا-أعرف-ما هو الهذية الإلهية؟

إن هذية الهذيات هي لغز، أي إنها النقيض لشيء. لغز كل ما ليس بـ res (شيئا ما)، بل alquid؛ وحتى ليس الـ alquid بل nescioquid: وهذا ما تعبر عنه بشكل رائع كلمة Nescioquid، حيث ترتبط nescience بالـ-لماذا والـ كيف؟ فأنا لا أعرف من هو ولا ما هو، أي بمعنى أنني أجهل اسمه أو نوعيته أو طبيعته، حيث يفهم بـ "طبيعة" لونه ووزنه وريشه، أي باختصار طرق وجوده التي لا تحصى أو أنماط صفاته، سواء كانت ظروف فعل أو نعوت الفاعل-الموصوف؛ فأنا لا أستطيع أن أجيب لا على سؤال الـ quis؟ (τl<) الذي يدعو إسم علم بالضمير الغائب، بيار أو جاك أو السيد فلان، ولا على السؤال quid؟ (ιl) لأن الإجابة ستكون alquid (τι) أو شيئا ما، للعرفان هذا أو ذاك، ولا بشكل عام على أي سؤال فئوي، سواء أكان الـ-**أين** أو الـ-**متى** أو **الكم**... بحيث أن ما-لا-أعرف-ما-هو هو بالأحرى، ما-لا-أعرف-متى، ما-لا-أعرف-من، ما-لا-أعرف-كيف: nescioquis, nescioquando, nescioquomodo, nescioquot! لكن في الوقت نفسه: أعلم أن هناك شيئا ما مع أنني لا أعلم أي شيء هو؛ فأنا أحزر الـ-أن que (δτι) دون أن أعلم ألـ ما quoi (τl) أو - ولنستلهم هنا مفردات شيلينغ: لدي حدس الـ Quod، لكنني أجهل الـ quid ... لأنه إذا لم يكن من "معرفة" إلا العلم، وإذا لم يكن من علم إلا العلم بشيء ما، فيجب الاعتراف أن "علم" الـ **quod** هو علم بلاشيء، علم بالفراغ، أو ببسلطة أكثر العلم بأننا لا نعلم، علم مع الجهل: لأن الهذية، وهي مترسب لا يختزل، ومن مقام مغاير كليا لكل "مفهوم"، هي نقيض الـ **res scibilis**. **هناك شيء هو**

لاشيء: بهذا يُختصر حدس الـ nescioquid الميت-بالولادة، المفارق والمناقض. فمن دون توقف يُرجع الشيء-ما الى اللاشيء، لأنه إذا كان ما-لا-الحرف-ما-هو شيئاً، فإنه بالتالي لاشيء؛ لأن ما-لا-أعرف-ماهو، ليس بشيء ولا بوجود ولا بعنصر، بل إنه "ما-لا-أعرف-ما-هو" مختلف... ومن دون توقف يُرجع اللاشيء مرة أخرى الى شيء ما، لأن بداهة روحانية عنيدة تعترض على معاينة فراغ لا تقل عناداً؛ يستمر هذا التأرجح شبه-الجدلي بين الوجود وواللاوجود في حدس "ثمة"[1]، وليس في حدس "ثمة شيء ما" ينتظر فيه الشيء-ما إسم عمادته المندرج في التنقيط أو الُرمز بالهيروغليفية أو المختفي تحت حجاب، بل "ثمة" هو إعلان حضور بشكل عام، وحضور فعلي، من دون أي علاقة إسناد محمول على فاعل؛ حضور غائب، بالطبع، لمن يصر على تشيئه، حضور روحاني بالرغم من كل ما يريد العتاب الصامت أن يقوله، شأنه شأن بداهة النظر التي لا يمكن إدراكها وبالرغم من ذلك، فأنا هنا! شأن حدس عودة المسيح المزدوجة[2]، بالتعارض مع علم الوجود المتواطئ (Ousia)، لـ οὐσία οὖσα . لنصف-العرفان هذا الذي يقول في آن معاً "scio" و"nescio" أعلم ولا أعلم، سبق أن اختارت "المأدبة" le Banquet فعل αἰνίττομαι ،" أُلمح" واختارت "**الجمهورية**" ἀπομαντεύομαι "أتنبأ" (لأن هذا العلم يتعلق **بالعرافة**؛ فأنا لا أجهل ولا أعلم، لكني أتنبأ. من المفروغ منه أنه في التجريب لا يختلط العلم المادي الذي يعلم "aliquid" والذي يمكن تسميته بـ quidditatif لا يختلط مع العلم - بأن، أي علم الـ quodditatif: فقد يحصل مثلاً أن ننسى الـ quid والـ quis، الـ quomodo و(quo (ubi، و (quando)، ولكن لا ننسى الـ quod؛ يتم التذكر بأن هناك شيئاً ما، دون أن يتم تذكر ماذا؛ وهذا ما يحصل أحياناً عند استكشاف الماضي، عندما يتم تذكر "العلاقة" أو الشكل، ولكن من دون أي تحديدات ظرفية للإسم والتاريخ والمكان قد تسمح بتحديد ما سبق - رؤيته. ويحصل الأمر عينه بالنسبة للمستقبل: يتخيل الرجاء مسبقاً وتستبق النية **الكيف** أو نمط وجود محدد لمستقبل من غير المعروف إذا كان سيحصل فعلاً؛ بينما يتوجس القلق المنتظر

(1) Emmanuel LEVINAS, il y a (Deucation, 1946, t. I, p. 143).

(2) C'est un concept spécifiquement plotinien. Entre autres: Enn., III, 2, 2p 8, 6; V, 3, 17; VI, 4, 11; 5, 11-12; 6, 13;; 8, 13;; 9, 4 et 8.

"واقع-أن". وفي الواقع، فإن كل من معرفة الـ (النوعي) **quoddidatif** ومعرفة الـ (الجوهري) **quidditatif**، هذه التي تعرف الـ quid في الـ alquid وتلك التي تستشف الهوية (quoddité) هذا الـ aliquid كلتاهما على التوالي، ولو في اتجاه معاكس هما scientia media. وسيلاحظ أن الـ quid والـ quod يعارض واحدهما الآخر، شأن ضمير ورابطة. يعلم علم الـ quidditative شيء-ماالشيء، لكنه كان سيعرفه أيضاً لو كان الشيء غير موجود حلماً أو شبحاً؛ والعكس بالعكس، إن علم الـ quodditative هو جهل **nescience** بالـ **quid**: لأنه يستشف (يتنبأ) بأن "ثمة" لكنه لا يعلم ماذا؛ ولا من ولا كيف؛ رأينا منذ قليل أن الـ "nescio-quod" هو فدية الـ "Scio-quid"، والآن فإن nescioquid هو الذي يعوض الـ "scio-quod" – وأفضل من ذلك أيضاً (لأن هذا الـ nescience هو إيجابي بالكامل وليس ملكاً نافياً amathie privative) يُعبر ما-لا-أعرف-ما-هو مباشرة عن العرفان الجديد، وهو بنفسه الحدس نفسه! أليس هذا التعارض بين الـ-**أن وشيء-ما**، هو كل التعارض بين الفيلسوف والسفسطائي؟ إن السفسطائي، كما تدل قليلاً على ذلك علته الاجتماعية موظف سفسطة أو بائع مفرق للحكمة، مجاله واختصاصه الأساسيان السوق السوداء للسفسطة: لأن السفسطة هي تجارة بمواد الحكمة وبقالة بالمفرق، وقد صارت الحكمة علماً، تقنية، روتيناً لا بل بضاعة، حيث يبيع السفسطائي، في سوق المفاهيم، على شكل وصفات وتعويذات، السياسة والخطابة والمنطق والمالية. دون أن يقلق حول أصل هذه التقنيات الجذري، ولا يندهش لفعاليتها، بل إنه يجد فيها آنفاً "حكمة" مصنعة، أي معدة سلفاً، ويقبلها على أنها معطاة كلياً، جاهزة ومطبوخة؛ وهو يحلم معتقداً بأنه يسهر، حلم مثولية ترتدي فيه الأعمال المجتمعية والتجارات الصغيرة نوعاً من النزق الشبحي. إن السفسطائي هو تقني تواصل لاقاعدة له، وفارس الحس المشترك الأخس امتثالاً. وبعكس بائع الحكمة، فإن **الفيلسوف** "يحب"، أي أنه يبحث عن عرفان لا متناه لا يباع أقراصاً: إنها حكمة الحكماء الفلسفية بعد حكمة العطارين المتفلسفة، **حكمة** ما بعد السفسطة، يسعى سقراط في إثر ماهية، ماوراء كل النعوت، ويسعى أفلاطون إلى ماهية أعلى هي نفسها ماوراء الماهية. يقول سقراط: أعلم أني لا أعلم، **οἶδα ὅτι οὐκ οἶδα** ؛ إنه لا يعلم هذا أو ذاك،

شأن الحائزين على علم غير فعلي وسفسطائي؛ إنه يعلم فقط أنه لا يعلم: بينما يدل الـ oïda الثاني، ذاك المنفي، يدل على علم quidditatif وعلاّمةٍ، فالأول هو علم "شكلي" أو علم بـ أن (ὅτι) : إنه ليس حتى علم بجهله الخاص (لأن جعل الجهل موضوعاً، معناه جعل العلم السقراطي علماً بمعلومات فارغة)، بل واقع علم يُجهل. لنقل إنه إذا كان العلم هو دائماً علمُ بشيء آخر (ἄλλου τινος) فإن العلم السقراطي هو بالأحرى وعي: وعي بالجهل **nescience**؛ لأنه لما كان العلم الجاهل **nesciente** البليغ دائماً والمدعٍ والمستعلم جيداً، هو علم علماء السفسطة، فإن الجهل العليم، وهو وعي بالعلم الجاهل nesciente هو العرفان الفلسفي الحق. قد يكون رأي **تيتت (Théétète)** النزيه، التي تعرف بعض الأشياء مع جهلها أو تجاهلها لماذا تعرف، قد يكون ذلك بالأحرى سفسطة، بينما العرفان الذي لا يعلم شيئاً، لكنه يفهم أنه لا يعرف شيئاً يكون قد صار على طريق الهذيّة. وإذا أمكن ضم سفسطي الـ **quid** وسقراط الـ **quod**، هل يمكن أن يصير عرفان مقبول؟ إن الضمير الذي يصبو إليه علم البرزخ هو ضمير ينتظر إسماً، ضميراً، ممثلً لشخص ما أو لشيء ما، لا يتطلب إلا أن يُعرف أو أن يُعمد. أليس التعميد، هو الشغل الشاغل للحس المشترك المتنبه دائماً ليتعرف وليتحقق وليميز؟ فالطبيب لا يداوي مريضه، لكن الزبون هو الذي يحكم بأنه قد شفي بمجرد العثور على اسم وجعه. أنت، إسمك الحمى القرمزية. وتنشغل الربوبية بتعيين هذه الأوجاع الميتافيزيقية والمسماة الآلام الضرورية لترقيتها أو لطردها بمجرد تسميتها: لأن من يُبلغ يُبطل... كأنما للإسم وجود في ذاته، خارج إتفاقيات الممارسة! كأنما الله قد خلق (المون بلان) Mont blanc مع لافتة فوقه يقرأ عليها: هنا (المون بلان)! ومهما كان الأمر فإن القواعد بكاملها هي في خدمة ميتافيزيقا التسمية الـ quidditative، والتي كانت تخص فيما مضى الفضيلة المنومة والتي هي دائماً ميتافيزيقا الشيء. لا يمكن تعيين الـ "scioquid" إلا لأنه بالمعنى الشيلنغي، افتراضي. وسواء أكان قطعة من البنية المورفولوجية أو عنصراً من الوجود بشكلٍ عام يحتل الـ scioquid مكانه في مجال رؤية الموجود بمعنى بصفته ما كان هنا آنفاً: إنه زائد هو ناقص! إذا كان الـ scioquid إيجابية سلبية فإن الـ **nescioquid**، وهو من هنا بالضبط **scioquod**، هو سلبية إيجابية بحق؛ كل ما بامكاني أن أعرفه منه يبقى بجانب أطرافه وحول

مركز الهذيّة بالذات؛ وكل ما يمكن وصفه يبقى على أطراف الوضعية المحض؛ وما هو نفسه بنفسه، ما هو نفسه الذي هو مغاير-كلياً يتحدى، طالما هو وضعي، الوصف والخطاب. إن ما-لا-أعرف-ما-هو هو غفلي، لأنه لا يمكن تسميته دفعة واحدة: كما أنه لا يقبل إلا الأسماء الإلهية الأكثر مراوغة: الذاتي **Autos**، **Ipse** أو ما-لا-أدري-ما-هو. وحسبنا القول إن ما-أعرف-ما-هو وما-لا-أعرف ما-هو ليسا قطعاً الجزئين المتعادلين والمتناظرين والمكملين لنفس لعرفان: لأن الـ quid من دون الـ quod مهما ظهر أنه مفصل، هو منام غير كافٍ وواهن ولا أساس له، رأي على سطح الواقع، لأنه ينقصه أهم شيء، وذاك الشيء الذي قد يعفيه، عند اللزوم، من كل الأشياء الأخرى - أي الوجود؛ بينما الـ quoddité من دون الـ quid، حتى لو كان من دون تحديد أو تعيين أو غير-متمركز، فإنه قد يكون أيضاً وضعية كافية ومناسبة؛ وضعية هي وحدها دامغة، ووحدها حاسمة محضاً: لأن من يملك حدس الفاعل عينه ipse، يمكنه بالأحرى ذات يوم، عندما يتفضل فيعرف نعوت الأطروحة، مكانها ووزنها وحالتها المدنية وبصمات أصابعها. **فالمقدار** ومِثل، ودرجات **الكم** وطرق **الكيف** ليست إلا تفاصيل لا طائل منها طالما لم تتم الإجابة عن تبادلية "نعم أو لا"، "الكل أو لاشيء"، annon ...an. وهكذا ليست الفعلية خاصية مثل الخاصيات الأخرى أو بجانبها، بل إنها النظري وما لا يمكن تعريفه بامتياز الذي يقيم واقعية الخصائص الأخرى كلها ويمنعها من أن تكون خصائص في الهواء أو مجرد خصائص مفهومية. كذلك الفتنة والإخلاص والإلهام ليست صفات في الأثر الفني يمكن تعيينها أو الإشارة إليها، بل هي بالأحرى الـ "divinum quid" الذي وحده يجعل الجمال مقنعاً وفعالاً، أو العكس بالعكس الـ "nescioquid" الذي بدونه يبقى إتقاناً لا غبار عليه في أي نقطة من نقاطه يبقى زهيداً وجافاً وغير فعال، ولا فاعل وغير حقيقي ودون أي قوة مُقْنعة: لأن الإخلاص هو الفعلية الكافية التي تعفينا لوحدها من كل المواهب؛ لأنه من دون اقتناع شغوف لا يمكن أن يبدأ أي شيء ولا أن ينتهي. وعلى العموم، فإن ما يجعل الذات هو نفسها، وما يجعل الجمال والحضور فعليين، وما يجعل الكائن موجودا لا يمكنه أن يكون بنفسه خاصية يمكن وسمها في هذا الكائن؛ فليس الـ **nescioquid** عنصرا في كلية منفتحة، بل هو ما يصون الانفتاح؛ إنه

الكل، الذي ليس شيئا بذاته، أو بعبارة أفضل، إنه غير كائن فنصف-العلم الـــــ quidditative، ونصف-العرفان الـــ quodditative، هما إذا، وكل على طريقتـه، علم متوسط، إلا أنهما يمثلان نمطين متناقضين تماما، وأحدهما ســـكوني والآخـــر دينامي، توسطهما متعارض كما تتعارض السطحية السفســـطية مـــع الوســـاطة السقراطية؛ فهذه ليست استدلالية بل **démonique** وحســـية وملهمـــة، ترتفـــع كدعوة **ديوتين** نحو الهذية المؤسسة التي تمتنع وهي تمنح نفسها والتي تعرف بكونهـــا أبعد من ذاتها، وغير ذاتها، ودائما في مكان آخر، ودائما فيما بعد!

II – نصف عرفان الهذية والحضور الغائب

إن كل ما هو ميتافيزيقي ولغز ومهم حقا هو موضوع نصف-عرفان، أي حرفيـــا بمعنى، موضوع تنبؤ يحدس فيه بعودة المسيح أو فعلية لا تعرف طبيعتها إطلاقـــا: لأنه قد قيل إن الـــ **"quoddité"** لا تعرف أبدا ولا تدرك، مثلما قيل العلم يعلـــم تواصل البرزخ فقط، موضوع معرفة، أو تواصل ما وراء التجريب، موضوع فهم. فالحرية نفسها، مثلا، ipsa، لا يتم التنبؤ بها قط سوى كحضور، فعلي أو بداهـــة عامة: فكل ما يعرف عن الحرية، يبرر، بتعريفه بالذات، الحتمية، لسبب وجيه وهو أن العلم لا يتناول سوى دوائر تركيب الـــ -**ليكن** الظرفيـة circonstructure، أي نعوت الفعل الوضعي. فالحرية كهذية هي من نوع الفتنة. وبالطريقـــة عينـــها، لا تنكشف الحياة والحركة والنية الحسنة، وكان برغسون أول من حدس بذلـــك، لا تكشف بداهة جوهرها quodditative سوى للحدس، وتنغلق بعناد عن العلم الـــ quiditatif الذي لا يمكنه سوى أن يبرر الأنانية والسكوتية والآلية. وبفظاظة أكـثر (لأنه حدث مباغت وطارئ في فاعل لمرة وحيدة **يفرض الموت** وهو تحول-أقصى، نفسه على الذهن مثل quoddité محضة لا يمكن تفكرها لدرجة أنه لا يوجد مـــن شيء على الإطلاق ليعلم، ولا حتى أن يفكر به على الإطلاق في لغز اللحظة المميتة نفسها. فالموت لا **طبيعة** له، وكل ما يمكن أن يكتب وان يبسط وأن يحلل ويحكـى عنه هو بالضرورة nondum أو jamnon، سابق أو لاحق على الهذية الجلية، وعلى الالتقاط المناسب لهذه الهذية؛ وبالإجمال، فإن الجميع، وبشكل يرثى له، هم بجانب المسألة. وبما أن الموت هو nescioquomodo، فإنه، كذلـــك، nescioquando.

أعلم أن، ولكني لا أعلم متى ولا أعلم اليوم ولا الساعة أو كما يقول اللاهوتيون: mors certa, hora incerta ! ان (الموت أكيد لكن الساعة لا تعلم). هنا لا يرجع اللاتحديد ولا توقع التاريخ الى فجوة جزئية أو عرضية أو آنية في معلوماتنا (مثلما نعلم عن موعد كل معطياته الظرفية، باستثناء ساعته) بل يرجع الى استحالة quiddifier ماهية -علمنا عن الموت. لقد تفلسف جورج سيمل بعمق حول تبادلية الـ - **أن** (ὅτι) والـ - **متى** (ὅτε) التي تبين بالنسبة له وضعية الخليقة الوسطية[1]. **قد** يمكن، متكلمين لغة باسكال "الالتباسية"، العثور من جديد بخصوص اللامتناهي، على نفس اللاتساوق: فنحن نحدس أن هناك عددا لامتناهيا[2]، كما كان يقول سقراط: "أعلم أن.." (οἶδα ὅτι) ، لكننا لا نستطيع أن نحدد **ما هو** هذا العدد؛ وفي هذه الحالة: لا يمكننا أن نقرر إذا كان هذا العدد مزدوجا أو مفردا؛ فما نكاد نفرض أنه مفرد حتى يكبته في المتناهي عدد مزدوج أكبر منه؛ ولكن ما يكاد هذا العدد المزدوج أن يوضع، حتى يخضع بدوره لعدد مفرد أكبر منه، وبشكل عام فإن كل ما يوضع كاسم مفعول سلبي، حتى يكون بذلك، بالذات، متناهيا. هكذا سينتقل الذهن من المزدوج الى المفرد حتى نهاية الدهر ما لم يحزر أن اللامتناهي هو ببساطة حركة وضعية positio ponens، أكبر من كل مقدار مفترض. تشهد فعلية التناهي عند رنوفييه **(Renouvier)** إذن على كثير من الغلاظة عندما كان يرى في استحالة تصور مقدار فعلي، لا يكون هذا أو ذاك وشيئا معينا، على أنه تهفيت للامتناهي الفعلي. وعلى العكس، هناك هوية **quoddité** غير محسوسة تطعن في تبادلية المفرد والمزدوج والتي هي اللامتناهي نفسه بصفته رفضا لكل خيار. كان باسكال يميز المتناهي، الذي نعرف وجوده وطبيعته، لأن مثله ممتدون ومتناهون؛ عن اللامتناهي، الذي نعرف، "بالقلب"، وجوده، ولكننا نجهل طبيعته، لأنه لو كان ممتدا مثلنا، فإنه لا يكون، مثلنا متناهيا؛ وأخيرا عن الله، الذي لا نعرف وجوده (إلا بالإيمان) ولا طبيعته (إلا بالعزة)، لأنه لا امتداد له ولا حدود. ولنقل هنا ببساطة أكثر: هناك أشياء تجريبية يمكننا أن نفصل طبيعتها قدر ما نريد، ولكنها تبقى فيما بين حدين، غير فعليين على

(1) Lebensanschauung, 1918, p. 103-107 ("Tod und Unsterblichkeit").

(2) Section III (BRUNSCHVICG), fr. 233; IV, 282. Cf. De l'esprit géométrique.

الإطلاق؛ وهناك ألغاز نعرف عنها فقط، أنها كائنة دون أن نعرف ما هي. ألم يكتب باسكال نفسه: "هكذا يمكننا أن نعرف جيدا أن هناك إلها من دون أن نعرف ما هو؟" إلا أن الهذيات التابعة، وإن كان مشكوكا بها أو أن طبيعتها محجوبة الى الأبد، فإن وجودها، بالمقابل، جلي تماما: الأولى، مثل الموت، بسبب عنفها الذي لا جدال فيه بمقدار ما هو غير مفهوم، والأخرى، مثل الحياة والحركة والحرية، لأن مركز تطبيقها يقع في الخليقة، أي بمعنى في الحامل الطبيعي للغز ما فوق الطبيعي، فهي تناظر شعورا داخليا بالبداهة يعارض على الدوام بداهات الآلية المناقضة؛ والأخرى، أخيرا، مثل اللامتناهي، سلبيا، لأنه ما من داع للتوقف ولأن كل Ananké stènaï هو استقالة اعتباطية. إن الدافع الوحيد الذي قد نملكه للشك في وجود هذه الهذيات هو بالضبط في خاصية طبيعتها الإشكالية أو لانفاذيتها، - لأن التجريب لا يقدم لنا أمثلة ذات طبيعة مشكوك فيها، يكون وجودها غير مشكوك فيه، وفعليتها مبرهن عليها. إن الجهد الخاص الذي تتطلبه منا هذه الهذيات هو القبول **بموجودات لاطبيعة لها**، أي وجود **quod** لا **quid** له، وغير معرف يفرض نفسه من دون وضوح جواني، وبقوة إقناع حاسمة من دون شفافية عرفانية.

إن **ما هو عينه بعينه (Ipse ipsissimus)**، ليس فقط كامد في طبيعته، أو في "هذا الذي": إذ يملك Quod نفسه الخاص به شيئا ما ملتبسا أو، كما كان سيقول أفلاطون "قابل للجدال"[1]؛ بالطبع، لا يشكل وجود **فاعل** الفاعلين، بداهة داخلية وأثرا موحدا، شأن الحرية! بالطبع إن الله هو nescioquid، إلا أنه أيضا وبشكل لامتناه أكثر من ذلك، لأنه ليس مهيئا للذاتية ولا لمصافة وجود شخصي، لأنه حتى غير "موجود"، بالمعنى الغليظ والعروف **ontique** لفعل "وجد"؛ فالله ليس "أحدا ما" ولا هو السيد ما-لا-أعرف-من-هو، **hic** أو **ille**. وبما أن الدوغمائية هي محاولة جذب شيطانية، فيجب منع الـ nescioquid من أن يتكور وأن يتبرجز وأن يشكل قشرة وسط "nescquidisme" محترف: ألا تكون منهجة ما-لا-أعرف-ما-هو هي أكثر التحذلقات ادعاءا؟ فـلـ quid الخير الأعظم، تبعا لأفلاطون، هو من يغرق الروح في الإحراج والإرتباك: لكن بالكاد يتم التنبؤ بـ - ما-لا-أعرف-ما-هو؛ ἀπομαντευομένη τι εἶναι, ἀποροῦσα δὲ καὶ οὐκ ἔχουσα

(1) ἀμφισβητήσιμον.

هذا ما يوضحه بكثير مـــن البســاطة، جـــان λαβεῖν ἱκανῶς τί ποτ'ἐστίν [1] كريسستوم (الذهبي الفم) Jean Chrysostome بتمييزه بين **الواقعة والطريقـــة** – οἶδα μέν πολλά, οὐκ ἐπίσταμαι δὲ αὐτῶν τὸν τρόπον – [2] وبمقارنته لغـــز الله– في – العـــالم بلغـــز الـــروح – في– الجسد : ὅτι μέν ἐστίν ἐν τῷ σώματι τῷ ἡμετέρῳ ἴσμεν, τὸ δὲ πῶς ἐστιν οὐκ ἴσμεν [3] وكذلـــك ὅτι... πανταχοῦ ἔστιν ὁ Θεὸς οἶδα, καὶ ὅτι ὅλως..., τὸ δὲ πῶς οὐκ οἶδα إن ما يتجاهله الذهن بـالضرورة، هو "**الكلمة المرهفة**"، أي آلية كلية الحضور والأبدية، التي يوازي لغزها بالنســبة إلينا لغز تمثل الأطعمة في الجهاز العضوي؛ الكلمة المرهفة، أي للعرفـــان **الكيـــف والكم**[4] مبدأ الإحراج والترنح: **ὅτι μὲν ἔστι Θεὸς οἶδε, τὸ δὲ, τί τὴν οὐσίαν ἐστίν, ἀγνοεῖ· ὅτι μὲν σοφός ἐστιν ἐπίσταται, τὸ δὲ. πόσον ἐστὶ σοφὸς, ἀγνοεῖ**
ولا يعني ذلك أن هناك معرفة بجزء من الماهية الإلهية مع جهل بالجزء الآخـــر، لأن هذه الماهية بسيطة للغاية... ومن الأجدى أن نقول بلغة عصرية: إن ما أعرفـــه (أو ما بإمكاني أن أعرفه) وما أجهله ليسا على المستوى عينه ولا من المقام عينه؛ إن ما أعرفه، وحيث ليس هناك من شيء للمعرفة، لا طبيعة قابلة للوصف ولا مضـــامين قابلة للمعرفة، إن ما أعرفه هو من مقام زائد عن وضعية وجود محض لا سماكة له، وبالعكس فإن ما أجهله هو سماكة المعرفة الوجودية **ontique** نفسها" دون أن يعني ذلك عموما، "أنه" هوية لا تلمس، بل أيا كان، ومهما وأينما كان، ومـــن كـــل وجهات النظر، وتبعا لكل المقولات التي يمكن تخيلها οὐχ ὅτι ἔστιν,ἀλλὰ τί ἐστιν[5]. هذا هو العلم الواضح – الغامض للغز ليس متخفيا ولا جليا، بل هو بـــالأحرى نصف–متخف، متخف فيما يخص طبيعته، وجلي فيما يخص الـــ "ثمة" الخاصة بـــه

Rép., VI, 505 e. Cf. 506 d. (1)

Op.Cit., 1re Homélie, 704 b. (2)

Ve Homélie, 741 a. Cf. Enn., V, 3, 14. (3)

705 *a* : οι προφῆται οὐ μόνον τί τὴν οὐσίαν ἐστὶν ἀγνοοῦντες φαίνονται **ἀλλὰ** καὶ περὶ τῆς σοφίας αὐτοῦ πόση τίς ἐστιν ἀποροῦσι. 707 *a* : ὅτι μέν ἐστι μέγας οὐκ ἀγνοεῖ, τὸ δὲ πόσον, ἢ τίς ἡ μεγαλωσύνη αὐτοῦ, τοῦτο οὐκ οἶδεν.. Le « fin mot » : traduction de Robert Flacelière. (4)

742 a; cf. D, 743 a-b. (5)

بهذه العبارات يتكلم يوحنا: "Entender no entendiendo, saber no sabiendo" الصليبي Jean de la Croix عن العلم الـ nesciente، المعرفة المتجاهلة التي هي معرفة الأسمى، "No sé qué". من هنا البداهة غير البديهية، الظاهرة تماماً، والمعترض عليها تماماً، في آن معاً، الظاهرة غير الظاهرة[1]، كما يقول هرمس مثلث الحكمة Hermès Trismégiste، الذي يميز بالنسبة لذهننا لا تُعين فاعل الفاعلين. ما من شيء إلهي، وكل شيء ما فوق طبيعي. أن يقال إن الله دائماً هو آخر، معناه القول أنه وفي آن معاً أنه كل شيء ولا شيء؛ وأن يقال إنه دائماً في مكان آخر، هو الإيحاء بأنه في آن معاً في كل مكان وليس في أي مكان. يقول سينيك (Sénèque) بشكل مفارق: "Nusquam est, quod ubique est". لا يبدو هذا اللغز مثل مسخ غير مفهوم لكلية الحضور والـ "nusquamité" إلا لأنه في الوقت عينه "**ibi**". و"alibi" عندما نتظاهر بتشيئه لأنه ما وراء وما دون معاً، ولأنه لا يعرف تبادلية الـ-هنا-أو-هناك. إن كلية-الحضور والتي هي بذلك، بالذات، غياب-كلي، هي ما يمكن تسميته بعودة المسيح، حضور غائب ولغز ما يعبر المكان. تطعن مفارقة اللاموقعي بتعريفها بالذات كل طوبوغرافيا[2]، أي كل تعيين موزع للمكان، مثلما تطعن كل النعوت الظرفية الأخرى: ليست تموضعات الذهن العقلية وتموضعات الحس القواعدية أكثر عبثية ولا أشد إحباطاً من تموضعات الإلهي الكونية. كأن أسكيرول (Esquirol) يقول: "ليس الفكر في الدماغ ولا الحركة في العضل. ومثل حضور الحيوية في الأنسجة أو الحرية في آلية الدوافع، فإن "حضور" الله في الطبيعة هو حضور مجازي وروحاني : إضافة إلى أنه أكثر من أثيري: حضور قريب-بعيد، حضور منتشر لا يمكن إدراكه، وليس إطلاقاً ترتيباً مكانياً أو موقعياً... بهذا تشبه الهذيّة الأموات، الذين ليسوا على الإطلاق في "مكان ما"، بل في موضع آخر غير كل مكان. ليس هناك أي وسم طوبولوجي للهذيّة ولا أي تسلسل تاريخي! لهذا السبب يقول جان كريزوستوم (الذهبي الفم): "ليست

---

(1) Ἀφανής, φανερώτατος : Traité V, 10.

(2) HERM., V, 10; Jean CHRYSOSTOME, op. cit., 707 b. Enn., VI, 9, τόπος οὐδείς αὐτῷ. Cf..V, 5, 8.

الإحاطة بالله أسهل من الإحاطة بالروح"[1]؛ ويؤكد أفلوطين، دافعاً بالمفارقة حتى آخر غلو لها،يؤكد أن الجسد ليس مكاناً للروح– οὐδὲ τόπος τὸ σῶμα τῇ ψυχῇ – وأنه إذا كان للوجود – في من معنى، فإن الجسد بالأحرى هو في الروح؛ أي أنه مغمور، ويغمره الأثير الروحاني؛ المكيف كله باللغز. هكذا تُبخس المجازات الأورفية حول سجن أو مقبرة الروح. أما **الواحد**، الأسمى الذي لا يمكن وصفه، فإنه بالأحرى **ليس في** أي شيء (ἐν ὁτῳοῦν)، بل هو بكامله في كل مكان (ὅλον πανταχοῦ)[2]؛ ويكسر أفلوطين. وهو يلعب بنوع من قواعد اللاهوت السلبي، الواحدة ضد الأخرى، كل حروف الجر المتناقضة التي قد تتم بواسطتها محاولة تحديد موضع كلي الحضور عابر المكان. ويتساءل هرمس المثلث الحكمة Hermés Trismègiste: "أين علينا أن ننظر؟[3] في الأعلى؟ في الأسفل؟ في الداخل؟ في الخارج ἄνω, κάτω, ἔσω, ἔξω ؟. شأن دائرة باسكال ذات المركز الموجود في كل مكان ومحيطها في لامكان، **ولامتشكل** أفلوطين الحاوي والمحتوي في آن معاً. ولا يستخدم أفلوطين التناقضات ليرمينا في النسبية التجريبية؛ بل ليوجه التفكير باتجاه حدس المفارق والعبثي. ويهتف "ما أروع، أن يكون الله هنا من دون أن يكون قد حدث على الإطلاق!"[4].وفي مكان آخر Θαῦμα δή, πῶς οὐκ ἐλθὼν πάρεστι, καὶ πῶς οὐκ ὢν οὐδαμοῦ οὐκ ἐστίν ὅπου μὴ ἐστίν. Et ailleurs : ἦλθεν ὡς οὐκ ἐλθών. Παρὸν μὴ παρεῖναι[5]. قريب جداً، بعيد جداً! يجهل الغياب الحاضر كلياً هذه اللانفاذية التي تجعل الأجسام الممتلئة تعيق بعضها البعض في الفضاء وتجعلها تنتقل من مكان إلى مكان وأن تحتل بعناية قصوى مكان إقامتها: إن استيطان مكان خاص، وحصرية الملكية معاً، هما غريبان عنه. وهي تعفينا بالتالي

---

(1) Περιγράφειν τόπῳ : 1re Homélie, 705 d; IVe, 729 a.

(2) Enn., V, 5, 9; Parménide, 138b: οὐκ ἄρα ἐστίν που τὸ ἕν; Jean CHRYSOSTOME, 705C: πανταχοῦ παρεῖναι.

(3) HERM., Traité, V, 10. Saint Jean CHRYSOSTOME cite Ps., 138, 8. Cf. Enn., VI, 8, 18.

(4) Enn., V, 5, 8.

(5) Enn., V, 5, 8; VI, 9, 4.

من الاختيار بين التعالي الثنائي والمادية. وينطبق ما يقوله "آلان" Alain عن الروح[1]: لكونه "كل الكل" وبالتالي علاقة لامتناهية، فإنه حقاً أكثر بكثير من موجود أو واقعة معطاة، ينطبق بالأحرى على **الهوية**؛ فمقاومة إغواء "الشيء"، هو الاعتراف بأن هذا الـ Quod هو في آن معاً **خارج وفي**[2] وأن هذا الـ **quod** هو **nescioquid**. **فالـهوية** Quoddité التي ليست فقط ما-لا-أعرف-ما-هو، وما-لا-أعرف-أين، بل أيضاً **لا أحد** يعرف، ولن يعرف على الإطلاق ما هي، هذه الهوية الأسمى هي، مثل الروح أو الحرية، نوع من الفتنة؛ إنها الـ Thauma، وآية الحضور الكلي المخيب والمتلاشي، وهي معنى جديد لحكمة "أخلاق نيقوماخوس" (l'Éthique à Nicomaque) الجليلة: πάντα γὰρ φύσει ἔχει τι θεῖον. من طبيعة كل الأشياء أن يكون لها بطبيعتها إلهي لا أعرف-ما هو.

ليس علم الهذيّة الـ **quodditative** على الإطلاق معرفة المطلق أنطوسكوبياً، بل هو نصف-علم. تماماً مثلما علم الـ quidditative هو نصف-علم، مع أن ذلك من مستوى آخر ومن مقام مغاير كلياً: لأنه تمت البرهنة بأن علم الـ quod وعلم الـ quid ليسا شقيقين توأمين، وليسا نصفين متجانسين ويمكن مقارنتهما لعرفان واحد... وفي الحقيقة، وإذا كان يجب أن نستوفي الأمر، ليس علينا أن نميز بين مقامين، بل بين ثلاثة مقامات من نصف-العلم: الإدراك الحسي التجريبي والعملي، وهو علم الأشياء الـ quodditative أي الأجسام أو الجواهر التي يشار إليها بأسماء الوصف؛ والتعقل ما بعد التجريبي، وهو العلم الـ quidditative ليس للأشياء المادية، بل للعلاقات الصورية، والصلات الأساسية والحقائق المعقولة، وأخيراً الحدس ما بعد المنطقي وهو وحده quodditative بحق. بالكاد يشكل الأول نصف-علم وربما كان من الأصح تسميته بربع-علم، أو ببساطة nescience (جهل) مدعٍ، لأنه رأي رجال الأعمال ورجال البرزخ المستعجلين والمفاوضين والمتاجرين، ... "المنهمكين" فيما بين الحدين، والذين هم أنفسهم ليسوا بالأحرى سوى أشباحٍ أو عارضات أزياء أكثر منهم رجالاً: وما أسماؤهم إلا نعوتاً استيهامية؛ وإيجابيتهم الملموسة سوى منام ὄναρ ، وجديتهم

(1) Les Dieux, IV, 1, p. 198-200.

(2) PASCAL, fr. 465.

لعباً؛ وأخيراً، تشبه المصالح التي تحركهم لعب الظلال (σκιαγραφία, σκιαμαχία) التي تحرك المساجين **المغارة** المساكين؛ أصنام صنمية - وايقونات أيقونية وليس حتى دمى، بل ظلال هذه الدمى، وليس حتى رنين أصواتها بل صدى هذا الرنين ذاك هو عارض الظلال البخس الذي يشغل شخصيات القش هذه. يعرف العقل الثاني أيضاً الـ quid وليس الـ quod، لأنه بالرغم من تجنبه الشيء فإن لامبالاته بحدس الفعلية تبقيه عند مستوى الضرورة البعيد جداً عن كل أصل جذري، مستوى الـ - هنا - آنفاً والمثولية الأزلية أو الأبدية. أما الحدس، فإنه يعرف الـ quod من دون الـ quid: بحيث أنه إذا كان العلم الثالث هو علم **الشيء**، والعلم الثاني هو علم **العلاقة** فإنه يجدر القول إن العلم الأول هو علم **الفعل**. لقد نظر برغسون دائماً الى الحدس على أنه استثنائي: وقد يكون من التفاؤل القبول كنمط معياري في المعرفة الميتافيزيقية حدساً يكون توليفاً بين السليقة القاطعة والذكاء الافتراضي، ويصالح بين **العثور والبحث**: ليس فقط لأننا قد نخلط في الذكاء بين الإدراك الحسي للحس المشترك وبين علم العلاقات ما بعد التجريبي، أي العلمين الثالث والثاني، وليس فقط لأن السليقة هي شكل فظ وحلمي أكثر منها عرفاناً بعلمنا الـ quodditative، بل خصوصاً لأن الحدس ليس بـ "حالة" على الإطلاق. وفي الحقيقة، تكذب "**الحدسية**" على الحدس مثلما يكذب **التصوف** على اللغز: فما هو مكرس للفشل، هو علم تنسيق العرفان المتلاشي المرفوع الى مصاف المعرفة المنتظمة: فليس هناك من حادسين محترفين، بأكثر مما هناك فضلاء محترفين أو فاتنين محترفين؛ فصاحب الرؤى المتخصص مثله مثل الفريسي، هو مشعوذ أو مهرج... قد يكون توليف المعارف الثلاث: الإدراك الحسي والتعقل والحدس، وبالأخص توليف الـ quid والـ quod، قد يكون هو العرفان الملائكي نفسه، وهذا العرفان ممنوع عنا بشكل لافكاك منه؛ فالقادر على جمع نصفي-العرفان المنفصلين عارفاً في آن معاً بالفعلية وبطبيعة الفعلي، سيحصل من دون شك على المستحيل وعلى ما هو أعلى من الإنساني، على العلم الذي لا يمكن بلوغه والذي منحه "كليمانس الاسكندراني" "لعرفانيته"... لكن واحسرتاه! ليس رحيق الهذيان ما يشغلنا هنا... فالعلم الـ quodditative ليس عرفاناً، بل هو نصف من العرفان؛ ويطبق قانون التبادل، الذي لا يكشف لنا الـ quod إلا إذا سحب منا الـ quid، ولا يفسر لنا

الـــ quid إلا إذا حجب عنا الـــ quod، يُطبق في الحدس مثلما يطبق في التعقـــل. حتى في الحدس فإننا نختار أيضاً، لكننا من دون شك، نختار أفضـــل حصـــة:

τὴν ἀγαθὴν μερίδα...

III – ذروة ـ المقارن

لما لم تكن الهذيّة تكتنه إلا في الـــ quod الخاص بها، فإنها تبـــدو أولاً كأنها أبعد من كل تصور حاليّ. وإذا كنا لا نعرف فقط الـــ "quod-sit"، بـــل نعرف أيضاً "quid-sit" و "Ubi sit" و"quomodo"، فإن الهذيّة تعود من جديـد الذروة فعلياً والمطلق في العرفان الملائكي، ونقع من جديد – عندما يتعلق الأمر بـــ nescioquid – في دجـــل الـــ scire؛ هـــذا مـــا يفعلـــه ســـويدنبرغ (Swedenborg)، محترف الرؤى، عندما يصف بدون أي وجل شواطئ الســـماء ومساكن الملائكة... هل يجب أن نكرر هنا أن علماً quidditative عن الوضعيـــة المحض الموضعية، هو تحذلق عبثي مبالغ به؟ لأنه ما من شيء على نقيـــض جديـــة الميافيزيقا أكثر فظاظة من quiddification وquod هذه سوى هـــذه الروايـــات المفصلة والشاملة عن استشفاف لم يكن أي امرئ قد رآه قـــط. ولنتســـاءل إذن، لكي نتكلم مثل فينلون (Fénelon)، ما إذا كانت **مريم العذراء** شقراء أم سمراء! لا يُمكن للهذيّة أن تشيء قط، ومع ذلك يجب أن يرتسم فيها جانبياً ضـــرب مـــن المطلق لأنها الفعلية الوحيدة المؤسِسة بحق. أو ببساطة أكبر: إذا كـــان التجريـــب مقارنة غير معرّفة، وما وراء التجريب ذروة محددة تماماً، فسيظهر الحدس مـــاوراء المنطقي، للوهلة الأولى، على أنه تأرجح جدلي لامتناه بين المقارن والذروة. وقبـــل كل شيء فإن ذروة–المقارن المغالي والذي يشكل **المطلق** حده ليس لامتناهياً بالمعنى الذي يأخذه الـــ Apeïron الأفلاطوني، الذي هو من مقام **الزائد** (μᾶλλον) ، أي التدرج غير الموجه وغير المتناهي؛ ويقدر العلم الروتيني الذي يتكلم عنه "**فيـــلاب**" أن يركن الصفة الحسية اعتباطياً في أي درجة من هذه السيرورة غير المحددة: ذلـــك أن المقارن التجريبـــي هو دائماً في مصاف الذروة؛ لكن هل يكفي هذا التوقـــف الدوغمائي لردع حركة التضخم والجمع اللامتناهية؟ لنواجه هذا المقارن التدريجـــي بذروة ماوراء التجريب، بمعنى plurimum (μάλιστα) الذي ليس هو أوج **الزيادة**

(لأن أوج **الزيادة هو أيضاً زيادة**) بل بـــ malista هو ذروة معيارية وبالتالي ذروة مطلقة. لنشدد أيضاً: ليست الذروة المنطقية الأوج الأقصى في نهايـــة **magis**، ولا هي كمالاً في نهاية تحسين، بل هي وبدفعـــة واحـــدة **nec-plus-ultra** للمثاليـــة العقلانية؛ أو لنطبق هنا على الجوهرية، ما يقوله Nicolas de cuse بصدد المطلـــق: ليست ذروة ما بعد التجريب "جلالة" يتم تجاوزها دائماً من خلال الزيادة، بل هي "تأوج" ومنذ الأيليين خدم هذا التأوج، وهو ليس سوى إيجابية الامتلاء المعقـــول الكامل، خدم في شل نكوص **الشكيين** غير المتناهي، **وفي** الســـد الأبـــدي لكـــل الفجوات التي يبدو أن مقارن التغير يحفرها في الوجـــود... لأنـــه مـــاذا يكـــون **الضروري، الكوني والأبدي**، فيما وراء كل توسع تدريجي أو إحصائي لـــ **هذا – هنا – الآن**، إن لم يكن مثلث الذروة القبلي الذي هو العقل نفسه، اللوغوس وهـــو يعمل في المنطق وفي الرياضيات؟ وكما أنه لا يوجد بياض أشد من هذا البيـــــاض ليس الأعظم، بل الأقصى والأصفى، المطروح في **فيلاب**، كذلك لا يوجد ما هـــو أشد يقيناً من اليقين ولا ما هو أحق من الحقيقة. ليست **تأوجية ما بعد التجريـــب** بنصف–معرفة إلا بالاهتمام الذي تعيره لعدم تعرية أصل الحقائق "واقعة" الضـــرورة بشكل عام. إن حدس ماوراء المنطق هو نصف–معرفة بمعنى مختلف تماماً: ذلك لأنه يستتبع في آن معاً تعالي الـــ **plurimum** وانفتاح **الزيادة**؛ لأن ما تختص به فعليـــة لاطبيعية لها– quod من دون quid – هو أن تكون غير قادرة على أن "تُعـــــرف" إذن أن تكون دائماً غير قابلة للإدراك وغير قابلة للوصـــــف، وأن تكـــون دائمـــاً منفتحة، ودائماً مختلفة إلى مالانهاية؛ لا يمكن "معرفة" سوى نعوت الـــ quod الـــــ quidditatives، ولا تكـــون هـــذه المعرفـــة **جديـــة**، إلا إذا كـــانت ســـــلبية **apophatique**. يعاش الحدس هنا كاعتراض لا ينفك يتجدد لبداهـــة لا ينفـــك تفحص الـــ **quid** يكذبها؛ لأنه لا الحيوانات ولا الجبال ولا الأنهار ولا أي مخلـــوق في مجال رؤيته وإيجابيته أو مورفولوجيته الطبيعية يكلمني عن الله، بل هو يقـــول لي فقط: جبل، بيت، نهر، وإذا حُلِلت فإنها تُفَصل بنيتها البصرية. لا يجيب الله عـــــن سؤال: ما هو؟ (τί ἐστιν) لكنه يهمس (شرط أن لا نستجوبه) بـــ quod لامتنـــاه ليس هو بنتيجة عامة مثل الحرية، ولا هو تعالياً متشيئاً مثل الوجود الأسمى في تعاليم المسيحية، بل هو دائماً أبعد وأكثر زائـــد plus-plurimum و (μᾶλλον-μάλιστα) .

إذا كان عقل يعقل في مثولية الضرورة السعيدة، وفي الحقائق الأبدية هو عقل ممتلئ، بالمعنى الأشد إشباعاً لهذا الإسم المفعول السلبي، عقلٌ ممتلئ كما لا يمكن أن تكون عليه سوى ذروة لا يمكن تجاوزها؛ فإن الحدس الذي يلاحق بداهة مخيبة ووهمية، بقدر ما هي صلبة، يظهر كفكرة دائماً متشوقة ووليدة: ليس كعقل مليونير تخنقه بعض الشيء ثرواته الخاصة، بل هو بالأحرى، مثل إيروس الأفلاطوني، وعي غير مكتفٍ وإملاق لامتناه وجوع شديد أبدي لشيء آخر. يُحال الحدس، دون مهادنة، من البداهة المنبعثة الى غرور هذه البداهة، مثلما برهنا أنه يُحال من واقع-الضرورة الى الضرورة نفسها ومن وعي الجوهرانية الى امتلاء المثولية، الكوجيتو الذي يعيد في كل مرة سد الفجوة التي يحفرها الإعدام المثير للدوار: ويخلص المقارن في كل مرة نفسه، وفي كل مرة تتشكل الـ malista كتعال بالفعل. هل تستتبع هذه اللعبة التي تتضمن كل حدس الـ quod تطوراً حقيقياً؟ تجعلنا أساطير تعالي الجدل القديم نعتقد ذلك، وهي تستتبع دائماً مراتبَ أو ارتقاءاً وتجاوزاً لكل درجة (ἀναβασμός). يبدو الـهبوط **anabase** والتأويل الباطني قابلتين لمعايرتهما مع فلسفات همها الأول هو الكمال الديني. "يجب الارتقاء" Δεῖ ἀναβῆναι[1]. "يجب الهرب نحو الأعلى" Φεύγειν δεῖ πρὸς τὸ ἄνω[2]. يتحول ترقيم الدرجات والمراحل الى هوس عند أفلوطين، ويُلاحظ ذلك لأن الارتقاء يوجهه أو يجذبه **خير**، هو بالنسبة لأفلوطين كما لأرسطو أو "فيلاب"، المشتهى الأسمى[3]. وتصير الدوغمائية، في "**فيدون**"، وعند القديس أوغسطين واوكارت وأفلوطين نفسه، تصير من النوع عينه عندما تُخلي صورة الارتقاء المكان لصورة مقلوبة، للخشوع ἀναχώρησις والتعمق والتأمل الداخلي؛ عندما لا يعود الأعلى هو الهدف، بل المركز. وبالواقع، إن magis إلى مالانهاية، وينحو ليس نحو الحد الأقصى، حتى لو كان أبعد بعد، بل نحو مكان آخر إطلاقاً كلياً أو ليس في أي مكان، نحو ما-لا-أعرف-ما-هو غير الموجود؛ لا تشبه **زيادة** كهذه على الإطلاق

---

(1) Enn., V, 3, 17. Cf. I, 6, 7: ἀναβατέον οὖν πάλιν ἐπὶ τὸ ἀγαθὸν οὗ ὀρέγεται πᾶσα ψυχή. III, 8, 10 : διό καί η ἀναγωγὴ πανταχοῦ ἐφ' ἕν.

(2) Enn., III, 4, 2 (μεταβαίνειν πρὸς τὸ ἄνω).

(3) Αἱρετόν, ἐφετόν, διωκτόν.. 1, 3 et surtout VI, 7 (§16, 25, 36, tc.) Cf. IV, 7, 12; V, 9, 2...

المقارن المتدرج للسباقات والمزايدات: وبالنظر الى مسافة لامتناهية، ألا يتوازى كل تقدم مع في-مكانه؟ لِنُذكر، ليست الهذيّة بماهية تعرف شيئاً فشيئاً أو أكثر فـــأكثر بقضم المنطقة التي لم تعرف بعد وبرسملة ما تم اكتسابه من علم... ربما كان هنـــاك ميل، لكن ليس هناك من تصاعد auction؛ مما لا شك فيه أن هناك تطلباً، لكـــن ليس هناك من سلفة. إن ما هو غائب تماماً، وبالضربة عينها كلي-الحضور آنفـــاً (ولو بمعنى مختلف) من المستحيل إدراكه، تبعاً لوجهة النظر التي يتم التمركز فيـــها، ويُعثر عليه باستمرار: لا يمكن إدراكه، إذا كان إدراكه معناه الوصول نهائيـــاً الى الهدف بعد استهلاك المسيرة أو إلغاء المسافة بحركة تقرب البعيد وتحول الغيـاب الى حضور، ويعثر عليه من دون توقف إذا كان العثور هو ملامسة لا تلبث، أن تضيـع من جديد. وبهذه الشروط، يأخذ "تعالي" **الذاتية** Autos نفسه معنى ملتبساً بعـــض الشيء. ويأخذ التعالي بسهولة طابعاً برجوازياً في ميتافيزيقات الإسقاط العـــامودي حيث يكون الـــ "**trans**" نفسه أقل أهمية من **الصاعدة**: وتتفق أســاطير فيـــدرا الأورانية، والطوبوغرافية القبلانية السماوية ومجازات القديسة تريزا، تتفق علـــى أن تجعل من الأعلى " Ἄνω " ، المكان الطبيعي الذي تلتقي فيه الروح المحلقة **بالمطلق-البراق** Absolu-météore. والحال، يتم الاهتمام بـــ "التوالي" أكثر بكثـــير مـــن الانشقاق أو الفرز، ἐπέκεινα ، أكثر من الـــ χωρίς : يمكن للمصافة العليـــا أن تكون في سُكاكها، منفصلة بعناية عن المخلوقات في منجى من كل اختـــلاط، وأن تبقى بالرغم من ذلك وبالعمق "بجانبها"؛ ومع أن ســـيادة (magistère) الأديـــان التوحيدية اللاهوتي، تعلو الكون بكل عليائه الجليلة، فإنها مع ذلك، تبقى في هـــذا العالم أو على الأقل في مادونـــه؛ والعكـــس بـــالعكس يمكـــن للهذيّـــة العليـــا (suripséité)- أن تبقى، في المعنى المبسط للاهوتيين المجروحين، "ماثلة" أي ما معناه كلية الحضور وضمن-العالم وشأن لغز أليف، في أحشاء المخلوقات، وأن تكـــون ظاهرة للحدس ما بعد المنطقي على أنها **المغاير-إطلاقاً**. سخرية مخيبة للتموضعـــات الأثيرية! جاثم فوق غيمته أو قائم على قمة هرمه العالي، يتميز الحاكم الأعلى عمن يحكم بصفات أقل حسماً من تلك التي تميز الوضعية المحضة المنتشـــرة، والشـــيء الموضوع! المقصود أن يكون أبعد وليس فوق. ومع ذلك فالإبداع يهم (الإبـــداع وليس التجديد التجريبـــي أو الجزئي) يهم أكثر من الجِدة نفسها، التي ما أن يتـــم

اكتسابها حتى تبدو كرتق عتيق، أو ترميم للنظام القديم. تهتم الدوغمائية بالمصافة المتعالية، مصطلح ساكن لتصاعد متناه، بينما تُكرم الميتافيزيقا الحقيقية فعل التعالي نفسه، وهو ليس مصافة ولا شاطئاً سماوياً ولا أي شيء يمكن تعينه، بل هو دينامية لا شكل لها واندفاع غير متناه. ويبين كل من ديونيرسيوس الاريوباجي وأفلوطين، في هذا الخصوص وبشكل جيد، الفريقين المتعارضين لحرف الجر ὑπέρ : لأنه بينما ينحو (الأريوباجي) الى تشييء مقام فائق الأورانية (hyperouranien) طابق "من يفوق كل ما لا يمكن وصفه" والذي يركب على ما لا يمكن وصفه مثلما يركب المستوى المعقول مستوى المحسوس، فإن أفلوطين يحفظ لما يعلو (ὑπερθέω-ὑπερβαίνω) [1] قيمته كتجاوز لا متناه. إن هذا **الفائق** الذي يعيشه الإنسان كاندفاع لا يسكن (ὁρμή) ولا يستشف نفسه إلا كـ-**ذاتية (Autos)** لا إسم لها، هو العلو الذي لا يمكن على الإطلاق لأي رجل فضاء أن يصله، قمة القمم التي لا يستطيع أبداً أي متسلق جبال أن يغرز عليها علمه.

IV – حَدّ على وشك. على وشك الفهم

نرى بشكل أفضل بعد ذلك كيف ان نصف- عرفان لغز الـ quodditative هو في آن معاً معرفة الـ لحظة ومعرفة في اللحظة... كنا قد عرّفنا اللحظة بأنها وجود – أقل متوسط بين الموجود القابل للوصف وللرواية أو للتحليل وبين اللاشيء الذي لا يمكن إدراكه. هل هي بالأحرى utrumque أو بالأحرى neutrum، هذا الكائن الهجين من الوجود والعدم، هذه المفارقة التي لا تقدم إلا أفكاراً "نغلاً"، أخيراً الـ-ما-لا-أعرف-ما هو هذا الذي لا حجم له ولا مدة والذي يشبه اللاشيء الذي هو مع ذلك ليس لاشيء؟ يحيلنا نفس التأرجح الجدلي من حضور ما-لا-أعرف-ما هو الى غيابه ويفرض علينا حركة ذهاب وإياب مستمرة بين هذين المستحيلين: الـ utrumque الذي يغتصب مبدأ التناقض، والـ neutrum الذي يُكذب مبدأ الثالث-المرفوع؛ لأن الوجود واللا-وجود يتقاسمان بالطبع كون الواقع والممكن بكامله؛ لأنه بالطبع لا يوجد شيء خارج نصفي-

(1) Enn., VI, 9, 11. Cf. V, 5, 12: III, 8, 10.

الكلية هذين... بين ما لا يمكن تلافيه حتى نقع في أخطر منه يوجد ممر يمكن للملاحة أن تراوغ فيه: إلا إنه بين الوجود واللاوجود، يجب بالضرورة اختيار واحدهما متخلين عن مراكمتهما الواحد مع الآخر، بمقدار التخلي عن رفضهما معاً! وبهذا الصدد (بهذا الصدد فقط) تتعالى اللحظة عن حتمية الاختيار والفصل؛ اللحظة، هي العبثية المكتملة ومخالفة المنطق وقد صار حدثاً واقعياً... لأن اللحظة هي من "مقام مغاير كلياً" لمبادئ العقل والتبادلية! وطبيعتها المزدوجة amphibolique : هي التي تجعل منها وجوداً غير موجود، وفعلية لا يمكن إدراكها. شبيهة بهذه الفتنة الفطرية المنتشرة التي قد يتعرف بها بدون أي شك "هنري برموند" "Henri Bremond" على nescioquid الشعر بامتياز، ليست اللحظة شيئاً، ὅτι عندما تكون على وشك الوجود τι أو شيئاً ما، ومن جديد شيئاً ما عندما تكون عند وشك الإلغاء، أي عندما نحوّل عنها نظراً غير متحفظ: τοὺς ὀφθαλμοὺς ἀποστρέφουσιν يقول جان كريزوستيم عن الملائكة[1]... لِمَ لا تكون لنا حشمة الملائكة! فلا أعود أعرف ما أعرفه؛ - لأن العثور هو الإضاءة من جديد؛ ولكن ما لم أعد أعرفه، أتعلمه بغتة، شرط ألا أعتمد على ذلك، وأن أحتفظ في ذاتي بحالة "النعمة": هذه التي اسمها الحقيقي براءة. اللحظة هي خيبتنا المتواصلة، إلا أن الحدس هو الاعتراض المتواصل للبداهة المخيبة. يشير كل شيء في الحدس إلى هذا التجمع الفائق، وإلى دقة التفكير هذه، وإلى اختفاء الأبعاد هذا بإنسلال مدفوع حتى حدود الـ-ما-يكاد-لاشيء: إن الحدس، وقد تقلص الى انبثاق محض لا أبعاد له، ما هو إلا فعل الانبثاق نفسه، وهو بذلك ميتلفيزيقي؛ لأن الميتافيزيقا، كما عند أفلوطين Plotin، تستهلك زوال الأبعاد: وتتم بآخر إلغاء القفزة الخطرة في ما-يكاد-لاشيء. 1 - الحدس بالنسبة الى الموضوع هو مجمل الفهم: سواء كان الأمر يتعلق بشخص، أو بوجه، أو بمشهد أو بمذهب فلسفي؛ يجعلنا برغسون نشاهد امتصاص أبعاد الكائن الثلاثة، وشبه-إعدام التضخم المكاني لبنية الموضوع الهندسية. الفهم هو تبخر الشيء متعدد الأبعاد. وقد تكون البساطة، بدون شك مناسبة أكثر من **الوحدة**[1] للإشارة الى هذه البؤرة الدقيقة والمتأججة

---

(1) Op. cit., 707 b-c (τὰς ὄψεις ἀποκρύπτουσιν).

(1) Et, par suite, Haplôse que Hénôse.

لـ "Scintilla" حيث تتطابق بتداخل مشترك، أجزاء كانت أولاً متجاورة في الفضاء. 2 – الحدس هو إلغاء المسافة الإدراكية التي كانت تجعل من المواجهة بين الموضوع والفاعل وجهاً-لوجه إشكالية، وهو يبخر هذه الوسائط التي يستوقف تسلسلها فقط تفكيراً متوسطاً في البرزخ المتحرك. 3 – "مباشرة" لا تعني فقط تعليق المكان، بل تعليق الزمان أيضاً: لأن إعدام المسافة يستتبع بالوقت عينه إعدام المدة الضرورية لقطعها؛ ومن جهة أخرى، فإن الـ تبسيط الأعلى للكلية يلغي في آن معاً الخطاب والمسافة؛ هكذا إذن فإن الدقة، أبعد من أن تكون توليفاً تدريجياً، هي إذاً تتطابق مع تبسيط مباغت يكون هو نفسه آنية. ألا تبتلع كلية الوجود، كونها سرعة لامتناهية، المكان والزمان بالوقت عينه؟ 4 – وأخيراً يلغي الحدس زمن البرزخ بتشخيصه الماضي بالتعاطف بدلاً من إعادة بنائه بملاحظات مفككة، وبتشخيصه المستقبل بالتنبؤ بدلاً من التكهن بواسطة الاستدلالات؛ – لأن للحدس هبة كلية الحضور التاريخية! أخيراً يتمركز كل شيء في هذه الثانية المتميزة والمسماة **حاضر**، والتي هي بنفسها المعاصرة الدقيقة لعدة نقاط تنطبع الواحدة منها على الأخرى. هكذا ينحل بصعوبة عويصة وبمجرد معجزة الحدس إحراج الواحد -و- المتعدد الأفلاطوني (ἓν καὶ πολλά) : وتتماهى التناقضات بعقلانية أعلى في "تطابق المتناقضات" هذا. لأنه عليك أن تصير **وشكاً** بذاتك لكي تستطيع أن تلتقط الـ **وشك** ! لأن موسم – وميض الظروف هذا هو بالضبط ما كان "بالتازار غراسيا" يسميه **وشك**، والتي ليست شيئاً آخر سوى "علة" (casus) أو الـ **فرصة**. لإدراك **الفرصة الإلهية**، καιρός [1] يجب أن يكون هناك حظ إلهي، بمعنى يقظة ما فوق طبيعية: إضاعة في العثور، حياة في الموت. وبمقدار سرعة رمشة عين اللحظة ستسرع رمشة الحدس. اللحظة التي لا يمكن إدراكها، لأنها من دون مدة، هي ما لا يمكن لأي فعل تفكير أن يعاصرها: فالتواجد مع والانبساط مع، الطباق، والتواقت والتوازي لا معنى لها عندما يتعلق الأمر بذرة شبيهة بالنقطة وتستبعد كل متابعة أو إطالة إستدلالية. هنا تصل المعرفة الغليظة والمتأخرة وغير "المرهفة" تصل بعد فوات الأوان، أي بعد الحدث، مثلها مثل الإطفائيين؛ هنا يجب حصول معجزة لكي نصل في الوقت المناسب، أي بمعنى لحظة وأثناء وقوع الواقعة، ليتم بدقة

(1) L'εὐκαιρία stoïcienne est bien opportunité, mais non instantanéité.

تصويب الثانية الحاسمة والفرصة الفاعلة لمرة واحدة: ذلك أنه في شهادة وميض- فكرة مناسبة أو، كما يقول يوحنا الصليبي Jean de la Croix[2]، في "لمسة سامية" قصيرة للغاية يمكننا أن نلتقط ببهلوانية الـ ما-يكاد-لاشيء. بعد حين سيكون قد فات الأوان. أي رشاقة تلزم لتعاصر ليس مدة من الزمن ولا ردحاً، بل هذا الحاضر شبه-المعدم، لكي لا يُضحى بعملية - فعل التحول إلى ما قد صار آنفاً! يتحسر باسكال: "قريب بإفراط، بعيد بإفراط، عالياً بإفراط، أدنى بإفراط..."، في بحثه عن "النقطة (وشك) التي لا تنفصم" التي تكون بين كل هذا "**الإفراط**"[3]، إيجابي حقيقة **المنظور** نفسها: لأنه يعلم كيف أن تعدد أصوات الخطأ الوفيرة تجعل فن التركيز هشاً... فاللحظة هي العبارة اللازمنية لنصف-عرفان إيجابي بمعرفته الـ "quod"، وسلبي بجهله بالبنية المورفولوجية من جهة، وللدوام أو التواصل التاريخي من جهة أخرى. أليس الـ quomodo والـ quamdiu بتفصيليهما لـ ubi-quando، أليس كلاهما بُعديّ أو إحداثيات الـ quid، أي بمعنى **وجود** يمتد في المكان ويتواصل في الزمان، ويحتل مكاناً على الأطلس وتاريخاً في الرزنامة؟ إن اللاموقع واللاتاريخ، واليوتوبيا، هي بمجملها الخصائص المحيرة للفعلية التي لا طبيعة لها، للغز خارج كل الفئات، أي بمعنى ما لا يمكن تحديده والذي لا عمر له ولا حجم، كما ليس له تاريخ بمقدار ما ليس له رسم. إن الماهية الأعلى وقد تقلصت إلى أن تكون واقعة من دون quid، أو أفضل من ذلك الى quoddité من دون تأريخ وجودي ولا مكاني، إن فوق الماهية هذه هي اللحظة: لأنه إذا كان "الوجود" هو الاستمرار كبرزخ بمقدار الوجود كحجم تكعيبي يمكن تعيين كميته، فإن اللحظة "ستكون" حتماً لاشيء، أو هي بالأحرى **لا تكون**. كيف يمكن للـ "هذا" والـ "ذاك"، كيف يُمكن للزائد والناقص، كيف يمكن لمضامين التواصل بشكل عام أن يكون لها وقت لتَفصِل ذاتها وتفهرس نفسها في انقطاع الوجود-الأقل شبه **غير الموجود**؟ لا يُمكن لهذا العرفان غير الكامل والذي تكسفه الـ amathie أن يكون اعتقاداً (لأن الاعتقاد هو تلمس بطريقة عاطفية واخلاص قلبي لتأريخ معرفة خاسر)، ولا هو بالأحرى علمٌ (لأن العلم هو علم مؤرخ

---

(2) Œuvres complètes (édit. Saint-Paul), II, p. 303; III, p. 223.

(3) Pensées, VI, 381; sur les "Top", II, 69, 70, 71, 72; sur l'infinité du mal, VI, 408.

وملكية مألوفة). لا يصير علم البرزخ الذي يعرف كل تفاصيل البنى أقل دقة إذا وصف حلماً أكيداً، somnium bene fundatum، لأن الحلم لا يكون "أكيداً" إلا "بفضل" تناسق أجزائه المائل والشكلي، وليس لأن له أساساً أكثر عمقاً وصحيح أكثر منه نفسه: بإمكانه أن يكون أكيداً قدر ما يشاء، ومع ذلك فإنه يبقى حلماً، أي تواصلاً في الهواء وعلى سطح الواقع، والمعرفة التي لا قاعدة لها في تعريفنا لها هي حرفياً علم سطحي. وإذا كان العلم التابع يشتمل على معرفة من دون فهم، فإن نصف-عرفان اللحظة المتناوب سيشتمل بالأحرى على الفهم من دون المعرفة، أي على التنبؤ: لأن اللحظة لا تكون بنفسها غير مفهومة إلا لمن، وهو يعالجها كبرزخ، يأمل أن يصف فيها بنية. لنسمِّ إذاً لغزاً ما لا يمكن أن يُعرف، ولكن بإمكانه، من النتف والومض التشنجية، أن يُفهم أحياناً، أو أن يُفاجأ على الأقل: أن يُفهم في فعليته التي لا تُعرف، وجهل طبيعته. فهم وجهل، أو معرفة وسوء فهم، - هذه هي تبادلية العرفاني والمعرفي لذهن لا يمكن في آن واحد أن يعرف الـ quid وأن يفهم الـ quod والذي لا يفهم إلا بجهله. هذا هو نصيب العلم الـ quidditatif، المؤسس على الذكريات وعلى رسملة المعارف. الفهم والجهل: هذا هو نصيب نصف-العرفان الوليد-المتلاشي المعطى لنا والمسحوب في الوقت عينه. والذي لا يشتعل وينطفئ كنار هيراقليط، بالتناوب، بل في الوقت عينه. كذلك عندما يقول أفلوطين: إننا لا نعقل ما هو نفسه ولا نعرفه[1]، علينا أن نفهم بذلك: أن العرفان الكامل والمعرفة التأريخية ممنوعة عنا، أما الفهم الآني، فإنه غير ممنوع عنا! ألفهم هو دائماً التقاط اللحظة، سواء أكانت لحظة **ليكن (le fiat)** القرار أو **فعل (fit)** التحول: اللحظة هي العلة الرئيسية من بين كافة العلل، لهذا السبب فإن واجب وجود **aséité** أول **محفّز** اعتباطي ومناسب هو أيضاً ما يُفَسِر أكثر من كل التفسيرات. والتعقل نفسه ليس عقلانياً إلا بواسطة الحدس الذي فيه؛ والتعقل ما وراء التجريبي نفسه لا "يتفهم" العلاقات إلا بمقدار ما يستتبع الدفعات المنفصلة للحدس، والتي هي أدنى من آلية الاستدلال المنطقية. ومع ذلك فإن التبادلية لم ترفع بعد: ذلك أن ما فُهِم وعُلِم ليس الشيء نفسه؛ إنه بالأحرى اللغز الوضعي، الماثل هذه المرة، والمنتشر والأليف، المعلق في غلاظة ماوراء التجريب: فالحدس، الكامن

(1) Nl νόησις ni γνῶσις : *Enn.*, V, 3, 14.

في تمفصلات الخطاب، هو ما يحرك أو يحفظ أو يعيد سير دورة التفكير الحيّة، والذي يُنعش، بتقطع، الفكرة الذكية في رماد المفاهيم المحفوظة غيباً... مما لا شك فيه أن لغز الحدس بالنسبة الى لغز التعقل شبيه بالفعل النظري ماوراء المنطقي المحض بالنسبة الى الفعل النظري المغلف بالنعوت أو، ومن النوع عينه، بالنسبة الى الإلهام المغلف بتلاوات الـ quidditative ونوافله. لكن ماذا هناك، ليُفهم بالتعريف بالذات، في الواقع المحض لهذا الـ quod الحصري، لكل مضمون يمكن معرفته؟ إذا كان الفهم (καταλαμ βάνειν) هو بالأحرى ضماً (περιλαμβάνειν) أو (استيعاباً) (comprehendere)، إذاً كلا: فالفعلية التي لا طبيعة لها ولا خصائص ليست "ممكنة الفهم"؛ فلا يمكن ضم ما هو شاسع (كما نشاء) أو ما لا يمكن لمسه؛ لكن إذا كان الفهم هو συνιέναι أو نفاذ تعاطفي، لا تعود المسألة هي عينها. أو إذا كنا نفضل، ربما كانت الأطروحة المحض "غير مفهومة" أو لا يمكن تصورها، لكنها ليست "غير معقولة".

v – نصف-العرفان الذي هو أطروحة أو بشكل أفضل إعادة وضع

لنقولها بكلمة: إن حدس اللحظة اللاعقلاني هو **عرفاني** أقل بكثير مما هو **جذري أو نظري**؛ في الواقع فإن **نصف-عرفان الأطروحة** هو بنفسه أطروحة. وطالما لا يتعلق الأمر إلا باللوغوس -لغة أو عقلاً- فإن علماً جدياً وحيداً يمكنه معالجة هذا المطلق الذي ليس له كثافة يمكن تفكرها، ولا مادة قابلة لإقامة علاقات ولا تحديدات فئوية، وهو علم سلبي: إن خطاباً تأكيدياً ينحرف بشكل شبه حتمي باتجاه دائرة نعوت الأطروحة وعن الـ **quod** باتجاه الاحاطة بالبنية circonstructure الـ **quidditative** لهذا الـ quod، أي أنه لا بد أن يتحدث عن شيء آخر وأن يصير، كما في السرد الأفلاطوني، أسطورة أو استعارة. والعكس بالعكس، فإن "عرفاناً" وحيداً يقول نعم **للهذيّة الأعلى** وليس هذا العرفان **تأكيدياً** بأكثر منه **إيجابياً**، أو بشكل أفضل "وضعي": أي أنه لا "يؤكد"، بواسطة الرابطة، تلازم محمول ما مع فاعل ما، لكنه ببساطة "يضع" الفاعل البسيط والمجرد، لأنه يتم التأكيد حول فاعل الموصوف، وذلك تبعاً لهذه الـ "quatenus" أو تلك...، لكن الصفة هي الشيء الذي يتم التأكيد عليه دائماً. ولا يمكن للفاعل

نفسه وبنفسه أن يكون قد وضع بالمطلق، إلا بشكل مباشر، وقد وضع في حـدث لا يكون منطوقاً، بل فعلاً؛ والحال، فالفعل بامتياز هو الفعل الذي يضع **زيادة**، أو يشيد شيئاً ما، أو يخلق كائناً أو يُغني الوجود؛ وإذا كانت النعوت والفرضيات بهذا الخصوص، تأكيداً ممزوجاً بالسلب، فـإن "الأطروحـة"، وهـي إيجابيـة غـير cataphatique بل نظرية بأعجوبة، هي من هنا بالذات وضعية محـض: **positio ponens**؛ خالصة من كل res posita. هكذا إذاً فإن الـ-ما-هو-نفسه هو ما لا يمكنه "منطقياً" إلا أن يكون منفياً، أو، على العكس لا يمكن أن يوضـع سـوى بشكل "**جذري**". - فهل من الصواب أن يكون الحدس ما "يضع" بحصر المعـنى الإيجابية المحض؟ ولما كان اسم المفعول-السلبي لـ **res posita** هو العنصر السـلبي لكل وضعية، فإن الوضعية الطاهرة غير الممزوجة لا يمكن أن يضعها أي كان، بـل على العكس، إنها هي، الوضعية المبادرة والصفائية، التي "تضع" الباقي كله! لا يمكن للحدس بأي شكل كان أن "يضع" تعدياً منصوب الوضعية المطلقة، لأنه لا يمكنـه أولاً أن يؤكد هذه الوضعية، ولأنه بعد ذلك لا يستطيع أن يخلقها: ويمكنه بالمقـابل أن يضع بالتناغم مع الإيجابية؛ أن يقول نعم لهذا **اليكن**، الذي هو بنفسه نعم؛ لنقل تعمل نعم الحدس الصغيرة كصدى لنعم الـ quodditatif الكبيرة وتجيب إيجابيـاً على الوضعية الأساسية. فالحدس الوضعي هو نقيض العلم العلائقي، فعل الوضـع المطلق النظري والإعجازي الذي لا يملك أي شيء مشترك مع إقامة العلاقات: غير أن هذه الوضعية بدورها ليست وضعية **الوضعية**، إنها بالأحرى وضعيـة مختزلـة تحملها فينا تعاطفياً وضعية الوضعيات؛ تتزاوج مع حركتها، وتفيض في اتجاهـها، وتتعاون مع العملية الإلهية. قد يمكن القول، متكلمين لغة فيليب فوريـة-فرمييـه Philippe Fauré-Frémiet، أنه إعادة خلق، أو، وفق مصطلحات ماكس شـيللر، إعادة إنتاج: وبعبارة أفضل - إعادة وضع. من دون شك تعني الـ "إعادة" هنـا (re)، أن الوضع الحدسي، شأن مبادرات حرية الإرادة الإنسانية، هو ابتدائي نسـبياً أو نسبياً أولي، لكنه ليس كذلك بالمطلق ولا عند اللزوم. ومع ذلك، ليست إعـادة الوضع هذه نسخة ثانية، ولا هي حتى مجرد تقليد لنمـوذج الهذيّـة الأعلـى، أو اللامتشكل الأسمى، التي ليست بمثال بأكثر مما أن الحدس ليس نسخة هذا المثـال أو صورته: ليس هناك إيمائية، مثلما في التمثيل الدوغمائي، ولكن ربما كان هناك إيماء،

إيماء ممثّل أو وضعية إيمائية؛ فالتكرار في الحدس، كما في الحب هو ابتداء مستمر – وكما قال ديكارت عن التحليل في جوابه على **"الاعتراضات الثانية"**، الفهم هو إذاً إعادة صنع، لكن إعادة الصنع هي صنع، والمرة الثانية، مع كونها الثانية تأريخياً، **تكاد** تكون بأصالة الأولى. ذاك هو لغز التكرار الخلاق، أو الخلاق بصفته إعادة خلق؛ إن الهذيّة المطلقة – نسبياً هي على غرار الهذيّة – الأعلى مطلقة على الإطلاق – أو بعبارة أخرى: الإنسان هو **إله** اللحظة. لأن إعادة الوضع الحدسية ليست تابعة، أي مكررة وثانوية، إلا بصفتها آنية. فالحدس، بإعادة إنتاجه الـ quod بارتجال تعاطفي (وهذا ما يسمى الفهم)، يصنع بنفسه في اللحظة وضعية اللحظة: فهو بالتالي، وفي آن معاً، حدس اللحظة وحدس في اللحظة. فالحدس هو لحظة تختلط مع اللحظة في اللحظة. وأبعد من الانطباعية الذاتية. مثلما ما دون الواقعية الموضوعية، وفي نقطة البؤرة حيث يتم تلامس الحدس نفسه مع الذات نفسها، يتم أيضاً تطابق الفاعل العارف مع الموضوع المعروف: وما أن تَتخْلص القتامة الجوهرية للضمير الثالث (الغائب) حتى تصير الأنا–نفسي وما هو–نفسه ذاتية واحدة (Autos)، مرفوعاً واحداً شفافاً بالكامل. وتلغى الثنائية والمسافة العرفانية، ومع ذلك لا يتم تجاوز نسبيتنا المتعالية: وبالعكس يُؤكد عليها في الطابع الاستثنائي، الساطع والآتي بكلمة الهرب الحدسي؛ إن فلتة لا تنجح إلا في الوجود–الأقل لشبه–**العدم quasi-nihil** والتي لا يمكنها، بالتعريف بالذات، أن تُخلد ولا أن تصير علماً أو نظاماً مستقراً (ἕξις)، إن فلتة كهذه تكلفنا قناعات لا تلبث أن تخيب: ولا يترك سقف القبلية مجالاً لأن ينثقب إلا ليستعيد تشكله تدريجياً وباللحظة عينها! لا يبقى الوميض إذا صار شمساً، وميضاً... ولا يهم: فإن هذا النهار غير المؤرخ، بل الآني الذي هو الوميض، هذا النهار ليس لاشيء، لأنه، بالضبط "يكاد" لاشيء، وهذا هو بالذات تعريف البغتة، وهي في آن معاً **نقصان وزيادة**، سلب ووضعية وجود، سلب بصفتها لاشيء، ووضعية بصفتها "تكاد"؛ بعبارة أخرى، "ما–يكاد–لاشيء هو ومن هنا بالذات يكاد يكون شيئاً ما، شبيهاً بشرارة لا نعود نعتبرها مثل نور ينطفئ، بل مثل نور يضيئ. إن اللحظة، وهذا متفق عليه، **ليست إلا** لحظة، إلا "أنها" على الأقل لحظة، يشتمل **وجودها** على الانبثاق ببساطة. فحدس اللحظة يرد إذاً، على أعقابها التأملية التي تقبل

أنطوسكوبية عقلانية للمطلق والنسبية النقدية التي تفصلنا عنه بشكل لا يقبـــل أي علاج: بين التأريخيين العرفاني والنظري معرفياً gnoseologique، يكفي أن يكــون الانثقاب الآني أي نصف-العرفان ممكناً، لكي يستطيع المخلوق، لنقص في التأليـــه المألوف، أن يجرب التمثل-الوميضي للحدس، التمثل (ὁμοίωσις) الـــذي يشـــكل التماهي (ἕνωσις) حده الأرهف. والحال، ففي البغتة التي تكاد تكون غير موجـودة، في اللحظة شبه غير-الواقعية يكون التماثل الذي يعيد الخلق ممكناً للمخلوق. ومــن جراء تنوع مضامينه يتميز البرزخ دائماً عن الخطاب، الذي يفسر تفاصيله أو يروي تواصلها. إلا أنه لا يمكن تمييز اللحظة-الموضوع، حدث أو تحول عن لحظة التفكر، أي الحدس، لما كان قد سُلِم أن ما-يكاد-لا-شيء لا يمكن تمييزه عن ما-يكـــاد-لا-شيء آخر، فإن اثنين من "الوجود - الأقل" ليسا إلا "وجود - أقل" واحد: وفي أقصى حد يتطابق الكائن شبه المعدوم، حيث لاشيء ليُعرف أو ليعلم، بل يبقـى أن يُفهم، يتطابق مع أقل أو أدق تفكير يفهمه؛ ولا يعود الحدث، لغز-موضوع، يتميز عن الحدس الذي يعيد خلقه، إلا إذا كانت إعادة-الوضع الحدسي، لغز-فاعل، هي نفسها لغز تحول... ومهما كان الأمر، فإنه لا يُحـــزر في اللحظـــة إلا اللحظـــة، والعكس بالعكس: لا تُحزر اللحظة إلا في اللحظة، أي في ذاتها نفسها. ولنعـــترف إذن بأن الوجود-في لا يعود له معنى، ما إن يتعلق الأمر بعدم المدة. "**في**" لاشـــيء من الوقت كيف يكون لدينا الوقت لفهم شيء آخر غير اللحظة؟ كيف يكـــون هناك مجال لشيء آخر غير الاستشفاف؟ وبالعكس، ما- يكاد-صفر-الوقت هـــذا هو وسيلة المخلوق الوحيدة لكي يفهم ما-لا-أعرف-ما-هو الذي لا يمكن وصفه والهذيّة-الأعلى التي لا يمكن تلمسها. في الحقيقة، لا يقوم حـــدس اللحظـــة "**في**" اللحظة، بل "إنه" هو نفسه لحظة، حدث عقلي يدخله فينا حـــدث quodditatif ويلتقط بدوره هذا الأخير بصفته ما-يكاد-لاشيء. فالمطلق، بالنسبة لمخلوق متناه، هو إذاً لحظة تستشف آنياً. إنطلاقاً من هنا، يجب التوقف عن القول أن الوجـــود الأقل يقوم في أقل برزخ؛ إنطلاقاً من هنا، لا يعود هناك سوى **اللمسة الســـامية**، أي التماس الدقيق لرهافتين ليستا سوى رهافة واحدة، رهافة-أعلى: في اللحظـــة التي تكون **فيها حدة، رهافة (acumen subtilissime)** الروح على وشـــك أن تلامس (attingere بدلاً من tangere) (حدة الوضـــع) **(acumen positionis)**،

حيث انسلال الحدس الدقيق يمتزج مع قمة الإيجابية النظرية، في هذه اللحظة لا يعود هناك إلا نقطة هي نقطة اللحظة في مرافعتها؛ وفي هذه النقطة فائقة-الحدة تتطابق اللحظة الحاسمة مع القرار الآني، اللحظة التي تضع واللحظة التي تعيد الوضع، الله الذي ليس "absconditus" بل "absconditus" "fere" والحدس الذي ليس عدماً "nihil" بل شبه-عدم quasi" nihil". ليست "اللمسة السامية" في التماثل مع الآخر من طرف الفكر، لأن لمسة كهذه على العكس ليست سامية بشيء – **بل هي أن تصير بذاتك بكاملها الآخر نفسه بكامله**. والحال، فإن هذا النقل اللدني للكائن بكامله غير ممكن سوى للحظة ولهذية صارت هي نفسها ما-يكاد-لاشيء، أي متكومة عند قمة أو حد ذاقما، وبهذا التدقيق تصير قادرة على الانفتاح في الآخر. يتلخص، تقريباً، في أحادية مقطع الـ Quod، أي في **اليكن le Fiat** الجذري المخلوق بغتة من جديد، تتلخص مأساة-الوميض هذه الذي هو حدس اللحظة الآني. لهذا قلنا إن الهذيّة الأعلى تعاش في آن معاً على أنها مقارن وذروة: فهي **"malista"** بصفتها إيجابية محض، لكنها **"mallon"** لامتناه بصفتها إعادة وضع؛ أشبه بهؤلاء المتحمسين والملهمين، (κάτοχοι) الذين قال فيهم أفلوطين: "... يتملكهم شيء ما أكبر منهم، مع أنهم لا يعرفون ما هو"[1]، يعيش رجال الحدس في أنفسهم مقارن-ذروة، **مطلق** لاطبيعة له ولا صورة، ما-لا-أعرف-ما هو ماوراء المنطق الذي هو أخيراً فعلية اللحظة.

VI – بداهة جلية أم بداهة ساطعة؟

يتميز موجودان في كل امتدادهما. واثنان غير-موجودين لا يشكلان سوى لاشيء واحداً. لكن اثنين من الوجود-الأقل يتطابقان في الوميض الكبير لـ-ما-يكاد لاشيء: هذا الوميض الكبير، هو نمط البداهة الخاصة بـ **Ipse fere absconditus** وبالمماسة الدقيقة التي يُعبر عنها بكلمة **يكاد**، على وشك ولكن بالكاد! لا تختلط بداهة ماوراء – المنطق اللحظة هذه لا مع البداهة التجريبية ولا مع البداهة ماوراء التجريبية: واحدهما هي البداهة البصرية والمحسوسة التي تمتد تحت

---

(1) Enn., V, 3, 14. ἔχουσι μεῖζον ἐν αὑτοῖς, κἂν μὴ εἰδῶσιν ὅ τι...

نظرنا، تلمس باليدين، وتقاوم مجهوداتنا؛ إنها بداهة الوجود النهاري والظاهر. لكن هذه البداهة الواضحة لا تثبت أمام التحليل: مثلها مثل بداهة (ἐναργέστατον)[1] اللذة وبداهات الشعور بشكل عام والتي تفقد قيمتها، تبعاً **"لفيدون"**، وتتوقف عن بداهتها عندما نتحول الى المعقول، هكذا تتشوش البداهة الحسية وتصير أقل فأقل جلاء وإقناعاً ما أن نتعمق فيها. أما فيما يخص البداهة ماوراء التجريبية، فإنها سواء أكانت أكيدة أو معيارية، أي ما معناه ناتجة عن البرهنة أو تحكم العقل، فإنها، كما قد يقول سبينوزا Spinoza، أشد نوراً من نور الظهر، "Luce meridiana clarius"[2]. إنها منتهى الوضوح وقمة الاتقان في الفعل: ليس وميض الليل، بل إضاءة وضح النهار. ومع ذلك، لا يضيء التعقل بنفسه إلا بالحدوس المتقطعة التي تحييه: آنفاً يؤكد تبعثر الطبائع البسيطة عند ديكارت، وتقطع الحضور الكامل في اليقين، وأخيراً الآنية الحدسية، والخلق المستمر[3]، تؤكد أن دجى - الواضح للحقائق الأبدية والضرورية يقوم على العتمة المنيرة للـ quod الجذري الخاص بها، وعلى بغتة البداهة ما بعد المنطقية. البداهة ما بعد المنطقية، هي أيضاً البداهة ما بعد التجريبية عندما يتم تفحصها في المصدر المضيء نفسه، وليس في علاقتها مع الاستدلال الذي تضيئه المسلمات، عندما نتقصد الفعلية المجانية لهذه المسلمات وليس الشرعية الماثلة التي هي مبدأها. في علاقة اللوغوس بالحقائق وبالماهيات، تكون البداهة إمكانية إضاءة ضمنية ودائمة؛ لكن علاقة هذه الحقائق نفسها مع الحقيقة الأعلى التي لا يمكن سبرها - إله ديكارت الخالق - التي تضع هذه الحقائق ويمكنها أن تسترجعها، فإنها ليست علاقة بحصر المعنى، لأن الوضعية المطلقة فراغ محض وصفر محض بالنسبة لوعي متناه. إن بداهة الـ quoddité الخاصة بالحدث المطلق المفكك والمبعثر - سواء أكان هذا الحدث الفعلية الاعتباطية للحقائق أو وجود شيء ما بشكل عام - بكلمة البداهة ما بعد المنطقية، ليست مضيئة بقدر ما هي منوّرة: بين هذين النمطين للنور، هناك الفرق نفسه، الذي يوجد بين الوضوح

---

(1) Phédon, 83 c.

(2) Êth. I, 33, sc. 1.

(3) Jean VAHL, Du rôle de l'idée d'instant dans la philosophie de Descartes; Émile BOUTROUX, De veritatibus aeternis apud Cartesium (trad. G. Canguilhem, 1927).

المنتشر لوضح نهار لا لغز فيه ووميض ثانية يشتعل في الليل؛ فإذا كان ذاك كما عند سبينوزا، ضوء الهاجرة في سمت النهار، فإن هذا هو بالأحرى النار التي تشتعل في منتصف الليل المظلم عند يوحنا الصليبي أو في عتمة الدجى، عند دنيس الأريوباجي Denys l'Aréopagite: الأول هو إمكانية الرؤية أو بشكل أفضل رؤية الموجود نفسها الحاضرة لنظر بصير؛ والآخر بالأحرى هو الاستشفاف كحدث، أي في آن معاً فعل شبه غير موجود للاستشفاف (والذي هو آنفاً لغز-موضوع) وما-يكاد-لاشيء مستشف (والذي هو نفسه فعل): ليس رؤية المحسوس التجريبية، ولا الرؤية الخادعة لما يزعم أنه تواصل ما فوق طبيعي، بل هو الاستشفاف الآني ورمش الرموش؛ هذا هو الإدراك الشامل (ἐπιβολὴ ἀθρόα) عند أفلوطين، وهو مباغتة حية ونقد ساطع. والتنوير بشكل خاص يشبه رمز الأمل الخائب؛ لأنه يشير في آن معاً الى الأمل الآني وإلى الإخفاق المباشر. وسهم من نور، تنير البداهة ما بعد المنطقية سماء اللوغوس مابعد التجريبي، إلا أن الليل الذي مزقته يعود فيهبط بسرعة؛ وليس فقط لا تستمر أبداً هذه البداهة شبه المختفية، بل إنها أيضاً تهز وبعد فوات الأوان، الحقائق وتجعلها وقتية بدلاً من أن تؤسسها-، أو بشكل أفضل: إن طريقة الـ quod "تأسيس" الحقائق ليست بتبرير قيمتها، مثلما يفعل الاستدلال بمبادئ العقل، بل إنها على العكس بجعلنا نعي مجانيتها الفعلية الفائقة. أليست "البداهة الجذرية" نوعاً من تزاوج الكلمات، عندما نعرف أن الوضعية، شأنها شأن الاختيار، تتم دائماً في الليل وأنّ كل قرار هو شبه أعمى؟ إنّ مصدر النور **نفسه** ليس منوراً بل مظلماً! ولا يتأتى "التنوير" من نور وضح النهار الأنفَ الوجود لأنّه **يضع** بنفسه هذا النور: لأن التنوير وضعي مثلما الوضعية الأساسية تنويرية. وبحصر المعنى ليست بداهة حق، ولكنها تخلق البداهة في فعل الوضع: إنها بالتالي أبعد من كل شقاق بين الواضح والمعتم، كما **الخالق** نفسه الذي، كما في سفر التكوين، يلفظ في البدء: (Fiat lux)، (γενηθήτω φῶς) ويستهلك من ثم انقسام الليل والنهار... "et divisit lucem a tenebris"؛ إن الوضعية المناسبة نفسها التي تخلق بانبثاقها الخاص، نقيض الأطروحة وفعل الوضوح. كما أن لغز التنوير هذا يعمي عين تجريبية بدلاً من أن يضيئها: غير

أن الانبهار[1] الذي يعمي مساجين **المغارة** عندما يلمحـــون للمـــرة الأولى ســـناء **الحقيقة** الشمسية. هذا الانبهار سيصير بفعل العادة طبيعتـــهم الثانيـــة وتأريخـــهم الجديد، التي تولد عمى عكسياً في حال سقوطهم في الظلمات من جديد؛ ذلك أن النور هنا هو نور الحقيقة المستمرة النهاري، مضيء **a giorno** المنـــاظر المعقولـــة. والحال، إن النور الذي نتكلم عنه هنا، هو النور المشكوك فيه والملتبس، الذي تشع به الهذيّة التي لا تلمس، أي ما-لا-أعرف-ما-هو الذي ليس ما-يكاد-لاشيء. أن يُعميْ بصير التجريب، هذه هي طريقة اللغز في أن يكون بديهياً... ويضيء التنويـــر المناسب نفسه، أي أنه يعلن عـــن حضوره الخاص وانبثاقه من العـــدم **ex-nihilo**؛ و، بإضاءته لنفسه، فإنه بنفس الفعل يضيء الأشياء. لكنه لا يضيئها إلا لكســـــرة جزء من الثانية اللامتناهية الصغر. قلنا، نصف-عرفان، لكن ليس بمعنى أن الظـــل والنور يتصالحان بنوع من التوليف: لأن غبش الغروب ما هو أبداً إلا إنارة معتدلـــة ونوراً مختلطاً. وليس ما يختص بالمقام - المغاير - كلياً، إبهام نصف-النهار، بل هـــو التباس البداهة. وما-يكاد-لاشيء ليس نصف بداهة: لأن نصف-بداهـــة ليـــس بداهة على الإطلاق، لأن نصف-بداهة ليس إلا احتمالاً غامضاً... مـــا-يكـــاد-لاشيء هو مرة بعد مرة وحتى في آن معاً، أي بشكل متناقض بديهي ولا بديـــهي، معترض عليه ولا يمكن الاعتراض عليه: بديهي في لحظته، معترض عليه قبل الحدث وبعد فوات الأوان؛ وليس هناك من تنسيق بين المتناقضات، بل اصطدام بين أقصـــى متناقضين وازدواجية جدلية حادة. ليس نصف-العرفان بالتالي "متوسطاً" بـــالمعنى غير الموجه للكلمة: لأنه ليس هناك تدرج، بل نـــزاع، نـــزاع بين عدم إمكانيـــة تصور الوضعية المطلقة جذرياً وطبيعية المخلوق غير القادر على مواصلـــة رؤيتـــه؛ وينحل عدم إمكانية تصور الوضعية اللامتناهي أسماء المفعول الماضيـــة - دون أي انحلال -في استشفاف اللحظة: لأن اللحظة ليست بالضبط، بالمعنى الجدلي، "حلاً". اللحظة شق منير بين جانبين، تعليق للوقت يخفف من امتلاء البرزخ. ماذا أقـــول؟ الانفتاح الحدسي، الذي ليس بمنفذ، ليس حتى بشقٍ، كما أنه أقل بكثير من ثقـــب

(1) Μαρμαρυγή: Rép., VII, 515c, 516a, 518b. Pour l'éblouissement "descendant", le terme employé est ἀμβλυώττω (517 a, d).

إبرة! إنه خرق شعاع أدق من كل خط نور والمنسل، في ظرف ثانية، من خـــلال درع المقولات السميك والأشكال القبلية. ليست رؤية صاحب الرؤى بجدية، لكن استشفاف المتصوف، وهو التقاط ما فوق عقلاني لشبكة النور، هذا الاستشـــفاف هو جدّيّ. إن Swedenborg "سويدنبورغ" هو صاحب مقالب، و لم يكن كـــانط Kant على خطأ؛ إلا أن أفلوطين هو ميتافيزيقي، وكذلك دنيس الأريوبـــاجي... لنواجه إذن مقابل الرؤية فائقة الوضوح والمفصلة، شأن الرؤية البصرية، للامتـــداد البصري للهندسات الصلبة، لنواجهها بشبه-الرؤية التي تعرف بالغيب وهي شـــعور مسبق عابر. وإذا استطعنا أن ننقل إلى المدة، التي تشكل اللحظة نفيـــها (شـــبه-النفي)، استشفافات Rembrandt "رامبراندت"، لقلنا إن الإضاءة-المعتمة ليســـت رمادية المقاربة، بل لغز التناقض. ربما هذا ليس **"المقر السابع"** لـــ **"قصر الـــروح"** هذا الذي تنتظر فيه القديسة "تريزا"[1] أن تلقى السلام. لا تعدنا اللحظة، وهـــي رفيق **للمطلق** لا يدرك بالحواس، لا بالأمان ولا بمنـــزل. ونعارض هنـــا بـــالذات "الانكشاف" التجريبـــي، المتدرج مع "الكشف" ما بعد التجريبـــي، وهو ســـفر رؤيا مباغتة: فالتعقل ما بعد التجريبـــي، الوعر في قدومه الأصلي، يقبل نوعاً مـــن المصطبة تكمله: وهو يعلن عن نفسه دفعة واحدة، غير أنه يؤسس لمقام معقـــول يضيئه في كل مرة نستشيره بها. أما الكشف المبالغ، فإنه أيضاً تعمية ويناقض التباسه الطابع غير الملتبس تماماً والمتواطئ لبداهة ما بعد التجريب. إنه بداهة الظهور. يدور الظاهر المتعدد الألوان ويتعرى لكل العيون، شأن جمال معـــرض؛ إلا أن الظـــهور ينكشف[2]، ويظهر وهو يختفي: فهو يشتعل في برهة معطاة لروح انعطفت بغتـــة، أي قلبت مسيرها من الأعماق الى السطح ومُفكِـــرة علـــى عكـــس التجريـــب واللوغوس؛ ولكن، شأن بداهة الحرية المعترض عليها دائماً فإنها تشك بعد فـــوات

---

(1) Cf. Pourtant Vie de Sainte Thérèse écrite par elle-même (trad. Arnaud d'Andilly, 1687), chap. 40: "Dieu me fit comprendre comme en un instant et par une vue très claire, quoique sans apercevoir aucune forme ni figure, de quelle sorte il est en toutes choses, et toutes choses en lui... Il me semble..., que je ne vis rien, et je ne voudrais pas néanmoins l'assurer, parce qu'il y a de l'apparence que je vis quelque chose...".

(2) 'Εκφαίνειν est un terme spécifiquement dionysien. Cf. M. DE GANDILLAC, édit. Citée, Index terminologique.

الأوان. والحال، يصير الاختفاء نفسه ظهوراً. أليست السخرية الأبدية **للتبادلية** هي التي وضعت هذا الشرط لعلاقتنا **بالمطلق**: أن يتقلص الاستشفاف الى شعاع يـــزول بسرعة أشد من أن يكون وضعياً، وأن يكون نفي البرزخ هو فدية الحدس؟ هـــذه الـــ Némésie التي تسهر بعناية فائقة، وفق شيلنغ، على أن لا يكون هنـــــاك أي هناء صافٍ، والتي كان يفكر فيها تشايكوفســـكي Tchaïkovski معلقـــاً علـــى **السمفونية الرابعة**، إنما هي من يعطي الفرح أحياناً معنى...

الفصل التاسع

الخلق

I - الـ "ليكن" والهوية

تنكشف في تماس اللحظة بداهة جذرية بالكامل: تطابق إعادة الوضعية المبتدعة مع الوضعية الخلاقة. والحال، إن فلسفة **أولى** لا تتفلسف سوى على إعادة الوضعية، أي على نسخ ثانية، هل تستحق أن تسمى "أولى"؟ مما لا شك فيه أن الحرية الإنسانية تنجز في قراراتها معجزة وتناقض المبادرة-الثانية، ... أو إعادة السحب الأصلية: وهذا ما تُعبر عنه لوحدها الكلمة العبثية والقبيحة بعض الشيء "إعادة خلق". لكن بالضبط كل ما هو خلق لا يتكرر، وما من تكرار هو بخلق أو ببدئي على الإطلاق. فالاختلاف بين البداية وإعادة البداية ليس اختلافاً بالرقم الترتيبي فقط، مثلما بين الـ-**قبل** والـ-**بعد** في نفس السلسلة: فإعادة البدء، في هذا المعنى الإطلاقي، ليس بدءاً إنه تواصل. ودون أن تكون فلسفة ثانية بالمعنى الحصري، فإن الفلسفة التي تتفلسف حول لغز ثانوية الأول أو أولية الثاني لا تعود بالتالي فلسفة رقم **واحد** أو علم البدء بل علم الثاني. تُرجع البداية النسبية أو البداية الصغيرة التي تدشنها قرارات المشيئة، تُرجع الى بداية البدايات الى origo هو حقاً **radicalis** إلى أرومة (ῥίζα)[1]، إلى مبادرة بدئية تماماً ومناسبة لا تكون مبادرتها المناسبة تقليداً بمعنى المحاكاة، أي سمة، بل إعادة-إنتاج بالمعنى الإيمائي، أي إعادة وضعية ناجزة. مع ذلك، لنحدد: ليست الوضعية الأصلية أو الأصيلة، شأن الأول **l'arché**، عند أفلوطين، سابقة على كل ما عداها، πρὸ ἁπάντων[2]؛ إضافة إلى أنه عند أفلوطين نفسه تنمحي الأسبقية الزمنية أمام التفوق الميتافيزيقي. إذا لم يكن البدء أولاً إلا بأسبقية تاريخية أو حتى أول تاريخي، لا بل ما قبل تاريخي، أي أنه

(1) Enn., VI, 9, 9; VI, 6, 9; III, 8, 10.

(2) Πρῶτον : Enn., V, 5, 8; V, 3, 11.

يبقى في كل حال ضمن – السلسلة، فإنه لا يعود هناك من شيء يمنعنا من مساءلته عن أسلافه **الخاصة**، ونكون بالتالي قد قررنا اعتباطياً بأنه البدئي؛ لقد كانت نظرية الخلق عند "رنوفييه" Renouvier تأخذ في الحسبان هذا النكوص إلى مـــا لانهايـــة عندما اختار البدء المطلق. ألا يجعل اعتبار الفعل الخلاق بأنه الحـــــدث الأقـــدم في سلسلة ماثلة وبأنه، بالإجمال، أول لفظ في التواصل، والفصل الأول الذي يُطلـــق البرزخ، ألا يجعله هذا بوضاعة تجريبياً؟ ومع ذلك، فإن الحدث رقم **واحـــد**، هـــو حدث مثل الأحداث الأخرى... وليس بأكثر من مقارن الأفضلية التأريخية، فـــإن ذروة البدء المنطقية لا تناسب الوضعية الأصلية – الأصيلة؛ تشير هذه الـــذروة الى حكم الجوهر الأساسي أو المثالي، الموازي للتاريخ، ولكنه خارج التاريخ، مـــع أن التعقل يأخذ معه صلات تاريخية مؤرخة: هكذا يتأبد إنسان التواصل "من وقـــت لآخر"، خالطاً يومياته التجريبية بنوع من يوميات ماوراء تجريبيـــة. إنـــه إبـــدال الأولوية بالقبلية a priori، التتالي الوراثي للسابق واللاحـــق بلازمانيـــة الماهيـــة "الكسولة" وغير الفاعلة: لأن القبلية إذ كانت تشرح وتشترط، فإنها غير وضعيـــة. وما نبحث عنه ليس عقلانية لاتاريخية أو لازمنية، بل إن ما نبحث عنه بـــالأحرى هو وضعية زمن نظري، وضعية تضع التاريخ؛ ليس نوراً يكون ملك أيدينا في كـــل لحظة، نوراً مخلصاً يضيء كل جهد نقوم به لكي نفهم، أنه لغز يلتمس في آن معـــاً جهداً مبالغاً وحالة نعمة الحدس. يشير هذا اللغز الى الحد الذي يُلغى فيه الزمـــان والمكان في الانبثاق الذي يضعهما: كما أن الصيرورة بكاملها هي هذه الوضعيـــة المتواصلة، نشأة الزمن الورعة هذه والتي تبرد في كل لحظة في البرزخ وفي الخطاب.
هناك **ارتجال–أبدي** لا يتقلص لا إلى "أولية" التأبيد الكسولة ولا إلى "الأولويـــة" التاريخية لتشبيه الخالق بالإنسان في نظرية الخلق. – فالمخلوق نفسه، وهو إيجابيـــة موضوعة بكاملها وموضوع في التواصل، المخلوق لا يعاصر أبداً الوضعية الجوهرية؛ وما من أحد على الإطلاق شهد لحظة الخلق في مجرى البرزخ، ودائماً تصل المعرفـة الاستقبالية أو الاسترجاعية، المتبصرة أو المتأخرة، لشدة غلاظتها تصل دائماً قبل أو بعد، لكنها لا تصل أبداً أثناء الحدث ولا عند وقوعه. وفيما يتعلق ببداية البدايات، فإن "بعد فوات الأوان"، بعبارة أخرى الـــ "Jamnon" هو اللازمنيـــة الأساسـيـة لوعي غير مرهف عاجز عن التقاط الفرصة الواضحة خلال عبورهـــا. والوعـــي،

بالنسبة للحظة في مجرى البرزخ، هو غير مخفف كفاية ليلتقط الفرصة المناسبة في أوانها؛ وبالنسبة للحظة الجوهرية الكبيرة، فإن الوعي بكامله هو "بعد فوات الأوان": فهذه اللحظة هي ماضٍ لا متناه أزلي لم يكن حاضراً أبداً، ماضٍ أبدي لم يكن له يوم أبداً، لم يعاصره و لم يشهده في أية لحظة أي وعي، مهما كانٍ متنبهاً... فكيف يمكن تأريخ تزامنية بين زمن إنسان البرزخ والوضعية اللازمنية للزمان؟ فالفعلية مشهد لا نصل أبداً على الموعد معه، أي عند رفع الستارة بالضبط: ففي أي لحظة وصلنا يكون العرض قد ابتدأ سابقاً، على الدوام! سيقول بارمنيدس إنها لا بداية لها وانها تواصل أبدي، مثيراً بذلك ومن دون أن يدري سؤال أصلها الجذري: لأن من يتكلم عن التواصل يضمر بداية وإمكانية توقف؛ وتثبت نظرية الخلق التاريخ والساعة التجريبيين، كأنما كان هناك شيء ما قبل البداية... ومهما يكن فإن **اليكن**، وهو ليس سوى فرضية حول الأمر السحيق، وطريقة في التعبير لتثبيت الأفكار، إن **اليكن le Fiat** يخلي المكان للـ **Quod** المعاصر للوجود الموضوع آنفاً، للقرار المحسوم كلياً، للاختيار المختار **opus operatum** أو **electio electa**: لا يعود الـ Quod تفكيراً حول الأمر الأساسي... والذي لا يمكن سبره، بل هو تفكير حول أسماء المفعول السلبية الناجمة عن فعالية الوصية الأولى، وحول العمل الوديع الذي يُظهر فعلية المشيئة الأولى. في هذه الشروط لا يختلف الـ **Quod** عن الـ **quid** إلا بـ-ما-لا-أعرف-ما-هو غير الملموس: وكذلك يمكن لحس مشترك يقبل التواصل على أنه أمر بديهي ولحكمة تعترف بهشاشة الوجود الفانية، يمكنهما أن يرجعا عملياً الى الشيء عينه، وأن يشتملا على المضمون نفسه والتبعات نفسها - لا يقل الاختلاف بين هذه الحكمة وهذا الحس المشترك لا يقل عن الاختلاف الكلي في تشديدهما القصدي. يقوم nescioquid الـ- quoddité على الوعي بـ **واقع-أن du fait-que** بشكلٍ عام. إن مفارقة الوعي وعظمته، هي في كونه يتخطى كل ما يعيه مع بقائه ماثلاً فيه: مثلاً، إن قصباً مفكراً يفكر الوجود، لكنه هو نفسه شيء ما موجود؛ يتصور الفكر الوجود-بشكل-عام بصفته تجريداً مدوخاً، لكنه بوجوده بالذات يشهد آنفاً على المعطى. من جهة أخرى، يعي الوعي واقع الماهية، أي أنه يحزر مجانية الحقائق الأساسية ويضمر إمكانية مغايرتها (leur Aliter) النظرية: إلا أنه في الوقت عينه

يبرهن بتأمله الخاص الصلاحية غير المجتزأة لهذه الحقائق؛ ويطبق ويفترض ضمنياً القوانين العقلية التي يشعر مسبقاً باعتباطيتها. وأخيراً فإنه يعي نفسه كهذيّة لا يمكن تفسيرها وحادثة مرصودة بالموت: إلا أنه ليس حراً بنفسه ويبقى، بحضور وجوده الخاص، لا واعياً وبريئاً. فالوعي، إذاً، هو كلٌ أقوى وأضعف مما يعي؛ وهذا ما ينطوي به على نصف-عرفان: فإشكاله ليس موضوعاً، بل هو قدر ولغز. فهو يجعل الضرورة عرضية، ويلوي ما لا يلوى، إلا أنه نفسه لا يفلت من القانون المشترك الفولاذي. وما يعيبه برغسون على الذكاء- أنه يتدخل ليحاكم التطور العام. مع أنه فترة من هذا التطور - هو تناقض الوعي المحيّر. وضعية تابعة، وليس أصيلاً، بل نسخ، وفي آن معاً وضعي وإعادة وضع، لا يُوجد الحدس، بحصر المعنى، الحقائق الأساسية ولا الوجود بوجه عام، بأكثر مما لا يُعدم، بحصر المعنى، هذا الوجود والحقائق: وهو بذلك إعادة خلق وإعادة إلغاء. الوجود-أو-اللاوجود؟ يسأل هاملت عند فجر العصور الحديثة. **الكل أو اللاشيء**؟ في الحال أو أبداً؟ هكذا يُدخل εἶναι ἢ μὴ εἶναι فاصل الحداثة المتشائمة ثغرة في الـ ἔστι τὸ εἶναι الصفاء الايلي الحازم؛ ينشق الامتلاء غير المتشقق: ويسرّع التشاؤم الذي يكشف عبثية الألم، والشك الذي يعلل لا بداهة ما - هو- مفروغ منه يسرعان هذا الشق. إلا أن الفاصل **أو** يجب أن يحتل هنا موقعاً نظرياً أكثر منه واقعياً: وما عدا حالة الانتحار، وهو موت هذيّة-خاص، وليس إطلاقاً إعداماً للوجود بشكل عام، فإن تبادلية الوجود-أو-اللاوجود هي تبادلية للتظاهر؛ إذ لم يعد لدينا خيار! ففي أي لحظة نواجهه، الوجود هو ما يتواصل... وكذلك فإن الـ **بالأحرى والمغاير** اللايبنتزيين هما شرطان خفوران وهميان ومحض أفلاطونيين. قد يمكن للوجود أن لا يوجد، يخطر بذلك تفاؤل لايبنتز، ويستفيد تشاؤم شوبنهور من هذه الزلّة: كان على الوجود أن لا يوجد؛ إلا أن "الواجب" ما هو إلا تأمل أخلاقي، ومطالبة معيارية لا يلبث أن يسدها حائط المستحيل - الضروري الذي هو المأساوية المصيرية، وبنوع ما، العبثية التي تنجز يومياً؛ أما فيما يخص إمكانية -وجود- مغاير فإنها مجرد إمكانية ميتافيزيقية يسدها من دون توقف حدث الواقع الذي لا يمكن فهمه. الوجود-أو-اللاوجود؟ تسألون. غير أن من يسأل هذا السؤال لا يقيم أبداً قبل الاختيار ولا عند مفترق الوجود-أو-اللاوجود: فكل ثالث بين الواحد والآخر

مستبعد، فإما لا يوجد أحد ليطرح السؤال، أو أن من يطرح السؤال يكون، فيما يخصه، قد وجد آنفاً منخرطاً عند عتبة الوجود، وبتواصله كموجود مخلوق يشهد بالذات على أن حكم الشيء قد تم سلفاً؛ فإذا كان الوجود، بالتعريف بالذات، هو إيجابية معطاة دائماً، معطى سلفاً، إلى ما لانهاية، الكامل الذي لا ثغرة فيه **(Jam- datum)** ، فإن اللا-وجود هو غير-المعطى إطلاقاً، غير-القابل لأن يعطى على الإطلاق: كما أنه يلزم إعداماً عنيفاً ومباغتاً، بقدر ما هو لاعقلاني، ليتم تخطي العتبة التي تفصل الأول عن الثاني. وبالتالي، فإن تبادلية الوجود-أو-اللاوجود هي تبادلية متهافتة، وستكسب الفعلية الإسمية الجولة دائماً ضد توازن اللامبالاة ونوع من الفراغ الميتافيزيقي الذي يبدو أن هذا **الفصل** يستتبعه: لا يمكن على الإطلاق مفاجأة ذراع الميزان عند نقطة الصفر. كما أن الـ **quod** ليس بحصر المعنى، مثلما عليه الـ quid، تساؤل، سؤال تجريدي بانتظار جواب يسد الفراغ: بالاختصار، يرد الحدث بالحدث: فالفعلية نفسها هي الجواب، والوعي وحده هو من يطرح السؤال على نفسه، - سؤال مطروح أبدياً حول جواب معطى أبدياً. هكذا، وبينما يستتبع جواب الـ **Qui?** إمكانية أنماط لامتناهية من الـ **An**[1]، أي أن السؤال الوحيد الذي يشتمل عليه الـ Quod، لا يترك لنا الخيار إلا بين نعم ولا: كما أن هذا القرار النهائي خيالي تماماً لأن الجواب معطى سلفاً، وبكلمة واحدة. أفضل من ذلك: إن الجواب نفسه هو نوع من السؤال الأخرس، أو بالعكس إن المصادرة نفسها هي جوابها الخاص على سؤالها. وماذا يكون الوعي الفلسفي ما لم يكن تساؤلاً لامتناهياً ولا تناهي وضعية السؤال؟ فهذا الجواب المُجاب كلياً الذي هو الوجود في "اسم-المفعول-السلبي" هو إذاً إشكالي ضمنياً، ما لم يكن ذلك إلا لعدم تضمنه استحالة امكانية نقيضه؛ فلم تعد بداهة الـ **ἔστιν** ، بعد كل حساب، بديهية منذ أن ربطتها الرابطة بالوعي الذي يعي **ὅτι ἔστιν** تيتوتاني. وعندما يخلي الـ Quod المكان لسؤال الـ Cur (لماذا؟) أفإن ذلك يتم، كما عند لاينتز، لتعيين، بعد فوات الأوان، علل ما كان قد حُسم، من قبل، من **ليكن** un fiat أزلي: لأنه **بالتأكيد** هناك شيء ما- لكنه قُرر في مكان آخر، لماذا هناك شيء بدلاً

[1] KANT (Fondements de la métaphysique des mœurs, éd. De l'Acad. Prussienne, IV, 415) distingue de Ob sur lequel s'interroge l'impératif catégorique, et le Was sur lequel questionnent les impératifs hypothétiques.

من لاشيء، ولماذا هذا الشيء هو هكذا بدلاً من أن يكون مغايراً تماماً؟ بالطبع، يبدو أن سؤال **اللماذا** الأكبر قد حل محل سؤال **الكيف** الأصغر: لكن إذا كانت العلة غائية، فإنها تعود، ومن هنا بالذات، فتصير افتراضية، لأنها تفترض وجود أسباب للاختيار، أو قيم للاختيار؛ وإذا كانت العلة سببية، فإنها تُرجع الى ما لانهاية، إلى علل أخرى تكون علتها دون أن تقدر على التخلص، ما لم يكن اعتباطياً، من مثولية التواصل. يرفع الـ **بدلاً من** شكاً أفلاطونياً بما فيه الكفاية حول بداهات لم يعد من المناسب الاعتراض عليها.

II - فعل-وجود لا يكون

To be or not to be؟ من السهل أن نفهم أن إحراج اليأس الحديث هذا، قد شجعه في جزء كبير منه تعلق الوعي بفلسفة الشيء، أي بعقائدية الحس المشترك التي تقترح علينا التبادلية القاطعة بين الامتلاء والفراغ، بين الحضور والغياب. إنه للأخذ أو للترك! ولو كان هاملت أقل هوساً بأسطورة **الشيء** لربما كان اكتشف هذا المبدأ-الثالث الذي ستجد بـ **فعالية** القرن XIX، على فم فاوست، اسمه الحقيقي: العمل. لأن هناك بالضبط وسط بين الأخذ والترك، الوجود واللا-وجود، - بالطبع ليس بشكل منطقي، لأن كل ثالث بين المتناقضين ممنوع، ولكن بالفعل، بشكل لاعقلاني وجذري؛ بين الوجود والعدم هناك **الفعل** le Faire، وهو ليس وجوداً ولا لا-وجود. هكذا ينسل الأسير، وقد صار رجل عمل، أمام حارسيه وبالرغم منهما! وكنا بالتحديد قد سمينا لحظة الوجود-الأقل الذي يتجنب تبادلية الوجود أو عدم الوجود: ما-يكاد-لاشيء الذي ليس بلاشيء، ولا شيء ما، هل يكون أبعد من كل اختيار، هل يكون الوسيط المفارق بين المتناقضات التي لا تحتمل أي وسط؟ ذلك أن كل ماهية **الفعل** تقوم، بالنسبة للمخلوق، في اللحظة: بفعلها تحسم الإرادة المقررة المعضلة التي كانت تذهل الحس المشترك... ربما قيل: إن قِوام العلاقات المعقولة برده القرار الذي لا يرد الكل-أو-لاشيء، هو بالضبط "النمط الثالث" الذي نبحث عنه، ماوراء الشيء مثلما ماوراء اللا-شيء. ومع ذلك، فإن جوهرية ما بعد التجريب لا تتجنب، بل بالعكس، مبدأ الثالث-المرفوع: لأنه إذا كان الوجود لا يعني إلا الوجود، فإن الماهية تكون عدماً بالتأكيد

بصفتها غير موجودة أو صفراً في التعيين الزماني-المكاني؛ لكن إذا كان الوجود مشتملاً في آن معاً على الـ **Esse** (الوجود) والـ **(Essence)** الماهية، فإنه لا يعود هناك من نقيض له إلا **اللاشيء** العاري تماماً، وتعود الحقائق الأبدية بالتالي الإيجابية بامتياز والامتلاء الكامل. من هنا التفسير بأن الرياضيات تهمش الموت لدرجة كبيرة، إلا أن ذلك لا يواسينا شخصياً، فما وراء ليس "الكائن" التجريبي فقط، بل أبعد من الماهية (ousia) نفسها، الماهية الكسولة وغير الفعلية، وهي لا-وجود نسبي من الوجود، وهي مع ذلك شيء ما، لأنها الحقيقية، هناك الحقيقة الأعلى. ليست الحقيقة الأعلى أبعد من الشيء فقط، وهو توقف للتفكير، بل هي أبعد من التفكير، وهو انحلال الشيء في علاقات ذكية. وإذا كانت الحقيقة ليست-شيئاً بصفتها علاقة غير ملموسة ودلالة معقولة للذهن، فإن الحقيقة الأعلى هي ضد-شيء بصفتها وضعية محض وعملية نشطة. هاك أخيراً المصدر الجذري بحق، والذي ليس مبدأ غير فعال بل أسبقية خلاقة. وفي العمق يقوم كل يأس وكل قلق بما في ذلك قلق الكائن التجريبي المتجدد دائماً أمام الموت، يقوم على خرافة **الشيء** وتبادلية **الامتلاء** الانطولوجي **والفراغ اللاوجودي** الذي تصنعه هذه الخرافة: إن عجزنا عن تصور واقع لا يكون "res" هو مصدر ذعرنا أمام فراغ الموت؛ فنحن لا نملك ثقة كافية في الواقع غير العيني، وفي لا واقعية العملية المحض الواقعية جداً، فنحن نجمد عدماً ساكناً هو نظير **الشيء** وجوابه السلبي؛ مما لا شك فيه أن ثمة قرار ثنائي لا رجوع عنه من نفس النمط يرأس بجوهر الشر، المشيطن ليصير تابعاً للخير... إنه ذلك الذي لا يعرف إلا **الشيء** يشيء، دون أي حذر، هذا الوحش الذي يسمى العدم. وآنفاً كان الدمشقي[1]، المنهمك بتمييز العدم-ألفا والعدم-أوميغا، أي ما لا يمكن وصفه الذي هو الله والمادة التي هي العدم (τὸ μηδαμῆ μηδαμῶς ὄν) قد ميز بينهما كنقطة انطلاق ونقطة وصول لحركتين روحيتين معكوستين: قد يقول أفلوطين واحد منهما هو مبدأ الصدور وحد الانعطاف والآخر هو نقطة الانطلاق والانعطاف والحد الأخير للفيض. هنا وهناك الاختلاف هو في الاتجاه. ويحصل ان يميز أفلوطين المادة في نفس ألفاظ **الواحد**

---

(1) Dubitationes et solutiones de primis principiis (éd. Ruelle), II, 34, 38; cit.apud BRÉHIER, art. Cit., p. 470-471.

تقريباً: لامتبلور، لا يمكن وصفه، ...."[1]؛ إلا أن هذا "الماضي المبهم" "aoriste" هو عدم مسطح، عدم مميت وليس مثل **الواحد**، إنتاجية خصبة ودينامية: بالتعارض مع العدم الساكن، الذي ليس ما-يكاد-لاشيء، بل لا شيء تماماً، تتكثف الوضعية المحض للإنسان في شبه-بطلان اللحظة. وما يشكل الإشكال هنا هو نوع من الموت بالمقلوب.

المطلق الذي يميزه ما-لا-أعرف-ماهو غير المدرك عن العدم (لكن ما-لا-أعرف ما هو هذا رحب كالسماء، لكن هذا الـ-ما-يكاد-لاشيء هو الكل)، ليس **المطلق** بشيء ما موجود. لما كان **ما هو نفسه**، فاعلاً محضاً، فإنه ليس شيئاً ما، هذا أو ذاك، ولو كان ذاك-الذي-يوجد بامتياز، ولو كان الأشياء كلها؛ فإن **ما هو نفسه** ليس "كائناً"، أي أنه ليس على الإطلاق فاعلاً ملازماً لرابطة قد تستدعي محمولاً. وهو ليس فقط ليس شيئاً ما، بل يمكن القول إنه لا **يوجد**، وذلك بالمعنى الأنطولوجي والمطلق لفعل **الكون "وجد"**؛ هو ليس فقط ليس فاعلاً موصلاً بمحمول افتراضي ومعطوف، بل نه ليس فاعلاً حاسماً لـ **Esti** بدون زيادة. لا يمكن الإجابة عن السؤال **من هو**؟ وما هذيّة الهذيات بشيء وهي بالتالي غير **"موجودة"**! لأن ذاك هو جدل محيّر لـ- ما لا يمكن إدراكه: لو كان الله، فهو يكون بالتالي وحرفياً، "غير موجود"! ويكتب "نيقولا بردياف": الله هو لا-وجود "موجود آنفاً أعلى"؛ أو بالعكس: يجب أن يكون الله غير "موجود" لكي نستطيع أن نبدأ بالكلام عن الله. وكان باسكال قد شعر آنفاً أنه إذا كان ما يقال له وجود الله يبرر الملحدين، فإن عدم وجود **الله** يبرهن بشكل مفارق على الله. وكما أن أحق ما في الحقيقة هو الحقيقة الأعلى لا الصحيحة ولا الخاطئة التي تؤسسها، كذلك فإن أكثر ما في الوجود جوهرية هو بالضبط غير الموجود، وللعرفان الفعل النظري الذي يضع الفرضيات ممكنة التعيين والنعوت الملموسة: لهذا فإن لاهوت النعوت السلبي وفلسفة الأطروحة الإيجابية يشبهان القفا الظاهري والوجه الباطني لنفس نصف-العرفان. كما أن أفلوطين يحدد: **الواحد**، الذي ليس لا-وجود، ليس أيضاً بـ "كائن"؛ ليس **الواحد** بشيء ما لأنه إذا كان شيئاً ما، لا يكون هو

---

(1) Enn., II, 4, 10: ἄποιος, ἄμορφος, ἀόριστος.

بنفسه εἰ γὰρ τὶ ἕν, οὐκ ἂν αὐτοέν· τὸ γὰρ αὐτὸ πρὸ τοῦ τί [1]، وأفلاطون نفسه يقر ضمنياً[2] أن الخير ليس شيئاً بين الأشياء. فإذا كان الله بشيء ما، فالله لا يكون، والعكس بالعكس إذا كان الله لاشيء - ليس: إذا لم يكن الله **شيئاً** بل: إذا كان الله **لاشيء**، **لاشيء** وضعياً وungrund لا يمكن سبره، إذا كان الله **صفراً** بالمعنى نفسه الذي يكتب فيه Angelus Silesius "أنجيلوس سيلسيوس": "Die zarte Gottheit ist ein Nichts und Ubernichts[3]، إذن، يكون الله حتماً هو الكل. حتى الشيء ما هو بشيء! حتى الشيء ليس شيئاً! حتى الشيء-سواء أكان تملكاً خاصية أو لذة - لا يكون شيئاً إلا بلا شيء غامض جداً يضعه أو يعيد وضعه كـ **res** وكإسم مفعول سلبي. هذا اللاشيء الذي هو الكل، وهو نقيض الشيء، هو الفعل أو الوضعية نفسها. **المطلق** غير موجود، لكنه يعمل: والحال، إذا كان "العمل" لاشيء، كونه دينامية انتقالية بكامله وعملية لا تلمس، فإن "العمل" يضع على الأقل ما يوجد. لا يمكن أن نطرح حول **المطلق** السؤال: τί ἔστιν، من هو؟ لكن يمكن أن نسأل: τί ποιεῖ، ماذا يعمل؟ إن الجوهري الأعلى (ὑπερούσιος) "يعمل" - وعمله بالأخص، الفائق الوجود، هو جعل الوجود موجوداً، أن يكون، كما يقول أفلوطين[4]، علة الماهية. فهل يمكن القول إن ما يجعل الوجود موجوداً هو، على الأقل، من-يجعل-الوجود-موجوداً، وأن مهنته، طبيعته نفسها، هي بالضبط أن يجعل اللاموجود موجوداً؟ برهنا كيف أن الماهية نفسها هي فعل موجود، وكيف أن cogitatio يتحول بنفسه الى res cogitans، وكيف أن الحرية نفسها تصير شيئاً جوهرياً وطبيعة وظيفية للإنسان الحر: هكذا يغلق اللاحتميون، بتشيئهم حرية الاختيار باللامبالاة، يغلقون عن طيب خاطر، الدعوة اللامتناهية في جرار المهنة... هكذا نميل للقول: إن من يعمل، بصفته يعمل، يُوجَد؛ إن من يعمل هو العامل أو واهب الوجود ὁ δοὺς οὐσίαν [5]، تقني الخلق.

---

(1) Enn., V, 3, 12 (cf. 11); VI, 9, 3; VI, 7, 38.

(2) Rép., VI, 505 e, 506 b.

(3) Cherubinischer Wandersmann, I, 111.

(4) Enn., VI, 7, 16 (αἰτία οὐσίας).

(5) V, 3, 15.

تلك هي على الأقل حال المخلوق، الموجود في البدء، والذي بعد ذلك يعمل تبعاً لوجوده ولوظيفته ولمهنته. إن الإنسان أولاً هو موجود فاعل أو غير فاعل، ويصير ثانوياً شاعر قصائده الخاصة. عند المخلوق، ولنتكلم مثل الطوماويين - مثل الميتافيزيقا "الإسمية"، نمط الوجود يتصدر نمط العمل! والله، هو، يجعل الموجود موجوداً: إلا أن الله ليس مطلقاً من-يجعل-الوجود-موجوداً، وهذا يعني؛ الله "يفعل"، الله هو الفاعل المحض المتدفق بالكامل في "فعله" العملي ومن دون أي وجود مسبق لمحمول موصوف. وإذا **كان الـ-ما هو نفسه** شيئاً ما، ولو كان ما يجعل الوجود موجوداً، ولو كان أخصائي الوضعية، عندها سيسبق الوجود الفعل، ولن يكون الله حراً بأن يكون موجوداً أو أن لا يكون: وسيكون علينا أن نسأل مجدداً حول فاعل هذا الوجود الموضوع آنفاً وحول المبدأ الذي يُوجد من يفعل الوجود، ولن ننتهي من ذلك أبداً... بالطبع يمكن أن نلح وأن نصطلح على تسمية وجود **"Esse"** هذا **Facere** الإلهي: وتكون طريقة الله بالوجود هي بالضبط "الفعل"؛ غير أن ذلك لن يكون إلا طريقة بالتعبير ولعباً بالكلمات، لخاصية وجود Être، لا يملك أي كثافة وجودية ontique، وجود خالص من كل اسم مفعول سلبي وموضوع بالضبط هو الفعل، وفعل وجود دون أن يكون هو بنفسه موجوداً، طريقة فريدة في الوجود في أن يكون عير موجود! لأن هذا هو لغز الله العملي والـ **arcanum** الإلهي بامتياز: الله هو عملية بكامله، - بعبارة أخرى، الله هو إسم العملية المحضة **pura operatio**، لا يتكثف إطلاقاً ولا يتخثر وجوديّ ontique. الله، الذي ليس بموجود، حتى ولو كان **الوجود** اللاهوتي الأسمى، هو بالتالي أكثر بكثير من لاوجود أو نفي للوجود: فالله ليس من يكون، ولا حتى من يفعل، ولا هو من-يعمل-الوجود؛ لا، الله يفعل ببساطة: بعبارة أخرى الله يضع وجود الآخر (وهذا ما يسمى الخلق) وينفي وجوده الخاص. إن هذا اللاتساوق بين الوجود الذي يضع وذاك الذي يرفضه لنفسه بصفته مؤسِساً وسابقاً الوجود، هو كل اللاتوازن المفارق وكل تباين النعمة الخلاقة. إن **فعل-الوجود** (الوضعية من دون وجود) ليس لا-وجود... ويلزمه وسع السماوات كلها! لكنه **أكثر**-من-الوجود، وأكثر منه بشكل لانهائي، وهذا الأكثر - من- الوجود نفسه ليس وجوداً مدعماً، في الكثافة كما في الإتقان، بل هو شيء ما مغاير كلياً للوجود. يُعبر

المغاير-كلياً هنا أن هناك شيئاً ما ليس شيئاً عندما يتظاهر الفكر بتحقيقه، إلا أن هذا اللاشيء يعود شيئاً ما في اللحظة التي **يكاد فيها** الفكر يحصل على نقطة تماس مع الفراغ: ويعود الفكر فينتفض من دون نهاية من اللا-وجود في الوجود ومن الوجود في اللاوجود. إن **ما-هو-نفسه** الواضع-كلياً غير مضطر لأن يعمل **وفق** طبيعته، لأنه لسبب وجيه لا "طبيعة" له، وأن الفعل ليس طبيعة؛ حر بحريته نفسها، مُضلل وغير متوقع إلى مالانهاية. الله هو الله لأنه ليس مضطراً أن يفعل إلهياً. فإذا كان الله أبعد من الحقيقة الجوهرية ولا يقوم من ثم في أي تعريف، فإن ذلك يعود بشكل خاص إلى أن الحقيقة الجوهرية ليست حرة بأن تناقض نفسها ولا بأن تكون شيئاً آخر غير ما هي عليه، لأن الضرورة لا تجبر العقل فقط، بل تخدم نفسها من نفسها ومحددة تماماً في ماهيتها الخاصة بها.

III - فعل - الوجود يفعل نفسه

تبقى طريقة واحدة لفهم هذا **الفعل** الاصطفائي والقائم أبعد من انفصام الكائن واللا-كائن: الله يفعل، وبفعله، يفعل نفسه؛ يضع الله نفسه "على أنه الله" بوضعه الوجود. يُنهض الله نفسه باستمرار خارج العدم ويخلق نفسه بخلقه، تقريباً مثلما المخلوق، تبعاً لأرسطو، يصير حداداً عندما يحدد، عازف قيثارة بعزفه على القيثارة: وما يجب أن "يعرف - سلفاً" للقيام بالفعل، يُكتسب بالضبط **عند القيام بفعله!** نصير عند القيام بالفعل، ما نكون عليه بالقوة. أليست هذه الحلقة المفرغة هي سحر **الفعل** كله؟ أي بمعنى فعل - مشيٍ ، كلامٍ، مشيئةٍ - يتم فيه منبت الوجود؟ لكن الإنسان ليس سوى ساحرٍ مصغر، لأنه بهذه الطريقة يتعلم نشاطات بسيطة وجزئية ويُشرع للتوّ على أن يوجَد (على أنه شيئ) على أنه **Res**: أما الله، فإنه يخلق نفسه بشكل عام. ويخلق معه الوجود بشكل عام، ولا ينخرط أبداً بنفسه، بصفته خلقاً كاملاً، في الوجود المخلوق آنفاً وهذا ما يعتبره ليبنتز في مكان ما على أنه ذروة العبثية، "absurdissimum" [(1)]، وللعرفان أن تكون "veritas existentiae divinae" هي بنفسها معلولاً لمشيئة الله الحرة وأن تكون مع ذلك المفارقة جد المحيرة والتي يجب أن نعوِّد ذهننا عليها: بالطبع المشيئة ليس في آخر

(1) GRUA, op. cit., I, p. 433; à opposer au passage déjà cité, p. 302.

التحليل، بل فيما قبل-(التحليل) الأخير، هي طبيعة الله بالذات، طالما كانت "طبيعة" الله هي "المشيئة"؛ إلا أن الله ليس الله إلا لأنه يريد طبيعته الخاصة، و، في هذه الحالة، لأنه "يريد أن يشاء" أو، كما قال ليبنتز ذات مرة وكان في أفضل لحظات إلهامه: لأن الله "vult velle... et vult voluntatem volendi, et ita in infinitum". ويجد الموضوع "البوهميت" القديم والذي استعاده شيلنغ[1]، أن هناك نضجاً أو تطوراً متلازماً من آلهة أسطورية إلى الإلهية السماوية، هكذا يجد هذا الموضوع معنىً مقبولاً. وسيقول برغسون، بعبارات مؤثرة: ليس المطلق شيئاً بل هو ديمومة وحرية وحياة؛ ليس **المطلق** بشيء جاهز، إنه تدفق خلاق[2]. إن مفعول به العملية المُنعِمة تماماً والأساسية جذرياً المسماة خلقاً ليس فقط المفعول به الموضوعي للنتاج الحاصل، بل أيضاً وجود الخالق نفسه. فالفعل مشكل ليس فقط للمخلوقات بل للخالق نفسه، وينتج عن ذلك أن وجود الخالق هو عملية لا نهاية لها؛ وينجز هذا الوجود نفسه بينما ينجز هذا الخالق غير الموجود وجود مخلوقه؛ فما يضع الواحد يكوِّن الآخر، فالـ ontogonie فنشأة الوجود هي بالواقعة نفسها تجلٍ إلهي: إن فاعل المعجزة هو، بشكل غير مفهوم، المعلول الخاص لهذه المعجزة، الخالق نفسه هو أول مخلوق لخلقه الخاص! لا يسبق الخلق المخلوق فقط بل الخالق، مثلما لا تسبق الـ علية المعلول فقط بل العلة... لأنه ليس هناك إلا الفعل الوضعي فقط هو الذي يمكنه أن يكون مبادرة أصيلة تماماً وأن يتقدم كل ما قبل الوجود. أليس الله أعلى فاعل-نفسه، فاعلٌ بنفسه يكون فيه الذات دائماً le Soi res posita والفعل دائماً positio ponens وأسبقية نظرية؟ نعثر في الفاعل - نفسه، وبشكل فعال، على المفارقة الصوفية وغير العقلانية لعلة ذاته causa-sui أو العلية الدائرية: يكسر وجوب وجود الذات الإلهية أخيراً وبقرار عويص، الدائرة الفارغة لقلب العبارة التي كانت تردنا إلى ما لانهاية من إرادة الله الى طبيعة الله: إن **الأطروحة** المُنعِمَة التي تضع في نفس الفعل الخالق ومخلوقه، هي ما لا يمكنها في أي حال من الأحوال أن تكون متقدمة، وما يثبت بالتأكيد المفارقة الفاوستية: في بداية كل البدايات كان هناك **الفعل** Ἐν ἀρχῇ ἦν ἡ θέσις! بطبيعة الحال، ليس هناك،

---

(1) Die Weltalier. Cf. A. KOYRÉ, La Philosophie de Jacob Bœhme, p. 317.

(2) Évolution créatrice, p. 270 et 323; Deux sources de la morale et de la religion, chap. III.

حرفياً تطور حقيقي في الله: إن حركة الذهاب والإياب هـذه مـن الدعـوة الى المجاهرة، أو من الوضعية المحض الى المبدأ المُشكل، التي تتم في الله أبدياً ومـن دون تقطع، تأخذ زمناً بالنسبة لذهننا؛ فالتفكير، مأخوذاً بما لا يمكن أن يُفكر به يمنـح عن طيب خاطر صيرورة لله... وهذا يعني الخلط بـين الصـيرورة والفعـل fieri وfacere. ومثلما كان اليونانيون يعارضـون بين الموجود-الظاهر (ὄν-φαινόμενον) كانوا يعارضون كذلك بين الوجود - الصـيرورة (εἶναι-γίγνεσθαι) ، باعتبـار الصيرورة عبوراً مستمراً من اللا - وجود الى الوجود، أو اسـتمرارية قـدوم: لا يتوقف اللا - وجود (μὴ εἶναι) لواجب-الوجود "عـن أن يصـير" مسـتقبلياً، وللحظة، وجـود الحاضر ، **الآن** غير الملموس المسترق بين **ليس - بعـد** (οὔπω) **ولم - يعد** (οὐκέτι) وبين لا - وجود واجب - الوجود ولا - وجود مـا كـان - موجوداً، بين futurum-esse وfuisse؛ كما كان أرسطو يقول: إن الزمان موجود ولكن **بالكـاد**: οὐκ ἔστιν ἢ μόλις καὶ ἀμυδρῶς [(1)]. إلا أن الصـيرورة المزيـج "الكسول" من الوجود واللا-وجود، هي بنفسها غير فعالة، وسـلبية وعقيمـة، والإنجاب البيولوجي نفسه ليس خلقاً إلا مجازياً. وليست الصيرورة البشرية فقـط هي "إنتاجٌ" غير صاف، بل إنها أيضاً ليست "إنتاجاً-ذاتيـاً" إلا بشـكل نـاقص وبتلميح شديد: الإنسانُ "يصنع نفسه"... من وقت لآخـر، وبطريقـة تعبيريـة بالأحرى، وليس بالمعنى الصحيح؛ وفي باقي الوقت، أي بمعنى في كل الوقـت- لأن هذا هو حال تواصل البرزخ-الإنسان **مصنوع**، "fit" (صُنِع) أو حتى إنه "factus est"؛ لا يفعل الإنسان إلا بتقطع، لا يصنع نفسه إلا بوهن وفي لحظـات القـرار الإرادي المميزة فقط؛ بينهما يصير الإنسان، مثلما ينضج التفاح. بتحول إعجـازي ولكن سلبي؛ يتغير الإنسان بلا تعدٍ. وأخيراً في كل ثانية ينحو الحادث نحو الوجـود وينحو السياق نحو الحالة: الصيرورة هي أن يصير هذا أو ذاك مستقبلياً، كمـا أن الحدوث، هو بالنسبة إلى التكرار الحاصل، التحول إلى شيء موضـوع بقـدوم واجب-الوجود؛ ويميل نوع من الانجذاب المتواصل بالصيرورة نحو هذه الصفة التي يجب تحقيقها، والتي ستصير غداً واقعاً، والتي تحمل منذ اليوم نبرة الرغبة المقـررة. بالإضافة الى ذلك، فإن ما يصير مستقبلياً شيء ما مغاير، يكون هو نفسـه آنفـاً

---

(1) Phys., IV, 10, 217 b, 32-33.

شيئاً، لأنه سيكون شيئاً مغايراً! فالحادث هنا آنفاً، وهنا بثقلٍ، بصفته خاصيـــة أو شخصاً، ووجوده سابق لوجوده نفسه مثلما هو معطى بكامله للآخريـــن. لهـــذا السبب فإن المخلوق هو مزيج من عملية مافوق طبيعية وواقع متكون: فهو يكـــابد في ذاته، وفي آن معاً التكرار اللامتناهي للوعي والحرية، والذي هو ترحيل مســـتمر الى الأبعد، والميل المَشِيء الذي يجعله يهضم مبادراتـــه الخاصـــة creatura fit, creator facit. الله لا يصير نفسه، لكنه يعمل صيرورة، وهو في ذلـــك عمليـــة بالكامل وإنتاجية محضة، وضعية دون خليط، لغز غير ظاهر: يتطابق **الفعل وفعل–الذات** في النعمة الصفائية للحمل السني. أليس العمل من دون وجود ومن دون ما قبل الوجود إلهياً؟ إن التطابق بين الـــ facere الإلهي، والـــ Fieri البشـــري، أي تطابق **عملية** الخلق المحضة وقضية الإبداع الإنساني غير الصافي، قضية يمتزج فيـــها التحول والنضج، هذا التطابق يتم في اليكن **théandrique** ولحظة الخلق: الـــ– ليكن وهو شبه–تزامن، هو في آن معاً إضمحلال وسطوع لـــ Facit وfit – هـــذا هو كل ما يمكننا استشفافه من الوضعية المطلقة. إن **القرار الفعال** الذي لا يشـــكل بالنسبة للمخلوق إلا ندرة لـــ – ما – يكاد – لاشيء هو في الله وضعية محـــض مثلما يُحرك **الحدث الفعلي** في الانسان صيرورة: تعكس فاعليـــة الصـــيرورة إذن وبشكل ضعيف فاعلية فعل – الوجود التي لا يمكن تفكرها "Dixit: Fiat Lux, Et facta est lux"[(1)]. فالله لا يصنع النور: إنه يقول فقط "Fiat lux" "ليكن نـــور". فالعبور من الـــ– **ليكن** إلى الفعل **factum** أي من الارتجاج المحيِّر جداً لأول قـــرار أي إسم المفعول السلبي للشيء الموضوع، أي ما معناه من بدء أول مبادرة الى نظام الشيء الموجود، هذا العبور ليس توسطاً، بل هو تطابق يكاد يكون مباشراً، وشبه– متزامن. إن رابطة **الواو (و)** مجرد رابطة تجاور، تحلل هذه المعجـــزة الفريـــدة الى لحظتين: وميض–مقطع وحيد، الذي ليس أمنية أفلاطونية ولا تفضيلاً ورعـــاً ولا سحراً، بل إلزام مقرر، يتطابق مع انبثاق المخلوق شبه–التلقائي؛ ويجب في الوقـــت عينه، النظر الى نفس السحر على أنه "Dixit" أو فعل فعال عندما يُعتبر في إيجابيتـــه الوضعية، وعلى أنه مخلوق–علة–ذاته عندما نرجع صوب الإيجابية الموضوعـــة. في

(1) Gen., I, 3. Cf. Ps., 32, 9: "Quoniam Ipse dixit, et facta sunt: Ipse mandavit, et creata sunt". Les Septante traduisent: ὅτι αὐτὸς εἶπε, καὶ ἐγενήθησαν...

لحظة أكبر لغز، يضع هذا اللوغوس الذي هو أطروحة، وهو ينطق: ...Γενηθήτω φῶς!Καὶ ἐγένετο φῶς أليس تماثل الإلزام والمنجز هو أقصى لغز الخلق؟

IV - النعمة المثلثة لفعل-الوجود بدون -وجود

إن من يصنع الوجود **ليس** هو نفسه **بموجود**، بمعنى أنه لا يملك الوجود المشترك مع المخلوق الذي سيوجد: وإلا لن يكون الوجود مستقبلاً مُبدِعاً بحق res creanda أو ponenda، بل إنه سيكون مرة أخرى موجوداً من قبل؛ وسيكون ما يدعى بأنه الخالق قد اكتسب من غيره الوجود الذي يفترض أن يمنحه، وسنُرد إلى ما لانهاية، الى خالق هذا الخالق، ومن ثم الى خالق هذا الخالق، حتى اللحظة التي نقبل فيها أخيراً ما كان من الأفضل أن نبدأ به: الأسبقية الوحيدة الأساسية بالمطلق **للفعل** المحض لكل وجود. لأنه حيثما هناك **ماهية أو وجود** هناك ثانياً وثالثاً، تواصل ماوراء تجريبي ودوام ما قبل الوجود وسط البرزخ؛ وهذا يعني تقديم زاد للفلسفات الثانية والثالثة، ولكن استقالة كل علم أولي وكل حكمة أولى. كما أنَّ الخالق ليس بالنسبة الى المخلوق مثل العلة الفيزيائية بالنسبة الى معلولها: لأن العلة التي لا تفعل الوجود، بل تنتج الوجود وتنجب من دون خلق، تشارك هي نفسها في هذا الوجود الذي تنقله أو توصله؛ فالعلة كالمعلول، هي شيء موجود، مع أنه وجود "موجود" أكثر وأكثر كثافة من هذا المعلول، وأكثر وزناً؛ ليست الأبوة والبنوة شيئاً آخر غير هذا النقل **لوجود** موجود من قبل، مشترك بين العلة والمعلول. والعكس بالعكس، بالطبع ليست الماهية الرياضية القائمة في عالم عقلي لازماني، أو في حيز معقول، ليست بنفس كيفية هذا المثلث أو ذاك الموجود على هذا اللوح الأسود؛ بالعكس، لا يمكن القول إنها تفعل في هنا-الآن الخاص بها الوجود المؤرخ والمتموضع للصورة التي نراها: إنها تشترط فقط إمكانية احتمال مثالها. ومثلما هو أعلى من الوجود والماهية، فإن القرار الوضعي هو كذلك فعال بمقدار العلة[1]؛ فهو ليس موجوداً أعلى فقط، بل جوهرية أعلى: إنه لا يوجد ولا يقيم، لكنه بالضبط يضع، والضرورة البديهية نفسها بالنسبة الى هذه الوضعية

(1) Rép., VII, 517c: ὀρθῶν τε καὶ καλῶν αἰτία ἔν τε ὁρατῷ φῶς καὶ τὸν τούτου κύριον τεκοῦσα, ἔν τε νοητῷ αὐτὴ κυρία ἀλήθειαν καὶ νοῦν παρασχομένη...

المحض هي شيء موضوع وهنا - آنفاً غير فعال! قد يمكن القول عن مبدأ الوجـــود غير الموجود أو الموجود الأعلى - الذي هو أيضاً مبدأ الماهية مافوق الجوهري - ما كان ليبنتز (Leibniz) يقوله عن موناداته أو ذراته الميتافيزيقيـــة: لا يمكـــن لمبـــدأ الامتداد **(vis extensionis)** أن يكون هو نفسه ممتداً؛ إلا إذا تطلب بدوره مبـــدأ لامتداده الخاص، وهكذا يجرنا في نكوص الانقسامية الى ما لانهاية؛ ولا يمكن لمبـــدأ الامتداد إلا أن يكون مكثفاً، وأن يكون هذا التكثيف "intensio" **قـــوة**، قـــوة امتداد مكثفة - **إن من يفعل الوجود غير موجود**: وليس هناك مخرج من هنـا؛ إذا كنا لا نريد أن نتوقف عند نقطة وصول تجمد اعتباطياً كمبدأ، لكـــن أن نلتقـــي المبادرة المُنعِمة كلياً والتي تضع حداً لكل نكوص، علينا أن نقبل انعطاف **الوجـــود** هذا الى مقام-مغاير-كلياً **للفعل**-من-غير-وجود! من هنا ثلاثة ما وراء المنطـــق métalogisme مفارقة بعنف وهي لغز الخلق نفسه: 1 - **إن من يفعل ليـــس مـــا يفعل**؛ ويشدد بروكليس Proclus، على ذلك بنفس القوة الـــــتي يشـــدد فيـــها أفلوطين[2]، ويلاحظ بروهييه أن حجة "الرجل الثالث" القديمة كامنـــــة في علـــم المفارقة الأفلاطوني المحدث[3]؛ وليس المبدأ ما هو مبدأ له، أو العكس بـــالعكس: لا يمكن للوجود الموضوع أن يكون مبدأه إلا ما ليس هو؛ مُوَلد الوجود ليس شيئاً مما يولده، وببساطة أكثر أيضاً - **إنه غير موجود**؛ ويقول أفلوطين بغرابة أشـــد[4]: إن الفكر الذي يجعل الكائنات المفكرة تفكر ليس هو نفسه مُفَكِر؛ ربما كان الله هـــذا الفكر البريء تماماً والمؤسِس جذرياً، هذا الفكر العاملي (opérative) المحض هــــو بالأحرى علة غير-مفكرة للفكر المعلول. لأن المصدر ذو المعنى لا معنى له بنفســه. وبالطريقة عينها نقول إن مصدر النور هو فعلاً "ناقل للضوء"، لكنه بنفسه ليـــس "منيراً"؛ إن مصدر النور مظلم؛ وأيضاً: إن ما يمنح القيمة لا قيمة له؛ وما يضـــع البداهة على أنها بديهية هو ظلام غير بديهي، لأن فعل البداهة هو لغز، لغز الهاجرة؛

---

(1) Enn., V, 2, 1: αὐτὸ οὐκ ὄν, γεννητὴς δὲ αὐτοῦ; V, 3, 14 : παρασχὼν ταῦτα [λόγος, νοῦς etc.], οὐκ αὐτὸς ὢν ταῦτα...

(2) BRÉHIER, art. Cit., p. 452, 459. Cf. P 443.

(3) *Enn.*, VI, 9, 6 : νόησις δὲ οὐ νοεῖ, ἀλλ'αἰτία τοῦ νοεῖν ἄλλῳ· τὸ δὲ αἴτιον οὐ ταὐτὸν τῷ αἰτιατῷ. Τὸ δὴ πάντων αἴτιον οὐδέν ἐστιν ἐκείνων. Cf. VI, 9, 3 : γεννητική, ἡ τοῦ ἑνὸς φύσις οὖσα τῶν πάντων οὐδέν ἐστιν αὐτῶν. VI, 7, 16 : οὔτε τὰ ὄντα οὔτε νοῦς ἐστιν, ἀλλὰ αἴτιον τούτων καὶ νοεῖσθαι... παρέχον.

وما يعطي الشكل لا شكل لـه τὸ μορφῶσαν ἄμορφον, ἀνείδεος... εἰδοποιεῖ [1].
ومصدر الجمال بالتالي ليس "جميلاً". إن من يعطي موقعاً لكل الباقي لا يملك بنفسه موقعاً ولا مكاناً. فإذا كان هناك للمطلق من "موقع"، فإنه سيكون نسبياً كما لو كان له وجود. 2 - **إن من يعطي يعطي ما ليس هو**... لأنه بالواقع لاشيء؛ وبالأحرى إن من يعطي يعطي ما لا يملك، لأن من لا يملك وجوداً لا يملك بالأحرى مُلكاً. وقول: إن من يعطي ليس ما يعطيه، يشتمل معناه على أن الواهب هو شيء ما مع أن هذا الشيء ما هو شيئاً آخر غير العطية؛ والحال، لا نقول شيئاً إذا قلنا إن الواهب ليس هو نفسه الهديّة، وإنه لا يقدم نفسه هبة (فقط بؤس المخلوق يستلزم التضحية هبة-من-الذات لأنه ليس ثمة ذات هنا ولا حتى واهب بحصر المعنى. إن غير الموجود-من لا يملك بالأحرى شيئاً، **الفعل** المحض دون ملك ولا وجود، بكلمة، ليس هبة-هدية (δῶρον) ولا بواهب (δοτήρ)، بل don-datio (δόσις) : إنه هبة محض، وهو كله هذه الهبة، ليس بمعنى إسم المفعول السلبي للشيء المعطى، donum أو res data، بل بصفته فعل عطاء. حتى **إيروس** Eros "**المأدبة**" "Banquet" ليس إلا فقيراً: فهو يملك، شأن سقراط، ملكاً ضئيلاً. لكنه مع ذلك مُلك، وهو، شأن سقراط، مالك صغير جداً، شيطان من الطبقة الوسطى، وسيط بين المُلك والحرمان، تدفعه طبيعته نصف-الميسورة، ونصف-المعوزة إلى أن يكمل نفسه. ليست الهبة المحض، منزوعة الملكية فقط، شأن ابن **اليسر والفاقة**، سليل الاكتفاء واللااكتفاء، بل منزوعة - الجوهرية: إنها فقيرة الى ما لانهاية وفارغة الى ما لانهاية وهي حتى من دون هذا الجوهري الأدنى الذي هو نواة ذاتية **الذات** **égoïté**. أليست هذه الوضعية الخالصة من أي استيداع، والخالصة من كل إيداع، أليست هي **الجود** المطلق؟ قلنا إن من يعطي لا يملك ما يعطيه؛ أو كما يقول أفلوطين إن ما يُعطى ليس من الضرورة أن يُملك (οὐκ ἀνάγκη, ὅ τις δίδωσι, τοῦτο ἔχειν) [2]. وتتساءل خامس التاسوعات (Ennéade) بذهول: ما لا يملكه، كيف قام بانتاجه؟ ἀλλ' ἃ μὴ ἔχει πῶς παρέσχεν;... πῶς οὖν ποιεῖ ἃ μὴ ἔχει [3]، في

---

(1) VI 7, 17. Sur l'évidence: RENOUVIER, Psychologie rationnelle, II, 30.

(2) Enn., VI, 7, 17. Cf. VI, 9, 1.

(3) Enn., V, 3, 15.

التجريب لا يمكن أن نعطي إلا ما نملك، شأن النســـاء الجميــلات وأصحــاب الحوانيت: لأن قانون الحفظ التجاري هنا على الأرض هو العدالة الأعلى، وهـــو يعاقب كل الشيكات التي لا رصيد لها بصفتها تتناقض مع نية العطاء. والحال، فإن العبقري الميتافيزيقي، لا يعطي خياليا، بل فعليا ما لا يملكه ويخلقه بإعطائه: إنـــه لا يخلق في البدء لكي يعطي من ثم ما صنع -، لأن حركة العطاء نفســـها هـــي في الوقت نفسه، مانحة للهبة وخالق لها؛ في الوقت نفسه خلق للخليقة ووهب لها؛ إنه في فيض الجود نفسه، **يهدي ويضع**. إفهموا، إذا كان بإمكانكم، معجـــزة الهبـــة الخلاقة هذه! فلو كان الخلق قد سبق الهبة في الزمان، فإننا سنعود في النهايـــة الى فلسفة الملك وإلى تجارة الجملة؛ ولو كان الواهب يعطي قبل أن يخلق، فإنـــه لـــن يعطي إلا هباء أو بالأحرى لن يكون لديه ما يعطيه؛ وسيكون بالتالي، محتالا. قلنـا، إن الله يخلق نفسه مع خلقه؛ والأمر عينه (لأن قانون الجرف ينفخ الملـــك الى مـــا لانهاية)، ففعل العطاء يخلق الهبة باعطائها، مثلما تتعلم الخليقة في أيامها الكبرى، أن تريد بإرادتها الإرادة، وبعلية دائرية. ليست هذه الهبة الخلاقة صفر ملك ولا ملـــك عدالة توزيعية، ولا عدما ولا شيئا، إنها حرفيا **نعمة موهوبـــة** grâce gratifiante، ويكتب "برنانوس": "أية روعة أن يكون بالإمكان إعطاء ما لا نملك!..." مـــا لا نملك، لا بل ما لانكون: وبالواقع فإن من يعطي السلام يشبه المحب: فهو لا يضفي خيرا ولا خاصيته كان يملكها آنفا؛ إن بادرة العطاء نفسها والحضـــور الـــذي لا يلمس وحركة العطف المجانية هي التي تعيد السلام للآخر وتحوله إلى **أنت** أخـــوي. ليس السلام، مثل الحال، شيئا يمر من واحد لآخر بالنقل بفضل مبـــدأ الأوعيـــة المتصلة، لكنه، مثل الفتنة، عملية. والكريم، بدوره، هو واهب دما لا يملكه هـــو نفسه، لأنه لا يملك ملكا، وطريقة في التعبير ولا وجودا، وهو عمليـــة بالكـــامل، ووضعية بالكامل وعطاء بالكامل، إذ إن مجرد حضوره هو معجزة بث الحياة هذه، هذه الوفرة التي لا تنضب من البركة والخير. يقول كيركيغارد: "إن الخير الأسمـــى كله هو في التواصل[1]..." وما يصبح في العملية الملوثة، المثقلة دائما بأدنى وجـــود، هو أيضا أكثر صحة في العملية الميتافيزيقية المحض: العملية من دون نتاج معمـــول

(1) Christliche Reden (1848), II: Stimmungen im Leidenskampt, 3 ("Das Erfreuliche darin; je amer du wirst, desto reicher kannst du andre machen").

به، الوضعية من دون شيء موضوع، الفعل من دون وجود ولا خلفية، - هذه هي الهبة الحقيقية الإعجازية التي تخلق هداياها شيئاً فشيئاً بمقدار ما تعطيها، مصدر وزاوية وفرة كل القيم، ليس لديها قيمة بذاتها (وإلا كان علينا أن نتساءل من أين تتأتى قيمتها). لكنها بالأحرى، مثل الحب، المالايقيم ولا يقدر المحضين، المبالغ اللامتناهي، الانبثاق اللاعقلاني والنظري للقيم الأبعد من كل القيم المقوّمة. من هو الخبير الذي سيقيّم الثمن الأبعد من أغلى كل الأثمان للمبادرة الفريدة والمطلقة؟ الفعل المطلق يعطي ما لا يملكه الآخر ولا هو بنفسه وما ليسا عليه، ذلك لأنه لا يوجد في الأصل لا الآخر ولا الذات، ni allos ni autos، بل وحده ما-لا-أدري-ما هو الوضعية المبادرة. يمكن للإنسان أن يعطي أكثر مما يملك، وفي هذه الحالة، يعطي وجوده؛ أن يضحي، بأبعد من الملك، بهذيته الخاصة: هكذا، في الحب، يتخلى العاشق بثمن باهظ عن كل نفسه، ويجتاز لحظة الألم. لكن في مجال النعمة ليس هناك من شخص ليتخلى عن أي شيء ننزعه عنه. تقدر الوضعية النسبية، الواردة من المخلوق، أن "تعطي" بمعنى، أن تغني الآخر باقتطاع جزئي من جوهرها الخاص: وحدها الوضعية المطلقة قادرة على أن تعطي واقعة وجود آخر بشكل عام. أي بمعنى أن تضع الوجود. من الهبة الى الخلق هناك إذاً كل المسافة التي تفصل بين الفعل الملوث والفعل المحض أو الخلاق. 3- أن من يعطي لا يملك ما يعطيه، والعكس **إن من يعطي لا يزال لديه ما أعطاه!** هذا هو الحساب المفارق، المتناقض وحرفياً "غير العادل" للإحسان؛ هذا هو "جنون الله" الحقيقي. لا يغالي الفيض الأفلوطيني بكل تشبيهاته ليس لكي يشرح، بل لكي يصف هذه الروعة الجديدة: أن **الواحد** يستطيع أن ينبثق وأن يُقيم في آن معاً، **προιέναι** و **μένειν** ، أن يغترب في مخلوقاته وأن يبقى مع ذلك هو نفسه، وأخيراً أن لا ينقص ولا أن يفقر بمنحه ذاته، هو المقدرة المولّدة التي لا تنقص بالتوالد، **(δύναμις γεννῶσα τὰ ὄντα, μένουσα ἐν ἑαυτῇ καὶ οὐκ ἐλαττουμένη)** [1]. علاوة على أن، المجاز في هذه الشؤون، هو التفسير، لأنه لا يقوم إلا بالإيحاء باللغز، الذي يتحدى تبادليات العدالة التوزيعية ومبدأ الاحتفاظ. أليس إشعاع النور، الموجود في آن معاً في المصدر

(1) *Enn.*, VI, 9, 5. Cf. III, 8, 8 : ... οὐκ ἠλαττώται.. En outre : III, 8, 10; V, 4, 2 (ἐφ' ἑαυτοῦ μένον δίδωσι); V, 5, 5 (μένει τὸ αὐτό, ἐξ' αὐτοῦ γίνεται ἕτερα); V, 3, 12; I, 6, 7.

المضيء وفي الغرفة المضاءة، كالصورة الفيزيائية لهذه المفارقة؟ يكتب ميشيله[1] Michelet "كلما زاد العطاء، كلما زاد الاحتفاظ". أليس هذا بالضبط ما كانت تقوله جولييت لروميو؟

My bounty is as boundless as the sea,
My love as deep; the more I give to thee,
The more I have, for both are infinite[2]

لو كان من يعطي يعطي شيئاً من ملكه، فستكون هذه المساهمة سحب من جوهره الوجودي، وستصير حسماً من كمية محددة. إن من يعطي، في التجريب، شيئاً ما لا يعود يملك ما يعطيه، بمرور الهبة من مُلك إلى آخر كما لو كان تحويل من حساب الى حساب؛ وسيجعل "هارباغون" Harpagon من نفسه أضحوكة بادعائه، على الرغم من مبدأ الثالث-المرفوع، أنه يتنازل ويمسك، يعطي ويحتفظ في آن معاً. لأن المعجزات لا تسري في الأعمال. والأمر عينه إن مخلوقاً يقدم وجوده هبة، فإنه يضطلع، مع إعدامه الخاص، بمأساة التضحية البطولية: ذلك أن مأساة الواحد هي التي تصنع دائماً سعادة الآخر، مثلما إفقار الأول هو فدية إغناء الآخر أو تعويضه. وبالعكس يمكن في مقام الـ-ما-لا-أعرف-ما - هو، وهو مقام النعمة والطبيعة الأعلى، يمكن في آن معاً العطاء والاغتناء كما يمكن في آن معاً أن يكون وأن يكون قد كان، مثلما يمكن، بكلية الحضور تخطي التبادلية الفضائية لـ-هنا-أو-هناك. ولا يعود لزوال الحيازة، ولنـزع الملكية والتنازل لا يعود لها أي معنى هنا. أليست الوضعية المطلقة أعلى من القوانين، والفيتو وكل المقولات؟ فالغني بالملكية أو بالتوفير يحرم نفسه ويفقر بمقدار هِباته. لكن ذاك الذي كان **الفعل** من دون **وجود** ولا **ملك** هو، بلغة التملك، فقيراً الى ما لانهاية، ذاك هذا بالذات غني بشكل لا ينفذ. إن انفتاح التواصل، بكسره سياج الإنتماءات فيه، لا يعود يعرف قلق الاكتساب ولا غيرة الاحتفاظ. فكيف يكون بخيلاً بـ "ملكه"، بينما بائنته هي حركة الجود نفسها، كنـز روحاني يتجدد بأعجوبة بمقدار ما يُبتز، ويتزايد

(1) Le Peuple.

(2) Acte II, sc. 2.

بشكل سحري؛ بالسرقات وبالسحوبات عينها؟ منذ اللحظة التي يمكن فيها إعطاء ما لا يُملك، يمكن حقاً الحصول على القدر نفسه وحتى أكثر بعد العطاء من قبله! إن إنجاز المعجزة الأولى يجعل المعجزة الثانية سهلة وممكنة... هاك هي الوضعية المحض لكل إسم مفعول سلبي، لأنها بالضرورة أبعد من مبدأ الهوية. فكل ضياع هو منفعة لها، وكل نقصان هو زيادة لها، أليس هذا هو بالذات تعريف الخلق؟

٧ - سابق وجود ومبادرة

الله لا يُوجَد، لكنه يفعل، وهو بالتالي ليس لاشيء، بل **شبيهاً باللاشيء**. هذا **الهو–نفسه في نفسه**، ما يسعى اللاهوت السلبي إليه بصفته **فاعلاً مطلقاً** أبعد من كل النعوت، إنه بالأحرى **فعل** مطلق أبعد من كل حال. أو بالأحرى: إن الفاعل المحض هو فعل، وليس اسماً مرفوعاً؛ ولأنه نقيض الشيء، فإننا ندعوه **Nescioquid**. وهذا بمعنى: أن الأطروحة المطلقة هي كلها عملية بالكامل ووضع أبعد من كل عطف نعتي. ولكن وكما حصل لديكارت Descartes نفسه أن سقط من الكوجيتو Cogito (أفكر) إلى الـ Res Cogitans (الشيء المفكر)، كذلك تتخلى الجواهرانية الميتافيزيقية، بطيب خاطر، عن حركة **الرفع نازعة التحقق** الصعبة الى حركة الانجذاب المشيئة السهلة وتكرس نفسها للنعوت والحال وإبدالات الخلق المحض... ثمة فولفينية أبدية تهلل لتحلل التفكير الى فاعل مفكر أو فاعل "التفكير": والحال، إن الروح هي تفكير كلها، وليست حتى تفكير Cogitatio بل (أفكر) Cogito؛ ليس التفكير بنعت للروح متعلق بما يناظرها، الامتداد، نعت الـ res extensa (الشيء الممتد): حتى ثنائية الجواهر تؤكد أن الكلام لم يعد يتم حول أطروحة الـ **prévention** بمعنى المتوحد والبدئي بالمطلق، بل حول النعوت. كذلك ليس الخلق وظيفة ثانوية لله، بل إن الله كله وبكامله خلق لا غير. وتجعل الميتافيزيقا–المزيفة، تلك التي ليست سوى تضخماً للتجريب، تجعل الخلق تجريبياً بإغراقه في الوجود المسبق الأبدي؛ كما أنها تواري الإعدام المميت بإغراقه في تواصل البرزخ. وليس "نسب الآلهة" théogonie، لهزيود Hésiode، بالرغم من عنوانه، بسفر تكوين الإلهي "بالمعنى البوهمي"، بل هو سفر تكوين إلهي أو بشكل أفضل نظرية في نشأة الكون، إنطلاقاً من "rudis

"indigestaque moles" إلى الجمع الأولي، ومن التنافر الأصلي حتى الطرب والسمفونية... أيصير الخواء الله، طاولة أو حوضاً؟ وعجينة الألوان التي تلطخ لوح الأصول أتصير تمثالاً للعذراء، أو مشهداً طبيعياً أو مشهداً داخلياً هولندياً؟ هذه السلالة هي تطور ماثل ومتدرج إنطلاقاً من اللامتشكل، أو السديم البدائي، سديم هو أقل عدماً منه "فاغر"؛ وتسم أجيال هذا النسل المتتالية، منذ الخواء وحتى الموجودات المضيئة مروراً بإيراب Erèbe والليل، تسم بنفس القدر من التقدم في سيرورة التحديد المتواصل والشخصنة: **خواء** أقدم من **الأرض**، **الأرض** أقدم من **المحيط**، **والمحيط** أقدم من **السماء**. وآلهة الورع الشعبي الهيلليني لم تصنع العالم لأنها جزء منه: فهي ليست إلا عنصره الأكثر تميزاً وحذلقة وتتدخل فيه من وقت لآخر بأعجوبة صغيرة، مسخ جميل، تحول مسلٍ، جارح أو سخيف؛ هذه الحورية تتحول الى نافورة، هذا الإله يصير غيمة ذهبية، إنها اختلالات شعرية أو إعادة تنظيم غريبة للكون، ولكنها ليست أبداً خلقاً إعجازياً؛ **والموارا** Moïra أو **القدر** الذي يُضمنه "هوميروس"، لهذه الأعاجيب الجزئية لا يزال إمتلاء متكتلاً دون أي تموئة بالعدم. ومن يعمل في أساطير التكوين المتفننة هذه، ليس حدس فعلية جذرية بل هو بالأحرى مخيلة منهمكة بالتركيب والتجميع والنقل على أساس وجود مسبق. يجد "العقل" "Noûs" لدى "انكساغوراس" خليط البذور اللامتناهي قائم آنفاً[1]، وقد سبق عملية تشكله، وليس "الإنتاج" سوى انفصال الصفات المختلطة: تنظيم للفوضى. ليس "Mundus"، في نظريات نشوء الكون القديمة، إلا ترتيباً للأشياء قابلاً للاختلال وإعادة ترتيب دائم لها، شيئاً ما مثل تسريحة المرأة أو جديلتها، هذه الهندسة المؤقتة التي يسرحها المشط ويفكها ويعيدها مداورة: تنسج تحولية صور العالم على أبدية **المبادئ** (ἀρχαί) ، سواء سُميت هذه المبادئ الحب والكره، كما عند أمبيدقلس، أو النار كما عند هيراقليطس[2]. إن ما يصح عن نهاية العالم يصح أيضاً عن بدايته. فخلق العالم في **طيماوس Timée** هو بالأحرى ترتيب (διακοσμήσις) أكثر منه خلقاً، و"الصانع" (ποιητής) هو بالأحرى مُنظم أكثر منه منتجاً؛ إن الفنان الأعلى لا يخلق، بل يقلد: فهو ينسخ نموذجاً موجوداً من قبل، في

(1) ʽΟμοῦ πάντα χρήματα ἦν.

(2) HÉRACLITE, fr. 30; EMPÉDOCLE, fr. 16 (DIELS).

الحالة هنا المثل **les Idées**، الآنفة الوجود أبدياً. تستتبع تأملية أفلاطون ومثاليته الدوغمائية[1] أن لا تكون الماهيات بأي حال من الأحوال صنيع الخالق. ومثولية الماهية quidditatif، عند "ليبنتز" خاصة، هي المثل التام لنسق يشرع، لرغبته في البقاء وفياً للتاريخانية المسيحية، يشرع على الأخص بمتابعة البرزخ بوجود سابق أدنى من الولادة، والبقاء بعد الموت والتكون المسبق خلال الديمومة: ويلقى صنع المعجزات نفسه، سواء أكان خلقاً أم إعداماً، يلقى نفسه متوارياً في قضايا الزيادة والنقصان، في التطورات والتقهقرات، في النمو والتغليف، التي هي تحولات بسيطة. إن "معطى" مزدوجاً، "ثابتة" مزدوجة يحيدان "Potius-quam" الأصلي: فثابتة الحقائق الضرورية الميتافيزيقية تمنع الله من إرادة المستحيل، وثابتة الخير الأخلاقي تستتبع أفضلية الوجود. تقي الثانوية المنطقية-الغائية غير المتصدعة هذه تقي من كل سؤال مقلق بإفراط بخصوص الوضعية البدئية. - ينجز الخلق معجزة لا تجد صيغتها في "ex alio aliud" بل في "ex nihilo aliquid". والحال، ليس هناك إلا سفر **التكوين** من يبدأ من البدء - لأنه γένεσις بمعنى "Berechith" منه بالأحرى بمعنى سيرورة. وحيث يعبر **نسب الآلهة** بالذروة: في البدء كان **الخواء** ومن ثم **الأرض**[2]، πρώτιστα Χάος γένετο, αὐτὰρ ἔπειτα Γαῖα... تبعاً للتوالي السلالي البسيط، فإن **سفر التكوين** يضع إعجازياً: في البدء صنع الله السماء والأرض، ἐν ἀρχῇ ἐποίησεν ὁ θεὸς τὸν οὐρανὸν καὶ τὴν γῆν. المجد لكل خالق: فالخالق بامتياز هو إذن أول من يحتفى به. الله وحده هو الله، وGaïa هو خليقته المضاف المباشر إليه، والـ "factura" مفعوله. "In principio creavit Deus caelum et terram". هذه الآية الأولى هي البدء initium أول الأول، وصيغة الوضعية الجذرية تماماً. وما هو آية أولى عند هزيود، هو آية ثانية في الإنجيل "Terra autem erat inanis et vacua. Tenebrae erant super faciem abyssi. Spiritus Dei ferebatur super aquas". فالاختلاط هو الثاني وليس الأول. و لم يعد هذا الضباب الأصلي الذي يمتزج فيه الهواء والأرض ومياه المحيطات، لم يعد غير سديم الأشكال اللاحقة غير المتميز. وإذا كان **خواء هزيود** هنا - آنفاً أبدياً، فإن لجج

---

(1) Rép., 596 c.

(2) Vers 116. Cf. 115: ἐξ ἀρχῆς...

الأنجيل (σκότος ἐπάνω τῆς ἀβύσσου) مخلوق أو ذرية المبـــادرة العبقريـــة. تتضمـــن أسبوعية المعجزات التي تكوّن الأسبوع الكوني الكبير تتضمن بنفسها خواء ســبعة "ليكن" "fiat" متقطعة وآنية وفاعلة لمرة وحيدة تفصل فيما بينها عتبات الـــبرزخ: فالأفعال الماضية للحظـــة creavit, dixit, divisit, appellavit, fecit, posuit, benedixit [1]... وهي مراسيم مباغتة وأحداث مفاجئة مشوقة، تتناوب كذلك مع مجريات التواصل المعتادة؛ لكن نقص الشيء الموضوع يستتبع دائمـــاً أســبقية أو مبادرة الوضعية، مثلما تفترض الحالة عموماً المرســوم "Qui vivit in aeternum "creavit omnia simul"[2] : "Omnia simul: ألا يتم العبور مـــن اللاشـــيء الى الكل، كونه تحولاً لامتناهياً، ألا يتم في انقطاع اللحظة الساطع؟

ومع ذلك، كان أفلاطون قد حدس بالمسافة التي تفصل بين التشكل والفعـل πλάττειν و ποιεῖν ، بين الخلق وصنع المعجزات. وتسمي "السفســطائي"[3] و"المأدبة" le Banquet [4] خلاقة (ποιητική) كل علة تجلب الوجـــود إلى الـــلا-وجود... أليس فعل-الوجود هو المُعرّف هنا؟ فعل الوجود، هاك ما يختلف كليـــاً عن التقليد أو التأمل! لأنه إذا كان التقليد (μίμησις) صنع صـــور(εἰδώλων ποίησις)، شاعرية خيالية، فإن الشاعرية الحقيقية "le Sophiste" هو صنع النماذج نفســـها (αὐτῶν). وإليها نضيف: وبخصوص ما-هو-نفسه-بنفسه بأنه، بأي حـــال مـــن الأحوال، ليس الخليقة، حتى ولو كانت نموذجاً، لكنه الخالق والشاعر الأسمى. تلك هي مع ذلك خِدع الفلسفة الثانية، تلك هي حاجة الامتـــلاء والاتصـــال ضـــد الميتافيزيقية التي يميل القدوم الى الوجود، γένεσις εἰς οὐσίαν ، بشـــكل لا يمكـــن مقاومته إلى أن يعود فيصير ماهياً quidditatif. يكفي أن يُمنّح خفيـــة الوجـــود-الأقل تحت مظاهر اللا-وجود، أو، كما قد يقول شيلنغ، العدم (μὴ ὄν) بديلاً عـن اللاشيء (οὐκ ὄν) . ... وسيكون كل شيء قد أُنجز سلفاً: ولا يعود مطلوبـــاً إلا

(1) Ἐποίησεν, εἶπεν, διεχώρισεν, ἐκάλεσεν, ἔθετο...

(2) Eccli., XVIII, 1.

(3) *Sophiste*, 219 *b* : ...δύναμις ἥτις ἂν αἰτία γίγνηται τοῖς μὴ πρότερον οὖσιν ὕστερον γίγνεσθαι. 265 *b* : πᾶν ὅπερ ἂν μὴ πρότερόν τις ὂν ὕστερον εἰς οὐσίαν ἄγῃ, τὸν μὲν ἄγοντα ποιεῖν, τὸ δὲ ἀγόμενον ποιεῖσθαί πού φαμεν.

(4) *Banquet*, 205 *b* : ἡ γάρ τοι ἐκ τοῦ μὴ ὄντος εἰς τὸ ὂν ἰόντι ὁτῳοῦν αἰτία πᾶσά ἐστι ποίησις.

أن ننفخ، نقمش، ونملأ هذا الوجود-الأقل لكي نحصل، مثـــل vichnou **فيشـــنو** الخرافة، على مملكات الأرض والبحر. لأن الوجود أخيراً، سواء أكـــان الأدنى أو الأقصى، هو من **الوجود**، ولن يعود هناك معجزة منذ اللحظة التي يكـــون فيـــها الوجود معطى. وتقع نظرية الخلق-المزيف هنا بنفس المصادرة على المطلوب الـــتي يقع فيها التوالد-المزيف التي تعطي لنفسها مقدماً وخلسة وعلى شكل مصغر، البنية التي ستولد، ومن ثم تندهش لعثورها في النهاية على ما كانت قد افترضته خلســـة عند الانطلاق... ومهما حاولنا أن نتظاهر بالقضاء على الوجـــود المســـبق، أو أن نجعله على الأقل مجرداً، وأن نحول تفكيرنا عنه، - فإن الوجود موجود دائماً آنفـــاً، ويسبق وجوده نفسه، وجود متواصل بالضرورة مع الوجود، أي قبل-وجـــود أو "præesse" إلى ما لانهاية؛ قبل الوجود هناك دائماً وجود، وهكذا الى الأبد، حيث لا يستتبع الوجود فكرة بدايته الخاصة بأكثر من علة توقفه الخـــاص. ولا تشـــكل استحالة تكريم الخلق حقاً إلا شيئاً واحداً مع استحالة تفكر اللاشيء، أي مع عـــدم إمكانية التفكير بشكل عام: لأن تفكر اللاشيء، هو عدم تفكـــير في شـــيء، أو بشكل أفضل عدم تفكير؛ إلا إذا، للحصول على شيء ما للتفكير (لأن كل فكـــرة هي تفكر مضمون مفكر به)؛ إلا إذا استبدلنا العدم nihil، وهو اللاشيء المجـــرد والبسيط بـــ - Nihilum وهو اللاشيء Rien، شيء قليل جداً من دون شـــك، لكنه في النهاية شيء ما. هذا هو إذاً إحراج التناقضات الذي نُحبس فيـــه مـــا أن نعترف بالوجود على أنه نمط الـــ "ثمة" Il- y- a الوحيد: إما أن اللاشيء ليس شيئاً فيتناقض مع نفسه، كون استعمال مبدأ الهوية هنا هو عبثي؛ وأما أنا اللاشيء هـــو **اللاشيء** Rien، أقنوم سلبي، أي: أن اللاشيء هو شيء ما[1]، لكنـــه، مثـــل لا-وجود **"السفسطائي"**، شيء ما مغاير للوجود. وفي كل حال، ليس ثمة لا-وجـــود و، الفراغ وقد امتلأ مع مادة الوجود الدقيقة، مع أنها تقريباً نادراً، يصير الخلق مجرد تشكل، مونتاجاً أو تجميعاً للعناصر السابقة - ..."Posito semel" : كان ليبنـــتز، لنتذكر ذلك، بحاجة إلى أن يطرح هذا الأدنى الذي بواسطته يدور التواصل بمفرده؛ ويعطي ليبنتز Leibniz، لنفسه، مثل فيشنو، دفعة واحدة فدادين الأرض الثلاثـــة، ويفترض أن إشكال الأصل الجذري محلول. وكما أن أول قبول غـــير محســـوس

---

(1) διακυβερνᾶν : Timée, 28 c.

بالإغراء هو وسيلة ميكيافيلية للمستقيل لجعل استقالاته اللاحقة لا مفـــر منـــها، كذلك فإن أول قبول بالشيء الموضوع يمر عموما من دون أن تتم ملاحظته ويجعل الصناعات الكونية اللاحقة سهلة. ومع ذلك يبقى فينا قلق البداية كتأنيب ضمـــير على هذا الإغراء: يطرح الإنسان ويعيد باستمرار طرح سؤال يمكن القول إنه تبعـا لإرادته يبقى معلقا دون إجابة، أو أنه بالواقع مجاوب عليه أبديا؛ بالطبع، لم يصنـع الإنسان لكي يحل مسألة الـــ quod، وكل اقتصاده لم يوجد إلا للتواصل، ومـــع ذلك لا يمكن للوعي المفكر أن يمتنع من دون كلل عن طرح سؤال لا يملك وسائل الإجابة عليه. هذا السؤال الذي يفترض تواصل الموجود حله بالكـــامل في كـــل لحظة، هذا التساؤل اللامتناهي الذي تغلقه، في التعريف بالذات، ومن دون توقف، إجابة حتى ولو كانت جاهزة ومعطاة في اللحظة نفسها التي يظهر فيها. أليس هـذا قمة ما يتعذر حله؟ كما يعبر عن ذلك الشكل القاطع للـــ Quod بالتعارض مـــع تساؤل ظرفي ينتظر دائما الإجابة، إن واقعة التواصل نفسها عموما ومجانية فعليتـــه الزائدة هي التي تنصب بيننا وبين البداية حائط اللغز الصلب.

هل يتقدم الـــ – ما – هو – مفروغ – منه الـــ – **بماذا يفيد** والـــ -**لماذا** – **شيء – ما**؟ أم على العكس أن الـــ- **لماذا – شيء – ما** هو الذي يسبق **ما–هو– مفروغ – منه**؟ هل الـــ – **ما – هو – آنفا – هنا** كان **آنفا** "كائنا" عندما ابتـدأ الخالق (الذي لم يعد بأكثر من حاكم βούλησις [1] أو وصي) بتنظيم الكون؟ أو أن الـــ- ما–هو "**آنفا**" هنا، ليس – هنا **إلا منذ** أن وضعه الفعل البدئي؟ وتنشـــأ مزايدة لا تنتهي بين حالة سابق الوجود والفعل المبادر، تشبه كليا التكاثر **auction** الذي يجعل الواحد يزاحم الآخر على ماهية التفكير وواقع هذه الماهيـــة، الشـــيء الموضوع والحرية، طبيعة المشيئة ومشيئة هذه الطبيعة. لمن ستكون الكلمة النهائية في هذا التكرار اللانهائي، لـــ – **ما قبل وجود الـــ res posita** أو **لمبـــادرة positio ponens**؟ ويعتبر التكرار نفسه جوابا كافيا لهذا السؤال، لأنه حركة لامتناهيـــة، وهو بالتالي عملية وفعل: وربما كان بصفته إعادة – وضع، الشكل الصاعد لحركة الوضع النظرية... حتى أن **الإفتراض** نفسه الذي "**يفترض**" وجودا ســـابقا علـــى الوضعية، الذي يتناوب معه كما يتناوب المزدوج مع المفرد، يشهد آنفا على هـــذا

(1) Enn., VI, 8, 21.

النشاط الوضعي! في الواقع، لا يعود ما قبل الوجود يتنافس مع الأسبقية بأكثر مما تتنافس الفرضية مع الأطروحة: لأن **الحالة** l'État **والفعل** l'Acte، وواحدهما هي أسيفية-وجود ساكنة، والآخر **فعل** جذري، لا يتصارعان بأسلحة متساوية، ولا يقيمان فيما بينهما علاقات متبادلة وقابلة للانعكاس. إن ما قبل-الوجود تفترضه، في أحسن الأحوال، الوضعية، إلا أن وظيفة الوضعية نفسها هي أن تضع الحالة، بما في ذلك الوجود وما قبل-الوجود: لأن الوضعية تضع ما تفترضه بالذات! يخلق تدفق علة-ذاته: من سيكون بالذات، بعد فوات الأوان وفي المستقبل السابق، قد شكل طبيعته وإمكانيته الخاصة! يكتفي ما يسبق الوجود بأن يكون "آنفاً هنا"، بصفة إمكان سلبي، ساكن، و**quiescent**: وكل عمله كسابق الوجود هو أن يكون سابق الوجود قبلياً (وليس هذا بمتعب ولا بعبقري)، أن يكون كموناً خامداً (وهذا ما يستبعد كل عملية)، وببساطة أكبر أيضاً، أن يكون وجوداً من دون فعل. وبالعكس فإن عملية المبادرة هي أن تأتي وأن تؤسس: أن تأتي كنعمة وأن تؤسس كسحر. سابق الوجود يسبق وجوده على المبادرة، ولكن في النهاية، ومثلما في كل آخر تحليل أو في كل أول مصافة، تسبق المبادرة سابق الوجود، بما في ذلك ذاك الذي بعد فوات الأوان، كان سابقاً عليها. لكنه لم يكن قبل الواقعة أو في لحظتها موجوداً أبداً: إذا كانت **الأسبقية** هي **المبادرة** بصفتها سابقة نفسها في الوجود، إذا كانت الأسبقية أكثر إلى ما لانهاية من مجرد صدارة أو تقدم، فعلينا الاعتراف أن المبادرة تسبق الأسبقية نفسها وتسبق نفسها بصفتها مبادرة، وتسبق "طبيعتـ"-(ـها) الخاصة السابقة؛ Hypokeïmenon الأسبقية هو في آن معاً سابق الوجود ومتحامل، بهذه الصفة، فإنه حتى ليس سابق الوجود، بل لاحق-الوجود. لا شيء يمكنه أن يسبق المبادرة ما لم تكن المبادرة قد استدركته، هي التي ليست مجرد سابق تاريخي، ولا مجرد سلف عِلّي، لكنها أوّلية جذرية تسبق ما قبل السابق. وأياً كان افتراضنا حول الوضعية الأولية فإن الوضعية الأولية تتقدم دائماً وكانت آنفاً قد سبقت كل افتراض: لأن الوضعية المجردة والبسيطة، الوحيدة الحاسمة، الوحيدة المقررة، ليست فقط وضعية لكل موضوع-لاحق post-posé، بل وضعية لتخميناتها الخاصة ولافتراضاتها! أليست هي بهذا المعنى لا-افتراضية، أو بشكل أفضل النظرية المحض؟ ألا يلتقي هكذا الموضوع -لاحقاً – وما-قبل-

الموضوع عند مستوى "الفرضية"، الذي هو أيضا مستوى الثانويـــة الوجوديـــة، **réité** الشرطي. لا يوجد، في العمق، إلا افتراض وحيد غير مشروط إطلاقا وليـس تخمينا شكليا، بل مقرر وجذري ونظري: هذا الافتراض، الذي هو **ليكـــن**، هـــو الاسبقية المبادرة، بعبارة أخرى وباختصار الوضعية الواضعة! يمكـــن الله، إلى مـــا لانهاية، أن يقدر وأن يريد المشيئة، ويختلف بذلك عن الإنسان الذي **يريد حقـــا**، وبتذبذب أفلاطوني، لكنه لا **يجرؤ**، أي بمعنى لا يقدر ولا يريد المشيئة. الذي يريـد حقا لا يشاء. من يريد المشيئة يريد ببساطة. ومع ذلك، يتردد أفلوطـــين Plotin، الذي يرى أن الله بكامله هو Lequier[1]، يتردد أن يقبل أنه يمكن لهـذه الإرادة أن تريد شيئا آخر غير ما هي عليه: وفي نهاية الأمر يتراجع إذا أمام المبالغـــة المســببة للدوار. بالنسبة إلى هذا الأبعد – دائما، إلى **سيد الوجود وما قبل – الوجود** هذا، ليـــس الوجـــود ومـــاقبل – الوجـــود إلا مـــــن الموضـــوع، أي مـــن الـــ – ما – دون: أبعد من الماضي – السلبي للتواصل فإننا نرجع دائما الى ما –لا – أعرف – ما – هو الذي، كما نشاء، أكثر–من–ماض أو حـــاضر أبديـــا، أول أو أخير، والذي هو من مقام الفعل؛ لأن الفعل هو البداية والنهاية، ألف وياء الكل... فكيف لا يكون أسرع، بما لانهاية، من كل تفكير متأخر قادر على تفكر تواصـــل الوضع الوحيد واللاحق دائما على بادرة – وميض المبادرة؟ تعلل الدوغمائيـــة أن الوجود يفعل لأنه موجود، وأن الأفضلية – في – ذاتها تجذب التفضيل: وبـــالعكس نحن نقول، عاكسين الـــ – **لأن**، أن التفضيل السابق يؤسس وحـــده الأفضليـــة. هكذا كان باسكال يتكلم عندما يشي بثانويـــة الحجـــج الاســـتعادية والحوافـــز والمرافعات التبريرية؛ وهكذا كان Lequier لوكييه يفكر عندما يحاول أن يتصـــور استبدادية حرية مبادرة تماما. أيا يكن الأمر، يدخل الفضول الحاد للغز المبـــادر في مشادة لا تنتهي مع الميل المتولد دائما بالتمدد على أريكة الوجود السابق. "Posito semel..."، بلا مبالاة يطلق فيلسوف البرزخ: ويتجاوز الوعي تبعا لتشديده علـــى الـــ **Semel** (المرة الأولى) أو على الـــ **Posito** يتجاوز هلع الحرية ويعترض علـــى أن بداهة ما–هو–مفروغ–منه هي أصيلة في ذاتها، أو أنه يفترض ويضمـــــر مـــرة واحدة وإلى الأبد المفعول فيه المطلق لـــ–ما قبل الوجود: مسألة حلت نهائيـــا؛ ولا

---

(1) La recherche d'une première vérité, 3° Partie.

تطرح المسألة بعد ذلك. إن الوهن السري للمجهود الميتافيزيقي هو المسؤول عـــن هذا الوضع بين مزدوجين؛ ومكان الـــ "fiat" "**ليكن**" لا يعود هناك سوى "نقرة" أو بند مجاملة. على وعي ما وراء المنطق أن يبذل جهدا لايني يتجدد ليتقدم علـــى سابق الوجود الذي لا يقهر والذي يعيد تشكل ذاته قبل كل قرار، ليسبق جوهريـة مبادرة متحاملة هي أيضا وليسبق أخيرا نفسه بهدف أسبقية-قصوى تلمح فيمـــا-وراء القبلي. ويفهم الآن أنه إذا أراد أن يقول لا لسطوع أسماء المفعول المتماســكة وأن يعثر على المصدر الذي هو لغز الأصل الجذري، يجب على الوعي أن يخضـــع نفسه لإصلاح داخلي عميق: ان الانعطاف الكلي الذي يتكلـــم عنـــه أفلاطـــون وأفلوطين والالتواء المضاد-للطبيعة الذي يعرف به برغسون سمة الحـــدس، تضـــم شروط هذا الاصلاح المقصود حرفيا هو التفكير بعكس مـــا هـــو معتـــاد: لأن "طبيعتـــ"- نا النفسيولوجية هي برزخ بكل كثافتها. يمكن طرح السؤال لمعرفة هل أن التواصل، بمقدار ما يجعلنا نغير، نعدل، نصير، ليس هو نفسه خلق متواصل، وإذا لم يكن البرزخ نفسه قرقرة لحظات إلى ما لانهاية... وقد لا يبقى أقل من أن تمـــدد الوجود المتراص في البرزخ وانسلال **الفعل** في لحظة مباغتة ومكثفة يناظران ميلـــين متعاكسين، الواحد تطور يفقد فيه ميزات وراثية والآخر anagénétique، الواحـــد بتخفيفه الـــ-ليكن le fiat الفاعل لمرة واحدة في **الجوهر** Esse المتكرر، يميـــل الى التدهور والتهتاء، ويميل الآخر الى الخلق. في الواقع، ان قانون المزاولـــة، وقـــانون الاقتصاد، والعرف، والتأقلم، والتقاليد، والمحاكاة التي تنظم تحقيب حياتنا، والذاكرة والتداعي الذي يشابه الجديد بالقديم، والتفكير نفسه الذي يتزاوج بسهولة فائقـــة إيقاعات تولد طبيعتنا، الكل وحتى تمركز الجسد فضائيا والحـــواس في الوجـــود الوسيط، الكل يتعاون لجعل الجهد الضروري للتطابق مع بؤرة الوضعيـــة، لجعلـــه عنيفا. وحيث تلزمنا عند ذروة الروح الرقة المرهفة ودقة الحدس، فإننا لا نملـــك إلا أشد الوسائل "فلولا" وعضو معرفة درن وفظ طبيعيا؛ حيث لا يوجد بحق شـــيء لتفكره، فإن الوعي الثقيل يسعى الى غنائم وفرص للثرثرة!

VI - يعمل الخالق خارج المقولات

التفلسف حول الخلق، التفلسف حول المطلق، هو إذا نفس الرهان وعينـــه: لأنه إذا كان المطلق هو اللانسبي "abs relationibus" فالخلق هو ما يعمـــل "abs praeexistentia" في صفر كل امتلاء وفراغ كل وجود سابق، في الجرس الروحاني **للاشيء** في حالته المحض. ستصير بالنسبة لكانط Kant، الذي يتحدى التفكير بـــأن يفكر خارج كل شكل قبلي، ستصير نظرية الخلق، المعبود الأكثر تمييزا للعقائديـــة المطلقة، كما ستصير بالنسبة لكونت Comte، أقل معبود للميتافيزيقا غير -الايجابية يمكن الدفاع عنه؛ وتشكل جذرية البدء موضوعا للتناقض لأنها تندرج خطأ ضـــد هذا الترابط المتعالي الذي هو المعرفة نفسها. ثمة، في الوجود، ما يتم التفكير بـــه إلى ما لانهاية. لكن فعل-الوجود لا يمكن أن يفكر فيه. فالوجود هو حقل الوضـــع-في علاقات: مادة لا تفنى يقضم العقل في سماكتها بسهولة ما تستطيع أسنان طفـــل أن تقضم من رغيف: إنه رغيف العلم العلائقي، هذا العلم الموعود بأيام جميلة بشـــرط أن يتحاشى إغراء نقطة-الصفر المعقمة والمسببة للشلل: لأن التأمل الفارغ لنقطـــة الوضع يذهل بلا ريب العقل العلائقي المتحرك. والحال، فإن الوضـــع أو فعـــل-الوجود ليس "علاقة" لأنه بالضبط خلق ما يرتبط به لكي يكون على علاقة معه... بالطبع، يمكن القول أيضا إن العلاقة الفكرية تسبق المعقولات، وان هذه تنتج، مثـل المفاهيم، من تحليل استعادي ولا يجدها الفكر معطاة بالكامل... لكن التفكـــير لا يخلق مصطلحاته الخاصة، حتى لو أنه يعطيها دلالة، ولا هو يخلق المبادئ الأبدية التي يفكر بمقتضاها. **والوضعية** هي نوع من التفكير الإلهي الذي قد يخلق فعليا، مـــع الحقائق الضرورية، أول **مغاير**، والتي توجد، قبل أول **مغاير**، وجـــود وضعيتـــها الخاصة، التي ترفع نفسها بالذات خارج العدم! وإلى ماذا ستستند، من فضلكـــم، البادرة غير النسبية، بل الإصطفائية والمطلقة، هي التي لا "quatenus" لها، والـــتي بتعريفها بالذات (إذا كان لهذه الكلمات من معنى بعد) الأولى "والمتوحدة" جذريا؟ ليس القرار النظري والوضعي poïétique صلة تعتمد على اثنين أو أكثر من سابقي الوجود، شأن جسر قائم على أعمدة، وبفضل هذا المثنى أو الجمع، يعبر الفـــراغ، مقيما العلاقات بين المتعلقين، سائرا على خطى الاستدلال والتوســـط"؛ كـــلا، فالوضع بالأحرى، هو، مثل إلهام العبقري، ناقل منبثق وافتتاحية تلقائيـــة؛ poïésis

وفي هذه البادرة المحركة والمؤسسة بحق، يتم وضع الكل مرة واحدة، بما في ذلك نقاط الارتكاز والغنائم التي ستسمح لاحقا للتقليد النثري بمتابعة البدء وإقامة علاقات لا تحصى لعناصر معطاة آنفا. لا **يكتشف** الخالق سابق وجود كامن، بل هو **يبتكر** وجودا جديدا ليكتشفه فيما بعد، - أكثر أيضا: إنه **يخلقه** ليعيد ابتكاره؛ أو بالأحرى: إنه يخلق، يبتكر ويكتشف في نفس فعل عبقرية وضعية غير مفهومة ستتضخم فيما بعد شيئا فشيئا. يحل الاندفاع الجذري إذا بالحدث نفسه لغز المضاف corrélat المخلوق والمستقل مع ذلك، بقطعه العقدة العويصة بشكل تصير معه الحلقة المفرغة دائرية **علة ذاته Causa-sui**. وسيصير الحدس إعادة وضع هذه الوضعية، والمحرك ثانيا poésie **فالفعل** المجرد والبسيط هو إذن كلمة الكل: تبدد الإحراج بمعجزة، فالجواب في السؤال نفسه...

قلنا إن الوضع ليس بعلاقة، لأنه (وبالتعريف بالذات) التقدم على المضاف الذي ستنسب الوضعية له. وهذا مشترك مع الكلية والغاية المطلقة والبدء المطلق: إن لا يسمح بما هو خارج ذاته، **بعد الذات، قبل الذات** بأي "**مغاير**" يقدم أقل وقود لأقل حركة تفكير؛ لا بوجود-سابق ولا بوجود-لاحق ولا بوجود مشترك؛ لأنه إذا كان شيء ما موجودا قبل؛ أو يبقى موجودا أو يتواجد معه مما يجعل التفكير بالكلية ممكنا، لا تعود الكلية الجملة المطلقة، وسيصير مجمل الجملة مع هذا الشيء هو الكل. لأن من يقول **الكل** لا يستثني شيئا. وسيمتص الكل سلفا الغيرية التي يريد في كل مرة أن ينفذ منها ليحفظ في الذهن حركية مفكرة. وحده الحدس، هو علاقة من دون غيرية مضافة؛ ينجز هذا الانتصار البهلواني في تحقيق تناقض تكفير - مطلق في لغزه، أي تفكير غير مفكر. وفي هذه الحالة: لا يتم التفكير إلا بالنسبة لشيء ما سابق. فالبدء المطلق إذن، الذي لا يسمح بأي سابق لا يكون هو نفسه سابقا عليه، لا يمكن تفكره. لا يمكن للبدء إلا أن يكون موضوعا. يمكن التفكير في بدء برهة نسبية، مثل الولادة، هي نهاية برهة سابقة: أما بدء البدايات، البدء الناقص غير المحضر، وغير المسبق فليس له سوى الحدس. وبالطريقة عينها، ليس الخلق بقضية لأنه ليس على الإطلاق عبورا متدرجا ومستمرا من الأقل الى الأكثر من خلال مقارن غير موجه، بل هو تحول من لاشيء الى شيء ما أو (وهذا ما يرجع الى الأمر عينه) من لاشيء الى الكل: لأنه لما كانت المسافة بين

لاشيء وشيء ما هي آنفا مسافة لامتناهية، فإن التحول الذي يقود من الواحد الى الآخر هو أعجوبة أكثر منه عبورا، تحول مطلق، أيض تمويمي مباغت جدا. تكاد كافة الأسئلة الفئوية التي يمكن أن تطرح في هذا الشأن، وحتى الإيضاحات التي قد تجاوب على هذه الأسئلة أن تستبعد سلفا. أو بشكل أفضل: يجاوب الخلق على كل سؤال بالخلق: وليس هذا الجواب "الدائري" بتحصيل حاصل، بل هو بالأحرى الضرورة الحشوية التي يحكم بها علة-ذاته علينا؛ **الفعل** هو كل الجواب هنا، جواب ليس تفكريا بل جذريا. وفي هذا المنحى يشبه الخلق الحركة، التي لا تبرهن إمكانياتها، في الواقع وبالواقع، إلا بالحركة نفسها. - ربما كانت المقولة الوحيدة التي قد لا ينفر منها الخلق كليا هي النوعية، بمقدار ما يستتبع كل فساد وكل تواصل للتنافر نوعا من النعمة الإعجازية؛ ومع ذلك ليس صنع المعجزات الخلاق، مثل التحول، عبورا من شكل الى شكل آخر، ولا هو حتى مثل التجلي عبورا من صورة سديمية (وهي أيضا شكل) إلى صورة كونية، بل هو بالأحرى انبثاق وجود مؤهل بالكامل-شكلا ومادة- إنطلاقا من اللاشيء؛ وكما أن الخلق، هو ليس تحول الشكل، ليس أيضا تشكلا للامتشكل (مع أن هذا التشكل يشبه آنفا النعمة) ولا تحول للامتبلور: لأن اللامتشكل يضمر وجود-سابق ضمني لجوهر. وإذا كان من الممكن انسجام الخلق مع هذه التميزات المشائية للقوة والفعل، فإنه سيجاوب على السؤال "النوعي": أي أنماط (ποῖα) باستبدال **تلك** الأنماط (τοιαῦτα... οἷα) بتلك الأنماط الأخرى، مغيرا أو مشكلا الأنماط، مؤهلا جوهرا من دون "أشكال" ولا تحديدات؛ وهكذا يعرف التغيير ويقاس بالنسبة الى جوهر مستقر أو ثابت هو نسق مرجعي للصيرورة. ولا يكون الخلق بالتالي سوء تغير قشري للوجود؛ تحول، فساد، تشويه أو مجرد تغير لون! والحال، ليس الخلق فسادا[1]، وللسبب عينه الذي يمنعه من أن يكون علاقة: ليس الخلق نسبيا، πρός τι لسبب وجيه ذلك أنه ليس هناك من τι ؛ وكما أنه، وبالتعريف بالذات، ما من آخر غير الخالق، جار، أو مسيح دجال أو مجرد انعكاس - قد ينسب إليه، فليس هناك في الزمن الماضي **aliud** سابق يكون الخلق "فسادا" له: يشمل الخالق، وهو كلية مطلقة، على الغيرية المتواجدة معه مثل الخلق، بدء مطلق، يتقدم الغيرية سابقة الوجود. - لا يجاوب

(1) Οὐκ ἄρα κατ'ἀλλοίωσίν γε κινεῖται dit PLATON de l'Un (1re Hypothèse) Parménide, 138 c.

الخلق على سؤال **الكم** بأكثر مما يجاوب على سؤال **الكيف**. قلنا إن فلسفة التواصل تميل الى معالجة الخلق على أنه تكاثر والانعدام على أنه نقصان: ذلك أن سلسلة الكبر المتجانسة، بسماحها بالترقيم والقياسات، هي بامتياز حقل الثانوية والتواصل ما بعد التجريبي؛ وتفترض العمليات التي تمارس فيه إمكانية مقارنة **الزيادة** plus مع **النقصان** Minus، ويمكنها أن تستمر حتى لا متناهي الصغر ولا متناهي الكبر. وإذا كان لا بد من نسخ الخلق بلغة كمية، لقلنا (على وجه التقريب) إن انبثاق شيء ما انطلاقا من الصفر، منجزا دفعة واحدة، يحقق كمية quantum مطلقة ولامتناهية تتناقض مع فكرة المقدار نفسه؛ وبلغة الكيفية لقلنا بالطريقة نفسها، وكأسلوب تعبير، إذا كان هناك من تغيير، فالخلق هو تغير الكل الى الكل، أو من اللاشيء الى الكل، بمعنى تغيير اللا-إلى نعم؛ يكذب الانعطاف من النقيض الى النقيض، وهو عبور الى المغاير-تماما، يكذب الفساد النوعي، الذي هو عبور من مغاير إلى نسبيا-مغاير: لأن انعطافا أو انقلابا مبالغا ليس تغييرا بأكثر من كون وضعية وجود جديد ليست بزيادة. لكن من الطبيعي أن الصفر، كونه أيضا كمية عادية جدا، أو بالأحرى، بكونه لا-وجود بصفته عددا (quatenus numerus)، هو شيء مغاير كليا عن اللاشيء؛ بين المقادير الإيجابية والمقادير السلبية ليس هناك أي هوة ميتافيزيقية؛ وبالتالي فإن العبور من الكمية صفر الى كمية إيجابية هو كذلك من مقام-مغاير-كليا عن الخلق، إذ إنه وضعية وجود وليس "كمية" من هذا أو ذاك (مثلا بصفته مقدارا) بل **وضعية للوجود بصفته وجودا**. ألا يقلص الحشو نفسه، بما لديه من عدم إمكانية تمثل، ألا يقلص الـ "quatenus" إلى أن الوجود البسيط والمجرد، وخارج كل وجهات النظر، يختلف الى ما لانهاية عن السيرورات غير الموجهة وعن "أقصى" هذه السيرورات نفسه. يمثل تواصل المتنافرات النسبية مقام التجريب كما يمثل تواصل المتناظرات غير الموجه مقام ما بعد التجريب؛ أما فيما يخص الوضعية ما بعد المنطقية، فمن القليل أن يقال عنها إنها انقلاب قطري من **الضد** الى الـ - **معْ** (لأن الانقلاب يستتبع على الأقل وجودا - سابقا لمقام بالمقلوب)، إنها خارج التصنيفات على الإطلاق - أو بالأحرى، وهذا ما يرجع للأمر عينه، إنها أقصى السلبي (apophatique) والعبثي لكل تحميل في آن معا: الأوج غير المقدر للكمية، ذروة التحول النوعي الدقيقة:

وعند نقطة تماس التفكير مع ما لا يمكن التفكير به يستشف الحدس الخلق نفسه، وضعية الوجود الكامل في فعليته أو quoddité الأنطولوجية.- ويشير بشكل كاف كل ما كان قد قيل بخصوص كلية الحضور أو nusquamité لـ-ما-لا-أعرف-ما-هو، يشير إلى أن الخلق يستبعد أيضا الأسئلة المتعلقة بالمكان. إذ ما أن نكاد نستخدم في طريقة الكلام (لأنه في النهاية علينا أن نتكلم) صورا مكانية أو بصرية، حتى تتم إعادة ترميم ضمنية لما قبل الوجود: وينحو الخواء إلى أن يصير مكانا لمسودات بدائية ولإمكانيات غسقية على أهبة التفعيل؛ حتى الـ-من-العدم لما يقال له نظرية الخلق لديها شيء ما ملتبس، بمقدار ما يستدعي ظرف المكان **Ex** – مكانا سابق-الوجود (χώρα) وشبيها بغرفة انتظار الممكنات، أو مخزنا سيستخرج منه الخالق الأشكال: ويتم تمثل الخلق على أنه éduction تأليف أو صعود نحو وضح النهار. وكلمة **إنتاج** الـ quidditatif نفسها ألا تستدعي هذا العبور من الضمني الى البين؟ والحال، إن العدم، بالأحرى، ليس له أي خصائص: فهو إذن ليس في "مكان ما"؛ وإذا كان حقا وحرفيا لاشيء، فإنه يشطب بضربة واحدة ليس فقط الوجود المنعوت والمعدود الذي هو لا-وجوده، بل يشطب أيضا مكان هذا الوجود، - لأن الوجود، هو بالأحرى وجود في مكان ما، لأن وجودا محددا بهذا أو ذاك، هو بالأحرى وجود محدد محليا على أنه هنا-أو-هناك، وفقا لإحداثيات طوبوغرافية. إن عدما تخرج منه، الموجودات المحددة، مثلما في مختبر، بوزن وحجم وهيئة لا يكون هو نفسه عدم وجود، بل سابق الوجود؛ ويكاد يكون مستحيلا تمثل هذا العدم دون أن نستبق فيه آنفا ما يفترض بالخلق أن يستخرجه منه. إن هذية الهذيات، وهي بالنسبة للمخلوق "شبيهة بلاشيء" وبما هي لاشيء كل شيء وكل وجود، ليست بأكثر من ذلك في مكان، ἐν τόπῳ ؛ وبما أن هذه الهذية، أخيرا هي وضعية كلها، فإن الخلق بوجه عام هو ما يجب أن يقال له لا موضعي. فليس الخلق إذا بنقل **من مكان إلى مكان آخر**، بأكثر من أنه ليس تحول من **مغاير الى مغاير**؛ وبما أن "**العبور**" **trans** يستدعي بشكل لا يمكن مقاومته طوبولوجيا الهجرة والبلاد التحتية، فإن الخلق يستبعد في آن معا – كل métabase وكل أيض. وهذا بالضبط ما يقوله أفلاطون عن "**الواحد**"[1] في

(1) Parménide, 162 c: εἰ μηδαμοῦ γέ ἐστι τῶν ὄντων, ὡς οὐκ ἔστιν εἴπερ μὴ ἔστιν, οὐδ'ἂν μεθίσταιτό ποθέν ποι. Cf. 138 *a* : οὐδαμοῦ ἂν εἴη...

"البرمنيدس". لا يأتي الوجود المخلوق إذن من مكان ما ولا حتى من **لا-مكـــان** راكد قد يكون على مثال nescioquid راكد، شيء ما مثل مملكـــة "Nusquam" (Μηδαμοῦ) : إنه بحصر المعنى لا يأتي إطلاقا... ليس بمعنى أنه **قـــائم هنـــا آنفـــا! إطلاقا**: من الأجدر، بالأحرى القول إنه يوجد هنا ذات صباح، من دون أن يكون قد وصل أبدا "Et Lux facta est". وعندما في التجريب يتم العبور من **ليكـــن** إلى **Factum-est** الحادث-الموجود في الحال، من دون أي مرحلة وسطى، يصـــــرخ المشاهد أن هناك احتيال، لأنه يعلم جيدا أن هناك شيئا ما قد أخفي عنه: وأنه مـــا من مخلوق لديه هبة كلية-الحضور ولا أن يفلت من لعنة السيرورة، أو الانتقـــال أو التحرك؛ وأنه يتم إخفاء الوسائط للإيهام بالسحر فقط. ليس تتـــالي **ليكـــن Fiat** (γενηθήτω) والحادث-الموجود Factum-est (ἐγένετο) في مقام التجريب ســـوى حظوة بينما هو أعجوبة في مقام الميتافيزيقا. فالفعل لا يتموضع، لكنه يضع[1]: هــو الذي لا يوضع له، يموضع ما يوجده، إنه قدوم **المكان**؛ إنطلاقا من تاريخ البـــادرة اللاموضعية، سيكون هناك طوبوغرافيا، وحركة، وترتيب موزع وموجـــودات في الفضاء. من وجهة النظر هذه أيضا الفعل كريم، لأنه يعطي ما لا يملكه بنفسه، وهو يختلف بذلك عن الروح الإنسانية، هذا الـــ-ما-لا-أعرف-ماهو ce nescioquid النسبي، الذي ولو لم يكن تعينه أقل تعذرا (والذاكرة تشهد على ذلك) فإنه مرتبـط على الأقل، وبشكل عام بجسد، بعضو دماغي وبحضور بـــدني، بمعـــنى وجـــود جسماني. كذلك، وكما يمكن أن يقال وفق الخاطر يستبعد الخلق الكمية والكيفية، أو أنه في آن معا تغير مطلق لنوعية وتزايد مطلق لكمية، كذلك يمكن القول وفـــق الخاطر إن الخلق هو فعل زائد-المكانية أو فعل كلي الحضور: ذلـــك أن **في كـــل مكان وليس في أي مكان** يرجعان للأمر عينـــه-. واســـتبعاد الزمـــان، أخـــيرا وبالأخص، منطو في كل الأخرى، كون الزمان هو البعد المشـــترك للزيـــادات، والتحولات والنقل. فالحركة والفساد والزيادة تأخذ وقتا: أليس التخلي عن المباغتة المطلقة، بمعنى عن كلية الحضور، وهي نفي المكان، وعن المعية وهي نفي السيرورة، التخلي عنهما معا، أليس دلالة على تناهي خلقنا؟ تندرج حتمية الزمان في توســط الاستدلال، والترقب، والعمل. إن العبور من كمية quantum إلى كمية أكبر، مـــن

(1) Enn., VI, 9, 6: ἱδρύειν. Par l'Un, ὄγκος ὑπέστη et τόπος ἐτάχθη.

نوعية quale الى نوعية أخرى متغايرة، أخيراً من ibi هنا إلى alibi هنـــاك، هـــذا العبور المثلث ليس انتقالاً فقط بل مجتهداً أيضاً؛ فالانتظار والعمل والصياغة هـــي بالتالي الأشكال المعاشة بالملموس، والتي بموجبها يصير المخلوق المتناهي، ويـدوم في الديمومة ويتابع البرزخ. قد يكون الخلق في حده الأقصى، تعليق هذه الطبيعيـــة أو النسبية التجريبية والنثرية التي تضطرنا أن نعبر "per gradus debitos" مـن دون أن نحرق أي مرحلة. وهذا ما قد يظهر في حال أريد بكل الوسائل نقل معجزة الخلـق إلى لغة المقولات: فللعبور ليس من غياب كل شكل الى شكل ما، ولا من الصغـير إلى الكبير، بل من لا شيء (لا شيء على الإطلاق) الى شيء ما بشـــكل عـــام، لاستخراج وجود ليس من موضع آخر، ولا حتى من أي **لا–موضع** أسطوري، أياً كان بعده وأياً كانت مسافته، بل اللاوجود المطلق، لكي يتـــم وضـــع وجـــود وبالضربة عينها وضع مكان لهذا الوجود، قد يلزم عمل لامتناه (إذا كان ثمة عمل)، وسيأخذ هذا العمل اللامتناهي وقتاً لامتناهياً. وما أعمال البرزخ الهرقلية إلا تسـلية أمام هذه المهمة المسببة للدوار! إن عملاً لامتناهياً لا يعود "عملاً"، وقد يكون مـن الأفضل، في هذه الشروط، أن نعترف أن ما يدوم زمناً لامتناهياً يتم أيضاً بغتة. لـو كانت مادة المهمة الخلاقة كمية متناهية الصغر أو شكلاً غير محدد أو وجوداً بعيداً، فإنها كانت ستنشغل إما بجعل الصفر كماً، أو بجعل ما لا شكل له موصوفـــاً، أو بتعيين الغائب واحضاره؛ ولن يكون **الوضع "poïesis"** إلا مجرد سيرورة صنـــع جزئية، شيء ما مثل إعداد سلعة مصنعة. والحال، فإن خصوصية الخلق (بـالتعريف بالذات) هي أن يخلق مادة الإعداد بالذات، وأن يخلقها معدّة: يتم فعل الوضع إذن في البدء في الفراغ من كل مادة بالكامل، وحتى في عدم أي وجود خالق. ليس مـا "يتواجد مع" الفعل المطلق إذاً قليل أو كثير، بل هو لاشيء بالمرة: لا شيء إطلاقـاً، ولا حتى إمكانية شيء ما، ولا حتى الوعاء العاري القادر على تقبل الأشـكال. إن أقصى الغياب، وأقصى اللاتشكل وأقصى العدمية مجتمعة تختلط مـــع اللاوجـــود المطلق. هنا يجب عمل كل شيء. هنا لا يعود الفعل، مثل المهندس، أمام إشـــكال معطى يجب تشذيبه، كون الجزء العبقري والإعجازي من المهمة قد تم آنفاً، ولكـن ليس بعد الجزء المتعب: يخترع العبقري (وأليس **الفعل** هو العبقريـــة الابتدائيـــة؟) الإشكال نفسه، وبوضعه، يحله **بالضربة عينها**. وإذا لم يكن بإمكان ســـيرورة أن

تكون إلا أحادية الجانب، كيف لا يكون الخلق كلي الاتجاهات، هو الذي يضع الوجود الموصوف والكمي والمعين في آن معا (الكمية المسماة حجما تتضمن آنفا احتلال محل في المكان)، بكلمة، هو الذي يضع الوجود الكامل مع كل إحداثياته التأريخية والطوبولوجية؟ بالاس Pallas، وقد خرجت بالغة كاملة العدة وبنظام من جمجمة والدها، لم تولد ولادة أكثر عبقرية من هذا الوجود الموضوع بأعجوبة في أول اختراع لأول أسبقية.

VII – تقوم العملية في الوجود-الأقل من اللحظة

تلتقي كل التصنيفات وبشكل ما تتكثف في بؤرة اللحظة. عند حدوث التغيير، πότ' οὖν μεταβάλλει؛ يتساءل أفلاطون مناقشا فرضية البرمانيدس الثالثة؛ ويؤكد أن ما-لا-أعرف – ماهو المحير هذا الـ ὅτε ...τότε الذي لا يمكن أن نضع إصبعنا عليه أبدا لا يمكن تعينه في أسماء الفاعل الساكنة (ἑστός, κινούμενον...) للحالة السابقة أو للواقعة المنجزة. إن ما لايمكن إدراكه هذا الذي هو شيوع الـ ἐξ و εἰς هو في آن معا خارج المكان (ἄτοπον) وخارج الزمان (ἐν χρόνῳ οὐδενί) . ليست اللحظة الوجود (لأنه يسبقها) ولا هي هذا الوجود القابل للوصف أو ذاك؛ ولكنها أيضا ليست لا-وجود (لأنه كيف يمكن للا-وجود أن يتموضع لوحده في الوجود؟)... ماذا أقول؟ إنها ليست حتى **الفعل**، ولا هي بحصر المعنى **أكثر**-من-وجود، **مغاير**-لـ-الوجود! إنها ليست لا-وجود ولا-لا-وجود[1]، – ومعنى هذا القول إنها ما **يحصل** أو **يقدم**، advenit, evenit, praevenit، – وتشير الأسبقية هنا الى أن هذا الحدث أو القدوم هو أولا طارئ بدئي. المجيء هو في آن معا وجود ولا وجود أو (إذا كنا نفضل الـ neutrum على الـ l'utrumque) هو لا يوجد ولا-لايوجد: فلا الوجود ولا ليس-بوجود يقولان عن فعل-الوجود، كما أن المحمول الأنطولوجي يناسبه، بالمقدار الأقل الذي يناسبه به المحمول الربطي. واللحظة، بالنسبة للإنسان على الأقل، هي "الديمومة" اللازمنية أو زائد-الزمنية **لفعل-الوجود** الإعجازي هذا، الذي قد يأخذ، وقد نما

(1) Parménide, 157 a: οὔτε ἔστι... οὔτε οὐκ ἔστι. 156 *e* : ἀμφότερα (*c* : ἅμα). L'ἐξαίφνης : 156 *c*, *d*.

وتوضح وردد في الأقوال، قد يأخذ وقتا لامتناهيا. لرحلة لامتناهية، روايات لا تنتهي. والحال، ما هي الرحلة التي يمكن مقارنتها بهذا الطيران السريع كالبرق، بهذا النقل اللامتحرك المبتدئ، انطلاقا من لاشيء هو في الوقت عينه عدمية وعدم-مكان وعدم-وجود، بهذه الرحلة حيث الانطلاق والوصول ليسا إلا أمرا واحدا؟ قد تبدو سيرة ذاتية شاملة ومفصلة، إذا كانت لا تريد أن تغفل أيا من التفاصيل التي لا تحصى من التواصل المعاش، قد تبدو فقيرة أمام هذه المغامرة؛ ومع ذلك يكفي جزء من ألف ميليار من الثانية لطرفة العين لكي يتم اجتياز المسافة، مثلما يكفي مجرد حدس بسيط ليتم من الداخل فهم ومعايشة ما يلزمه قرونا من الحكايات والسرد التاريخي لشرحه؛ مثلما أخيرا، ومهما كان تعقد عضو الرؤية لامتناهيا، يكفي أن تنفتح العين لكي تتم الرؤية[1]. وبنفس الطريقة، لا يقوم "آشيل" Achille إلا بالنذر القليل من الوسائط اللامتعددة التي تفصله عن السلحفاة؛ ينطلق آشيل .... ويلتهم اللامتناهي. اللحظة هي النقطة-المحيرة التي يتطابق فيها الزمان والمكان، حيث تظهر الكمية والنوعية الواحدة في الأخرى، حيث الشكل والمادة ليسا إلا واحدا، حيث تتكدس العلاقة نفسها حتى لا تصير إلا مطلقا. يقوم الخلق في اللحظة، أو بشكل أفضل (لأن اللحظة ليست، ما لم يكن بأسلوب في التعبير، ديمومة قصيرة جدا، برزخا لامتناهي الصغر حيث يمكن للخلق أن يقوم) الخلق بكامله هو اللحظة نفسها، مثلما، العكس بالعكس، اللحظة بامتياز هي اللحظة الخلاقة والواضعة؛ وبهذا تتعارض **اللحظة** مع **الصيرورة** ومع **الوجود** وهما متغيرا **البرزخ**: الصيرورة أو تواصل اللحظات الافتراضية إلى ما لانهاية، لكنها لحظات مخففة ومتراخية، المسببة بالأحرى أكثر منها خلاقة، والدافعة بالأحرى أكثر منها نظرية؛ الوجود أو تجمد **اللحظة** الجوهرية نهائيا والمسمرة والمبردة في **شيء**. من الآن وصاعدا نمسك ما قد تميل دوغمائية الى أن تسميه بالطبع مبادئ الميتافيزيقا الثلاثة: اللحظة بين **اللاشيء والوجود**؛ تبعا لما إذا كنا نريد تثبيت الأفكار في اتجاه أو في آخر (لأن لغتنا المغلولة والمفصلة على قياس الشيء، ليس بمقدورها في أي حال من الأحوال أن تعبر عن الرهافة الصفائية ولامتناهية الصغر لشبه-العدم quasi-nihil)، ستسمى اللحظة ما-يكاد-لاشيء، أو ما-يكاد-

(1) Henri BERGSON, L'Êvolution créatrice.

وجود: ما-يكاد-وجود بصفتها تنبثق في الوجود عند خروجه من اللا-وجـــود، ما-يكاد-لاشيء، بصفتها تماثل العدم؛ ما-يكاد-لاشيء، لأن الشرارة تنطفـــئ، ما-يكاد-وجود بصفتها تتوقد بفعل الانطفاء نفسه. لكن اللحظة، عند اللـــزوم، ليست هذا ولا ذاك. فما-يكاد-لاشيء ليس وجودا- أقل ولا هي وجـــود أدنى؛ **شبه-العدم** ليس **aliquid** مصغرا؛ فهو مثلا ليس هذا الأقله وجودا، هذا الأخـــير مقلصا الذي تحتاجه نظرية الخلق-المزيفة، لكي تستعيد من جديد عالما، لأن نظريـــة الخلق-المزيفة ترجعنا الى فلسفة الفدادين الثلاثة؛ ولا يتم تحصيل ما-يكاد-لاشيء، مثل الوجود-الأدنى، عند نهاية انطفاء الوجود أو ندرته؛ إن وجودا أدنى، حتى ولـو كان مخففا إلى ما لانهاية، يبقى أيضا "من الوجود"، بينما ما-يكاد-لاشيء، هو من مقام مغاير للوجود. لا ينتج ما-يكاد-لاشيء عن تلف متدرج للوجود، عن تقليل أو ضعف الوجود، ولكنه لا ينتج أيضا عن إلغاء فظ جدا تكون نهايته ببسـلطة **لا-شيء**-إطلاقا. والعكس بالعكس لا يتفتح ما-يكاد-وجودا بأعجوبة عنـــد نهايـــة تضخم اللاشيء، إذ لا يصير اللاشيء شيئا ما لكثرة التسمين؛ لأن لاشيئا يتم نفخه إلى ما لانهاية يبقى لاشيء حتى نهاية القرون. **صفر** زائد صفر يساوي صفر. أبدا لا ينجب التضخم أو الانكماش شيئا إلا من المقام عينه: وينتج المقام الآخـــر، حـــتى اللانهاية، عن عبور مباغت الى الأقصى؛ وهكذا تشير اللحظة بالتالي الى العتبة الـــتي لا يمكن إدراكها حيث يتوقف الوجود عن أن يكون شيئا ما واللاشـــيء عـــن أن يكون لاشيء، وحيث كل نقيض هو على **طرف أن**، أو حتى **في حالة** صـيرورة أن يصير نقيضه. أو بالأحرى، بما أن اللحظة ليست وجودا منفســـا ولا-لاوجـــود منفوخا أو متورما، يبقى أنها دفعة واحدة الحاضر الذي لا يمكن مســـه لتوقـــف-القدوم هذا ولهذا القدوم-المتوقف. إن **ما-يكاد-وجود**، هو إذا علـــى بســـاط البحث بشكل مضاعف: تقريبا مثل المخلوق تبعا لباسكال، إنه لاشيء بالنســـبة للوجود وكل بالنسبة إلى اللاشيء؛ وما هو **تقريبا** موجود، في قراءة سلبية، يظـهر، في قراءة إيجابية كأنه موجود **بالكاد**، أو ما معناه كانبثاق أو بزوغ اللاشيء. وليـدا أو محتضرا، فإنه ليس وجودا -أقل لتناقض صوت غير موجه بمقدار ما هـــو لغـــز الانبثاق في الظلمة غير المرئية أو، مثل موسيقى دوبيسيه فائقة العذوبة في الســكون غير المسموع. لا يجب أن تكون يدنا ثقيلة إذا أردنا أن نلمس هذه العتبة مـــن دون

أن نقع في **اللاشيء** ومن دون أن نبقى في **الوجود!** وعلى العكس، يلزم حركـــة فوق طبيعية ليد ورشاقة دقيقة في "الأسلوب". ومع ذلك، هناك في ظرف **شبه** ظل من الدغمائية أو الجوهرانية الوجودية مهين قليلا للحظة. يتضمن الـــ "**يكـــاد**" أن الـــ "Esse" "الجوهر" يبقى الدعوة الكونية، ونسق الاسناد الوحيد الذي يفصـــل بين النجاح والفشل، وبين المخلوق القابل للحياة والجهيض. لنحدد إذن أن الـــ-**ما-يكاد** هو هنا لتثبيت الأفكار، وأن اللحظة هي اللفظة **الثالثة** التي هـــي **أولى:** ومن الأجدر البدء بها! فليس **ما-يكاد-لاشيء** هو بإخفاق أو مقاربة لـــ **شـــيء-ما**، وليس **ما-يكاد-وجود** هو **بوجود** ناقص: بل إن **الوجود** بالأحرى هو **لحظـة** مخففة وتخفيف لفعل الوضع. وتكريما لهذه الطبيعة ثنائية الرأس "anceps" أو "ثنائية الجبهة" **bifrons** ، تكريما لوجود اللا-وجود-هذا، لهذا الـــ-ما-يكاد-وجـــود، يلغى مبدأ الثالث المرفوع لاعقلانيا: لأن هناك مكانا لـــ-ما-لا-أعرف-ما هو بين الـــ-شيء ما واللاشيء. ليست اللحظة بأي حال من الأحوال **بموجود** لا قليـــلا ولا كثيرا، وبالتالي لا يتم الخلق "**في**" اللحظة - أو الـــ inesse أو الوجود-في الـــتي تفقد هنا كل معنى محدد؛ ومع ذلك ليست اللحظة لاشيء، لأنها تضع، ولأن فعـــل الوضع، إذا لم يكن شيئا، فإنه على الأقل شيء ما. هكذا لا يجد الخلق مكانا لـه في اللحظة، هو الذي ليس شيئا بأكثر منها؛ هكذا فإن علاقة هذا بتلك ليست علاقـــة حاو بمحتوى... وقد يكون من الأصح أن يقال إن الخلق يتطابق مع اللحظة، وإنه عنصر اللحظة الأثيري؛ وأنه لحظة عملانية؛ أو أنه يتم **منذ** اللحظة، أو انطلاقا مـــن هذه الذرة المتفجرة، المشعة التي هي نفسها عمليـــة بكاملـــها و"تأثـــير"(poésie) بالكامل، أن تبادلية الشيء والعدم-العدم بكونه المكان الذي يتركه إلغاء الشـــيء فارغا، والشيء بكونه هذه الفجوة الافتراضية نفسها التي يسدها الوجود-قلـــت إن تبادلية العدم والموجود هي معلقة في اللحظة، ومعلقة للحظة. كيف لهذه القـــرارات النهائية شأن: الموت أو الحياة، والليل أو النهار، اللا-وجود أو الوجود كيف لها أن تستمر في الجريان بينما اللحظة ليست حدا ولا شقا خطيا لقارتين متجـــاورتين، الواحدة قرب الأخرى من دون حل التواصل، ولا هي دولة - حاجزة بين هـــاتين القارتين؟ في الحالة الأولى لن تكون الأمبراطوريتان سوى كتلة من قطعة واحـــدة منقسمة الى منطقتين، يكون حد المنطقة الأولى، من دون أي انتقال، بداية الثانيـــة.

وفي الحالة الأخرى، يشكل الانتقال نفسه قارة ثالثة، وهذا ما يجعل حالتي انتقال جديدتين ضروريتين... ليس هناك إلا ابتداء وحيد بسيط، وهو افتتاحي دائما: إنه ذاك الذي يشكله قرار وضعي محض من دون أي تشكل بصري ولا سماكة مكانية.
إن كل ما يحتفظ في ذاته بشيء من البرزخ أو من التشيؤ réité المتكون، يلتمس بدوره وضعية تضعه! هذا هو أوان تكرار القول: إذا كان الجود يشتمل على إعطاء ما ليس عليه بذاته، وإذا كان الخلق اندفاع جود مضطرم، فإن أسمى وضعية كريمة ستتأكد في انفجار اللحظة وانبساطها المدوي. إن الفعل المجرد من النوعية ومن الكمية، أو بشكل أفضل، الذي لا يمكن إعطاؤه نوعية ولا كمية، بمعنى اللامتشكل والصفر، هو الذي يعطي النوعية والكمية مع كونه عدم النوعية وصفر الكمية، إن الفعل الطوباوي يعين لأنه هو نفسه صفر المكان، والفعل المطلق يوفر شبكا للعلاقات لأنه هو نفسه لانسبي؛ واللحظة أخيرا، وهي صفر الزمان وبشكل عام صفر أي شيء كان، محل، نوعية، كمية...، اللحظة التي هي صفر الكل تضع الزمان ومعه الوجود الكامل بكل أبعاده الوجودية وحتى في فعليته. أكثر من ذلك: إن اللامتشكل نفسه لا يضع الأشكال، ولا صفر المقادير، ولا غياب الأمكنة المطلق، إلا لأنها لا وجود على طريقة اللحظة. النقطة هي نفي المكان، ولكنها وضعية في المكان، بمعنى أنها وضع المكان: جواب شكلي على سؤال الـ **Ubi** وتحديد محض لـ**ـمكان ما**. البرهة هي نفي الزمان، ولكنها وضعية "**في**" الزمان، بمعنى وضعية للتوقيت. والبرهة، من جهة أخرى، تنفي النقطة التي تنفي المكان، فهي بالتالي وفي آن معا نفي المكان ووضعية في المكان؛ وإذا كانت النقطة هي ما-يكاد-مكانا، فإن البرهة، وهي أقصر تواصل ممكن، تظهر كأنها البرزخ الأقل والأقل ديمومة. اللحظة، هي، نفي النقطة والبرهة، أي أنها في آن معا نفي المكان-الزمان ونفي الوضعية في المكان وفي الزمان: تزيل اللحظة كل أبعاد المعاش، كما أن النقطة تلغي كل الأبعاد المكانية (ليس فقط بعدا من ثلاثة، مثل المسطح، ولا اثنين من ثلاثة، مثل الخط، ولكن ثلاثة من ثلاثة). اللحظة هي النقطة التي تتراجع الى ما لانهاية والتي لا تعود في "ولا أي مكان". يتعالى إلغاء الأبعاد على التجريب لمصلحة "مقام مغاير"، هو مثالي، ما بعد تجريبي وهندسي: بدوره يتعالى إلغاء الوسم الهندسي على بساطة المقام-المغاير لصالح "مقام-مغاير-كليا" لامتناهي البساطة. إن

من ليس له أي تواصل ولو بإيجاز ولا أي امتداد، ولو كان ميكروسكوبيا لا يكون البرهة التي يقع **فيها** الحدث، بل هو الحدث نفسه بصفته لا-زمان. وكلما مال نفي المكان نحو النقطة، وهي مكانية أقل، ومكانية دنيا أو لامتناهية الصغر، كلما كان التعيين دقيقا والوسم دقيقا. إلا أن هذا النفي هو تقسيمي مضاعف: بنفيها المكان دون أن تنفي المحل، تبقى النقطة بقعة تقريبية بالقرب من رأس اللحظة الفائق الدقة؛ ومن جهة أخرى، فإنه ينفي المكان من دون أن يمس الزمان، مثل الصفر الذي ينفي الكمية دون أن يلمس النوعية، وهكذا يحتفظ بشيء ما من res constitua. هكذا فإن النقطة أيضا هي بطلان غير نشيط، ونفي كسول: فليست النقطة من ينجب الخط بل حركة النقطة، مثلما ليس الصفر، بل فعل العد هو الذي ينجب الأعداد. ليس هناك إذن من وضعية خلاقة تماما إلا في اللحظة وباللحظة؛ لأنها ذروة نفي وعدم لكل أنواع النفي التقسيمية، إنها وضعية بشكل متناقض وغير مفهوم. النقطة هي عدم المكان، لكن التنقيط المرهف هو عدم وضعي؛ وقليل أن نقول إنه الأكثر تكوما من كل اللا-وجود والأقل انزعاجا في "طبيعته"، والأقل ازدحاما بالمحتويات والأمتعة: لأنه لا يعود شيئا سوى فعل الوضع نفسه، الفعل المحض والهبة الكاملة! لا يخلق العدم الوضعي "بالأولى" بفتح كنوزه المخبأة، بل **بأضعف** الإيمان وبأعجوبة: لأن "الأولية" ليست إلا قانون الحفظ والفيزيائية -النثرية للأجدى، بينما أضعف الإيمان هو معجزة الكريم **ما-يكاد-لاشيء** الخلاقة. لا تعطينا اللحظة التاريخ والمكان وما تبقى لكي نفكر فيها، هي اللا-تاريخية واليوتوبيا، والزمانية الأعلى وعابرة المكان، في ترنيمات الزمان والخطب؛ لأنها كانت ستكون بئس الهدايا! لأنه ربما كان يجود بكل هذه الهبات خداعا، لكي يفهمنا أنه نفسه هو شيء مغاير تماما... نفسه! لكن هل نكترث نحن بما **هو عليه نفسه بصفته هو نفسه**؟ تفضل التجربة الفظة والقذرة، العاجزة عن تماس حقيقي مع هذية ما-يكاد-لاشيء، تفضل أن تتكسر بحماقة إزاء السوابق والنتائج؛ أو بشكل أفضل، أن تتكلم بإسهاب عن القبل والبعد، عن العوارض أو عن ارتداد الصدمة، يصل الذكاء الاستعادي بشكل طبيعي والمتقهقر والبطيء يصل دائما متأخرا بإفراط. أليست علو رتبة التفكير المجرد نفسها هي في هذه الآلية المتأخرة التي تحررنا من الارتكاس الآني ومن الارتجالات الانفعالية بحيث يصير "وقت ردة الفعل" شرط

راحتنا بدل أن يكون سمة جمودنا؟ لكن، واحسرتاه، لماذا يجب أن تكـــون فديـــة القدرة على الانتظار هي التخلي عن الحقيقة الساطعة، أو على العكس بالعكس أن يكون التزامن السابق والمعاصرة تدبيرا لـــ mens momentanea مضطرة إلى تسفيه ردها دون أي استعداد؟ وأيا كان الأمر، فقد قيل إن آلية التأخر ســتصنع معرفـــة متأخرة. وستتحقق وظيفة ما بعد الوفاة هذه آنفا في مجرى البرزخ: إن التفلســـف حول الخلق الجمالي هو بالضرورة تفكير بعد فوات الأوان حول نتاجـــات ومـــا تحت-نتاجات هذا الخلق، بعبارة أخرى حول المخلوق: لأنه كما أن أي عبقـــري، مهما كان عبقريا، ليس بخالق قبل أن يخلق، وبمجرد ادعائه، فإن الشاهد المـــأخوذ على حين غرة، الشاهد الساهي لا تدركه لحظـــة العمليـــة l'operatio المباغتـــة، سيضطر إلى أن يعود إلى opus operatum إذا كان يريد أن يتفلســـف ورأســـه مرتاح؛ لأن العارف ثقيل بإفراط على حدس العملية البهلواني؛ فإنه يفضل تـــأويل ذكرياته حول العامل أو يفضل أن يحلل في الإثر، أي في الأثر "المصنـــوع" كلـــه، رسالة خيالية لا أدري ما هي: لأن الشاهد لن يكون مرتاحا إلا عندمـــا يكـــون باستطاعته إما أن يفيض بالحديث عن الإشارات المبشرة بالوضعية، أو أن يصـــف مورفولوجيا الشيء الموضوع. إن الميتافيزيقا المخيبة للآمال والجماليـــات المخيبـــة للآمال والمنهمكة بالنعوت، لديها حقا هموم أخرى غير الهذية! وسنبقى إذن علـــى جوعنا. وليس فقط لا يعاصر الجزء الثلاثي البتة خلق الآخرين، بل إن الخالق هـــو أول من لا يعود يفهم ما قام به عند فعله: وسيفضل من دون شك أن يقول كلاما منمقا وأن يجعل لغزه الخاص تجريبيا، أو أن يعيد بعد فوات الأوان بناء نسخة مجملة ومطنبة عما يروى. أية سخرية في أن يكون الفاعل نفسه، بصفته يعـــي خلقـــه الخاص، أن يكون عاجزا عن معاصرة ذاته! إن شاهد الخلق في مجـــرى الـــبرزخ، لعجزه عن إدراك الوضعية خلال الواقعة، يصفها بعد الواقعة أو يعيد بناء ما يقـــال إنه عوارض ما قبل الواقعة: لكن إذا كان الوصف بعد فوات الأوان هو نتاج معرفة متأخرة، فإن إعادة بناء ما قبل الواقعة هو نتاج معرفة استعادته- تنبـــؤ أو تـــاريخ قديم، وفي كلتا الحالتين يكون علمنا لاحقا وتاليا. يستطيع المؤرخ على الأقـــل، أن يوجد، بشخصه وتأريخيا، قبل خلق لن يعرف معناه الخلاق إلا بعد فـــوات الأوان. لكن خلق كل الخلق، الخلق التاريخي-النظري واللاتاريخي في آن معا، بالتعارض مع

كل الخلق في مجرى التاريخ، هذا الخلق غير المؤرخ هـو الـذي لم يعاصره أي شخص، حتى في الرزنامة؛ هنا **الأثناء** هي حتما **بعد**؛ هنا لا تعـود ثانويـة ردات فعلنا، إعادة إنتاجاتنا، أو أحقادنا لا تعود إلى بطء الشـجرة العصبيـة البنيـوي والفيزيولوجي فقط، بل هي، وبالتعريف بالذات، قلب مرآوي لأولية جذرية؛ لأن **البادرة** السباقة l'initiative prévenante ليست بدئية **إطلاقا** إلا لأنها المـاضي الذي لم يكن **أبدا** حاضرا! أليست نظرية نشوء الكون كلها لاحقة على اللحظـة الأزلية؟ في أي لحظة وصلنا يكون القرار قد قرر بالكامل، والمرسـوم قـد أقـر، والإرادة قد أرادت، والـ**ـليكن** le fiat قد وضع آنفا كـ factum كحـادث: ومن المبادرة لن نعرف أبدا إلا التالي أو اللاحق؛ بشكل لا تظهر لنا فيه الهبة، والتي كانت بالأصل datio أو منحة إلا **كمعطى** أو datum؛ من الحب لا يحتفظ الفـظ إلا بالهدايا. إذن لا تكفي بهلوانية حدسية لنباغت وهو طائر، وعنـد العبـور، أي حيا، من الوهلة الأولى أو توا، ما هو أسرع بإفراط من أن نجعل منه موضوع تحقيق أو حتى ارتجال: يجب، خارج كل تزامن، إعادة وضع متعاطفة للوضعية.

تدريجيا وبمقدار ما نرى أن اللغز الخلاق ينسل إلى رأس دقيقة في اللحظـة، فإنه يميل إلى أن يختلط مع لغز الموت: لأن اثنين من ما-يكاد-لاشيء، ليس لهما أي مورفولوجية، ولا تباينا تفاضليا ولا أي تنوع في الأجزاء، هما ما-يكاد-لاشـيء واحد بلا تمييز، الشرارة عينها التي برهنا أن الولادة والموت يتطابقان فيها، كـون الاشتعال والانطفاء هما هنا وجهتا نظر حول ما-لا-أعرف-ما هو فريد. فالنيـة أو الميل والاتجاه فقط ما يميز لحظة الولادة من اللحظة المميتة أو، إذا كان الأمر يتعلـق بنقطة ontico-méontique، أصل الوجود ونهاية الوجود: في الموت ينحو الوجـود الى اللا-وجود، من خلال ما-يكاد-لا-وجود، أو، إذا كنـا نفضـل، يغـرق **الشيء-ما في العدم** من خلال **شبه-عدم** الإعدام؛ الذي لا قسمة له؛ وفي الخلـق فإن **اللاشيء** هو الذي يأتي **للوجود** من خلال لحظة **ما-يكاد-وجود**، ما-يكاد-وجود وما-يكاد-لا-وجود، كونهما نقطتين من دون مضمون، يرجعان مـن دون شك، إلى نقطة فريدة يختلطان فيها، لكن هذه اللحظة التي لا تقبل القسمة تشير إلى اتجاهين متعاكسين تبعا لاحتمال كون اللحظة نهاية أو بداية. وبالطريقة عينها، ثمـة لحظة تتساوى فيها كمية النور خلال الفجر وأثناء الغروب؛ ومع ذلك فإن ما-لا-

أعرف-ما-هو، وهو نوع إضاءة لا يمكن تعريفه، تدبير مزاجي استشفافي خاص ينبهنا إلى أن هذه البرهة هي في الحالة الأولى وضع وولادة بينما هي في الحالة الثانية هي "**فجر**" نهار، فجر نهار **على حافة** الهلاك: بحيث أن وعي رمشة العين حتى لو كان يجهل كل صعود الشمس أو هبوطها، عليه أن يقرأ حدسيا في هذا القطع المرهف، الفجر الذي يطلع أو الليل الوليد. لا يتم التفكير بالإعدام ولا الخلق، وإذا فكر "فبفكر" مفرد وغير متناظر، بفكر مستحيل أعرج من دون غيرية وعلاقة مستحيلة من دون ما يتعلق بها -، سواء كان ما يتعلق بها هذا بالفعل أو افتراضيك معبرا عنه أو مضمرا. وبالمقابل لا تتعادل هاتان الاستحالتان، كون مقام الفراغ والامتلاء ينعكس من الواحد الى الآخر: فالمتعلق الناقص هو الثاني في الخلق، بينما هو أول في الإعدام؛ في الإعدام، **العدم** هو الثاني بينما هو أول في الخلق. وتستند حركتا التفكير بالضرورة على أرض الوجود الصلبة، منطلقة بالضرورة من القارة الوسيطة بين الفراغين: إلا أن الموت يعدم قائما - آنفا هنا، مثلما نهاية العالم تعدم العالم المعطى كله-بحيث أن تفكير الإعدام ينطلق مباشرة من هذا المعطى-كله. وعلى العكس، فإن فكرة الخلق يجب أن تتمثل الوجود المعدم في البدء لكي تحاول من ثم أن تباغت إنبثاق شيء ما انطلاقا من اللاشيء: فهي تنطلق إذا من الوجود الى الوجود مرورا باللاشيء، من الوجود كمعطى على-أنه-مفروغ-منه وكشيء موضوع آنفا الى الوجود المشيد بقرار مجاني مرورا بهذا الانتظام الذي هو في الوقت نفسه لحظة انطفاء الكل ومولد فجر موت وولادة، توقف-انبثاق، وأخيرا شرارة! هكذا تفترض فكرة الخلق التغلب على عقبتين بدلا من واحدة، - إلا أن هذين الانتصارين ليسا لحظتين متتاليتين زمنيا في توسط: هذه الحركة المزدوجة، التي كان من الواجب تحليلها، تؤلف في اللحظة تذبذبا حدسيا بسيطا ونبضا فريدا فيها يكون إلغاء الكل ووصول الكل ليسا سوى سلب وإيجاب فعل واحد؛ فالنفي وهو إعادة وضع يطفئ الكهربائية... **وبالضربة عينها** "Lux facta est". ضياع الكل، هو بالفعل عينه العثور على الكل. تفسح المخيلة أولا مكانا صريحا أو تضرب صفحا لتعيد من ثم البناء من جديد، تتتالى هاتان العمليتان لأنهما تفكيك وصنع تجريبيين في مجرى البرزخ، كلاهما الواحدة والأخرى نسبية وجزئية. هناك، على العكس، حيث أن الإعدام جذري، لا يمكن أن يكون الخلق نفسه إلا ميتافيزيقيا:

فهو بالتالي وجه هذا الظهر، والعدم الديناميكي حيث ينبت الوجود بغتة. فكيف لا يكون الموت نبعا لا ينضب للحيرة، هو الذي، بإعدامه الشخص، وبشكل جزئي ينجز كل يوم النصف الأول من اللغز الوضعي؟ لأن الوضعية من دون هذا الفراغ عند الانطلاق، لن تكون إلا امتلاء لنصف-امتلاء موجود من قبل...

ومع ذلك ليس اللغز الخلاق مجرد إعادة لغز مقلوب إلى الجيد، يكون، تحت اسم **الموت**، نظيره السلبي: لأنه إذا كان لا يمكن تصور الموت، فإنه على الأقل لا إعتراض عليه، كونه العبثية التجريبية واقعيا؛ والإستحالة المنجزة يوميا. هذا التحدي للعقل، غير المتخيل على الإطلاق، بل الذي يتم تنفيذه فعليا، هو ما يمكن تسميته بالفضيحة: فضيحة ما لا يمكن تفكره وهو واقعة تجريبية وظاهرة طبيعية... بناء عليه هل ببداهة النهاية الغامضة نعي لا بداهة الأصول الغامضة مرتين. تؤسس حقيقة السلب إمكان الوضعية. في مباغتة فظة مثلما في الجذرية، لا يمكن لأي انقطاع في التواصل الوجودي أن يقارن بالموت: فالموت هو اختفاء الهوية الكامل، بينما الولادة هي ظهور جهاز عضوي غير مكتمل ولا واع؛ كما أن معجزة الولادة الإيجابية، تبتلع نفسها بواسطة التكوين الجنيني والوراثة، في تواصل الحياة النوعية، بسهولة أكبر مما لا تتركه معجزة الموت السلبية يعوض بالأكاذيب المجازية أو المختزلة حول الخلود... وكلما زاد نفاذ بصيرتنا كلما تكشفت سطحية انقطاعات التجريب؛ ويسهب تعمق التجربة دائما أكثر في تواصل لا يتوقف عن ابتلاع وهضم التجديدات الظاهرة والتحولات المفاجئة والأجيال التلقائية وكل انقطاعات الحس المشترك في الانسياب الفريد للوجود المتوسط؛ ولما كان الكل مهيأ، متشكلا من قبل ومسبوقا تميل أولوية العبقري الجذرية الى الانهيار؛ ويمحو النقل والتقاليد المبادرة. وإذا كان البحث التاريخي عند المتقدمين والمؤثرين والممهدين يحصننا ضد دوار البدايات الجذرية، فليس ذلك لكي نبدلها بمبادر جذري radicalissime! يندرج مبدأ الحفظ التاريخي وإعادة الاتصال غير المعرف يندرج خطأ ضد لغز الوضعية اللاتاريخي. وعي الوعي وتفكير مع عارض، تتقدم ميتافيزيقا الدرجة الثانية، لحسن الحظ، لرتق هذا **الوجود** الناقص الذي نتلقاه من التجريب المثقوب كخرقة: سواء أبدلته بكتلة الـ **Esti** (الكيان) البرمنيدي المتماسك والمتلاحم، أو بنسيج العلاقات الشرعية المفصل، فإن ما وراء التجريب، في كلتا

الحالتين يسد علينا طريق العبور الى الـــ **quoddité** ويسكت كل ســـؤال حـــول الإنتاج أو حول الهدف. لم يعد هناك من جنيات، ومع ذلك فإن المـــوت ســـحر سلبي، الموت معجزة معكوسة (لأنه ليس أعجوبة انتاج بل إلغاء وتوقف)، يعـــوض الموت نجاح هذه المؤامرة الوجودية التي تهدف الى اخفاء اللا-وجود الذي يتطلبـــه كل خلق. لأن الموت، بالمصغر على الأقل، وبالنسبة الى الهذية هو عدم الوجود هذا القائم في الوسط الذي يعمل فيه الخلق... ألا تحتاج الوضعية الى فراغ تؤثثـــــه، أو بشكل أفضل الى عدم لكي تضع؟ إلا أن الموت على العكس أيضا يفجر المجانيـــــة والعرضية الأساسية للوجود الإيجابي الذي يعدمه. وهكذا يعيد مرة أخرى غـــــرق الوجود الجزئي بانبثاقه طرح السؤال، الذي تموهه بدقة فلسفة الامتلاء.

VIII - يضع الـــ -ليكن إمكان الفعلية

إن الخلق هو اللغز الوحيد الذي هو أعجوبة في الوقت عينه؛ إذ ليس الخلـــق لحظة معدمة مثل الموت، ولا هو مجرد بداية مثل البادرة المقررة. كما أنـــه ليـــس، بالأحرى، مثل الصناعات التجريبية تنظيم جديد أو نقل للأجزاء، لكنـــه وضعيـــة وجود محضة. ولما كان قد قيل apophatiquement، دون أي شـــــرط إن هـــذه الوضعية الإعجازية هي خارج كل التصنيفات على الإطلاق، وأنها لحظة لا يمكـــن وصفها ولا روايتها - لا يمكن وصفـــها لأنهـــا مـــن دون حجـــم ولا تشـــكل (مورفولوجية)، لا يمكن روايتها لأنها من دون ديمومة، فإننا نكون قد قلنا كل مـــا يمكن إنسانيا أن يقال عنها. لنحدد أيضا: ليست اللحظة لغزا عجائبيـــا إلا لأنهـــا تكون، بغتة، وضعية للماهية وللوجود متصلين معا؛ إن وضع الماهية كموجـــــودة وبالضربة عينها عدم وضع الوجود إلا كجوهري، هذا هو الخلق! لأن من خاصيـة الأعجوبة هو أن تكون في آن معا **ousique** و**ontique**. وإذا كان الخلق يخلـــــق الموجود (ὄν) من دون أن يخلق في اللحظة عينها ماهية (οὐσία) هذا الموجود، فـإن المعجزة المزعومة لن تكون إلا معجزة وثنية، معجزة انمساخ ومجرد تحـــول: ليـــس بالطبع التحول الأضعف لنمط وجود إلى نمط وجـــود آخـــر، مثـــل المعجـــزات الأسطورية، بل التحول الأكبر للإمكانية في الوجود بشكل عام. وإذا كان الخـــالق يخلق الوجود من دون أن يخلق ما قبل الوجود الضروري لهذا الوجـــود، أي إذا لم

يكن يخلق إلا الوجود غير الأساسي، الـ **eïnaï** الفظ والخام، فسيكون الخالق المزعوم مجرد مشكل أو صانع، وسنقع من جديد، مع طيماوس Timée، من **الفعل** إلى **الصياغة**[1]، من المحرك الى التقنية والتشكيلية، من العبقرية الى المعمل. إن العلة التي **تنتج** (أي بمعنى تولد) بعض النتائج طبقا لبعض القوانين، ولكنها لا تبت هذه القوانين نفسها ولا الحتمية العامة، ولا تختار الثوابت التي تستتبعها هذه القوانين، الأبوة التي **تنجب** ذرية بشرط أن يكون هناك آخر قد **خلق-من-قبل** البلاسما المولدة الضرورية ليس حتى للانتاج بل لـ "إعادة الانتاج"، أخيرا، الصانع الذي يحقق في المادة الفكرة التي تصورها فنان: -الثلاثة كلهم يقلدون تقريبا وفي مقولات التواصل والحفظ والهوية التجريبية وضعية وجود ليست وضعية خلاقة إلا لأنها **بفعل الواقع** وضعية لإمكان هذا الوجود. يقتضي كل إنتاج تجريبي وجودا-سابقا يسبقه وهو بالضبط ماهيته: سواء كان عثورا على قائم-هنا-آنفا، أو إخصاب بذرة معطاة بالكامل، صياغة لخواء لا متشكل أو تنفيذ حدس سابق، تنشيطا أو إطلاقا لطاقات كامنة، وهو في كل الأحوال ليس سوى بديل عن الخلق. فالنحلة التي تفرز العسل لم تخلقه **من العدم ex-nihilo**، لكنها استخرجته من رحيق الأزهار... ثمة عالما بين الـ-وجدتها Heuréka الإبداعية، وهي اكتشاف، وبين الإختراع الإلهي! ومهما أشار ليبنتز، إلى أن الذهن الإلهي شبيه بعلبة العجائب والحيل، علبة الأفكار العبقرية وحانوت امكانيات الخلق، فإنه لن يتوصل إلى أن يميزه عن أي- Heuréka وجدتها الشائعة ... يركب صانع الطيماوس دائرة **عين ذاته** ودائرة **الآخر**، اللذين يجدهما موجودتين آنفا هنا: لكن كيف وجدتها الشائعة هنا؟ ومنذ متى؟ ولماذا؟ نعم، لماذا "نوعان" بدلا من خمسة؛ مثلما في **السفسطائي** le sophiste، أو أربعة مثلما في **فيلابوس** Philèbe؟ يؤكد تعلق أفلاطون Platon بعالم "النماذج" أنه ليس هناك وجود لا يسبقه وجود-من قبل، وليس من "خلق" لا يقتضي ترسيما مسبقا، صورة مسبقة، ومفهوما مسبقا أو تصورا مسبقا. أما فيما يخص الاختراع السابق نفسه لهذا "قبل" pré نفسه، فإنه ليس إشكالا أفلاطونيا. والحال، لا يسبق ما قبل الوجود المبادرة بمقدار ما لا تسبق المبادرة ما قبل الوجود؛ ومن نمطي الأسبقية، السابقة الوجود والمتقدمة، فإن السالف المتقدم هو الأكثر

(1) Ποιεῖν-πλάττειν. Cf. 28 *a-c* : ἀπεργάζεσθαι, ἀποτελεῖσθαι, τεκταίνεσθαι.

حسما، لأنه فعل ما قبل-جوهري، وهو بالتالي أول الكل وآخر كلمة فيه، بعده لا يعود هناك مجال إلا لقول: يجب التوقف، ἀνάγκη στῆναι ، أن يكـــــون وجـــودا سابقا، لا يعني الابتداء، بل متابعة الوجود ووجود إلى ما لانهاية، - بينما المبـــادرة مجيئا، أي قدوما، حدثا وتأسيسا. أليس هذا الـــ-قبل، وهو عكس حالة، أليس هو البادرة الوحيدة الكلية الرفعة، والتي لا يمكن حرفيا التقدم عليها؟ أليس هو الحقيقي والـــ origo originum الوحيد[1]؟ يقول أفلاطون Platon بصراحة: إن أكبر شيء هو البدء مـــــن البدايـــة الطبيعيـــة، μέγιστον παντὸς ἄρξασθαι κατά φύσιν ἀρχήν[2] والحال، فإن "سفر التكوين" La Genèse، وليس طيماوس Timée البتة ولا **نسب الآلهة**، من يبدأ من البدء ومن يواجه حقا لغز الاستهلال! وبالتالي، فإن **الخـــالق في سفر التكوين** لا يستخرج النور الحقيقي من النور الممكن، ولا يحمل إلى الفعـــــل نورا بالقوة، ولا يحشو ماهيات سابقة الوجود، ولا يملأ إمكانيات معطاة سابقا: بل هو يخلق بالضربة عينها وبفعل واحد النور الفعلي لأجهزة التنوير وإمكانية الإنـــارة؛ في اللحظة عينها يخلف النور الجسماني-نور الشمس الذي يطلع النهار، ونور البرق الذي يمزق كبد الليل - ويخترع فكرة النور نفسها... لقد آن الأوان لنقول: كـــان من الأجدر التفكير بذلك! أفضل من ذلك: إن يهوه Jéhova، وهو يخلق، يخلـــق فكرة الخلق نفسها. هذا الخلق هو وضعية عبقرية وعبقرية-فذة، تدفـــق نظـــري، إرتجال متزامن مع الفعلية ولإمكانية هذه الفعلية. ليس لخواء **نسب الآلهة** فكـــــرة خلق شيء ما، ولا يقرر[3] بنفسه أن النور سيكون، وذلك بالضربة عينها، لكنـــه "ينجب" إيروبوس Érèbe **والليل** المظلم اللذين سيولدان بدورهما **النهار والأثـــير**: ليس ظهور النور العجائبي والعبقري هو الذي، بإنارته الفراغ، (لأنه لا يوجد بعـــد أشياء لإنارتها) سيطرد الظلمات ويقسم النهار والليل؛ إن القوة المولدة بـــالأحرى هي التي تنقل، مثل وراثة كامنة، ومن دون مقررات صاعقة، من جيل إلى جيـــل، مشرقة شيئا فشيئا، تتالي أشكال الوجود سلاليا، أو بصورةٍ أفضل تترابط تلقائيـــا على خلفية وجوهر وجود-سابق. لا تحقق المبادرة المحض، الإمكانيات المندرجـــة

---

(1) GRUA, op. cit., I, p. 363.

(2) Timée, 29 b.

(3) "Per voluntatem, dirait saint Thomas, et non per necessitatem naturae".

بالتنقيط في خواء الوجود-السابق، كما أنها لا تمنح الأشياء قيمة سابقة الوجود أو مثالية قد تكون حاضرة -هنا-آنفا أبديا: كلا، إن الفعل السباق يخلق بنفسه القيمة التي يعطيها، ويخلقها **ليس** ليعطيها، بل **وهو** يعطيها، فهو يمنح شيئا ما لم يكن موجودا على الإطلاق قبل منحه، ولكنه سيبدأ بالوجود منذ لحظة منحه وبفعل المنح بالذات: إن فعل المنح بالذات إذا هو خلق، هبة الشيء المعطى نفسها هي وضعية أو ارتجال لشيء ما للعطاء، وقد إتفقنا أنه لن يكون هناك شيء للعطاء ما لم يكن هناك عبقري كريم ومخترع الهبة في آن معا؛ يخترع هذا العبقري شيئا فشيئا ما يكافئ به ويسخو به بمقدار ما يخترعه -، لأنه إذا احتفظ لنفسه بما يخلق، مثل بخيل، فلن يكون ما يزعم أنه مخلوقه إلا خاصية له أو ملكه، ولن يكون المخلوق المزعوم إلا استملاكا أو استئثارا بملك سابق الوجود، لشيء يمكن امتلاكه، ميراث يدور أو خير في ذاته؛ وإذا كان يتلقى من الخارج أو من آخر ما يعطيه، فإنه لا يكون يعمل إلا بالنقل، ولن يكون كريما على الإطلاق، بل مبذرا لخيرات غيره. والحال، فإن الخالق هو واهب، الخالق ليس بموزع أو بمقسم جوائز، يثبت التعرفة والدرجة، يميز الأوسمة والرتب تبعا للعدالة، الخالق هو مصدر القيمة الحي ووضعية مقيمة لكل القيم، أي أنه يصنع قيمة القيم وقيمة هذه القيمة الى ما لانهاية، إنه يفعل عموما ما يجعل للقيمة قيمة. لهذا ربما كان أفلوطين Plotin يقول عن **الواحد** l'Un إنه "قبل ما هو الأثمن" ...πρὸ τοῦ τιμιωτάτου [1] ليس فقط لأنه سباق، بل لأنه مبرر، ولا يحتاج هو نفسه لأي تبرير. إن هذا هو ما يجعل كافة القيم مشروعة، ولهذا لديه الكثير من التجانس مع الحب: لأن الحب ليس بحصر المعنى أثمن كل "الخيرات"، الحب هو، ولنقل ذلك بشكل أفضل، ما بدونه لا شيء يستحق العناء؛ يقلب الحب لياقة حق تصدر الوجود، التي تقول إن ما يحب هو الذي يجذب الحب... إن المخلوق، وهو الثانوي في كل مكان، **يقيم**، أي بمعنى أنه يثمن أو يقدر القيم الموضوعية التي يعتقد أنه يجدها في دائرة الحق المعقولة: أما المبادرة السباقة، فإنها **تقيم** القيمة، بعبارة أخرى "تبرزها" "efficit ut valeat" وبالضربة عينها، تجعلها تشع في الوجود كمعيارية مكونة؛ لأن الخلق والسخاء هما

---

(1) Enn., VI,. 9, 5. Cf. VI, 8, 18: ... ἓν τὸ δέον καὶ ἡ τοῦ δέοντος ἐνέργεια. Τοῦτό ἐστιν, ὅπερ οἷον ἐβουλήθη αὐτός.

أمر واحد بالنسبة لهذا المصدر المشع. ليس هناك من خلق آخـــــر إلا في الشـــكل العملاني للحسنة. يأخذ **الفعل المنجز** قيمته من الحق، إلا أن هذه القيمة بدورهـــا **تأخذ** مصدرها **خلال- الفعل** فوق الطبيعي لأول **ليكن** fiat، - أو إذا كان مـــن الأفضل: يبرر المعيار القوة، لكن المعيار نفسه ينبت في الفعلية السباقة لأول قـــرار. وكما أن الخلق يستبعد حتى إمكانية **السابقين**، كذلك قلما يهتم العبقـــري بمـــن **سبقه**: **يجرؤ** العبقري على ما لم يسمع به، على غير المنشور وما لا يمكن تصـــوره كأنما يشعر مسبقا أن بادرته ذاتها ستصير بالضربة عينها سابقة علـــى غيرهـــا... "التجرؤ" هو ضد-الطبيعة بالطبع، لأن البدء هو فعل فوق الطبيعة المغامر. إن مـــن يخلق **بالضربة عينها**، الوجود وفكرة الوجود نفسها، سيكون إذا قد جعل، **بعـــد فوات الأوان**، هذا الوجود بالأولى ممكنا: لأنه بعد فوات الأوان، وبإعـــادة بنـــاء استعادية يفصل المخلوق عن نفسه في الماضي فكرة عن ذاته هي فكرة إمكانيتـــه، كأنما الخالق، كان قد نـــزل من الممكن الى الفعل... إن المخلوقات العبقريـــة في مجرى البرزخ تثبت كليا، بهذا الخصوص الإسمية البرغسونية: لم يكن الخلق، قبل أن يكون فعليا، لم يكن حتى "ممكنا". بمعنى أن أحدا لم يكن قد حلم به ولا حتى فكـــر به فقط، إذ سيكون الخالق قد خلق أثره بعد فوات الأوان-كون الممكن هنا هـــو تنبؤ بـــ "المستقبل السابق" - وفق تشريع مثالي. إن فكـــرة الممكـــن التصـــوري وأسطورة بعض الهامشية بين التصور والواقع هي التي، بتحويلها الخلق الى مجـــرد حشو أو تكثيف للفراغ، تثقب الامتلاء المعاش وتخففه. لا يكذب الخلق، بصفتـــه وضعية متزامنة عبقريا للماهية والوجود، لا يكذب هذا الامتلاء بل إنه على العكس يؤكده: أليس الحدس البرغسوني، الذي يثقب للحظات سقف البرزخ أليس هـــو نفسه تحية للارتجال السباق؟ يشير حدس خالق ليس الوجود فقط، بل أيضا، ما قبل الوجود الأساسي لهذا الوجود، يشير مرة أخرى أيضا، أبعد من كل الكواكـــب الى **Ipse ipsissimus** التي هي هدفنا الدائم: Ecce creator ipse، هذا هـــو أخـــيرا المؤلف **بنفسه**، ذاك الذي ليس فقط فاعلا محضا، لكنه وضعية محض وبادرة بدئيـــة تماما. ليس الله نائب-خالق مكلف بتنفيذ مخططات **الخالق**، ومكلف في هذه الحالـة بإعداد نمط الكون الممكن المشتمل على مبدأ الهوية وقضية فيتاغورس؛ ليـــس الله بالسلطة التنفيذية والتابعة الداخلة في خدمة فاهمة أبدية منهمكة بتصور عالم تكـون

فيه أ تساوي أ. و π = 3,1416 وحيث مربع الوتر المثلث يساوي مجموع مربعات الضلعين الآخرين وبالضبط يساوي هذه الكمية بالذات بدلا بالأحرى من أخرى (potius quam!...)، بدلا من أكثر قليلا أو أقل قليلا مثلا؛ لا يملأ الله المفاهيم - concepta - التي يكون آخر قد تصورها. ولا يحقق أسماء -المفعول-السلبية للعالم المعقول، لكنه هو نفسه من يتصور، concipit؛ والله ليس مكلفا بتسخين الأطعمة الجاهزة، وفي هذه الحالة ليس مكلفا أن يجهد لتكثيف إتقان أو كمية الوجود بإعداده مع صلصة ما قبل الوجود البيضاء بإفراط، إعداد قطعة الوجود المركبة، حلوى الكوسموس الهندسية، والله أخيرا ليس "سكرتير" خالق ينشغل بترتيب مفاهيم "صاحب العمل"، وبترقيق الأفكار الجاهزة وبإعادة اجترار المهمة المجترة آنفا، بكلمة بتوسيع المشاريع التي سبق تحضيرها، أو بتطبيق النماذج المصنوعة سابقا... لاشيء من هذا كله! الله هو المخترع نفسه. إن هذية أكثر عبقرية، علة أكثر مباشرة، أكثر جذرية، أكثر فعلية، هي غير موجودة. إننا بالنسبة الى هذه اللحظة العاملية، هل يجب تكرار ذلك؟ نشبه الحجاج الذين قدموا من البعيد البعيد ليروا الملك والذين لا يعرض لهم إلا الحجاب المزركشون، أي النعوت المفخمة والعلل الثانوية والوكلاء التابعون؛ لكن الحاج يعاند في غرفة الانتظار، لأنه لا يريد رؤية المأمورين، فهو يطلب أن يرى المعلم نفسه؛ αὐτός .ذاك الذي ليس ملكا فقط، بل، وكما كان يقول أفلوطين، ملك الملوك،βασιλέων Βασιλεύς، وحتى ملك هذا الملك الى ما لانهاية، وأصل كل الأصول. مع هذه الأولوية نفسها ينتهي التراجع من موضع الى موضع ومن مغاير الى مغاير.

IX - الـ - ليكن يضع فعلية الإمكان

يخلق الخالق الوجود على أنه جوهري، ولهذا السبب، ولما كان الخلق بالأحرى هو تبرير كاف للوجود المخلوق، يتضح بعد فوات الأوان أن كل وجود هو شرعي وممكن؛ لكن على العكس أيضا فإن الخالق هو من يضع الماهية كفعلية ويضعها جديا. الخلق، هو في اللحظة عينها، وضع لإمكان الفعلية ولفعلية الإمكان؛ إنه وضع لـ ousia ousa. لو كانت اللحظة النظرية وضعية بسيطة ومباشرة لوجود غير جوهري، فإنها لن تكون أكثر من تلاعب ونقل أو صنع أو مناورة؛

لكنها لو كانت وضعية بسيطة لماهية غير فعلية أو لإمكانية عارية ومجـــردة، فإنـــه سينقصها المقدرة؛ لو كانت تخلق. (لكن هل يبقـــى مـــن الممكـــن أن نقـــول: "الخلق"؟) الماهية العارية، بعبارة أخرى - الإمكانية الفكرية والمفهومية وحدهـــا، فإنها لن تمضي إلى نهاية الفعل الخلاق، وستشبه عبقريا مزيفا لا يخلق إلا مســودات غير متشكلة وخاما: لأنه مثلما يمكن للفشل أن يعرف بأنه خلق مجهض غير قـــادر على منح الوجود الفعلي، كذلك فإن الجهيض نفسه هو ذرية - مزيفة غير قـــادرة على بلوغ وجود قابل للحياة؛ لكن بما أن اللحظة الخلاقة هي بدورها صنع معجزة مباغتة تستبعد كل تتال للحظات وتضع بضربة واحدة ما تضعه، وتحسم بحـــدث مفاجئ ثنائية التبادلية "الكل-أو-لاشيء" و"حالا-أو لا - لا على الإطلاق"، ينجم عن ذلك أن خلقا غير مكتمل لم يكن حتى قد بدأ؛ وأن وضعية لا تصل الى هدفها ليست وضعية على الإطلاق. إذا كانت الوضعية خلقا **فعالا** حقا، فعليها أن تضـع مخلوقا **فعليا**، وليس، مثل العلة **الفاعلة** البسيطة، مجرد **معلول**. الله لا "يفعل" مـــن دون أن **يفعل الوجود**، بالضربة عينها: لأنه وقد صار مقبولا أن التحـــول مـــن النقيض الى النقيض بقرار ثوري لوضعية تنفي العدم، أن يتم مرة واحدة وليـــس في زمنين، فيجب الاستنتاج أن الخلق هو، ماديا، **فعل** الوجود. فالـــ-**ليكن le Fiat**، إذا كان **ليكن** جديا، وليس ذبذبة أفلاطونية ولا بروتوكولا أكاديميا، ألا يكـــون، اليكن نفسه، هو الحدث بامتياز؟ والعكس بالعكس ألا يستتبع كل حدث طريقـــة في الـــ-**ليكن**؟ الـــ-**ليكن** إذن هو فعلية تضع الفعلي، حدث يرسي وجـــودا: إن الـــ-**ما-يفعل بنفسه** والحادث **Factum**، وهما متشعبان من **الـــ-ليكن**، ليسا إلا نفس فعلية وحيدة، فعلية تنبثق في الوضعية وفعلية مجمدة في المخـــزن أو إســـم-مفعول-سلبيا هذه الوضعية. وإذا لم تكن الوضعية فعلية جذرية، مثـــل المبـــادرة السباقة، بل كانت فعلية تجريبية-افتراضية، فإنها لن ترتب إلا إعـــادات-تنظيـــم سطحية على سطح الوجود أو في مجرى التواصل؛ وإذا كانت مجرد فكرية معقولـة، فإنها ستكون، مثل الماهية من دون قوة، شرط إمكانية، لكنها لن تكون وضعيـــة وجود ولا قوة "موجدة"؛ وإذا لم تكن أخيرا تضع بنفسها الفعلي، فإنها لن تكـــون خلقا على الإطلاق، بل مجرد حلم أو خرافة ظريفة لآلهة **المجاز**. ثم إنه ألا يتنـــاقض مع تعريف فعل-الوجود نفسه أن تكون الماهية مخلوقة وتبقى مع ذلك ماهية محضا،

أي بمعنى إمكانية عقلية (noétique) وغير فعلية؟ لأن الماهية الجوهرية المحض، بصفتها لازمانية وتبقى أبديا بين المعقولات، هي بالضبط حقيقة غير مخلوقة. من اللحظة التي يقبل فيها اللغز غير المفهوم والمسبب للدوار، والمبالغ لماهية أبدية ومخلوقة في الآن عينه أو (وهذا ما يرجع للأمر عينه) الخلق مؤسس للأبدية، من اللحظة التي يتم التساؤل فيها حول أصل المسلمات الجذري، فإن ذلك يتضمن أن تملك الماهية نمطا من الوجود المجاني والاعتباطي. إن خلق الماهية، هو على الأقل خلق لواقعة الماهية ولإمكانية أن يفكر بها فكر ما بشكل عام: لأنه من دون هذه الإمكانية بأن يفكر فيها حيثما كان، وفي أي وقت كان، وأي كان، لن تكون الماهية حتى ماهية؛ ومع أن الماهية كضرورة ملازمة، هي شرط أساسي، إلا أنها غير مشيدة للموجودات، ومع ذلك فإن الماهية بشكل عام هي شيء ما موجود في كون فعلي حيث الحتمية، وحيث الثوابت، والمبادئ والفرضيات هي بالضبط ما هي عليه. فالخلق، إذن، ليس فقط وضعا لفعلية تجريبية لهذا أو ذاك مما يمكن تعينه تبعا للزمان والمكان، إنه أيضا وضع وجود شيء ما بشكل عام، وضع واقعة إنه بشكل عام ثمة شيئ ما: عالم، كون من العوالم وكون من الأكوان الى ما لانهاية؛ إنه أخيرا وضع لهذه الإمكانية غير المعرفة للأحداث العقلية التي هي حقيقة أي شيء كان، حيثما كان وفي أي لحظة كان. فهل يتوقف الخالق صدفة، مستخفا بالذهاب حتى الفعلية، عند منتصف الطريق، شأن ملحن مشمئز لا يكتب سمفونيته بنفسه ويعطي مواضيعه واكتشافاته الى سكرتيره لكي يوسعها؟ لكن هناك أمرا من اثنين – فإما يكون على الملحن أن يكتب بنفسه من الألف إلى الياء كل السمفونية –، أو أن التلميذ نفسه عليه أن يكون هو الخالق بنفسه[1] (... إلا إذا كنا نفهم التلميذ على أنه مجرد الناسخ أو الحفار). كلا، لا يخلق الله ماهيات تبقى أيضا بحاجة إلى أن تمر بمحترف آخر، بين يدي اختصاصي آخر، ليصير الترسيم الافتراضي آية حاضرة! – لنا الحرية بعد ذلك، إذا كنا نفضل الأسلوب التحليلي والتربوي، بأن نوزع الدورين بين إلهين، وبأن نقسم على الأخص مهمة توليد الوجود **(ontogonique)** بين خالق ماهيات وخالق موجودات، بشرط أن نحدد أن مفارقة

---

(1) H.BERGSON, Le Possible et le réel (La Pensée et le mouvant, p. 110): "Si je savais ce que sera la grande œuvre dramatique de demain, je la ferais".

الخلق التي لا يمكن النفاذ إليها هي بالضبط في عدم إمكانية تجزئة هذين الاختصاصين. هنا لا يوجد تقسيم للعمل ولا فصل للسلطات. لأنه كما أن الله والألوهة déité ليسا، عند التيوصوفيين، إلا لحظتين متزامنتين أبديا، لنفس الآلهة ونقيض تعدد آلهة وليد، كذلك لا يوجد في الأصل إلا لحظة أساسية ووحيدة، لحظة تفعل الكل، وتكفي الكل، هي وحدها علة ضرورية وكافية للكل. إن فكرة الثنائية نفسها أو الحكم الثنائي هي تشبيه إنساني يتحقق من دون شك في دومفير(*)، ولكنها تناقض تعريف **المطلق**. عمليا تؤدي ازدواجية الوظائف إلى أن يسحب من الإرادة الإلهية عالم الحقائق الفكرية والماهيات الأبدية غير المخلوقة تماما، من جهة، ويشجع من جهة أخرى، مع الجمع الأسطوري، أوليمب التحولات الظريفة، والتطعيمات السخيفة والاجتثاثات، والبتر. تشبه اللحظة ما وراء المنطقية، بالأحرى، هذا القرار الذي لا يمكن سبره، الذي تكلم عنه، بعد ديكارت، بيار بواريي Pierre Poiret[1] والذي يخنق في البيضة كل جمع: لأن البساطة التي لا تقسم والعجيبة لوضعية هي، ولا ننسى، ما-يكاد-لاشيء، تستبعد مفاضلة تعدد ألوهية الإسنادات وتملك النشاطات مثلما تستبعد تحلل اللحظات المجتهدة وتحليل العمليات التقنية؛ ليس هناك من مكان لانشغالات متنوعة، مثيرة ومتكاملة، عندما يعمل بصرامة قانون الكل-أو-لاشيء: يضع سحر اللحظة الدقيق دفعة واحدة كل الوجود وتعدد الموجودات. تنفصل الفعلية والتصور Efficio و concipio في الجهاز العضوي الإنساني، لأن هيئة مكتب وأجهزة محركة متخصصة تتوزع المهمات: ومع ذلك فالقرار الأخلاقي ينبثق، خاصة في حركة التضحية القصدية، ينبثق في وسط نظام الثنائية كشاهد على اللاتجزؤ الميتافيزيقي **للتصور والفعل**: لأنه إذا كان الخالق الجمالي بإمكانه نظريا، أن يحتفظ لنفسه بأولوية الحدس أو الإلهام موكلا التنفيذ الى عمل يدوي، فإن الخالق الأخلاقي، الذي لا ينغمس بنفسه في الفعل، ولا يفعل بنفسه ما يقول، ولا يقدم المثل شخصيا، هذا الخالق ما هو إلا متذبذب أو متظاهر بالتقوى. فالقرار الإلهي هو نقطة التوهج التي يستهلك فيها التقرير آنيا، كونه لا يملك وقتا استدلاليا للتهجئة،

(*) حكومة الرومان في دومفير (م).

(1) De l'économie divine (Amsterdam, 1687).

وحيث لا يشكل التصور والتنفيذ إلا معجزة وحيدة، وحيث لا تعـــود النظريـــة والتطبيق إلا ارتجالا وحيدا و"محركا" وحيدا.

X - الارتجال الإلهي

"ثمة شيء ما بسيط في هذه النقطة، بسيط إلى ما لانهاية، بسيط بشكل غـير عادي لدرجة أن الفيلسوف لم ينجح أبدا في أن يقوله، ولهذا فقد تكلـــم طـــوال حياته"[1]. إن ما يقوله برغسون Bergson هنا بشكل رائع عن الحدس ينطبق أيضا على اللحظة الوضعية التي هي موضوع الحدس بامتياز، التي هي الحـــدس نفســه بصفته يتطابق في نقطة التلاشي مع أعجوبة الوضعيـــة الأصليـــة.: "Attingitur inattingibile inattingibiliter" هذه هي العبارة التي اختار الفيلسوف الروســـي سيمون فرانك Simon Frank أن يصدر بها أبحاثه العميقة حول الـــ-ما-لايمكـن-لمسه (l'Inattingible) [2]. قلنا، إن الماهية هي الحاضر-هنا-أبديا[3] لا تصـــرف الماهية فعل وجود الموجودات العارضة، لكنها هي الوجود-بوجه-عام الذي يقـابل له ببساطة: (Esti)؛ (كيان)؛ فالماهية ليست "مؤرخة" "datum" تاريخيا معطـاة في هذا التاريخ أو ذاك، لكنها "ما-قبل-معطى" إلى ما-لا-نهاية. إن خلـــق حقيقـــة أبدية، لا يمكنها، بالتعريف بالذات، أن تولد في الزمان، هو إذن معجزة، إذا كـــان صحيحا أن المعجزة بامتياز هي التناقض ممجزا... ألا تجد الضرورة حرفيا أساســـها في المعجزة؟ والمعجزة، في هذه الحالة، هي بداية ما لم يبدأ على الإطلاق، وتكون ما لم يولد واللاتاريخي تماما. لا يكرم الخلق الإنجيلي الخالق إلا إذا وضع، مع الســماء والأرض، الوجود الآيلي بشكل عام: وفي الـــ hexaméron الآيات الستة هـــذه (آية مادية في كل يوم)، في أسبوع الخلق الكوني المحض هذا لم يخصص أي يـــوم لخلق الماهيات؛ فمن البديهي أن يكون مبدأ الهوية مفترضا ضمنيا قبل كل بدايـــة. يستدعي الوجود الأيلي، باستبعاده كل صيرورة، يستدعي صنع المعجزات المبـــالغ للمبادرة الجذرية. والماهية مع أنها توسع التبعات إلى ما لانهاية، فإنها لم تصنع مـــن

(1) L'Intuition philosophique (La pensée et le mouvant, p. 119).

(2) Nepostijimoté (en russe), 1939.

(3) 'Αεί : ἀίδιον, αἰώνιον.

هنا وهناك؛ ليس للماهية أجزاء، كما أنها لا تصنع من تجميع القطع؛ ليست الماهية ولا المعنى بأكثر أو أقل، بل إما يوجدان أو لا يوجدان، والفصل الهاملتي لـ الكل-أو-لاشيء وفي-الحال-أو-أبدا، الملازم للاتجزؤ الحقائق والمسلمات، هو الذي يفسر البساطة العجيبة لمبادرة ما قبل أساسية على الإطلاق. وما يصح على الخلق المفارق لغير المخلوق، أي ما وراء التجريب (لأنه بإمكان الخلق حرفيا، وهو عملية لكلي القدرة، حرفيا أن يخلق كل شيء بما في ذلك المستحيل)؛ يصح أيضا على واقعة التجريب بشكل عام. فهذا المشهد المزدوج التجريبي-ماوراء التجريبي "ليس" لوحة وشكلت بلمسات صغيرة، أو بإعادة لمسات، أو أنها نتجت عن إتقان ما مجتهد. يشبه وبالأحرى انبثاق الماهية الموجودة والوجود الجوهري إرتجالا، ليس هذا الارتجال المتردد لمخلوق يخترع تدريجيا ما يفعله، ويصير حدادا وهو يحدد، لكنه بالأحرى ارتجال مطلق يضع فيه المرتجل بضربة واحدة ومن دون وجود سابق وفي آن معا، الإمكانية والفعلية، يتصور الفكرة ويحققها بنفسه، يخلق أخيرا ذرية ناضجة ومكتملة. ربما كانت نظرية المخيلة السحرية عند بوهيم "Bœhme"[1] و"نوفاليس" Novalis وباعدر (Baader) وشيلنغ Schelling أيا كانت درجة مجازيتها، أقرب إلى "mysterium"من خالق "طيماوس" Timée. لأن هذا هو سحر الفعل الإلهي schelling Verbum divin : ليكن Fiat، كلمة الخلق الواضعة، ليكن Fiat، المقطع الأحادي السحري يشبه أمنية، ما أن يتم تصورها حتى تكون قد نفذت آنفا. ليس هناك من انتظار، وما من جهد! إن Esto, Sit, Fiat ، ليست أوامر في الضمير المخاطب، أي أوامرُ موجهة الى سابق وجود لا يكاد يوجد، حتى يؤمر بأن ينوجد أكثر؛ لا يطلق هٰذا الأمر آلية ضرورية لكي يصير **القليل**، بفضل تلقائيته الخاصة، **كثيرا**، لكي تنمو البذرة أو تنشط كلا، فالـ-ليكن، في غياب كل شريك أو تابع أو متعلق هو أنت الخاص به، لا يمكن لـ-ليكن أن يكون إلا أمرا سحريا للضمير الغائب، Dixit منطوقا في الصمت والفراغ، أخيرا، كلاما موجها الى **لاشيء** وإلى **لا أحد**، لأن هذا الكلام يخلق محدثه المستقبلي بالضبط عندما يتكلم معه: لا يتكلم الكلام لأي شخص...، وفي اللحظة

(1) A KOYRÉ, La Philosophie de Jacob Bœhme , p. 347, 377; E. SUSINI, Franz von Baader, t. II.

التي يتكلم فيها (Dixitque Deus) [1] يصير الكلام خطبة. هـــذه هـــي المناجـــاة السحرية في صحراء كل غيرية: ليس الضمير الغائب ضميرا مخاطبا إفتراضيا يصـــير مخاطبا بالفعل؛ وليس الضمير الغائب حرفيا بـــ "أحد" οὔτις ويتحول هذا العـــدم آنيا الى غيرية بفعل الأمر العجائبي. لا يقول الله أبدا: لو أضيء هذه الظلمات؟ لأن فكرة الظلمات نفسها تفترض ضمنيا انتظار النور والاستعداد لتلقيـــــه وإمكانيـــة النقيض الذي سينفي الظلمة. لا يقول الله لو أصنع غيرية لأعمر هذه الوحـــدة؟ لأن فكرة الوحدة نفسها تستتبع بالتنقيط أو ما بين السطور صورة الغيرية الافتراضيـــة. لكن الله يرتجل النور بعبقرية، النور الذي لم تسبقه حتى فكرته، ويضعه مرة واحـــدة كفعل وكإمكانية مجتمعين. يتصور الله، أو يستبق التصور - فتكــــــون الأشـــكال حاضرة. ولا يشترك هذا السحر غير المتعدي بأعجوبة في شيء مع العليـــــة الـــتي تنطوي دائما على وجود المعلول الافتراضي مسبقا وتفعيل إمكانية ماثلة. وبينمـــــا تجد أفعال التجريب مفعولها موجودا قبلها وتعمل على مفعول به يكون حضــــوره آنفا لها ولموضوعها ولجوهر عملياتها، فإن **الخلق** أو **فعل-الوجود** يضع بنفســه، في عملية مطلقة مفعول خليقته: يدخل النسبي في صلة تجزيئية مع ما يتعلق به، ليحولـه أو ليكثفه، لكن يخترع لنفسه ويصطنع ما يتعلق به خاصته... أليس هذا سحرا؟ لـو كانت المخيلة خلاقة تماما، و لم تكن أبدا تعيد الإنتاج على الإطلاق ولا مكملة ولا محولة، ولو كان الإحسان محض نعمة، ولو كان التصور يتأمل المعلولات القادمـــة، ويجعلها بالضربة عينها، فعلية بسحر آني فلن تعطينا أيضا إلا فكرة ضعيفـــــة عـــن القريحة الإلهية لأن العملية الجوهرية (πρωτουργὸς κίνησις) ، والمبادرة المسببة للدوار التي تجعل الوجود ينبثق في لحظة، هي شيء ما يشبه الله المتحمس. ليس الخلـــق إذا "آية" بحصر المعنى، ولا الـــ -ليكن le fiat بعرض قوة؛ وإذا كان الخلق آلية معقدة، فسيكون في ظهوره شيء ما يستدعي الإعجاب: والحال، فالوجود المنبثـــق مـــن العدم، ex-nihilo، وهو الأكثر بكثير من بنية العين، والأكثر بكثير من أي جـــهاز عضوي، هو فعل بسيط الى ما لانهاية. فالخلق ليس بمأثرة إنه معجزة. كذلـــك لا نشعر أمامه بإحساس جمالي يوحي به جمال لا مثيل له أو نجاح موضوع صنـــاعي، بل نشعر بالأحرى بدوار ميتافيزيقي يتملك الانسان في حضور لغز لا إسم له.

---

(1) Καὶ εἶπεν ὁ Θεός (Septante)

XI - "لأنه كان بارا"

أخيرا، لماذا خلق الله شيئا ما؟ لماذا كان عليه، بعد كل حساب، أن يضع الغيرية بدلا من أن لا يضعها على الإطلاق؟ لقد أجاب "**طيماوس**" Timée، من دون أن يقصد ذلك صراحة، عن هذا السؤال. **لأنه كان بارا** Ἀγαθὸς ἦν [1]. قد يعتقد من دون شك أن هذا ليس بسبب. لكن وبالضبط أليس غياب السبب هو السبب هنا؟ والحق يقال، إن طيبة الخالق الأفلاطوني هي بالأحرى تكريم للجمال، بمعنى لوجود سابق لنموذج أبدي ... : إن هذا العالم جميل (καλὸς ἐστιν ὅδε ὁ κόσμος, ὅ τε δημιουργὸς ἀγαθός) **فالعامل** بار لأنه ينسخ نموذجا غير مولود يثبت عليه ناظريه. ربما كان من الممكن مواجهة هذه الطيبة الثانوية التي يستقطبها مقام غير مخلوق[1] بطيبة سباقة تكون انبثاقا للمقام نفسه ووضعية اعتباطية للجمال. **الخير** وحده بر والجمال سناه، أو، كما يقول أفلوطين: **الخير** هو ما وراء الجمال ومصدره. τὸ δ᾽ἀγαθὸν τὸ ἐπέκεινα καὶ πηγὴν καὶ ἀρχὴν τοῦ καλοῦ[2] وبوضوح أشد أيضا من "مبحث الجميل" "Traité du Beau" تحدد سادس **التاسوعات** Ennéade، أن النور النهاري φῶς μεθημερινόν، هو لاحق أو ثانوي: ὕστερον[3]. أليس الجميل، وهو سناء مشع (ἔκλαμψις) ، أليس هو بكامله تألق وجودي واسم-مفعول-سلبي للوضعية التي لا يمكن سبرها؟ وكان أفلاطون، يعتبر النور والحقيقة جنبا الى جنب ومتشابهين، على أنهما وسيط، جلاء معلن، سناء من مادتين متألقتين هما **مثال الخير**، مؤلف الحقيقة، والشمس أب النور: لكنه لم يكن قد أخضع الجمال المثالي نفسه لفعل الارتجال المظلم وغير المرئي واللامتشكل. وفي الحقيقة، فإن الأسئلة التي لا طائل منها حول الـ-**لماذا**؟ هي فدية اللاهوت العقائدي وأحكام الحس المشترك المسبقة الجوهرية. إذا كان الخالق وجودا، وإذا لم يكن المخلوق إلا عملية أو نشاط الوجود الخلاق، فلن يكون الخلق فقط صنعا، بل

(1) Timée, 29 e. Cf. 29 a.

(1) Timée, 30 a: τάξις..

(2) Enn., I, 6, 9 (fin).

(3) Enn., VI, 9, 4. Cf. III, 8, 11.

أيضا سيكون بإمكان الوجود-الجوهر، لأنه خالق ثانوي، سيكون بإمكانه أن يمتنع عن الخلق. وهاكم رجال الدين مرتبكون! وإن يتم التساؤل منذ متى وجد العالم، ولماذا خلقه الله، وفي أي يوم، وما الذي أتاه لكي يغترب عن ذاته هكذا ويتنازل للغيرية... ذات صباح، وقد جمع أدواته، قام الصانع الأعلى بهذه اللياقة معنا وخلقنا! هاكم ما يحصل عندما نكرم مبدأ العلية المحتشمة وحق تصدر **الوجود** على **الفعل**... يفعل **الوجود** وفقا لما هو عليه، أو تبعا لما هو عليه: كما أنه يمكن تفسير الفعل بالرجوع من **الفعل** الى **الوجود** مثلما يتم الرجوع من المعلول الى العلة. لكن إذا كن **المطلق** كاملا ومحض عملية، فلن يكون **الفعل** فقط، سابقا الوجود، هو خلق جذري، بل لن يعود هناك تساؤل عن دوافع جوهر الجواهر، وقد كان بإمكانه أن لا يخلق، في أنه فضل الخلق، ليس الله بخالق عرضا، ولا هو بخالق في المناسبات: إنه خلق كله. وهكذا فإن الحب هو جواب كاف. لا يفعل الله فقط لأنه **موجود**، بل إن الله لا يوجد إلا **بصفته** يفعل. "يفعل الله لأنه بار" يعني: يفعل الله لأنه يفعل؛ أو أيضا: يفعل الله لأنه هو، ولأن كل **وجوده** هو **الفعل**. هل نكون بهذا قد قلنا كل شيء! أو لنتكلم لغة "**المأدبة**: du "Banquet" [1] οὐκέτι προσδεῖ ἐρέσθαι ἵνα τί... Τέλος ἔχει ἡ ἀπόκρισις! . لا يحمل سؤال الـ-**لماذا**، في الأشياء اللاهوتية، أي جواب، أي أنه لا تتم الإجابة عليه إلا بالسؤال نفسه. هذا الـ"**لأن**" الدائري، مثلما في تأملات "جول لوكييه" Julle Lequier، ليس إذا إلا-تكرار ألـ - لماذا. ويتحقق مرة أخرى في دائرية الـ Quia غير المعللة، هذا الحشو الإلهي الناتج عن وجوب الوجود بالذات والذي بفضله يرجع الـ-ما-لا-أعرف ما-هو بقسوة إلى الـ-**ما-هو-نفسه** هذا، الذي هو ذات الـذاتي le soi de l'Autos أو الهذية المنعكسة. لو كان الـ-**لأن**، متمسكا بوعده في العلاقة التجريبية، يرجع إلى شيء آخر، لكان ذلك يعني أن الخلق يفسر بعلل أو دوافع: هكذا يفهمه ليبنتز Leibniz، الحريص دائما على تبرير أفضلية الوجود، ويجب أن يتمثل الله آخذا بعين الاعتبار كل العوامل، ومراعيا كل الجوانب وكافة الإشكالات. وهذا ما يعني ببساطة تجنب الجانب الخلاق في الخلق. وبالعكس يجاوب الخلق بالفعل. يظهر الخلق أسبابه بخلقه، كما تبرهن الحركة عن إمكانها

(1) Banquet, 205 a. Cf. Jules LEQUIER, Le Problème de la science, IIIe partie.

بانطلاقها. لا يعبر الـ Quod إذا عن **لأن**، بل عن **أن الواقع هو**. وحدها الـ-**لماذا** الجزئية، عندما تنجح في ثقب التواصل التجريب الفيزيائي، تشتمل على أجوبة، أجوبة عللية تغوص في فراغ السؤال، كأنما يجذبها نداء الهواء؛ إلا أن أسئلة شأن: **لماذا الكل**؟ لماذا هناك شيء **بوجه عام**؟ لماذا وجود الموجود؟ هي أسئلة لا جواب عليها لأنها أسئلة – مزيفة؛ لأن ماهية السؤال نفسها هي فك ارتباطات العلاقة المتبادلة أو أجزاء معطى، وبكلمة تمهوية امتلاء **اللغز** الكثيف والذي لا يمكن حله حتى لا يكون هناك سوى إشكالات للحل. لا تعارض الـ **إن** Que، وهي رابطة اللغز التي لا يمكن النفاذ إليها، تعارض الضمير الإشكالي الـ-ماذا؟ بأقل مما تعارض الظرف الإشكالي **لماذا**؟ وإذا كان سؤال الـ Cur – لماذا، مهما كان جزئيا، يتساءل حول المعنى الـ quodditatif لألـ quod، فإن التساؤلات الظرفية أو التصنيفية: Quid وQuis، وQuomodo وQuale وQuantum. تستدعي مباشرة الجواب المعلق، سواء أكان tantum أو tale أو sic أو hic أو ille. والحال، وكما أن علم الأسباب الثاني يعين العلة مستبعدا الخلق والتولد الذاتي لصالح تواصل أكثر أو أقل محافظة، كذلك، فإن التفسير الـ quidditative لا يسمي، ولا يصف ولا يقيس ولا يؤرخ ولا يعين الموجودات إلا بتخليه عن تعريف "**الوجود**" l'Être. لأنه إذا كانت الإجابة على الأسئلة الجزئية مثل: τί τόδε τὸ ὄν "ما هو هذا الموجود أو ذاك؟" ممكنة، فإن السؤال: "ما هو **الوجود** بشكل عام؟" τί ἐστι τὸ εἶναι ؛ هو سؤال عبثي لا يستدعي سوى تحصيل حاصل من نمط "**الوجود** هو الموجود" حشو يظهر فيه الوجود المطلوب تعريفه ثلاث مرات، كفاعل، وكرابطة وكمحمول. ليس هناك من إسناد يكون فيه **الوجود**، كفاعل كوني، فاعلا. من الممكن بالطبع، تعميق الموجود الملون، المنعوت والمفصل بألف طريقة، عندما نعرف مثلا **ما هو الأشد** "جوهرية" أو عندما نحدد الحقيقة الـ "ousique" لواقعيته الوجودية: إلا أنه لا يمكن تعميق **لغز** الكلية. بكلمة يسد الـ-**لأن** الفجوة التي يحفرها الـ -**لماذا** مثلما تسد الـ هذا-هكذا-وهي ذا الفجوة التي يحفرها الـ **quid** ... بشرط أن يتعلق الأمر بنيابات وبنقل داخل التجريب. لكن العدم الناتج عن **لماذا** مطبقة على الكلية، أي **لأن** باستطاعته أن يسد؟ فقط الفعل الاعتباطي، المنعم وغير المعلل للخلق بإمكانه القيام بمعجزة كهذه. كما أن

الوجود-بوجه-عام هو السؤال الأبدي الذي تمت الإجابة منذ الأبد: انه الكلية الإشكالية مفارقة، بعبارة أخرى: اللغز، الذي هو بنفسه جوابه الخاص؛ ويرد هذا الجواب، كونه حاضرا-آنفا منذ القدم وواقعة منجزة أبديا، يرد بالفعل وليس مبدئيا قط. فاللغز إذا هو السؤال والجواب في آن معا، الجواب التساؤلي أبديا، والتساؤل الإخباري أبديا أو التقريري؛ يأخذ هذا الإخبار نفسه مصدره في **اليكن** الآني والذي لا يمكن سبره لأمر ماهيته أن يسكت كل سؤال: بشكل أن الأمر، وهو حل عويص لإشكال لا يمكن حله، يعقد في نفس النقطة الإخبار والتساؤل. يشبه الـ potius-quam الـذي يحثه ليبنتز Leibniz بـ "pretensio ad existendum" يشبه بما فيه الكفاية الخاصية المنومة، فهذا الـ - **بالأحرى** يصنع سؤالا مع أنه ليس هناك من سؤال؛ والـ -**بالأحرى** وهو-منذ الأبد، بالأحرى-نعم-بدلا-من لا، هو بامتياز الإشكال من دون إشكال. فكيف لا نسميه **لغزا**؟ تستبعد الأنطولوجيا المحض إذا علم الأسباب بمقدار ما تستبعد الغائية، كما أنها تستبعد العلية بمقدار ما تستبعد القصدية، والسبينوزية في ذلك على حق. ما من أحد مضطر لدراسة الميتافيزيقا ولا أن يقرأ سؤالا في الجواب. والحال، ليس الوجود جوابا يعقب طلبا، لكنه، إذا أمكن القول، جواب-أبدي، جواب يشكل صدى لمعجزة خلاقة تسبق-الزمان، امتلاء تأكيدي تماما حيث الوعي الميتافيزيقي يدرك آنفا عقبة اللغز اللامرئية. لكننا مع ذلك لا نعطي الحق لما يسميه ليبنتز Leibniz باحتقار "**الاستبداد**" فليس الـ Vultvelle الإلهي الذي لا يمكن سبره، بعبارة أخرى قرار التقرير، ليس بنزوة اعتباطية لمتسلط يحفظ خليقته في القلق والارتجاف. الخلق، هو أيضا أكثر من "العطاء" الى ما لانهاية، لأن "dation" "الإعطاء" إحسان جزئي يفترض فاعل خير سابقا الوجود؛ وليس الخلق حتى بمنح الوجود كهدية، - لأنه ليس هناك من شخص يمكن أن يمنح أي شيء، ولا شخص ولا حتى ماهية ينقصها الوجود: وإلا فلن يكون الخلق، بافتراضه نسق إسناد، لن يكون أكثر من إغناء أو تكثيف إمكانية. ليس الخلق هبة وجود، وإنما **فعل-وجود**: وحتى بقولنا "فعل وجود ما هو غير موجود" تعيد لغتنا لا إراديا تشكل مع المفعول به الجوهري، **ما هو**، نقطة الارتكاز التي تزيل أعجوبة المعجزة وتقهقر الفعل الميتافيزيقي الى قوة فيزيائية؛ هكذا كانت "**المأدبة**" le Banquet

والسفسطائي le "Sophiste" – تعتبر الخلق هو فعل الوجود **على الإطلاق**: كيف يمكن في **العدم** الجذري (وحرف الجر "**في**" ما هو إلا لتثبيت الأفكار) لعملية كهذه أن تكون "متعدية"؟ إن **فعل** الوجود، إذا كان هناك سخاء، سيكون سخاء لامتناهيا؛ فعل الوجود، إذا أمكن (كشكل من أشكال التعبير) أن نخاطر باتحاد هاتين الكلمتين، سيكون هبة-كلية، وأكثر أيضا من هبة-من-الذات. هذا الجود اللامتناهي يسمى **الحب**. **الفعل**، عند الإنسان، يعرقله الوجود، ومعروف بأي اهتمام قام فينلون Fénélon قبل كانط Kant، بإحباط الفائدة الخاصة التي تعكر مجانية ونزاهة النقل المحسن l'efférence. وهاكم أخيرا "circulus sanus" البر! يقرر الله لأنه يقرر، إلا أن هذا القرار نفسه هو قرار وضع منعم وتأكيد، وفعل وجود. تقول طيماوس (Timée): لقد كان الله بارا، لكنه لا يكفي أن نقول "كان" بارا عندما كان يخلق؛ ولا أن يقال حتى إنه "يكون" بارا بوجه عام، هذا المعنى إنه بين الإسنادات التي تسند إليه بصفته وجودا كلي الحضور، وكلي العلم وكلي المقدرة... إلخ... سيظهر البر بين الصفات الأخرى، ليس الله بارا، إنه البر نفسه؛ لما لم يكن للبر من معنى إلا انطلاقا منه. إذ لا يشترك الله مع ماهية سابقة الوجود تكون **الخير**... كلا! الله نفسه هو البر بعينه؛ الله بكامله هو البر بكامله، الله ليس بشيء آخر غير البر؛ ... إلا إذا كنتم تفضلون أن تقولوا إن **البر هو الله**. ليس الله بارا بين "أبرار آخرين"؛ بر أكثر من أشياء أخرى معه، بل هو بار مثلما هو وضعي: حصريا، جوهريا وجوهرية أعلى، وأبديا بار. وليس لمفارقة هوية الله والحب-الرحمة التي يؤكد عليها يوحنا في رسالته الأولى، ليس لها معنى آخر: ὁ θεὸς ἀγάπη ἐστίν [1] فالله هو أنطولوجيا **حب**، لأن الحب ليس غير عملية البر عينها. ليس الله بإله الحب؛ ولا بالأحرى: يحب الله تارة وتارة لا يحب، بكونه شخصيا فاعلا متميزا عن عملية المحبة... فبعيدا عن ذلك! ألم نبرهن، بالضبط، أن الفاعل المحض هو عملية بكامله وليس إلا هذا؟ وأن الـ Ipséité ipsissime بحصر المعنى، لا توجد، ولكنها **تفعل** على الاطلاق؟ فليس هناك إلا الحب من يمكنه أن "يفعل" هذا ببساطة، هذه الوضعية بدون وجود التي لا يمكن لمسها. آنفا، ومع أن الإنسان **المحب**، يكون **موجودا** على درجة ما، يوجد بأعجوبة ما يحبه، لا سيما إذا كان

(1) I Êp. De Jean, IV, 8 et 16. Cf. Anders NYGREN, Êros et Agapé (Paris, 1944), p. 159.

يحب حبا مجانيا، وغير مثقل بالوجود، وغير مثقل برصاص الأناوية، مع ذلك على الكائن الإنساني أن يكون موجودا أولا ثم يحب فيما بعد... أو لا يحب! لكن ما الذي يمكن أن يقال عندها عن الـ**ــما-هو-نفسه** "الصانع-الكلي" والواضع-الكلي ما لم يكن بامتياز المحب-الكلي؟ والمحب-الكلي، بدوره، الذي لا تعرقله جاذبية الطبيعة-الخاصة، لا يوجد الموجود بأكثر مما هو موجود آنفا (مثلما يفعل فعل-وجود الوجود-المحب الملوث)، بل إنه يوجد بشكل عام **ما هو** غير موجود بالمرة، وغير موجود حتى بصفته **ما - هو** أو إمكانية سابقة-الوجود. ألا نخاطر بقولنا إن **الحب** هو الله، بأن نؤله آلهة جديدة: لأن الحب ليس "**موجودا**" مثل الموجودات الأخرى... إن بادرة سابقة على الإطلاق لا يمكن أن تكون إلا خلقا بالحب؟ هل لاحظنا بما فيه الكفاية أن بارمنيدس، فيلسوف الامتلاء الوجودي السرمدي، يستدعي العدالة ككفيل لهذا الامتلاء؟ "لا تتسامح **العدالة** مع التولد ولا مع الانحلال"(2)، وتسهر العدالة بتحييدها كل جرأة (τόλμα)، على أن لا يبقى أي ظهور أو اختفاء من دون تعويض: حارسة الشرعية، فإنها تعمل بشكل تؤكد فيه أفعال البشر بدلا من أن تكذبها، هذه الضرورة الوجودية التي صيغتها **الحفظ** أو **التواصل**؛ تستبعد كل نقل "efférence" محض، أي كل إنتاج لا يتحمل بسلبية، ردة فعل نشاطه الخاص. ذلك أن ما يتفق الحق والفيزياء على تكذيبه، هو إمكانية فعل "ميتافيزيقي"، وليس هناك ما تنطبق عليه هذه الحالة إلا الخلق: فليس من "الفيزياء" في أن تلمس دون أن يلمسك ما تلمسه، ولا بأكثر منه من التجريب أن تغتني عندما تعطي أو في أن تعطي ما لا تملك، أو في أن لا تكون أنت في-ذاتك الشيء الذي تفعله؛ إنه لمنتهى الظلم أن يكون المبدأ الأسمى لفعل-الوجود في النهاية ما هو غير موجود! أليس هذا الإنكار الذي لا يمكن تفكره لكل تبديل أليس هو معجزة الحب عينها؟

XII – من البر الإيجابي الى الجمال الإيداعي. المحاباة

إن نفس ما-لا-أعلم-ما-هو هو أيضا في آن معا مصدر قدرة-وجود-مغاير ووضعية خلاقة. من تحت يستشف الحدس فيه إمكانية أن تكون الماهيات

---

(1) Vers 70: οὔτε γενέσθαι οὔτ' ὄλλυσθαι ἀνῆκε δίκη..

والموجودات مغايرة تماما، أو حتى أن لا تكون شيئا؛ من فوق يعيد الحدس نفسه مع ما-هو-نفسه يعيد فعل الوضع. فالحدس في اللحظة نفسها استشفاف وإعادة وضع، عرفان وأطروحة، عرفان جذري ومأساة عرفانية. والحال، فإن حركة الوضع نفسها، كونها موجهة الى الأسفل، توحي بالميل الإيداعي. وهذا ما يعني: تستدعي الوضعية النفي بصفتها إيداعا. وبالإيجابية التي هي وجهها التأكيدي، تحمل الوضعية **زائدا**، ليس **زيادة** تدريجية، بل **زائدا** لامتناهيا ومطلقا، لأنها تجر **الكل من لاشيء، شيء ما من العدم، والوجود من اللا-وجود**. لكن في اللحظة عينها يؤثر الشيء الموضوع على الوضعية كمستودع يبرز ثقله الانتحاء الأرضي المتناقض مع الاسترفاع الخلاق! تتغير الوضعية، حرفيا الى اقنوم والى **hypokeïmenon**. تبت الوضعية في الأعلى، وليس من ثم، بل في الوقت عينه تنجز **κάτω** أو على الأرض: كذلك فإن ذهنا عاميا وجافا، أي مرتبط بالملموس والمحسوس والمادي لـ "resposita" يتلقى عادة إسم الذهن الإيجابي. هكذا هم من دون شك هؤلاء الجهال الذين تقول عنهم **Théétète** [1] إنهم لا يؤمنون البتة باللامرئي، ولكنهم يؤمنون فقط بما يستطيعون أن يمسكوه بأيديهم، ἀπρὶξ τοῖν χεροῖν... . أليس هذا الرفض أو الإبعاد لفعل ما وراء المنطق في ماوراء التجريب وفي التجريب نفسه، تناقضا جدليا ماثلا مع **ليكن** le fiat الخلق نفسه؟ يصفه السيد فيدور ستيبون[2] Fédor Steppoune، بعد جورج سيميل، على أنه مأساة، لكنه سخرية أيضا؛ ويتجدد الفخ، في مجرى البرزخ، في تورط كل بادرة وفي انغماس العامل المؤسف جدا بالعمل. لا تحافظ الحمية الخلاقة على الحرارة المرتفعة لـ-**ليكن** متأجج، لكنها تبرد بفعل التشيؤ: **الوجود** هو هذا القرار الحاسم، البارد والمودوع. هنا يفتح فصل جديد، أكثر حيوية، وأكثر تفصيلا، هو فصل الفلسفة الثانية، والمعرفة بشكل عام؛ لأن المعرفة، المتأخرة طبيعيا، تصل دائما خلال الجلسة، عندما يكون قد أعطي الكل آنفا، لعب وحسم. يحمل الحادث السباق الذي لا يمكن تصوره يحمل إذا في ذاته ضرورة المفروغ منها أبديا، مثلما تحمل النعمة في ذاتها العدالة التي تكذبها، ومثلما تحمل البادرة التي لا يمكن وصفها ولا روايتها وغير

(1) 155 e.

(2) Logos usse, I, p. 171 et II, p. 1 (Moscou, 1910 et 1911 – 1912).

المتشكلة، تحمل في ذاتها الـــ forma formata، والتي هي أيضاً res formosa أو جمال. فكيف لا يعني "سناء الخير" بفعل خاصية الواقعة المنجزة نفسها. أول قبـــول بالتكرار réité وأول محاباة؟ فالجمال، وهو إبراز كامل للوجود Esse في استـــدارته الوجودية، هو أيضاً انبهار... "رأى الله أن النـــور كان جميلاً "، καὶ εἶδεν ὁ θεὸς τὸ φῶς, ὅτι καλόν لأن "الرؤية"- وهي تأمل ومشهد - هي دائماً ثانية: Εἶδεν ὁ θεὸς ὅτι καλά: تتتالى هذه الكلمات كلازمة عند كل معجزة من الأسبوع الأصلـي الذي يرى ظهور النور والسماء والبحر والأرض والقمـــر والشـــمس والنبـــات والحيوانات الواحد تلو الآخر[1]؛ لأن أسبوع المعجزات السبعة هو أيضا أســـبوع المحاباة السبعة، وينتهي في اليوم السابع، إلى تأمل سبتي للعمـــل المنجز: Καὶ εἶδεν ὁ θεός τὰ πάντα ὅσα ἐποίησε, καὶ ἰδοὺ καλὰ λίαν. وقد انتهى من عمله، يرتاح الله متـــأملا حديقة الروائع الكونية الكبيرة هذه التي ألفها؛ هو καὶ κατέπαυσε τῇ ἡμέρᾳ τῇ ἑβδόμῃ ἀπὸ πάντων τῶν ἔργων αὐτοῦ, ὧν ἐποίησε [2]. هو، خالق المشـــهد، يصير مشاهدا له. وها هو المرتجل نفسه مندهشا، die septimo، بآيـــة عبقريتـــه الخاصة العظيمة! لأنه بعد فوات الأوان، وما أن يكون قد تم تطبيع المعجزة، نرغب بالقول: إنه فعل الكل بلطف، καλῶς πάντα πεποίηκεν [3]؛ للوهلة الأولى فـــإن سمو **الفعل** اللامتبلور وغير المخطط وغير المتشكل، أي العملية المحض، يخمد كـــل إعجاب، مثلما يخمد in ovo الجمال الوليد. ويقدر البرزخ، الذي يقـــع بـــين lux وluminaria [4]، يقدر جيدا، في **سفر التكوين**، هذا العبور من القوة التي لا شكل لها إلى الشكل الذي لا قوة فيه. وفي اللحظة التي ينبثق فيها، ينقسم النور الأصلـــي نفسه عن ظلمات العدم السحيقة: إلا أن وميضه ليس لديه ما يضيئه لأنـــه ليـــس هناك من شيء والشمس والقمر[5] يقسمان الليل والنهار والفصول والســـنوات، وينيران الأرض (φαίνειν ἐπὶ τῆς γῆς) ويتألقان في السماء. الـــ -**ليكن** الأكـــبر أو

(1) Gen., I, 4, 8, 10, 13, 18, 21, 25,et 31.

(2) Gen., II, 2.

(3) Marc, VII, 37.

(4) Gen., I, 3-4 et 14-16.

(5) Διαχωρίζειν : Gen., I, 4, 607, 14, 18. Nichel-Ange a représenté ces trois divisions au plafond de la Sixtine.

الأول، هو اللحظة الاحتفالية التي جمدها ميكيل-انجلـــو في ســـقف سيكســـتين sixtine؛ والـــ-**ليكن** الأصغر، الذي يقتضي مسبقا الأرض وقبة السماء، يمركـــز السناء المتألق: ولقد أعطى ميكيل-أنجلو Michel- Ange أيضا، لهـــذه اللحظـــة الثانية، أعطى صوره طابعا أكثر تشكيلية. والحال، فإن الله ليس الله إلا لأن العبـــور من **الرفعة**[1] الى **الجمال** أو من القوة الى الشكل لا يسمه بأي انحطاط. ولقـــد آن أوان القول، إن "عظمته" لا تثيره: وما هي بانوراما النور السحرية هذه، وفيـــض الألوان البهي وروائع تعدد الألوان الذي تزين به شمس المغيب مغرب الغيوم، مـــا لم تكن "speculum Dei" وعظمة السناء حيث يتأمل الله صورته؟ Δόξα ἐν ὑψίστοις θεῷ! فالسناء المتألق هو الغطاس المباشر للمصدر المتألق، بمعنى البؤرة المظلمة الـــتي تشكل تبعا لـــ دونيس الاريوباجيت Denys l'Aréopagite، المصدر المظلم للنور؛ والهالة المشعة هي، إذا صح القول، سر البادرة المشعة. وعلى العكـــس، **يرضـــي**، الإنسان نفسه، مثل جوبيتر Jupiter **في ربوبية الآلهة**[2] فهو، من جهـــة، يـــأخذ حرفيا، الأيقونات الرائعة وكل سناء الألوان التي يطرحها الـــ theatrum mundi أمام عينه. فالإنسان الذي تخلى عن التركيز على κέντρον[3] من أجـــل التبديـــد الحسي وترك اللامرئي من أجل المرئي الرائع، يجد نفسه منجذبا من كل الجـــهات الى جمع المظاهر الخادعة. لأن السناء فيلق. والسناء هو منطقة الجناس والالتبـــاس مثلما يعين الـــ-**ما**-**هو**-**نفسه** بؤرة الوحدانية المتواطئة أو الفائقة-الدقة. يـــترك الإنسان نفسه ينبهر بهذا الضباب، بهذا التدفق المنتشر؛ ويبتسم المرء للتلألؤ الذي لا يحصى. ومن جهة أخرى، يتهالك عن طيب خاطر في نقطة إطالة نجاحاته الخاصة؛ ويتلو أيام عمل، عمل العملية ليس المشوهة بل غير المتشكلة والانتاج ليس البشـــع بل ما لا صورة له، يتلوها أيام الأعياد المخصصة لتأمل الآية، التي هي موضوع الفن ووقت الفراغ الرباني. أفضل من ذلك: إن السبت الإلهي نفســـه هـــو الطريقـــة الإنسانية التي تملكها المخيلة الإنسانية لتتمثل ما لا يمكن تمثله **والفعل**-**مـــن**-**دون**-**وجود** غير المتشكل والذي لا يتعب؛ ليس السبت الإلهي إلا نهار أحـــد إنســـاني

(1) Μεγαλωσύνη, Κάλλος : Saint Jean CHRYSOSTOME, op. cit., 734 c.

(2) "Se complaire": Théodicée, § 414.

(3) Enn., 1, 7, qui oppose νόησις et αἴσθησις.

شاحب. ...Requievit, benedixit, sanctificavit وقد فهم أن عمله وهو صورة عن مثال أبدي، يتحرك ويحيا، يفرح الخالق في طيماوس Timée: ἠγάσθη [1] ربما كان هذا الضمير المفرط في رضاه وسروره دليلا آنفا على التشبيه الإنساني... هل يحق للإنسان، بدوره، أن يكون راضيا إلى هذه الدرجة عن خلقه الخاص؟ فالإنسان، بدل أن يعيد بكثافة الوضع مع الوضعية، يقدس الايداع الذي تستتبعه هذه الوضعية؛ إنه يقلد بدلا من أن يخلق من جديد: وهو يفضل الراحة على إعادة الوضع! في زوبعة الدفع الحيوي المفتون بالجهاز العضوي الذي يستودعه في طريقه، يصف برغسون Bergson شيئا ما يماثل هذا الترسب الوجودي المخيب: ومع ذلك أليس إنكار الخلق كله هذا، هو سبب الخلق وشرطه بالذات؟ ألا يعرف هذا الجدال العبثي بين الوسيلة والحاجز مأساتنا بالذات؟ أليست، أخيرا، ماهية هذه المأساة هي التناقض الذي لا يمكن حله؟

(1) Timée, 37 c (εὐφρανθείς).

الفصل العاشر

الإنسان

I ــ التوسط الإنساني، مزيج من الفعل والوجود

الإنسان، حرفيا، هو الله؛ الله الغارق في الخطب، الله لألف من عشر الثانية. هل سينجح الخالق الثاني alter conditor، في إطالة الخلق الإلهي الى ما هو أبعد من اليوم السابع؟ للأسف فحتى استثنائية العبقري والبطل، وهي تعال-ومضي، لمعة عبقرية أو سمة بطولة، تجعلنا نفترض أن لا. وبلغة ليبنيزية، قد نحب أن نقول إن الهدية هي ألوهية مصغرة، كما أن المونادا هي تصغير الجرم الكبير. بالإجمال، يجسد المخلوق-الخالق، وهو يخلق-ويخلق ، في آن معا، يجسد لغز المضاد للمنطق المطلق-النسبي أو المطلق بصفة-أنه، لأن هذا "الله الأحادي الجانب"، الموجود في التجريب الفيزيائي، يقبل بشكل مفارق الـ "quatenus". مذ ذاك، يفهم لماذا أن لغز التناهي اللامتناهي ولغز **المطلق** الجمعي ليسا سوى نفس اللغز وحده: الهديات متعددة بشكل لا يمكن اختزاله ويحدد هذا الجمع أو تشتت الأشخاص، مع ضرورة التضحية، يحدد نقاشا هو من دون شك الشكل التجريبي **للشر**. ويقابل بالتالي مأساة الخلق المنكرة، في بعد عاموي إذا صح القول، تمزق الادعاءات المتساوية والمتناقضة التي يرفعها جمع المطلق هؤلاء، هذه العوالم التي يشكل كل واحد منها بالتتالي أنا بالنسبة لذاته وصيغة نادرة متحفظة؛ بالطبع ليس علم أسرار **النحن** حلا لأزمة هي ميتافيزيقيا لا حل لها؛ فلا هو يهدئ صداما، ولا يعيد خياطة ما تم تمزيقه: إنه بالأحرى الإنجاز المفارق والمشبوه دائما لمعجزة اسمها **الحب** وعليها دائما أن تعيد صنع ما تصنعه. هكذا تأخذ الفكرة الباسكالية عن طبيعة إنسانية مزدوجة، ومتوسطة ومرمية في "in medias res"، في منتصف-الطريق بين اللاشيء والكل[1]، بين الأنانية والغيرية (لأنه إذا كان الأفضل هو عدو الخير، فإن الأسوأ هو

(1) Entre autres: Pensées, II, 72; VI, 378.

عدو الشر)، تأخذ معنى جديدا. وبكلمة يأخذ المبادر-المكمل، الخالق، التابع، الملاك-الغامض/ دوره في التسلسل المنطقي اللامتناهي؛ فنصف-الساحر هو مشاهد مشهد دائم يكون مبتدءا دائما، ففي أي ساعة يصل فيها المشاهد، تكون الهذية الفريدة قد سبقت دائما بفصل سابق، ولا تكون رؤيته أبدا في أوان البداية ولا معاصرة لها. ولقد بين كيف أن الوجود المتوسط لم يكن لديه في أحسن الأحوال عن **المطلق** إلا علما متوسطا، علم nesciente وممزوجا دائما بـ **amathie**؛ وكيف يمكن أن يكون الموضوع المميز لهذا العرفان الوسيط، لأنه مستشف في فعليته، ولكنه غير معروف في طبيعته، كيف يمكنه أن يسمى لغز ما-لا-أعرف-ماهو؛ وكيف ينكشف أخيرا الـ-ما-لا-أعرف-ماهو هذا، الحضور-الغائب أو **الفعل**-من-**دون وجود**، كيف ينكشف بالضرورة للروح في ما-يكاد-لاشيء اللحظة. ومع ذلك لنوضح: ليس لأنه خليط من اللحظة والبرزخ يكون الإنسان بمخلوق بين-بين؛ إن ما-يكاد-لاشيء اللحظة مأخوذا في ذاته، إن صيرورة البرزخ معتبرة خارج اللحظة، هي التي تعبر بالتتالي عن الاشتراك بالفاصل الإنساني. اللحظة هي لحظة، أي ما-يكاد-لاشيء، أي أفضل من لاشيء: لأن ما-يكاد-لاشيء أفضل من لا شيء بالمرة. ولكن ومن هنا بالذات، وبالمعنى الحصري، لا تدوم اللحظة **إلا** لحظة، أي أقل إلى ما لانهاية من القليل جدا؛ إن ما يدوم قليلا الى ما لانهاية، أو أقل مدة ممكنة، لديه وجود أدنى، أي بالتالي ما يكفي لكي لا يلغى في العدم: كما أنه يترك وراءه المخلوق يبدو كل وقاره في أنه موجود ومستمر ومتماسك، يترك له أسف مدته القصيرة ووجودا غير مكتمل لا يكاد يمكن تمييزه عن الصفر؛ لأنه إذا كان تواصل الوجود هو النجاح بامتياز والإشارة الأكثر تميزا لوجود قابل للحياة، فستكون اللحظة التي يتزامن فيها بداية الوجود وتوقفه، مرادفة تقريبا للفشل. الموت في الولادة، أليس هو بالذات تعريف الجهيض والإجهاض بالذات؟ إن آلة لا تدور أكثر من دورة واحدة، قلبا لا ينبض أكثر من أول نبضة، وحيا لا يعيش إلى ما بعد ولادته، تكذب بالطريقة عينها دعوة **الوجود**. وترمز الشرارة الى ازدواجية الانبثاق هذه، لأنها بالضربة عينها نجاح وفشل: نجاح هذا الإفلاس و(بالواقعة عينها) إفلاس هذا النجاح. فاللحظة التي لا تبقى على قيد الحياة، ولو لثانية، لنفسها، لحظة، إفلاس-وميض، تكون لحظة فشل في التواصل.

لكن التواصل، وهو تذويب البداية وتكرار لها، هو بدوره لحظة مخففة، ومنتكسة وخائرة. لوقاية أو لحفظ صفاء يتهدده التواطؤ من دون توقف، ولتدعيم انتباه يرخيه الشرود من دون توقف، يلزم أكثر من اليقظة، يلزم مراقبة مضنية للبرزخ. إن ما هو واقعي هنا على الأرض، ليس جريانا مستقيما[1] في السماء-مثل قائد منطاد إعجازي أمام أتباع مدهوشين: إن الواقعي هو، الجهد المثابر والخشن والصعب لمتسلق الجبال ليضع قدما أمام أخرى؛ إنه الانتصار المتواصل على الجاذبية المتواصلة، الارتفاع الذي تهدده الجاذبية وتحفظه في كل خطوة، الدفع الارتقائي الذي تغويه أفقيه تقترح المرحلة والمستوى وتستبدل الوقوف بالحافز والارتفاع بالعمل على التسلق. تتولد فكرة جدل متدرج أو منضد من هذا النقاش بين الدفع والمصطبة. والحال، ذاك هو منظر "الملتبس المعنى" للحظة-البرزخ. فالبرزخ بشكل ما هو انحطاط شحمي للحظة: اللحظة المتمرغة في شحم الأنا Ego، تصير دهنية ومشوهة بالفعل، فيستسلم الفعل الذي يضع تحت تكثيف الشيء الموضوع. يسمي أفلوطين ὄγκος [2] رصاص الكثافة هذا الذي يثقل δύναμις أصليا كل روحانية. إن تضخم اللحظة (إذا كنا نفضل أن نتمثل التواصل كتورم بدلا من كتلة) هو الانحطاط الحتمي لكل بادرة. ومن يدري إذا لم يكن ضنى الجهد الذهني نفسه يقوم على استحالة هذا المشروع: إطالة اللحظة؟ ذاك هو على الأقل التواصل المتواصل، ذاك الذي ليس شيئا آخر غير تمتمة وثرثرة هامدة: مثل قرار لا يكاد يلمس ويضخمه المتعجرف بشكل مثير للسخرية، تتوالد البداية إلى ما لانهاية لتأخذ حجما. والحال، هناك أيضا تواصل موصل، حيث ينظر إلى الإيجابية على الوجه، بصفتها تولد متدرج **anagénèse** وليس على الظهر تطور يفقد تدريجيا خصائصه وسلبي: وما كان يبدو أنه جاذبية يدورمرتفعا. لأنه إذا كان التواصل المتواصل برزخا بدينا وانتفاخا هوائيا لا فائدة فيه، فإن التواصل الموصل، هو بداية من جديد وإعادة خلق، أي تواصل كثيف. ولن يكون البرزخ حتى برزخا من دون التحول أو الحافز أو الاندفاع الذي ينشطه، والذي يجعل الصيرورة تصير. الصيرورة، هي حقا، أليس كذلك؟ هي الإسم الذي يجب إعطاؤه لهذا الخليط من الكثافة والخلود

(1) Philèbe, 17 a: εὐθύς.

(2) Enn., VI, 9, 3, 6, 9.

من البادرة والبغائية التي يكابدها الإنسان داخل التقلبات؛ تقوم كل إيجابية البرزخ في هذا العنصر المتشكل-آنيا للفساد النوعي الذي يجعل التواصل يتواصل رغم الانقطاعات وبفضلها. وهكذا فالإنسان هو حقا مزيج من اللحظة والبرزخ، لكن بشرط أن يضاف أن اللحظة والبرزخ هما نفسهما خليط وليس لهما أي معنى إلا بترابطهما المشترك في التجربة المعاشة: بحيث أن المدة المبدعة، خليط الأخلاط، هي حرفيا خلط الى ما لانهاية. فزوج اللحظة-البرزخ هو فعليا التوتر والموجة المميزتان للصيرورة الإنسانية. يظهر التوسط، وهو نصيبنا الانسي، بالأحرى كثنائية عندما ننظر إليه في ما-يكاد-لاشيء اللحظة، وبالأحرى ككفاف عندما ننظر إليه "فيما بين" البرزخ. ليست اللحظة بلحظة (لحظة فقط) إلا بسبب البرزخ الذي يسطحها، يرققها ويضغطها حتى أقصى حد شبه-عدم الوجود، ويقلصها أخيرا الى حالة النقطة أو الوجود-الأقل؛ والبرزخ على الأقل هو برزخ بفضل اللحظة التي تدفعه، تمفصله وتبني مستقبليته futurtition. اللحظة، مخنوقة بكتلة البرزخ، ستصير وميضا ورمشة عين، البرزخ الذي تنشطه اللحظة سيصير تواصلا وليس استطالة. اللحظة هي كل ليس بلاشيء... ما-يكاد-لاشيء! إن تلاحق البرزخ هو شبح، هو نسبيا شيء ما. لا تتعارض اللحظة إذا، بحصر المعنى، مع البرزخ كما تتعارض الميتافيزيقا مع التجريب: وقد يكون من الأصح القول إن اللحظة هي الشكل الوحيد الذي ينكشف فيه المطلق لمخلوق. وهكذا لا يحتاج نصف-الله الديكارتي لله ليتأكد من **البداهة** في اللحظة، بل إنه يستدعي الضمانة الإلهية ليبرر ثقته في الثبات ولتأكيد **الحقائق**، كأنما التواصل يفرض أن يكفل ما فوق طبيعيا. تجر لعنة التبادلية، التي بموجبها لا يعطينا القدر بيد، إلا ليأخذ منا باليد الأخرى ما يعطيه، يجر بؤسا، نصف-بؤس الآنية. يمكن النظر بالتالي، في تكثف **الوجود** إما بصفته إيجابيا وإما بصفته سلبيا: **الوجود** فينا هو الشاشة التي تحجب **فعل-الوجود**، وهو مع ذلك شرط تحققه "في الحال" "hic et nunc"؛ إنه الأكمد والمعتم الذي يبتلع النور، والذي يجعل، ليس **بالرغم** من ذلك البتة، بل **بسبب** ذلك يجعل النور منيرا. يأخذ النقاش "الوسيلة-العقبة" إذا شكلين متميزين يناظران مستويين أساسيين من التوسط الخلاق - بمعنى ثنائية اللحظة وكفاف **البرزخ**. فمن جهة، فإن الوسيلة-العقبة هي ما يحول، بالنسبة الى المخلوق، **فعل-الوجود** إلى **وجود-أقل**: فتصبح هذية

الوضعية المحض، نفسها، بالنسبة إلينا، انبثاقا؛ ولا شيء، للأسف، غير انبثاق! لأن الشرارة تنطفئ باشتعالها، وذلك في اللحظة عينها، uno eodemque tempore، وليس بعد ثانية؛ لا شيء غير انبثاق، إلا أنه **على الأقل** انبثاق؛ اختفاء، وبالضربة عينها، ظهور، - ليس ظهورا عند عتبة طبقة، بل ظهورا متقلصا الى مجرد فعل ظهور. ومن جهة أخرى، فإن الوسيلة-العقبة، هي عربة لغز التجسيد، الذي هو أيضا لغز التناقض: إنها الإيجابية الموضوعة التي تنفي الإيجابية الوضعية، وتؤمن من هنا بالذات انتشار أو انحراف الحافز السباق، حول مركز ما-يكاد-لاشيء؛ كما أن البرزخ هو حقا شيء آخر غير تورط وفساد البادرة؛ إنه بالمعنى الديناميكي، تواصل البداية، أو إعادة بداية متواصلة، مثلما التفكير ما بعد التجريبي هو تواصل متسع للحدس المكثف... فالتواصل هو في آن معا **متواصل متصل**، أي أنه **مستمر** هو "يواصل نفسه" بدل كونه "متصلا". ويحصل أن تكون العقبة ماثلة مع الوضعية المحض، كونها بشكل ما الموجة المنعكسة للفعل المجاني والفكرة-الخلفية لأول حركة والخطف المرتزق لكل عفوية غير مغرضة؛ يحصل أيضا أن تنتج ردة الفعل بعد فوات الأوان، كنوع من مجاملة الخالق المتأتية بعد انقضاء عمله: إن تحرر المخلوق هو هذه العقبة ذات المفعول المتأخر، لشاعر متمرن، مأخوذ بشرك القصيدة؛ تنتج الصدمة المرتدة هنا على المدى الطويل وإذا لم تعق الخلق بحصر المعنى، فإنها على الأقل تعيق تواصل هذا الخلق، وتجعل quiddification de la quoddité، وتبرجز **الــ-ليكن**، أمر لا بد منه. بين الهذية والأنا Ego، بين الفاعل المحض وفعل-الوجود من دون وجود والذي لا يمكن التعبير عنه والوجود الجسماني المحدد نهائيا، المثبت، الموضوع في مورفولوجية (شكل) وعلم عظام جسده، المزود بأبعاد المكان الثلاثة، ثمة مكان إذا لتوسط الصيرورة. هذية تابعة، لغز على قائمتين، كيان طبيعي وفوق طبيعي في آن معا، يتمدد إنسان الصيرورة في البرزخ ويشرف على طرف اللحظة الفائق الدقة. إن القليل الذي هو عليه، يكون البرزخ عليه في اللحظة، لأنه هو نفسه لحظة جد متواضعة مخففة في محيط من الثرثرة، - ومن المعروف كم يحب المهذار أن يكثف الحساء ويرقق الصلصة، بعبارة أخرى أن يعطي حجما كبيرا بأفكار بخسة؛ ثانية وحي مقابل أسابيع من الهذر، لحظة قريحة مقابل سنة من القيلولة - هذا هو نظام المهذار المعتاد والألوهة "المصغرة"! في

العمق، فإن البرزخ واللحظة هما نفس التوسط بعينه منظورا إليه إما من قاعدته، بصفته وجودا **Esse**، أو حالة، وإما في حد الحدس الماسي الدقيق، أو الشجاعة أو الفرح، أي، ولنسم هذه القمم الثلاث بنفس الإسم، في الحد الدقيق لحب محض الذي هو نقطة تماس الروح مع المطلق؛ لأنها نفس اللحظة العرفانية أحيانا أو الجذرية أحيانا أخرى، وأحيانا الشعورية، هي التي تندرج في استشفاف الحدس، التي تواجه في القرار الشجاع، تكابد في الحدث الفرح، لكن العرفان، والمأساة والتفخيم تتطابق بدورها في دقة نزاهة الإحسان المحض. وبصفتها لا تقبل القسمة على الإطلاق، فإن اللحظة تستبعد بالواقع كل تعدد أشكال، وبصفتها ذاتية معاشة، فإنها على العكس، تقبل تعدد ألوان وأنغام النوعيات المتنافرة. وبالطريقة عينها فإن **ما-يكاد-لاشيء الواجب**، الذي تكابد فيه الإرادة وجوب القيام بفعل دون أن تدرك ما هو، هو الطريقة الوحيدة التي يستشعر فيها الإنسان **مجانية الخير**. ذاك هو-ما-لا-أعرف ما هو الـ Quoddité الفارغ جدا! هكذا يجر العبقري المصغر بكد طوال أيام التواصل العاملة، لكنه في لحظات أعياد الحب، وعند قمة التضحية المسببة للدوار، يعثر من جديد على نوع من الصفاء -، ليس، بالطبع، صفاء الفعل الخلاق الذي لا يمكن تصوره، والذي ينجز معجزة "أوج تأريخي"، بل الصفاء-الوميض، بل براءة ما-يكاد-لاشيء غير المستقرة. أن نصف-الساحر هو في آن معا مهدد من جني ملعون، ومحمي من ملاك حارس: إن ملاكه الشرير هو الذي يعيقه عن كل ملائكية، والذي، بمنعه إياه من تحويل الشرارة الى حقيقة أبدية، والحدس الى معرفة حصينة، ولكن بجعله المستحيل غواية، فإنه يحفظه في التوسط. وعلى العكس، فإن جنيه الطيب هو الذي يعيقه عن النوم وينعش بتقطع مياه اللحظة الجارية. من المعروف أن ديوتيم Diotime كان يسمى هذا الجني إيروس Eros. وإذا كان الجني **الشيطاني** يحفظ الإنسان في شرط ألوهة أسطورية غير مكتملة، فإن الجني démonique يحفظه على الأقل في ألوهته الأسطورية النسبية.

II - المطلق النسبي

إن الهذية المصغرة، متجسدة في وجود ثنائي ونفس-بدني لجهازها العضوي، تحيا يوما بعد يوم ومن مصيبة إلى مصيبة، وبنوع من البهلوانية المتواصلة، تحيا

استحالة "Vinculum" (sans cesse reconduite du) لا يتوقف تشييعها. والحال، فإن الحياة المونادية بكاملها هي التي تحمل ختم هذه الثنائية المضاعفة Διττὸς ὁ ἐνθάδε βίος: "الحياة على الأرض هي مضاعفة"، فالحياة، من جهة، تواصل ممل وامتلاء رتيب جداً لما بين-بين: يأخذ الوجود البيولوجي وقتاً مثلما يأخذ الجهاز العضوي حجماً؛ ومع ذلك فاللحظة هي آنفاً-هنا، ماثلة، وتميز وجود **الموجود** الوجودي، وتؤثر وتمسرح وتنشط الصيرورة. والإنسان الملتبس، والمتساوي الحدين بالتالي، مأخوذ بين حنينه ودعوته: دعوة **اللحظة**، التي هي دوار **الفعل**-من-دون-وجود؛ وحنين **الحالة**، التي هي محاباة **الوجود** - من-دون-فعل؛ الاسترفاع الذي ينهضه الى ما-يكاد-لاشيء، والإنجذاب الذي يقيده في **طبيعة**، تحمل إليه كل واحدة منها إخفاقها الخاص. قلنا إن تعريف الوجود، لا يستتبع أن يكون له بداية ولا أن يكون عليه أن يتوقف أبداً. والحال فإن الصائر يتلقى وجوداً، ويلتمس عادة، طبيعة ثانية؛ ومن جهة أخرى فإن وجود الصائر سيتوقف. فالموت هو مفارقة الصائر أي الموجود-غير-الموجود، لكن من جهة أخرى، تنحو كل الديمومات المتناهية إلى أن تتلاشى بالنسبة الى اللامتناهي، وتظهر الحياة بكاملها، في وسط الأبدية، كنوع من اللحظة الكبيرة: إن هذا العبور لموجود فريد، لا يمكن تقليده، ولا مقارنته ولا استبداله والذي ينبثق خارج أي معقولية أو صواب من عدم أبدي ليرجع إليه بعد بضع سنوات، هذا العبور هو حقاً ظهور ميتافيزيقي. فالحياة، كبرزخ ماثل، هي تواصل مفعم بالمعنى تجعل كل مرحلة من مراحله المراحل الأخرى معقولة وتُفهم في مضمونها: إلا أن **واقعة الحياة** هي، مثل اللحظة، "عبثية" لأنها تؤسس كل دلالة، ولأن مصدر ارتحال المعنى ليس له بنفسه أي معنى؛ وكما أن ما-يكاد-لاشيء الصغير هو انبهار غير مفهوم لجزء من ألف من الثانية، كذلك، فإن ما-يكاد-لاشيء الحياة الكبير هو حقاً لا رأس له ولا ذَنب. "من أين جئنا؟ من نحن؟ إلى أين نمضي؟" تتساءل لوحة غوغان Gauguin[1] الشهيرة والتي اسمها فقط يُذكر آنفاً بباسكال. خطوات على الثلج. نقش على الرمل. أثر فوسفوري ينطفئ الى الأبد في المحيط المظلم. أحدهم قد عاش (من دون أن يكون

(1) 1897 (Musée de Boston). PASCAL, Pensée (Brunschvicg), III, fr. 194, 205 et 208 ("plutôt-que").

قد طلب ذلك)، أحدهم تألم، ومن ثم اختفى، و لم يعد يبقى منه الآن سوى حفنة أملاح معدنية و"قبر من دون إسم". لماذا أحدهم؟ ولماذا أنا بدلاً من آخر؟ للأسف. مسكين يوريك Yorik؛ مساكين نحن! إذا كانت الـ Quo والـ Unde والـPotius-quam إذا كانت تبدو مفهومة لفيلسوف **التناغم المسبق**، فإنها تبقى عند باسكال Pascal أسئلة من دون أية إجابة فلسفية. لماذا هنا بدلاً من هناك، الآن "بدلاً من آنذاك"؟ ولماذا هذا العدد من السنوات الممنوحة لحياة إنسانية، بدلاً من أي عدد آخر؟ إعتقد ليبنتز Leibniz أنه وجد علة الاختيار: لكن باسكال يعتبر نفسه غير قادر على تبرير **الإيثارية la préférabilité**؛ فالثوابت هي اعتباطية إلى الأبد، وأصلها الجذري مجاني الى الأبد. ربما كانت الموناد، وهي ذاتية مجردة أو كمال أول، ربما كانت قطعة من نظام عام، ولكن الهذيّة، وهي ظهور فوق طبيعي، تُجسد "رسالة" اعتباطية ومجانية تماماً؛ رسالة ملغزة لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال فك رموزها لأنها من مقام المبادرة السباقة ولأنه يمكن تفسير ألغاز الوجود إنطلاقاً منها. إن quoddité الهذيّة التي لا يمكن سبرها، والمحصورة بين ولادة وموت، تظهر لنفسها على شكل فعل نظري. وإذا كان الوعي غير – الفلسفي ماثلاً للبرزخ، فإن وعي الوعي هو وعي بواقعة البرزخ، أي وعي بأن برزخ السيرة هو، بالنسبة الى الأبدي، منسل بمقدار اللحظة. إن الفعل لمرة واحدة واللاانعكاسية هما بالتالي بالنسبة للمخلوق الشكلان التعيسان اللذان يرتديهما لغز اللحظة الكبيرة: الفعل لمرة واحدة، أي ما معناه الفعل الذي تتطابق فيه، في التعريف بالذات، أول وآخر مرة، هو إذا صح القول، فعلية ساقطة، quoddité تأنيب وندم لا يمكن تعزيته؛ وكما أن كل لحظة في الصيرورة هي "صيغة نادرة" لا يمكن عكسها وتجربة فريدة، كذلك فإن مجرى الهذيّة الكلي، وهو تتال لا يمكن استبداله لهذه الأحداث التي لا يمكن استبدالها، هو بدوره نوع من ما–يكّاد–لاشيء ويشبه أثر شهاب اللا–وجود. وبعد ذلك، يُفسر الموت على أنه في آن معاً حد فوق طبيعتنا والدليل عليها: وكما أن الاختفاء هو الذي يحقق الظهور، كذلك فإن الموت هو الذي يعطي تعريف اللغز ويجعل تناقض الحقيقة–الأبدية–الفانية مأساوياً. ففكرة الخلود هي إذن ملائكية لا يمكن تصورها بمقدار ما لا يمكن تصور معجزة **"akron"** متواصل: فسيان مشيئة أن تكون للحظة أبدية البرزخ أو أن يكون للبرزخ حرارة

اللحظة العالية... فالمشرفة على الموت، أي اللحظة الأخيرة ليست مجرد لحظة من اللحظات التي تدفع بالتناوب سطح البرزخ: اللحظة الأخيرة هي في آن معاً **حد وأقصى**، مستدقة ونهائية: والحال، إذا كانت اللحظة في مجرى التواصل لا يمكن روايتها للوهلة الأولى، كما أنه لا يمكن التعرف اليها بعد فوات الأوان، فإن لحظة الآخِرة، هي اللغز المطلق الذي يستبعد حتى بعد فوات الأوان ويشارف اللاشيء. يختم الموت "إلى الأبد" أو "بشكل نهائي" فعل المرة الواحدة الإلهي المصغر، وعبثاً يعترض هذا الأخير ضد هذه العبثية التي تكذب وتؤكد في آن معاً دعوته ما فوق الطبيعية. – ويمكن قراءة عدم الكفاية الميتافيزيقية لنصف-الإله في نعَم اللحظة نفسها، التي يمنحها له حظه السعيد. فالحدس والشجاعة والفرح وحركة الإحسان نفسها التي تلخصها، تضعنا... للحظة فوق الظروف الاجتماعية وأبعد من شروط الغريزة البيولوجية، إلا أنها لا تنتشلنا من قوانين الجاذبية الفيزيائية ولا من حتمية الموت. يتعالى الإنسان النـزيه، عندما يعطي أو يسامح، عن طبيعية أهوائه وارتزاقية أنانيته، – لكنه لا يتعالى على وضعه كمخلوق متناه خاضع للحتمية العامة ولقوانين الوجود الغذائي! يعطي الوحي الخلاق العبقري المقدرة على كتابة **الكوميديا الإلهية** la Divine Comédie، لكنه لا يجعله متحرراً من الشرب والأكل. تعطي الشجاعة البطولية البطل قوة تضحية **شبه** فوق طبيعية، قوة إرادة **تكاد** تكون مبالغاً بها لعدمه الخاص في الموت، إلا أنها لا تعطيه قوة أن يطير مثل العصافير، ولا أن يقفز قفزة الخراف فوق **الجبل الأبيض (Mont Blanc)**. إن هذه المعجزات لهي معجزات روحانية ومجازية بعض الشيء، بداهات غامضة قابلة للنقاش، والذي يُرغم اللحظة لتحول الحجر الى خبز يعتبر نصف-الساحر ساحراً والإنسان الأعلى بومضة إلهاً. يلج الحدس الى موضوعه بفعل ناقل محض، إلا أن هذا الموضوع هو معطى موجود من قبل وُضع آنفاً يجده الحدس أمامه. يتحد الحب مع حضور المحبوب في التخلي الكامل عن الذات وفي دوار الوجد، إلا أن هذيّة الـ "أنت" تبقى بالنسبة له لغزاً لا يمكن النفاذ إليه، محراباً لا يمكن اغتصابه. يمنح الجود من دون أن يفتقر ومن دون أن يتحمل ردة فعل فعله، لكن هباته ليست "أعمالاً"، وأقل من ذلك مخلوقات. "الخطوة النابليونية" في الشجاعة والانعطاف نفسه هما بدايات، لكنهما بدايات في مجرى التواصل، بدايات نسبية تفترض ماضياً

ووراثة وحياة سابقة. ولا يبقى المخلوق فقط، في لحظات أوجه، خاضعاً للضرورات المادية؛ وليست فقط مخلوقات الهذيّة التابعة، رغم نقطة تماسها مع الهذيّة الأعلى، ليست فقط على الأكثر إعادة وضع لشيء سبق وضعه آنفاً وتتميز به عن فعل-الوجود المطلق وعن الوضعية المحض للوجود: لكن نصف-الإله يجد أيضاً في نفسه عائقاً أمام إندفاعاته الخاصة؛ لا يتم الإحسان من دون تعديل؛ ولا الهبة من دون أفكار خلفية في التبادل؛ فالحركة الثانية، وهي تحريض وتفكير، تنكفئ على الأولى، التلقائية، والشيء الموضوع، مثل حثالة أو حصاة، ينكس اندفاع الوضعية: إن استيداع التطور الذي يُفقد الوظائف الماثل في كل وضعية يقوم فيها **السقوطية** أيضاً وشبه-عدم-الوجود.- مهما بدا تحالف هذه الكلمات مفارقاً، يمكن للفعل غير المحض أن يسمى بادرة مجرورة: لأن كل تناقض إعادة البداية هي في أن تكون تكراراً ابتدائياً أو (إذا كنا نفضل) بادرة متكررة. باختصار، لنسمِّ **مطلقاً** أو مجرد **مطلق**، المطلق المطلق على الإطلاق، لأن الظرف يعبر عن طرق وجود الفعل بمقدار ما تعبر الصفة عن نعوت أو محمولات الفاعل النوعية، ولأن الفاعل المحض (الذي هو فعل محض)، باستبعاده كل "quatenus"، ليس مطلقاً بحصر المعنى، بل **المطلق**، **المطلق** بعينه (ذاته) ... ومن المفروض في هذه الحالة تسمية الفعل غير المحض مطلقاً-نسبياً، ذلك الذي هو نصفه هو نفسه ونصفه مغاير، والذي ليس فعلاً إلا في المناسبات، ذاك الذي هو **فعل** للحظات ومن أبعد إلى أبعد، **ووجود** على امتداد برزخ. تبتذل تعددية أكوان المونادات الصغيرة، التي تضاعف إلى ما لانهاية المطلق-النسبي، تبتذل الى أقصى حد وحش الواحد-في-الجمع هذا أو نصف-الألوهة: لأنه إذا كان تعدد الآلهة، بصفته يفسخ المطلق **بحصر المعنى**، هو لا معنى تجريبي فظ، وتشبيه إنساني وثني فظ، فإنه على العكس، يعبر على المستوى الإنساني، عن جمع الأجرام الصغيرة، الذي هو مستحيل يتحقق يومياً. إن ذاك الذي ليس بمطلق لوحده(!) وليس بمطلق طوال الوقت(!)، الذي **ليس الكل وليس أبدياً...** وهو مع ذلك مطلق، ذلك المطلق بهذه "الطريقة" أو تلك؛ يمكن أن يسأل عن هذا الإطلاق: كيف؟ وكم من الوقت؟ وبأية علاقة؟ وبأي خصوص أو وجهات نظر؟ هذا هو كل لغز شخص الفاعل لمرة وحيدة، وفي الشخص الفاعل لمرة واحدة، لحظة الفاعل لمرة واحدة، لأن اللحظة تنكشف مثل عدم إمكانية استبدال ما لا يقارن، وأقصى

حد لحد acuminis acumen: وجود مطلق بشكل مفارق (أي متوحد) جنبا الى جنب مع مطلقين "آخرين"، أو مطلق بشكل متناقض "خلال" هذا الجزء من الألف من الثانية الذي هو مدة من دون مدة الـ-ما-يكاد-غير موجود، هذا ما يسمى، بألفاظ غريبة في آخر المطاف، **أن يكون لديه طريقة ما ليكون مطلقا**، أن يكون مطلقا تبعا لهذا النمط من الوجود أو ذاك. والحال، هذا هو بالضبط الموقع المراوغ لـ الـ "شبه"، الذي هو نظام الجوهر "النعتي" أو اللاشرطي المشروط. الإنسان، ذو القائمتين، ليس بملاك ولا بهيمة، هو مطلق بـ-صفته! فكيف لا تطبق عليه كلمات أفلوطين Plotin الباسكالية هذه: تصير الأرواح مثل مزدوجي الطبيعة، تعيش دوريا الحياة الأخرى والحياة الدنيا: γίγνονται οἷον ἀμφίβιοι... τόν τε ἐκεῖ βίον τόν τε ἐνταῦθα παρὰ μέρος βιοῦσαι؟[1] إن فكرة حالة نسبية هي في آن معا معاشة ومفهومة لأن النسبية سمة مشتركة للتواصل التجريبي، الذي هو نظام الروابط، والتواصل ما بعد التجريبي، الذي هو نظام الضرورة والقوانين. إن فكرة حالة غير نسبية، تضم مع الإطلاقية الوجود الموجود، والوجود الجوهري، بالإجمال إن هذه الفكرة لمطلق متواصل لا تعاش وليست مفهومة، لأنها تناظر بالنسبة للإنسان، الأبدية المضاعفة التي لا يمكن تصورها، أبدية الغبطة وأبدية اليأس: أليس الأوج المزمن لا يمكن الدفاع عنه مثلما لا يمكن الدفاع عن سمو متواصل؟ ومتناقض بمقدار تناقض الدائرة المربعة؟ فقط اللحظة، لأنها في آن معا غير نسبية وغير مزمنة، تحقق هذا الضرب من القوة بأن تعاش من دون أن تكون مفهومة. ليست الصيرورة الإنسانية لحظة صارت مزمنة بمقدار البرزخ، ولا البرزخ وقد صار متحمسا بمقدار اللحظة: إنها بالأحرى خليط الأخلاط، إنها تبادلية برزخ تدعمه، تمسرحه، وتثيره اللحظة، ولحظة يقلصها البرزخ الى حالة ما-يكاد-لاشيء؛ ومن خلال البرزخ المزمن، لكن النسبي الذي يبسطها، تنتسب الصيرورة الى طريقة وجود **الوجود**، ومن خلال اللحظة غير النسبية، ولكن غير الزمنية التي تدفعها تنتسب الى **المطلق**. تعيد الـ quoddité المصغرة في الحب، أي في الحدس، في القرار البطولي وفي الفرح، تعيد صنع فعل الـ quoddité العظيمة الأولى

---

(1) Enn., IV, 8, 4.

الإعجازي: عند قمة البرزخ ينجز نصف-الإله إعادة الوضع الآنية لخلقٍ أبدي هو **فعل**-وجود محض ومحض حب.

في الفلسفة

يمنح الإشعاع والتوهج، ذاك مروحياً، وهذا في العمق، يمنحان اللاشيء كل أبعاد إمكانية الرؤية. وبالنمط عينه تتلقى الـ quoddité المحض في الفن إنتشار الهالة؛ وأخيراً، في شرارة الشعر المتلاشية يباغت الفنان نتفاً من الرسالة اللغز. مروراً **بفعل**-الوجود الذي لا إسم له إلى الوجود الموضوع، وبالأخص الى الأشد مباشرة، الى المجد التالي لهذا اللامتشكل، أي الجمال، الذي هو أوج سناء الموجود وبهاء البرزخ الممجد، ينتشر الوعي الفلسفي على مدى كبر انبساط العالم ويجد أخيراً "إشكالات"؛ ولكنه وبالضربة عينها يضيع فلسفته؛ ويرى - بعزاء لغز الـ "poétique" "المؤثر" يخلي المكان للروعة "poématique" تختفي الـ ποίησις خلف الـ ποίημα . يقول أفلاطون(1): لا يوقظ اللامرئي عند العامة (ἀμύητοι، ἄμουσοι) ، إلا الريبة والتهكم؛ لأنه إذا كان الرائع، أي العظيم (le poème) هو شيء الجُهّال؛ فإن الخفي، أي (poésie) "الشاعرية" اللامرئية هي استراحة الـ mystes. وما التلقين من دون شك سوى هذا الانعطاف الى النبع المظلم والساكت للسناء، إلى التناغم اللامرئي أو غير الظاهر(2)، إلى فاعل ipsissime محض بعينه الذي هو فعل محض. لكن، على العكس، يعثر الوعي الثانوي أو الجمالي على روعة الجمال الدنيوية في اللغز الباطني لـ "الخير". لقد ميز يوحنا الذهبي الفم(3) برهافة فائقة نوعيّ الذهول (θαυμάζειν) اللذين يوقظهما في الإنسان مقاماً الـ θαῦμα ، الجمالي وما وراء الجمالي: الأول انبهار أمام الروعة، والآخر ذهول أمام الحقيقة الأعلى أو الجمال الأعلى الذي لا شكل له؛ جمال المنحوتات والرسوم والأجسام هو θαυμαστόν بالمعنى التشكيلي؛ العمق الفاغر (τὸ βάθος) ؛

---

(1) Théétète, 155 e-156 a (ἀόρατον).

(2) HÉRACLITE, Bywater, fr. 47: ἁρμονίη ἀφανής.

(3) Περὶ ἀκαταλήπτου, Ire Homélie, 705 b, 706 b.

اللجج اللامتناهية، والجسامة المحيطية (ἄπειρος βυθός... καὶ ἀχανὲς πέλαγος) هي موضوع الذهول الـ "numinal" الحق؛ أمام الفراغ لا يعاني الإنسان فقط من اضطراب الذكاء (ἀπορεῖ)، بل من الدوار الرهابي لكل وجوده (ἰλιγγιᾷ).. وهذا ما يمكن تأويله كالتالي: الإنسان عند الحد الأسمى للحظة، الإنسان المحروم من قاعدة البرزخ، الإنسان من دون ركيزة تسنده يترنح ويتهاوي. أليست اللحظة الحد-المثير للدوار هي التي يتلاشى فيها الزمان والمكان؟ عندما يلامس الوجود الإلغاء، عندما يكون الوجود عند حافة الانعدام في **شبه-عدم** التماس وغرق كل التصنيفات، فإنه يكابد أهوال هذا التأثر-الأقصى pathos-limite الذي يحمل اسم **الدوار**. ولقد وصف الدمشقي تبعا "لأميل برهييه"[1] تناوب الانجذاب والتراجع، الاندفاع واليأس لوعي يجاور لجة العدم. يستدعي الميتافيزيقي عند حافة اللاأساس **Ungrund** السحيقة صورة الجبلي الذي يصوره لنا "غريغوار دونيس" Grégoire de Nysse على ذروة جرف صخري وعر مشرف عاموديا بشكل مثير للدوار[2]: من دون أي ممسك ولا أي نقاط ارتكاز يرى الوعي الزمان والمكان يتواريان أمامه فيستولي عليه القلق. إن العلاقة بين الانبهار الجمالي وذهول ما بعد المنطق، هي العلاقة نفسها ما بين جدرانية **الربوبية théodicée** الجليلة وبين "صمت المساحات اللامتناهية الأبدي": من أعلى مرصده يمنح الحكيم اللايبنتزي لنفسه مشهدا من علو بانورامي للكون، ولنتكلم مع "بالتازر غراسيان" Baltasar Gracian[3] عن الآلة الكونية الكبيرة؛ مثلما يتأمل المشاهد من طرف منظاره خشبة المسرح، كذلك يصوب الحكيم تلسكوبه على مسرح العالم الكبير[4] ومجهره على مسرح الجرم الصغير، لهذه الحكمة الفكرية، المرآوية والمشهدية، تكشف القبة السماوية المرصعة بنجوم الربوبية ونقطة ماء **المونادولوجيا** المتقزمة تكشف الى ما لا نهاية امتلاء روائعها:

---

(1) Revue de Mét. Et de Mor., 1919 p. 473: Sur l'ἰλιγγία (ἴλιγξ = tourbillon) : Περὶ ἀκαταλήπτου, 705 *b-c*, 706 *b*. Cf. 728 *c* : σκοτοδινία.

(2) P.G., XLIV, 729 d-732 a, cité par DANIÉLOU et CAVALIERA dans leur remarquable introduction au Περὶ ἀκαταλήπτου (éd. Flacelière), p. 22- 24 et 33-40.

(3) El Criticon.

(4) LEIBNIZ, Causa Dei, § 143: "theatrum mundi". GRUA, op. cit., II, p. 554.

Ich blick' in die Ferne,
Ich seh in der Nâhe
Den Mond und die Sterne

يغني لانسيوس (Lynceus) في فاوست (Faust) عند قمة برجه وهو ينظر الى الليل المزين بالنجوم. رصد، فحص مجهري، تجسيم – إنها دائما رصد مشـــهد ورؤيـــة تأملية! في الفحص (spéculum) الضخم للعا لم، مثلما في الفحـــص "Speculum" المصغر لقطيرة تتراءى عظمة الخالق **بالطريقة عينها**. لا يبحث إنســـان باســـكال المرتجف، المنخرط في "in medias res" ، لا يبحث عن وجهة نظـــر جميلـــة ولا بشكل عام، عن منظور يرفعه فوق المعمعة: فمن الليل، ليـــل بـــلا نجـــوم، ليـــل Gethsémani الذي ضاع فيه، يبدو العا لم له جبارا غير متبلور وغير تشكيلي، لأن محيطه ليس في أي مكان. أما أفلوطين، فنشعر بـــه يتـــأرجح بـــين دوار الفـــراغ والإعجاب الجمالي بالامتلاء، بين تقشف الظلمات الكبير، ومتعة النور، الذي هـــو هوس بالكون وهوس بالايقونات، بين استدلال إضماري خاشع وانبساط مبـــهور: وقد **تأمل** تألق الكواكب فإنه يفكر في صانعها: (τὸ τῶν ἄστρων φέγγος ἰδὼν τὸν ποιήσαντα ἐνθυμεῖται) ... ؟[1] فمن جهة، يبيـــن لنا النور البهي τὸ ἀγλαόν : سماء منتصف الليل تتلألأ فيها النجوم، سهل الهاجرة تغني فيه القبرات، النهار الســـاطع يروي مجد الله، حيث ينشر ما سيسميه غراسيان Gracian كوكب المباهاة يـــدور مثل الطاووس ويبسط مروحة الانعكاسات والزهيرات المتعددة الألوان. والحال فإن خلف عراضة الجمال الفخمة هذه، خلف "تظاهرة النور الـــــ immanifeste"[2]، إليك معجزة أخرى، "مغايرة تماما" معجزة لم تعد آية ، بل لغزا: Θαυμάσια τὰ ἔργα σου[3] في العا لم الأرضي هناك ظهور المسيح للفعل المحض: كل ما يســطع يبتسم يتلألأ، الله مضاعفا في مليارات الشعاعات والشذرات الذهبية التي تومض في الشمس؛ وهناك الفعل المحض عينه ipse، الذي لا يسطع ولا يرى نفســـه؛ وهـــو بنفسه شعر وتدفق الآيات أكثر منه آية، صنع معجزات أكثر منه معجزة. أليســـت

(1) Enn., III, 8, 11.

(2) R. BAYER, Léonard de Vinci, p. 138.

(3) Enn., VI, 9, 5. Cf. VI, 7, 16: θαυμάσαντα τίς ὁ γεννήσας καὶ ὅπως; III, 8, 10 : εἰ δὲ ἀφελὼν τὸ εἶναι λαμβάνοις, θαῦμα ἕξεις. V, 5, 8 : ἔστι μὲν οὖν οὑτωσὶ αὐτόθεν θαυμάσαι...

اللحظة السحرية والارتجالية نوعا من صانع معجزات؟ يقول غريغوار دونيس Gregoire de Nysse: لا يجرؤ الانبياء على الإعجاب بقداسة الآية الإلهية، ولا بمجد هذه القداسة، ولا حتى بجلال هذا المجد وبيئته الخارجية[1]: ومع ذلك فعرش المجد الإلهي هو حق "mirum" إذا كانت الـ ousia الوجود المجيد نفسه "mysterium" "لغزا" و"mysterium tremendum"؛ قديس القديسين! τὸ δὴ πρὸ τούτου θαῦμα τὸ ἐν، يصرخ Psalmiste [2] **مؤلف المزامير**: في الأعمال التي هي، قصيدة ومورفولوجية معقدة، هناك بالواقع شيء ما للإعجاب به، لكن إذا تعلق الأمر بالعملية نفسها وهي شعر (poésie) لا يعود بالإمكان إلا أن نذهل... نعجب بتحفة، بإتقان، بسبق أو بصناعة ناجحة: لكن نذهل من مجانية الوجود... الذي هو مع ذلك ما-هو-مفروغ منه الأقل لما يذهل والأقل غرابة من الكل، والذي يستبعد، وهو كلية جامعة ومطلقة، يستبعد المقارنات والروابط. يكتب شوبنهور Schopenhauer، معرفا الحاجة للميتافيزيقا[3]: الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يذهله وجوده. ليس الذهول أمام حادث غريب في مجرى التواصل، ومتنافر في هذا التواصل، ليس ميتافيزيقيا في شيء: لكن الذهول من واقعة التواصل بشكل عام هو عبثي بمقدار عبثية الادعاء بترقيم قيمة الوجود. أليس **الوجود** في كل لحظة هو المعطى-آنفا، والأتفه، والأسهل، والأكثر طبيعية من الكل، لأن غريزة بقائه لا تظهر إلا في أقصى خطر مميت؟ ومع ذلك، فرهان الميتافيزيقا هو أن تمشكل الواقع الأقل إشكالا! لأنه إذا كانت عزة الوجود، الملل من الوجود، أو الجهد للوجود، في تعاملها مع الوجود على أنه شيء، هي مجازات وصور بلاغية بسيطة، فإن الذهول من الوجود، هو بشكل مفارق، تفخيم الفيلسوف (φιλοσόφου τὸ πάθος)[4]: في ميدان تبدو فيه قاعدة "nil mirari" واقيا ضروريا من الجنون والقلق، وحيث لا يتم الشعور عادة بتواصل الوجود على أنه هبة ولا يلقى الاعتراف بالجميل، يظهر

---

(1) P.G., XLIV, 732 a-d.

(2) Ps., 138, 14; Rom., I, 20: τὰ γὰρ ἀόρατα αὐτοῦ ἀπὸ κτίσεως κόσμου τοῖς ποιήμασιν νοούμενα καθορᾶται. Cf. le *Ps*. 19.

(3) Ergänzungen zu WWV, I, chap. 17.

(4) Théétète, 155 d. Cf. MONTAIGNE, Essais, III, 11.

الذهول على أنه وعي باللغز! ومن القليل القول مع أفلاطون Platon: أن "إيريس Iris هي ابنة المعجزة Thaumas، بينما العرفان نفسه هو المعجزة Thaumas نفسها. فإيريس هي جواب على سؤال وإحراج مسالم في euporie العلم: ولكن أليست المعجزة Thaumas هي التساؤل الدائم الذي لا يمكن أن يكون له أي جواب؟

يقول أفلاطون هذا تقريبا[1]: أولئك الذين يجهلون الجمال **نفسه**، αὐτὸ κάλλος يحلمون حلم مثولية؛ لأن عكس النسخة والنموذج، هو أيضا تشوش الحلم واليقظة، ὄναρ et ὕπαρ . والحال، تلك هي حال نائمي المغارة المستيقظين الذين ينامون، وهم يعتقدون أنهم يسهرون، نوم المغفلين العميق، لكن هذه هي أيضا حال الاسترخاء الدوغمائي، وحال المهندسين قليلي اليقظة، العاجزين عن بلوغ الجدل، ونفهم أن يكون غستوف Chestov قد أحب ذكر الكلمات التي يصف فيها أفلاطون Platon خدرهم[2]... لأن، من فضلكم، من ينام أعمق من الآخر: حالمو التجريب الهوامي، أو حالمو عالم المعقول الذين يدعون أنهم يوقظون الأوائل؟ وكيف لأعمى أن يفتح عيون العميان الآخرين؟ كيف لمهندسين هم أنفسهم مبهورون بنور الحقائق الأبدية كيف لهم أن يجعلوا خفافيش المغارة يبصرون؟ كيف يمكن لنائم أن يصحي النيام الآخرين؟ لأن فلاسفتنا اليقظين هم في الواقع، من يحلمون أكثر من غيرهم... يتساءل باسكال Pascal عما إذا لم تكن الحياة بكاملها حلما متماسكا يستيقظ منه المرء عند الموت[3]. ويصرخ، النوم ممنوع، وهو يفكر برقاد الحواريين في وادي الزيتون[4] Τί καθεύδετε ؛ إذا كان هناك حقا وعي جذري، سهاد متيقظ تماما، ἄγρυπνος ، وعي أعلى، أخيرا يظهر بجانبه كل وعي آخر، رغم تماسكه الماثل، يظهر كهذيان لا واع نسبيا. إن هذا الوعي الأعلى هو الذي سيكون ميتافيزيقيا؛ لكن وبما أنه ما من وعي لا يكتمل

---

(1) Rép., V, 476 c-d, Cf. VII, 520 c.

(2) 'Ονειρώττουσι μὲν περὶ τὸ ὄν, ὕπαρ δὲ ἀδύνατον αὐταῖς ἰδεῖν... : *Rép.*, VII, 533 *c;* Léon Chestov, *Athènes et Jérusalem.*

(3) Pensées, VII, fr. 434. Cf. Rép., VII, 534c: τὸν νῦν βίον ὀνειροπολοῦντα καὶ ὑπνώττοντα, πρὶν ἐνθάδε ἐξεγρέσθαι.

(4) Mystère de Jésus, VII, 553. Et Luc, XXII, 46.

ليعود ويصير جنونا أو غباء؛ فإن الوعي الأعلى لا يمكنه إلا أن يكون يقظة دائمة. "ممنوع أن ننام مثل باقي الناس، بل لنسهر ولنكن قنوعين" Ἄρα οὖν μὴ καθεύδωμεν ὡς οἱ πολλοί, ἀλλὰ γρηγορῶμεν καὶ νήφωμεν[(1)].

إن يقظة متواصلة ليست تواصل يقظة. هذه اليقظة التي تهددها في كل لحظة منومات المحاباة، هذا الوعي الأعلى الذي تنومه في كل لحظة نعاسية "المصطبة" - "هل أنت نائم؟ سيمون؟ ألم تكن لديك القوة لتسهر ساعة؟" - هذه الشرارة، أخيرا، التي تنطفئ عند اشتعالها وتشتعل عند انطفائها، هي مبدأ الفرح بالذات. الفرح في رفيف الظهور والاختفاء. إلا أن تواصل الظهور - إذا كان لا يزال بالإمكان التفكير بتحالف هذه الكلمات. قد يرادف الغبطة. والحال، فإن الخليقة لم يتم صنعها لأوهام مثل الربيع الأبدي أو الولادة المستمرة: إنها مصنوعة بشكل يقتضي منها أن تختار بين تأريخ السعادة، التي هي "عادة" "habitus" من دون فرح، وإنية الفرح، وهو حمية شعورية لا غد لها ولا دوام ولا سعادة؛ بين وجود الـ quid وهو حلم، وما-يكاد-وجود الـ quod الذي هو "حالة" وليدة دائما، تماس شبه-غير موجود، وفلسفة سعادة متناهية الصغر ولا تتوقف عن الابتداء؛ بين التمتع بثمرة ساكنة وثانوية. وتمتع الذات se rejouir باندفاع مجنون سباق، بين التلذذ والثمالة. بشكل أفضل أيضا: ليس الفرح بميكرو-سعادة ولا بسعادة مصغرة، مثلما أن السعادة ليست فرحا مؤبدا، لكنها من مقام **مغاير كليا**، من عالم **مغاير كليا**، من مصدر **مغاير كليا**؛ وقد نقول في لغة فيدون Phedon إنها من مصدر سماوي، لأنها تتعارض مع السعادة بصفتها Laetitia هارية عند Gaudium المفترقات. إن الإنسان الذي يبحث عن حالة-حد حقيقية والذي عليه أن يختار بين الحد من دون حالة والحالة من دون الحد، أي سعادة البرزخ الخفيفة، فيصنع الإنسان بالإسقاط أسطورة تعويضية عن **الجنة** ليستكمل من جديد إما الحالة الوجودية بالفعلية، أو الفعلية شبه-اللا-وجودية بالحالة. في العالم الأرضي، ينقص دائما شيء ما، تارة الوجود، وتارة الحرارة المرتفعة الشعورية للأصالة؛ حتى إنه يمكن التساؤل عما إذا لم يكن العجز البنيوي للوجود المتوسط هو مصدر كل أسطورة أخروية... إن استكمال ظرفنا الأعرج وغير المتساوق هو مشروع

---

(1) I Thess., V, 6.

مستحيل وخرافة توهمنا الإنساني الأبدي – لأنه من الأسهل أن نطير في الفضاء مثل السنونوة، أو أن نجعل أنفسنا لا مرئيين مثل Gygès من أن نجمع ما فرقته لعنة قاضية! إن تماثل **الفعل والوجود** يمنعه عنا مبدأ التناقض، كما أن اللجوء إلى **tertium quid** يمنعه عنا مبدأ الثالث المرفوع. ليست الصيرورة تماثل **الوجود والفعل**، بل هي بالأحرى تناوبهما... أو اختلاطهما: تحمل الصيرورة بنفسها إذن حلاً تبادلياً للتبادلية؛ وكل ما يمكن أن يقال هو أن **الوجود**، الذي يحركه **الفعل**، ينتظم في برزخ او تواصل؛ وأن **الفعل**، الذي يعيقه **الوجود** الذي يخنقه، يتقلص الى حالة لحظة، أي ما معناه شق مضيء ووجود-أقل في امتلاء الوجود. بخداعها الموت بفارق قليل وعند آخر حد، مثلها مثل متهور يقطع السكة بثانية قبل مرور القطار السريع، تكون اللحظة انتصاراً.. إنّياً على التبادلية، وتبعد الانفصال دون أن تتجاوزه نهائياً. وبما أنها ليست وجوداً ولا-لاوجود، فمن الممكن أن نقرأ فيها سواء بسواء الإيجابية السلبية أو السلبية الإيجابية، وهاتان القراءتان، واحدتهما تشاؤمية والأخرى تفاؤلية، متحققتان بالتساوي في الازدواجية البنيوية لإنسيتنا. في النقطة التي يتداخل فيها الوجود السرمدي **والفعل** الأبدي، تنبثق الثنائية الفانية، مقبولة في الصيرورة، أي، وبالضربة عينها، أن تحيا وتموت؛ وتظهر هذه الصيغة النادرة الأبدية – الفانية التي تنحو الأبدية الى تدقيقها، والتي تصير في اللامتناهي وجود-أقل، حالة-قصوى، ولحظة كبيرة، تظهر عندما تتقاطع أبدية **الحالة** مع لازمانية **الفعل**. وما يصح على الظهور الكبير، أي الهذيّة الفاعلة لمرة وحيدة، ليس بأقل صحة في الظهور الصغير، أي انبثاق اللحظة: يشق الفعل لنفسه فتحة شبه-لا موجودة في كتلة **الوجود**، ومع ذلك، فإن هذه هي العقبة-نفسها. هذا الـ-**برغم** الذي، بتعريفه **الفعل** على أنه لحظة، يسمح بتماس الوجود الفيزيائي مع الفعل النظري: لأنه قد قيل: إن الظهور، في الإنسان، لا يمكن أن يظهر إلا على شكل وميض، أي مخنوقاً بالليل الذي لا يلبث أن يطفئه. إن ما-يكاد-وجود، ليس لاشيء، بل هو أفضل من لاشيء، لأنه، وبالتعريف بالذات، أكثر بالضبط من لا-وجود: فهذا الـ-ما-يكاد هو إذن لا متناه وآنفاً، وعد بالأبدية. إن الـ-ما-يكاد بنفسه هو بصفته ما-يكاد-وجود أمل وبصفته ما-يكاد-لاشيء إخفاق، بكون الإخفاق تقريباً هو أمل منظورٌ إليه مجوفاً... إلا إذا

كان الأمل هو إخفاق منظورٌ إليه بوضوح! تلهمنا اللحظة نفسها بعد فوات الأوان بالإخفاق الاستعادي لوعد لم يتم الوفاء به، وقبل الواقعة بالأمل المنشود بتواصل البداية: يأمل الإنسان أنه سيكون للبداية تتمة والحاضر له غد، ويأسف لأن البداية تنزلق في رمال التواصل؛ ويأمل هناء يعطيه وميض-جنته عيِّنة منها، ويحتج على اختفاء هو قفا الظهور وشرطه بالذات. هالة موزعة حول بؤرة، يتولد الأمل التعيس من عدم كفاية الفرح وعدم اكتماله: بحيث إن الأمل اعتيادي وأمين مثلما أن الفرح هو غير محتمل، وموارب ولا يمكن ملامسته. إن الأمل الجذري هو إذن الأمل بأن تتواصل البداية: الأمل بأن النجمة الصغيرة، "scientilla ipseitatis" ستصير بدورها شمسَ هاجرةٍ كبيرة؛ بعبارة أخرى، الأمل بأن الفرح سيصير سعيداً؛ إن الفرح سيصير سعادة فرحة، وأن الحركة الطيبة، التي هي حركة فرحة، أي حركة مشكوك بها، ستصير قداسة لا تتزعزع... "آه، قوة الأمل الفسيحة، وكم هي تنتشر!" يصرخ الأخ "جيروم سافونارول Jérôme Savonarole" في تأمله الرائع[1] الذي كتبه قبل عذابه حول كلمات مؤلف المزامير Psalmiste: "In te, Domine, spéravi". ومن يدري إذا لم يكن الإله المصغر، الفرح تارة، والسعيد تارة، غير منذور ليصير سعيداً، فرحاً، أو، وبالاختصار، مغتبطاً؟ هنا على الأرض، إن من هو سعيد غير فرح، لأنه يسترخي في الكساد، وفي غفوة "حالة" اللافعلية؛ وبالتالي فإن السعيد تعيس، لكن من هو فرح، لا يعرف بدوره سوى وميض-أصالة **الآن** ليس لها غد: وعي عصفور الدوري" "mens momentanea" - أيمكنه أن يعيش شيئاً آخر غير أفراح العصفور الدوري؟ والحال، مثلما اللحظة، في الـ-ما-دون، لا يمكنها أن تمتلك الوجود في الحاضر، بصفته عادة أو حالة، يُفهم أن يمنحه الأمل لها، بصفته res futura أو speranda: طوبى للفرح الذي يأمل، لأن وجوده-الأقل **سيكون** طوبى لـ Laetitia incipiendi إذا كانت مكللة بالأمل، لأنها تفترض أن البداية ستتواصل. وسيصير المستقبل، وهو بالنسبة لإنسان الصيرورة البعد الذي يستمر فيه الظهور، يصير مهنة الأمل وحقله الطبيعيين. هكذا يسمح الأمل، الذي يجعل من اللحظة الفرحة دقيقة سعيدة، يسمح لنفسه بإكمال نصف-الطبيعية الأعلى لنصف-الألوهية. وكما أن اليأس، وهو عبثية تواصل

---

(1) SAVONAROLE, Dernière Méditation (éd. Ch. Journet, 1947), p. 93.

واستحالة اللحظة المُعدمة، والمتناقض بمقدار تناقض المثلث ذي الأضلاع الأربعة، كما أنه قد وجد موضعه الأسطوري في جهنم، كذلك فإن الأمل هو توسط بين **Nunc** الحاضر الفوري الذي لا يُمكن إدراكه والـ aeternum Nunc الغبطة التي لا يمكن تصورها. ومع ذلك، فإن تطويب السعادة هذا ما هو أبداً سوى مجاز وسراب elpidien "فردوس عدني" رمزي بالأحرى بدلاً معجزة فعلية. إن الفرح هو بشكل ما أقرب أمل ممكن، استحقاق مباشر يختلط، في الحد الأقصى، مع عتبة **الآن**-شبه-غير الموجودة: يكاد الوعي يجد نفسه وجهاً لوجه مع اللحظة المتأهبة التي ستصير فيما بعد ذكرى بعد أن أخفقت الحاضر... الفرح هو أمل ينقلب بغتة إلى أسف من دون أن يكون قد وجد الوقت ليكون هناء: قد يكون ما--يكاد-لاشيء الفرح عند مفصل أو كسر هذا الأسف وهذا الأمل، كما أن ما-يكاد-لاشيء الحدس هو في كسر الخطاب وفي معية **العثور والضياع**. بين أمل prokimum futurum، وهو المباشرة الماثلة، وأسف الـ proximum praeteritum وهو المباشرة الاستعادية، هل من مكان لجلاء فرح مباغت للوهلة الأولى؟ "spes proxima"، على وشك التحجر في "res sperata"، يشبه الفرح الحب الذي هو دائماً عند منتصف الطريق بين الرغبة بالامتلاك وإخفاق التطابق...

أو ربما كان هذا الإخفاق بنفسه هو أيضاً فدية الدوغمائية، التي ترجع الى الجهل بـ - **الفعل**، وإلى تسمم الحس المشترك بعبادة **الشيء**؟ لا يملك إنسان الصيرورة وvinculum غير الصافي، خليط **وجود وفعل**، لا يملك أية فكرة عما يمكن أن تكون عليه التماثل المطلق **للفعل والوجود**، الذي هو سواء بسواء فعل-وجود أو فعل-محض: لا يمكنه أن يتصور أبدية تكون فيها كثافة اللحظة وامتداد الحالة في الآن نفسه ممتدين معاً، ومتكثفين معاً؛ لأن هذا التماثل ليس بأكثر من ملائكية. ومع ذلك، فإن الوجود-الأقل، وهو الشكل الذي يُمنح فيه **الفعل** للإنسان، يمنحنا نوعاً من الصفاء الآني والإطلاقية النسبية حيث الله متضمن آنفاً. وإذا كان من يقول واحسرتاه للتبادلية، لأنه لا يمكن امتلاك الكل، لديه الكلمة ما قبل الأخيرة، فإن الذي يجيب اللحظة الإلهية بـ "شكراً"، سيملك وحده الكلمة الأخيرة: مثلما في حوار الدكتور **تباً**، والدكتور **حسناً**، فإن **واحسرتاه** تكون ما قبل الأخيرة عندما تكون: الـ "**شكراً**" هي الأخيرة. لكن اكتساب فعل-الوجود

اللامتناهي الصغر هذا لا يكون ممكناً إلا بتوسط استشفاف اللغز الروحاني وفـائق الوجود وفائق السعادة لـ quoddité. فإنه في الأساطير الوثنية تمتلك الآلهة، بين صفاتها الأخرى، السعادة كما تمتلك الجمال أو البصيرة أو القوة، التي هي مواهب ثانوية لطبيعتها الثانوية. يقول ليبنتز Leibniz نفسه في مكان ما[1] عن "beata necessitas": إن "felix" والحق يقال، مناسب أكثر حيثما يتعلق على الأقل بالثانوية ما بعد التجريبية؛ إذا لم يكن يتعلق بالثانوية التجريبية؛ إن التواصل الجوهري، مثل تواصلية الوجود، هو نوع من الوجود أي من الرفاهية. يقول أفلوطين[2]: إن الحقيقة المعقولة تقود حياة هانئة، ζωὴν μακαρίαν : إن الحقيقة العقولة، ولكن ليس الله! إن الله ليس سعيداً، لأنه منبع السعادة... لأن وهذا آخر ما بعد المنطقي في الفلسفة الأولى: لأن من **يفعل** ليس له وجود، مثلما أن ما ينير هو مظلم؛ - وحتى، بحصر المعنى، إن من يفعل لا يوجد، الفعل ليس له وجود، ومنبع السعادة ليس سعيداً. يصير الأمر القطعي في فلسفة السعادة، الذي يجعله الفرح الالهي ثانوياً، يصير افتراضياً! إن المنبع ما فوق السعيد، أو الهنيء للسعادة هو الفرح. وهكذا، فإن الله، أو فعل-الوجود المحض، هو الفرح نفسه، Laetitia ipsa. ونصف-إله اللحظة والشاعر بتقطع، الإنسان ليس هو **الفرح** نفسه، إلا أنه **فعل** مقيد تماماً بالوجود. إنه لا يكون فرحاً إلا في لحظة استهلالية وكريمة: لأنه إذا كان هناك رضى بالتواصل، وبالحفظ، وبالتقليد، فهناك فـرح quodditative بالبداية وبالعطاء وبالخلق. إن الاكتفاء بالوجود، الذي يقول Satis! لتواصل هذا الوجود (لأنه ما من سبب ليتوقف وجود هذا الوجود)، يخترع العدالة لكي يعطي قيمة معيارية لصيانة هذا الـ **statu quo**، ويجعل من أفقية الوجود مثالاً - مثالاً من دون فرح. والبادرة، وهي وضعية عبقرية للوجود، هي على العكس، عارض **زيادة**. فهي لا تقول أبداً **كفى**، بل **دائماً أكثر**، ودائماً أبعد! بخلقها تسوية مباغتة في مستوى **الوجود**، فإنها انتصار-الدقيقة لوضعية -الدقيقة. الخلق، الدء، العطاء: تتلخص هذه اللحظات السباقة في حركة الحب الفرحة، الذي هو إعادة، وضع إنسانية للوضعية المؤسِسة. لهذا فإن الحب هو أكثر من سعيد، مثلما يُقال إن

---

(1) GRUA, t, I, p. 289; PLATON, Rép. VII, 526 e; Banquet, 202 c.

(2) Enn., III, 8, 11. Cf. V, 5, 2, Mais : I, 6, 7 et II, 9, 9. Cf. Saint THOMAS, Summa Th., I, 26, art. 1.

الجمال نفسه، αὐτὸ καλόν ، أفضل من الحسن، بمعنى أنه "جيد"، لأنه عملية فتنة؛ أخيراً مثلما :"فعل –الوجود" هو أكثر وأفضل من الوجود؛ إن فعل الوجود حري بأن يكون وجوداً، لو أنه كان يريد ذلك؛ لأن من يقدر على الكثير يقدر على القليل، ووضع وجود الآخر هو معجزة أشد من وضع وجود الذات بنفسها: وهو أيضاً يحتقر هذا الإشباع، الذي يتركه لطلاب اللذة، والمحتكرين والنهم البرجوازي. يبدو العوز سعيداً: ومن جراء ذلك، علنيا أن نعتقد أن الناس، الذين يشبهون سجناء Barbe-bleue [1] بارب–بلو الحقيرين، هم سعداء بما فيه الكفاية في زنزاناتهم التي يجدون فيها الضمير المرتاح، والمزاج الطيب، والهضم الجيد. لكن أحداً لن يخطر بباله أن يقول إن الحرية سعيدة: لأن الحرية، وهي لحظة ابتدائية أو بادرة فورية؛ هي على العكس مؤلمة ومثيرة للدوار والقلق؛ إن الحرية في الواقع، هي أبعد من الفصل بين السعادة والشقاء، لأنها، وهي الارتجال النظري بامتياز، أحد منابع الفرح. وبالتالي، فحال الحب من حال الحرية، وهو بالضبط زبدتها: أليس الحب المبالغ هو حرية التضحية – من أجل- الآخر؟ لا يدخر الحب الثروات بهدف التمتع بها: لأنه، على الأقل في لحظة اشتعاله المحض؛ لا ملك له ولا res posita، ولا اسم –مفعول – سلبي؛ كما يصف لنا أفلاطون إيروس مكدوداً مشعثاً وحتى بشعاً؛ وأفلوطين، الذي يعلق على "ديوتيم" [2]، يعارض العوز الغزلي بروائع حديقة زيوس Zeus، حيث يعيِّد الخالدون وحيث تزهر الورود الرائعة بآلاف حُلَلِ الجمال المعقول: κῆπος δὲ πᾶς ἀγλάισμα καὶ πλούτου ἐγκαλλώπισμα هو فرح ومستاء، تعيس دائماً ومع ذلك فهو فرح رغم ارتعاد أوصاله، وبارتعاد أوصاله بالذات: هذا هو الحب، بالتعارض مع السعادة المالكة. **الفعل**، بعد كل شيء، مثل **الوجود**، هو نصف الغبطة الأسمى: ومع ذلك فإن السعادة بالوجود هي خاصية الإنسان المشبع الذي يعتبر نفسه مكتملاً، بينما فرح الفعل، الأقرب في العمق من فعل–الوجود المطلق (لأنه لا ينقصه إلا أن يدوم) هو مستاء دائماً وراغب الى ما لانهاية؛ لأن الوجود راكد، الوجود بدون فعل لا يطلب شيئاً ويتسطح في هزاله، بينما الفعل من دون وجود، أي اللحظة، يطلب الأبدية: سمته عدم الاكتفاء، ولكن

(1) Paul DUKAS, Ariane et Barbe-bleue, Les Écrits de Paul Dukas p. 623.

(2) Enn., III, 5, 9.

ليس اللا-معنى! لقد وصفت **"المأدبة"** بعبارات دامغة شهية الخلود هذه التي هي كل دينامية الحب والتي تنتعش في المِحنة نفسها "دموع الفرح". يكتب باسكال في الـ "Mémorial" "كتاب مذكراته"، كأنما كان يعرف العلاقة العميقة بين لحظة الفرح وأهوال الألم.

إذن يصير الوجود من دون اللحظة جثة سعيدة ولائقة؛ جثة تغذت جيداً وسعيدة جداً لأنها جثة جميلة الى هذا الحد، وفي مغارة بهذا الجمال. إلا أن الجثة السعيدة تشعر أحياناً في داخلها باختلاجات مياه اللحظة الحية، والنوافير المتدفقة حيث يمكن تذوق الفرح والحب. الحب الذي ليس شيئاً. الذي هو كل شيء. أي أنه إذن **ما-يكاد-لاشيء.** لأنه مثل الحرية، مثل الله، ما-لا-أعرف. ما - هو الإلهي المستشف في استشفاف الإنسان، مثل كل الألغاز وأهم كل الأشياء وأسماها، الحب هو ما-يكاد-لاشيء أو (وهذا ما يرجع للأمر عينه) فتنة، إذا كان صحيحاً أن الفتنة وليدة دائماً، ودائماً على حافة... فكيف يُذهل رجل **"التكوار"** لعدم عثوره في الوفاء أو دوام التواصل الزوجي على التراخي التلميحي والإيحائي، تلاشي الفتنة الإلهي؟ الفتنة هي الحقيقة الملتبسة والهاربة **للطريقة القصدية** التي لا تتوقف عن دفعنا من هذا الى ذاك. لا يجب طلب المستحيل، ولا التأسف على ما لا يمكن انعكاسه، ولا تأبيد اللحظة! ومع ذلك ففي وميض ما-يكاد-لاشيء هذا، حيث يستهلك التجريب نفسه، ويصير الأبطال، الذين يضحون **بالكل من أجل الكل**، قادرين على تحمل إعدامهم الخاص، والانمساخ الكامل لوجودهم في فعل-الوجود. لا يوجد للإنسان الحي مطلق آخر غير هذه الألوهة المائعة، غير هذا التماس المشكوك فيه جداً، غير رفيف الشرارة بعيد الاحتمال هذا. إن **ما-يكاد-وجوداً**، وهو الوجود الوليد-ميتاً، هو كل ما سيعرفه الى الأبد المخلوق، الهارب من الوجود، عن **فعل-الوجود** المحض: إن الإقامة في الفعل هي ما سيبقى عاجزاً عن تصوره. هذا هو مع ذلك الفارق بين الحائط الكامد، **الماهية** التي لا يمكن اجتيازها وبين سماء الهوية Quoddité الإعجازية: لا يمكن التفكير في العبثي، وهذا ما يدل عليه اللامعنى؛ إلا أن الإنسان لديه منفذ الى تسام فوق إنساني في لحظة التضحية العمياء. أليس القذف الجذري للوجود خارج أسس وجوده، وهو لا معنى لا يمكن تفكّره، وهو مع ذلك معاشٌ، أليس هو إمكانية-وميض المستحيل؟ في نهاية

المطاف، تشبه اللحظة الفلسفة نفسها، التي توجد بالكاد، أي لا توجد إلا بالمباغتة وعندما ندير أعيننا؛ وما أن نتفحصها باهتمام كبير حتى نراها تصير شيئاً آخر، علم نفس، علم اجتماع أو تاريخ فلسفة آخرين، لأنها تعيش من فتات العلوم الإيجابية؛ الفلسفة موجودة بالجملة، مثل تأثير الكتلة أو تقريبياً، بينما عن قرب تتفتت الى ما لانهاية. ولكن كما أن الواقع الحيوي، الذي تحيله العلوم الفيزياء -كيميائية من دون توقف إلى إواليات، ويعيد من دون توقف تشكله النوعي الذي لا يتجزأ، وكما أن بداهة الحرية التي لا يمكن البرهنة عليها تعترض دائماً على الحتميات الإيجابية التي يتم النجاح دائماً في تقليصها إليها، وأخيراً كما أن الالتباس غير الملتبس للخير والشر تجعلنا نشك دورياً بالحكم الأخلاقي، ونعيد الثقة به، وكما أن بداهة الفلسفة غير البديهية هي في آن معاً لا يمكن الدفاع عنها وعنيدة بشكل غريب... بدورها الفلسفة هي نوع من الفتنة! سيقال إنه لحظ خطير جداً أن تحفظ الفلسفة في توازن غير مستقر على رأس ألماسة ما-يكاد-لاشيء بدلاً من أن نجلسها في الصحن الصلب وقاعدة قوت البرزخ التي لا تهتز! ذلك أن "شيء" الفلسفة هو **ما هو نفسه بنفسه** الذي هو بالضبط ليس شيئاً، والذي لا يستطيع أي إنسان أن يسميه ولا أن يعبر عنه مع أنه الفريد الضروري والفريد الكافي. إن الـ "mathème الكبير" بطرحه السؤال الجوهري والـ quodditative حول **من** يتألق فإنه لا يجاوب على السؤال إلا بالسؤال نفسه مشيراً الى **ما هو نفسه** بالذي لا لون له وغير المتشكل والمتقشف الذي هو فاعل التألق المحض. كيف لا يُفضل الطائش، بطرحه أسئلة تصنيفية محددة، أن يتمثل طريقة ولون الخاصيات النعتية، **وكيف** النور متعدد الأشكال والألوان؟ أي سخرية! في أن اللغز الوحيد الجوهري حقاً والوحيد الذي يستحق أن يُشرح هو الوحيد الذي لا يمكن أن ننطق به على الإطلاق، لأن علم هذا اللغز، لو كان موجوداً، فإنه سيدوم أقل بكثير من شرارة أو رمشة عين، أي أنه سينتهي ما إن يبدأ. وأيضاً أي تعزية عندما يعثر الفيلسوف الذي لم يعد لديه ما يقضمه، على شيء ما يقوله بلجوئه الى توريات محتشمة ومحدِثاً عن أشياء وأشياء أخرى... وبالأخص عن الأخرى! الكل، بدلاً بالأحرى من الجوهري... قبل الكل، الكلام عن شيء آخر ليكون لديه ما يقوله، وحوله. للأسف! إن الفلسفة التي، بفعل تحويل مجرى الحديث، انتهت الى أن تجد لنفسها

موضوعات للحديث، قد ضاعت منذ زمن طويل في - في **خصوص** وفي الدعابات الميتافيزيقية. لقد صار الـ "mathème الكبير" mathème صغيراً ومضحكاً. لقد وضعت الفلسفة، بعلاقة مع الخطابة، تقنية في إخفاء الـ quodditatif تستعملها لسحب **الـ-ليكن** le Fiat: لأن هذا المقطع الأحادي - المحرم -هو، مثل الموت، كلمة صغيرة، هي كلمة كبيرة، كلمة بذيئة تشوش احتشام البرزخ... إخفوا هذا الـ-**ليكن** بحيث لا أقدر أن أراه! ومثلما يصير الحدس إضمارياً أو استدلالاً إيجازياً، والفرح فلسفة سعادة-سريعة، ونوع الانفعال هذراً جسدياً والشجاعة أخيرً خلاصة قياس، كذلك فإن الفكرية تخفف القرار السبّاق في أمواج التداول والحوافز: لم يعد هناك خلق، ولا وحي ولا "عتبة"؛ يصير ارتجاج الحركة الطيبة السري أو الانعطاف ظاهرة ثانوية، **un fiatus vocis**، أمراً زائلاً غير متماسك على سطح الخطاب. بشكل أفضل أيضاً، لا يريد موجود البرزخ، الخلوي الكبير ذي الأبعاد الثلاثة لا يريد، بانتظامه، أن يخاطر بالرجوع الى فكري أحادي الخلية أو دعاء نقوع نفسي: ليس لأنه يدعي، كما في "**فيلاب" Philèbe**، أنه بهذا يُكرِّم **الوعي**، ولكن لأنه، بميله الطبيعي للتركيبات، يصر على الزمنية، وعلى التعقيدات الهندسية وعلى تعدد الخلويات وتعدد خلايا تنظيمه الجسم-نفسي. إن رهاب "mens momentanea"، وهو رهاب المحارة الملتصقة بعظمتها، ليس إطلاقاً هلع لاوعي مصاب بالنسيان بقدر ما هو هلع شبه-عدمية الوجود: إن من لا يعترف بأنه اختار بقرار صاعق لا يكون أكثر قبولاً في أن يتخلى عن منافع المفاضلة المكانية-الزمانية بتحوله الى وجود-أقل لخلية واحدة، لحافز واحد، لمقطع واحد! مونادا، من دون شك، ولكن ليس أحادي الخلية... ستحتفظ "الـذرة" النفسية بتعقيدها الخلوي عندما تعكس الكون، أو عندما تتكتل مع ذرات أخرى. لقد وجد هذا الاحتشام **التواصلي** لـ-ما-لا-أعرف-ما- هو، وجد محاميه الرئيسي في ليبنتز Leibniz، فيلسوف **التناغم** والأفكار "المتصلة"، ليبنتز المنهمك بتبرئة الموت والشر، وبدمج التنافر والفضيحة والهوية والفاحشة في لياقات البرزخ.

إن هذه العقول القوية هي عقول ضعيفة. لأن عقلاً ضعيفاً أو حتى مغفلاً، هو الذي يسيء فهم **القوة** السبّاقة التي تضع كل شكل، وتخفف الثانوية حتى لا يعود هناك أي سؤال حول **ما-يكاد-لاشيء**. هناك وهن نفسي فلسفي يشتمل

على سوء فهم اللحظة الفعالة والدفع اللامتناهي الصغر. فالفلسفة، الفلسفة التي تكاد تكون – غير موجودة، هي تماس يكاد – لايوزن مع ما–يكاد–لايلمس: ليس اتصالاً، كما بين مساحتين، ولا حتى لمساً كما بين نقطتين ممتزجتين، ولكن تماساً في اللحظة، إذا لم تكن اللحظة إلغاء الأبعاد الثلاثة فقط، بل إلغاء الوضعية في المكان وللنقطة نفسها. إن هذه النقطة الهاربة التي هي لا–نقطة أبعد من النقطة، هي هدف الفلسفة الحقيقي، ولكن وبما أنها عكس الشيء، فإنها لا تنكشف إلا لرهافة–فائقة لـ "لمسة سامية"، وفي استشفاف جزء من ألف من الثانية. إن هذه النقطة المتلاشية التي حتى لا يبدأ من دونها أي علم، ويكتمل انطلاقاً منها نصف–العرفان، هي ما سميناه **الهذيّة**، والتي هي أنا–نفسي بمقدار ما هي **نفس الآخر**، أي أنت نفسك – لأنها ما لا يمكن الكلام عنه والذي به يكون الله والشخص والحرية ما هم عليه وحيث لا يعود هناك في الواقع ما يقال. والحدس بهذا المعنى هو لعبة بهلوانية مع الـ–**ما–يكاد**[1]: ليس مع **شبه** وجه التقريب البرغماتي أو الاحتمالي الفظ، الذي يتحدد بالنسبة الى علم دوغمائي منته، ولكن مع الـ–**ما–يكاد** الذي هو حد–دقيق وحالة–قصوى، أي ديناميكية قصوى بين ما لا يدرك والمدرك؛ ذاك هو الفعل لمرة واحدة للذات **Ipse** الشخصي، الذي هو أقصى ندرة لأنه لا يعود هناك، فيما هو أبعد من وحدانيته، سوى اللاوجود البسيط والمجرد؛ ذاك هو الوجود–الأقل للحظة، وما أبعد منها قد لا يكون هناك باختصار إلا اللا–وجود. ما من شيء أكثر ندرة ولا أثمن ولا مسنون، ما من شيء يكون سمواً–أقصى، ما من شيء، بكلمة، لا يعود، "ما–يكاد–غير موجود" سوى هذه الصيغة النادرة للحظة الصغيرة والكبيرة، سوى هذه الحالة–القصوى أو الفريدة التي هي رأس "acumen" لكل حالات النوع. إن ما يحدث لمرة واحدة في الكل وللكل هو آنفاً حدث تاريخي، لأن هذه المرة الوحيدة والفريدة تكفي على الأقل لتكون موضوع تجربة إيجابية؛ إلا أن ما لا يحدث أيضاً **سوى مرة واحدة** ليس في السنة ولا حتى في قرن بل في الأبدية كلها، والذي لا يسمح أي تكرار بالتأكد منه، ينحو إلى أن يصير صفر المرات، لا عرضي أي Nunquam، لأن المتناهي، في الحد الأقصى، ينعدم بالنسبة الى اللامتناهي؛ كما أن ما–يكاد–وجود هو بالضبط أكثر من لا–

(1) Enn., VI, 8, 13, sur τὸ οἷον.

وجود، وهكذا فإن أبداً – لن يعود على الإطلاق هو مباشرة أدنى من أبداً، لأنه على الأقل كان سيكون. إن الظهور الفريد والحاد والأكثر من احتفالي الذي اسمه الهذيّة ipséité هو إذن حقيقي وغير حقيقي في آن معاً، لا ينسى وأكثر فأكثر بعيد الاحتمال. يتأسف الأسف لعجزه عن إطالة اللحظة التي لا تنعكس؛ لكن الندم يتألم لعجزه عن إلغاء ما "تم-فعله" (fecisse) الذي لا رجوع عنه. لقد فعلت... و لم أفعل شيئاً! يصلح هذا التناقض الغامض على ذاتية الأنا التي يتعذر استبدالها مثلما يصلح لكل فعل من أفعال هذه الأنا: إن حركة الإحسان الملتبسة والأولى والمتنازع حولها بقوة، والإخلاص العابر الذي تعترض بداهته من دون توقف التباس على النظام الإبداعي، لحظة الخلق الصغيرة ولحظة never-more الكبيرة، كلها حالات-قصوى تقع على عتبة النفسي والميتافيزيقي نفسها. وقس على ذلك الفرح، والشجاعة والنية بصفتها في آن معاً مشاعر من المطلوب أخلاقياً أن نعايشها وتجارب مشكوكاً بها بشدة، وتقع على حدود المُعاش وغير المُعاش، عند حدود التواصل والأخلاق. يقول نيقولا دوكوز Nicolas de cuse [1]: "في أقصى حد"، يصبح المضلع دائرة والخط المنحي خطاً مستقيماً ويصبح الجهل علماً. أليس **العبور الى أقصى حد** هو فن بلوغ اللامتناهي الذي لا يُلمس كحد نهائي؟ بتصويبها دون إطناب باتجاه مرمى اللامتناهي الصغر للغز الأقصى، تتابع الفلسفة المُخيَبة قدر استطاعتها البهلوانية المميتة للعبور الى أقصى حد؛ الفلسفة المخيبة هي في آن معاً تفكير اللحظة، لحظة مُفكِرة، وتفكير فوري. اللحظة هي شيء الفلسفة البسيط Simplicissime واللامتناهي البساطة ما-لا-أعرف-ما-هو، الذي هو أيضاً ماهية الوجود، زبدة هذه الماهية، هذيّة هذه الزبدة، عين ipse هذه الهذيّة ipse وهكذا الى ما لانهاية. لكن وبما أنه لا يوجد، في لحظة، شيء للتفكير "به"، لأن الـ "في" والـ "inesse" (لا-يوجد) هما هنا مجرد مجازات، لذا يمكن القول إن التفكير بالنقطة هو نفسه نقطة لا تنقسم من التفكير، يجب أن تكون بذاتها لحظة لتفهم اللحظة ولتكون حاضرة للحضور، لتتطابق مع النقطة الروحانية للقيامة (عودة المسيح): لأنه لا يتم التطابق مع الشرارة إلا إذا أصبح نفسه شرارة، أي ما-يكاد-غير موجود من دون أبعاد ولا تأريخ. وأخيراً، لأن الحدس هو فكرة

---

(1) Œuvres de Nicolas de Cuse, choisies par morice DE GANDILLAC (Aubier, 1942), p. 452.

نقطة دقيقة، أو بشكل أفضل (لأن التعيين الدقيق نفسه هو هنا معدم مع الديمومة) ولأن الحدس هو استشفاف فوري التشكل للحظة، فهو يقيم في اللحظة: الوجود في اللحظة، ووجود اللحظة، أصبحا هنا مترادفين منذ لم يعد لحروف الجر أي معنى. ولا يعود رفيف اللحظة ورمش عين الحدس، أي الطبيعة من دون وجود، والديمومة من دون ديمومة، وفعل-الوجود الوضعي وإعادة وضع فعل-الوجود هذا، اللحظة الجذرية واللحظة العرفانية، أخيراً لا تعود كلها إلا لحظة واحدة بنفسها. إن الحدس الفلسفي هو هذه الفكرة اللامتناهية الصغر المستدقة والفورية على شاكلة الـ-**ليكن** le fiat الجذري. فالاستشفاف والهذيّة المواجهة والمخلوق ليس البصير بل المستشف، - الأول الذي هو في آن معاً لحظة، نقطة-موضوع ونقطة-فاعل، والثانية التي هي نقطة - والثالث الذي هو نقطة - فاعل وذروة الروح، كلها، من الآن فصاعداً، لم تعد سوى ما-يكاد-لاشيء واحداً. يُهدئ الحدس، وهو تطابق موضوع **مخفف** إلى أقصى حد، مع فكرة **مرهفة** الى أقصى حد، يهدئ بذلك اضطراب القلق: فعادة التواصل والحنين الى الشيء يتركان المرء مخبولاً عند حافة اللحظة، الحدس، الذي هو اللحظة بعينها، سيباغتنا خير مباغتة: بكشفه إيجابية الحافز الذي يحث كل البرهات، والنزوة التي تفعل صيرورة التغير، ويحمل لنا الفرح. فكيف يُشك بأن Tautégorie اللغز الجليّة، بكونها كذلك إعادة خلق، تتطلب نعماً شديدة الزوال؟ لأن اللحظة هي حظ **وفرصة** إلهية، وتريد **الفرصة** ضمائر موحى إليها... الوعي الجريء عند عتبة المستقبل القريب، المستقبل بالكاد مستقبلاً أو ما يكاد آنفاً حاضراً، حاضر أيضاً بالكاد مستقبلاً، على أهبة أو على **حافة أن يكون** حاضراً؛ الوعي الرشيق عند عتبة الماضي المباشر، الحاضر الذي لا يكاد يمضي والذي صار للتو حاضراً: - هذان هما الفشلان المنتصران، هاتان هما البهلوانيتان، هاتان هما مغامرتا الفلسفة الأولى تالية والثانية سابقة. بين الرسالة التي نباغتها واللغز الذي نُقصر عنه، أي الـ-**ما-هو-نفسه**، يلزم شعرة... أي من الكل الى الكل أو من اللامتناهي. والحال، فإن العكس ليس بأقل صحة، لأن **إفلاسنا** هو نجاح، ونصف-العرفان هو بالضبط علم nesciente. لوجود **أوشك** أن يعرف. بين موجود الرؤية وما يكاد -موجوداً يكاد - غير موجود الاستشفاف، وما-يكاد-رؤية، والرؤية الخلاقة من جديد، ليس هناك بالطبع سوى تمييز ما-يكاد

غير المتميز: لكن هذا الـ **ما-يكاد** هو عالم، وشرط الحدس نفسه؛ إلا أن هذا الـ-**ما-يكاد** هو الفلسفة كلها. فالفلسفة مثلها مثل الموسيقى موجودة بالكاد، يمكن الاستغناء عنها بسهولة فائقة: ومن دونها شيء ما ينقص. مع أننا لا نستطيع أن نقول ما هو: من الممكن، أليس كذلك؟ أن نجهل المقام - المغاير - كلياً، دون أن ينتج عن ذلك أي شيء عملياً؛ وهذا ما يرجع في نهاية التحليل الى الأمر عينه أن نخضع للضرورة الأبدية أو أن نعي الواقعة المجانية لهذه الضرورة بشكل عام... تقول سنيغوراتشكادو سترفسكي (Snegourotchka d'Ostrovski) ... أحب وأذوب تأثراً بأول شمس الربيع: لأنه لا يمكن ان نحب وأن نوجد في آنٍ معاً؛ لأنه علينا الاختيار بين وجود من دون حب، وهو الشتاء القاسي، والحبٌ من دون وجود، وهو الموت في الربيع. والحال، ثمة نقطة لا يمكن إدراكها تصير فيها مأساة التبادلية هذه حظاً رائعاً. وبالواقع هل من الضروري أن نجرب هذا الحظ البعيد الاحتمال؟ يمكن، بعد كل شيء. العيش من دون الـ-ما-لا-أعرف ما- هو، كما يمكن العيش من دون فلسفة ولا موسيقى ولا فرح ولا حب، ولكن ليس حقاً بصورة حسنة.

مسرد المصطلحات

أجنبي – عربي

Anthépénultimité	ما قبل الأخير
A fortiorisme	الأولية
Absolument autre	الآخر اطلاقاً
Absolument-autre	المغاير إطلاقاً
Absolu-météore	المطلق–البراق
Abstraction	التجريد
Absurde	محال
Absurdissime	محال، عبث كلي
Achromatisme	لا لونية
Acte	فعل
Action	عمل
Acumen	الرأس، الحد
Acuminal	مستدق
Adialectique	لا جدلي
Adiaphorie	حياد/ لا مبالاة
Adjectivale	نعتي
Agape	محبة
Agent	فاعل
Ailleurs	المكان الآخر
Aliquid	لأي كان
Aliter	مغاير
Allégorie	مجاز
Alogique	لامنطقية
Alternative	تناوب
Ambivoque	الملتبس المعنى
Amorphe	غير المتشكل
Amphibolie	العمل الثنائي/إزدواجية
Amphibolique	مزدوجة
Anabase	هبوط
Anagénèse	تولد متدرج
Anagogie	تأويل باطني
Anagogie	تأويل
Analogie	مماثل/التماثل
Anempirie	لاتجريب
Anempirique	لاتجريبي
Angelographie	كتابة ملائكية
Angoisse	القلق
Anhypothétique	لا افتراضي، لا شرطي
Annihiler	إلغاء
Anthoropiquè	انساني
Anthropomorphique	تشبيهي بالإنسان، تشبيه بالإنسان
Anthropomorphismes	تشبيه الاله بالانسان
Anthropopathisme	تشبيه بالمنازع الانسانية
Antinomies	تناقضات
Antithétique	متناقض
Apacolypse	رؤيا
A-peine-quelque chose	بالكاد–شيء–ما
Apophatique	اللاهوت السلبي

التجلي	Apparaitre
اعتباطي	Arbitraire
اعتباطي	Arbitraire
روح	Arché
النموذج الأصلي، نمط بدئي	Archétype
النمط الأصلي	Archétypique
القديم	Archique
الصاعد	Ascendant
الصعود	Ascension
الصعود	Ascession
وجوب الوجود بالذات	Aséité
تأكيدي	Assertif
لا موقعي	Atopie
لاموضعي، لامكاني	Atopique
(ما وراء) العالم الثاني، العالم الآخر	Au de-là
المقام الآخر	Autre ordre
مسلمات	Axiomatique
نسق البديهيات	Axiomatique
الخير	Bien
ثنائية الجبهة	Bifrons
بايجاز	Brevissime
صعود	Catabase
أيض	Catabole
تطور يُفقد الميزات الوراثية	Catagénétique
علة ذاته	Causa-sui
العلية، تسبب	Causation
معلول	Causé
علة ذاته	Cause-de-soi
ما هو مفروغ منه	Cela-va-de-soi
التفكير المجرد	Cérèbrations
مقام الهنا-هذا	Cet ordre-ci
آية/ تحفة	Chef-d'œuvre
طريق ايطاكيا	Chemin ittaque
زمن نظري	Chronothètique
الاحاطة بالبنية	Circonstructure
إمكانية المعرفة	Cognoscibilité
يتصور	Concevoir
توافق	Conciliarité
احتمال	Contingence
حادث	Contingent
استمرار، تواصل	Continuation
تواصل موصل	Continuation continuée
تشبيه – مضاد للتقليد	Contre-imitation
انعطاف	Conversion
متعلق/مترابط/مضاف	Correlat
نشأة الكون	Cosmogonie
هوس بالكون	Cosmophilie
الرهاب-الخوف من الكون	Cosmophobie
التشكلات الكونية	Cosmorphismes
نظرية الخلق	Créationisme
ابداعي/ خلقي/ مبتدع/مُفَكر	Créaturelle
تعريف	Définision

Essentialité	جوهرية	Déité	آلهة اسطورية
Esti	كيان	Déja	سابقاً-آنفاً
Étant	الكائن/ موجود	Déjà-étant	موجود آنفاً
Étant universel	كائن كوني	Déjà-là	آنفاً-هنا/ما كان آنفاً
État de grace	حالة نعمة	Demonise	شيطانية/ أبليسة
Éternitére	أبدية/ مؤبدة/ الأبد	Désenssentialisée	منزوعة الماهية/ منزوعة الجوهر
Étiologique	سببية	Desordre	الاختلال
Être	الوجود	Destinal	قدرية
Être	كائن/ موجود	Deutérologie	علم الثاني
Être-au-présent	وجود-حاضر	Dévoilement	كشف
Être-ens	الوجود	Divinité	آلهة سماوية
Évent	حدث	Dogmatique	دوغمائية
Ex nihilo	من عدم	Dokétisme	العقيدة
Ex nihilum	انعدام	Donation	منحة
Exact	صائب	Donné	معطى
Exigence	ضرورة	Doxa	الرأي-العقيدة
Existentifiante	مُوجِدة	Doxographie	وصف العقائد، الآراء
Exister	الوجود	Doxologie	رأي مشترك/ صلاة تمجيد
Exister	فعل الوجود	Duplicat	(المطابقة) النسخة الشاهدة
Exmplarisme	المثلانية	Égocentrique	المنظور الأنوي
Expérience	تجربة	Élau vital	الدفع الحيوي
Extemporanéité	التزامن السابق	Eleusinienne	فردوسية
Factum	حادث	Empiriomorphique	تجريبية التشكل
Facture	صنع	Encyclique	الرسولي
Faisant - Se faisant	ما - يفعل	En-deçа	ما-دون
Fait	واقعة	Eschatologique	معادياً
Fiat	القرار/ ليكن	Espace	حيز/ مدى
Fidéisme	إيمانية	Essence	الماهية/ جوهر

Futurition	مستقبلياً
Génésique	مولّد
Gnoséologique	النظري معرفياً
Gordien	العويص
Grâce gratifiante	نعمة موهوبة
Grand tout	الجرم الكبير
Gravitation réifiante	انجذاب مشييء
Habitus	عادة/ تعود
Hadès	جحيم
Haeccéité	هذية/ ذاتية
Hapax	صيغة نادرة
Haplôse	تسهيلات
Harmonie préétablie	التناغم المعد مسبقاً
Heptaméron	الأيام السبعة/ أيام الخلق السبعة
Hétérologique	مغاير منطقياً
Historiosophie	حكمة التاريخ
Historiothétique	التاريخي النظري
Hominité	إنسية
Hyperbolique	مبالغ
Hyperempirisme	التجريب المفرط/ تجريب فائق
Hypermathématique	رياضيات مفرطة
Hyperontique	موجود فائق
Hyperparadox	مفارقة فائقة
Hypostasie	راكد/ اقنوم
Hystoriosophie	علم الأسرار
Ici-bas	الحياة الدنيا-وجودنا الأرضي- دنيوي
Iconophilie	هوس بالايقونات

Iconophobie	الخوف من الايقونات
Idées	المثل
Il y a	ثمة، هناك
Images	رسوم
Immamente	ماثل
Immanence	حضورية/ مثولية
Imprédicabilité	إمكانية الاسناد
Improvisation-eternelle	ارتجال أبدي
In nihilim	انعدام
Inattingible	لا يمكن ملامسته
Indivision	لاانقسام
Inempirique	لا تجريبي
Infraphysique	ما دون الجسماني
Inséité	في ذاته
Intellective	متفكر
Intelligible	المعقول
Intervalle	البرزخ/ ال-ما بين
Intravitale	ضمن-حيوي
Inversion	انعكاس
Ipse	عين/ ذات
Ipséité	الهذية
Irrelatif	اللانسبي
Jamais	مطلقاً
Je	أنا (الفاعل)
Je-ne-sais-quoi(le)	الـ-ما-لا-أدريه
Kaléidscopique	صور مشكال
La prévention prévanante	الأسبقية المبادرة

Là-bas	هناك
Le même	العين
Lévitation déréalisante	رفع سالب التحقق
Liminarité	البدء
Linéaire	اتجاه
Logistique	منطقي رباطي
Logos utilitaire	المنطق النفعي
Lui-même	ما هو نفسه
Macrocosme	الجرم الكبير
Macrométrique	قياس كبير
Magistère	سيد
Manière	الطريقة
Mantique	الغيب – العرافة
Maximalisme	تطرف
Maximité	تأوج
Même-ordre (le)	المقام–عينه
Méontique	اللاموجود
Métabase	تجريبي/ماوراء الأساس
Métabole	أيض
Métalogique	مابعد منطق/قاعدي المنطق/ماوراء المنطق
Métalogique	قاعدي المنطق/ ما وراء المنطق
Métalogisme	قاعدي المنطق
Métamorphose	انمساخ
Méta-morphose	انمساخ
Métempèrie	ما وراء التجريب–ما بعد التجريب
Micro	ميكرون
Microcosme	الجرم الصغير
Micrométrique	قياس صغير
Mimétique	المحاكاة
Mimiqué	ايماء
Mode	الدرجة/ دُرجة
Moi-pour soi	الأنا لذاته
Mondain	دنيوي/ مدني
Monodéisme	وحدانية الفكرة
Morphologie	علم التشكل
Morphose	تشكل
Mort propre	الموت الخاص
Motion	تحريك
Mue	تبدل
Mutation	تحول
Mystere	سر / لغز
Mystériologie	علم الاسرار
Mystériologique	الاسرارية
Négation	سلب/ سلبيات
Nescience	الجهل
Nihil	عدم
Nihil-instar	عدم–مثل
Nihilisation	اعدام
Nihiliser	إعدام
Noétique	عقلي/ قصدي/ عقلاني
Nœud godien	العقدة الفورية
Noménalité	النومانية
Nominatif	فاعلاً
Nouménale	(الشيء في ذاته)/ (نومينال)

Noùs	العقل
Nulle part	لا مكان
Œcuménicité	المسكونية
Oeueménique	حدود المسكونية
Œuvre	الاثر / أثر
Ontique	الموجود/ وجود/ الكينونة
Ontophanie	ظهور
Ontoscopique	تفحص وجودي
Operative	عاملية
Ordre	نظام/ مقام
Ousia	الجوهر – الماهية
Outre monde	بعد العالم
Pambiotique	مذهب كلية الحياة
Par delà	أبعد/ ما وراء
Paradigme	مِثال
Paradoxologie mégarique	علم المفارقة الأكبر
Paralogie	استدلال زائف
Paralogique	منطق زائف
Paralogisme	استدلال الزائف
Pardoxologie	علم المفارقة
Parousie	عودة المسيح
Parque	الموت
Parte pos	أبدية البعد
Participe-passé-passif	اسم المفعول السلبي/ المنفعل
Pathique	شعور
Pensabilité	إمكانية التفكير
Pensée de soi	تفكير الذات

Penultimité	ما قبل المنتهي
Perçu	مدرك
Perfection	اتقان
Périthétique	نظرية هامشية
Phénoménalité	الظاهراتية
Philautie	حب الذات
Philodoxa	الفيلسوف الكاذب
Philodoxie	الفلسفة المزيفة، لهو فلسفي
Philosophie pura	فلسفة محض
Physicomorphismes	التشبيهات الفيزيائية
Plenum	ممتلئ
Pluriel	جمع، تعدد
Plus-qu'être	أكثر- من الوجود
Plus-que-bien	أكثر من خير
Plus-que-parfait	أكثر من كامل
Pneumatique	الأثيري/ روحاني
Pneumatologie	علم الروحانيات
Poétique	المحرك
Poiésis	الوضع
Poïetique	وضعي
Ponctualité	الدقة
Position	الوضعية
Position positionnelle	الوضعية الواضعة
Positionnelle	موضع
Positivité thetique	أطروحة إيجابية
Post-existant	لاحق-الوجود
Post-posé	الموضوع-لاحقاً

Scribe	معلم الشريعة	Pouvoir-être-autrement	مقدرة – وجود–مغاير
Semelfactive	فاعل لمرة واحدة	Prédicament	تحميل
Sens	معنى	Préfèrabilité	ايثارية
Sensoria	حساسية	Préschème	ترسيم مسبق
Signifier	الدلالة	Prévenant	سبّاق
Sintilla	الوميض	Prévenante	سباقة
Soi	ذات	Prévention	ظن سابق
Soudain	مباغتة/ بغتة	Prévenu	متقدم
Subornost	الصوفية	Primauté-limite	أسبقية – قصوى
Subsistance	قوام	Protologie	علم البدء/ علم أول/منطق أولي
Substantialisme	الجوهرانية	Protosophie	حكمة أولى
Subtillissime	صفائية	Prototype	النموذج المثالي
Sujet	الفاعل	Pseudo-évidence	البداهة/ زائفة
Sujet	ذات/ فاعل	Puissance	مقدرة
Super-bon	فائق الجودة	Pure position	محض موضوعة
Superconsience	الوعي الفائق	Purissime	اصطفائي
Superfinesse	رهافة فائقة	Pxotohistorique	أول تاريخي
Superlatif	ذروة	Qualitative	نوعي
Superlatif docte	العلم العليم	Quantum	كمية
Superlatif relatif	ذروة النسبي	Quasi	شبه
Supersubstance	فائق الجوهر	Quasi-nihil	شبه – العدم
Super-vrai	فائق الصحة	Quiddité-essence	الماهية/ جوهر
Supra charnelle	ما فوق الجسدي	Radicalissime	جذري
Suprasensible	ما فوق حسي	Redemphion	فداء
Suprême	الأعلى	Réité	تكرار
Surcondition	الشرط الزائد	Relatif	نسبي
Surconscience	الوعي الأعلى	Révélation	رؤية –وحي
surenssentielle	فائق الجوهرية (الذاتية)	Rien	لا شيء
Surintelligible	فائق المعقول	Science nesciente	العلم الجاهل

Tout-autre-ordre	مقام مغاير كليا
Tout-mouvant	محرك الكل
Translogique	ما يتجاوز المنطق
Transmondain	خارق الدنيوي
Transphysique	فارق الفيزياء
Trompe l'œil	خداع البصر
Ubiquité	كلية الحضور
Ultérieur	الآخرة
Ultra	مغالاة/ ما دون
Ultraphysique	يتجاوز الجسماني
Un (l')	الواحد
Unitotalité	وحدة كلية
Univers	كون، عالم
Universalité	كلية/ الشمولية
Veracité	صدقية
Vision	رؤية
Vocation	دعوة
Voici-eccé	هو ذا
Vouloir	مشيئة
Surnature	فوق الطبيعة
Survérité	الحقيقة الأعلى
Sympathie	مشاركة وجدانية
Synthèse informelle	توليف لا شكلي
Systématologique	المنهج منطقيا
Tautologique	حشوية
Théodicée	في عدل الله
Théogonie	نسب الآلهة
Théographie	كتابة لاهوتية
Théologie	علم اللاهوت
Théophanie	التجل الالهي
Théophanie	تجل الله
Théorétique	النظرية
Thétique	أطروحة/ نظري
Totalité	كلية/ كل/ جملة
Totalité diminutive	كلية مصغرة
Toujour-là	حاضر أبدا
Tout	كل
Tout	الكل/ مجمل

مسرد المصطلحات

عربي – أجنبي

أبدية البعد	Parte pos
أبدية/ مؤبدة/ الأبد	Éternitére
أبعد/ ما وراء	Par delà
أسبقية – قصوى	Primauté-limite
أطروحة إيجابية	Positivité thetique
أطروحة/ نظري	Thétique
إعدام	Nihiliser
أكثر– من الوجود	Plus-qu'être
أكثر من خير	Plus-que-bien
أكثر من كامل	Plus-que-parfait
إلغاء	Annihiler
آلهة اسطورية	Déité
آلهة سماوية	Divinité
إمكانية الاسناد	Imprédicabilité
إمكانية التفكير	Pensabilité
إمكانية المعرفة	Cognoscibilité
أنا (الفاعل)	Je
إنسية	Hominité
آنفاً–هنا/ما كان آنفاً	Déjà-là
أول تاريخي	Pxotohistorique
آية/ تحفة	Chef-d'œuvre
أيض	Catabole
أيض	Métabole
إيمانية	Fidéisme
ابداعي/ خلقي/ مبتدع/مُفَكر	Créaturelle
اتجاه	Linéaire
اتقان	Perfection
احتمال	Contingence
ارتجال أبدي	Improvisation-eternelle
استدلال الزائف	Paralogisme
استدلال زائف	Paralogie
استمرار، تواصل	Continuation
اسم المفعول السلبي/ المنفعل	Participe-passé-passif
اصطفائي	Purissime
اعتباطي	Arbitraire
اعتباطي	Arbitraire
اعدام	Nihilisation
الأثيري/ روحاني	Pneumatique
الآخر اطلاقاً	Absolument autre
الآخرة	Ultérieur
الأسبقية المبادرة	La prévention prévanante
الأعلى	Suprême
الأنا لذاته	Moi-pour soi
الأولية	A fortiorisme

Bien	الخير	Heptaméron	الأيام السبعة/ أيام الخلق السبعة
Mode	الدرجة/ دُرجة	Œuvre	الاثر / أثر
Élau vital	الدفع الحيوي	Circonstructure	الاحاطة بالبنية
Ponctualité	الدقة	Desordre	الاختلال
Signifier	الدلالة	Mystériologique	الاسرارية
Acumen	الرأس، الحد	Liminarité	البدء
Doxa	الرأي-العقيدة	Pseudo-évidence	البداهة/ زائفة
Encyclique	الرسولي	Intervalle	البرزخ/ ال-ما بين
Cosmophobie	الرهاب-الخوف من الكون	Historiothétique	التاريخي النظري
Surcondition	الشرط الزائد	Hyperempirisme	التجريب المفرط/ تجريب فائق
Nouménale	الشيء في ذاته/نومينال	Abstraction	التجريد
Ascendant	الصاعد	Théophanie	التجل الالهي
Ascension	الصعود	Apparaitre	التجلي
Ascession	الصعود	Extemporanéité	التزامن السابق
Subornost	الصوفية	Physicomorphismes	التشبيهات الفيزيائية
Manière	الطريقة	Cosmorphismes	التشكلات الكونية
Phénoménalité	الظاهراتية	Cérèbrations	التفكير المجرد
Nœud godien	العقدة الفورية	Harmonie préétablie	التناغم المعد مسبقاً
Noùs	العقل	Microcosme	الجرم الصغير
Dokétisme	العقيدة	Grand tout	الجرم الكبير
Science nesciente	العلم الجاهل	Macrocosme	الجرم الكبير
Superlatif docte	العلم العليم	Nescience	الجهل
Causation	العلية، تسبب	Ousia	الجوهر – الماهية
Amphibolie	العمل الثنائي/إزدواجية	Substantialisme	الجوهرانية
Gordien	العويص	Survérité	الحقيقة الأعلى
Le même	العين	Ici-bas	الحياة الدنيا-وجودنا الأرضي- دنيوي
Mantique	الغيب – العرافة	Iconophobie	الخوف من الايقونات

الفاعل	Sujet
الفلسفة المزيفة، لهو فلسفي	Philodoxie
الفيلسوف الكاذب	Philodoxa
القديم	Archique
القرار/ ليكن	Fiat
القلق	Angoisse
الكائن/ موجود	Étant
الكل/ مجمل	Tout
اللاموجود	Méontique
اللانسبي	Irrelatif
اللاهوت السلبي	Apophatique
الـــ-ما-لا-أدريه	Je-ne-sais-quoi(le)
الماهية/ جوهر	Essence
الماهية/ جوهر	Quiddité-essence
المثل	Idées
المثلانية	Exmplarisme
المحاكاة	Mimétique
المحرك	Poétique
المسكونية	Œcuménicité
المطابقة/النسخة الشاهدة	Duplicat
المطلق-البراق	Absolu-météore
المعقول	Intelligible
المغاير إطلاقاً	Absolument-autre
المقام الآخر	Autre ordre
المقام-عينه	Même-ordre (le)
المكان الآخر	Ailleurs
الملتبس المعنى	Ambivoque
المنطق النفعي	Logos utilitaire
المنظور الأنوي	Égocentrique
المنهج منطقياً	Systématologique
الموت	Parque
الموت الخاص	Mort propre
الموجود/ وجود/ الكينونة	Ontique
الموضوع-لاحقاً	Post-posé
النظري معرفياً	Gnoséologique
النظرية	Théorétique
النمط الأصلي	Archétypique
النموذج الأصلي، نمط بدئي	Archétype
النموذج المثالي	Prototype
النومانية	Noménalité
الهذية	Ipséité
الواحد	Un (l')
الوجود	Être
الوجود	Être-ens
الوجود	Exister
الوضع	Poiésis
الوضعية	Position
الوضعية الواضعة	Position positionnelle
الوعي الأعلى	Surconscience
الوعي الفائق	Superconsience
الوميض	Sintilla
انجذاب مشيئ	Gravitation réifiante
انساني	Anthoropiquè
انعدام	Ex nihilum

انعدام	In nihilim
انعطاف	Conversion
انعكاس	Inversion
انمساخ	Métamorphose
انمساخ	Méta-morphose
ايثارية	Préfèrabilité
ايماء	Mimiqué
بالكاد–شيء–ما	A-peine-quelque chose
بايجاز	Brevissime
بعد العالم	Outre monde
تأكيدي	Assertif
تأوج	Maximité
تأويل	Anagogie
تأويل باطني	Anagogie
تبدل	Mue
تجربة	Expérience
تجريبي/ماوراء الأساس	Métabase
تجريبية التشكل	Empiriomorphique
تجلِّ الله	Théophanie
تحريك	Motion
تحميل	Prédicament
تحول	Mutation
ترسيم مسبق	Préschème
تسهيلات	Haplôse
تشبيه – مضاد للتقليد	Contre-imitation
تشبيه الاله بالانسان	Anthropomorphismes
تشبيه بالمنازع الانسانية	Anthropopathisme
تشبيهي بالإنسان، تشبيه بالإنسان	Anthropomorphique
تشكل	Morphose
تطرف	Maximalisme
تطور يُفقد الميزات الوراثية	Catagénétique
تعريف	Définision
تفحص وجودي	Ontoscopique
تفكير الذات	Pensée de soi
تكرار	Réité
تناقضات	Antinomies
تناوب	Alternative
تواصل موصل	Continuation continuée
توافق	Conciliarité
تولد متدرج	Anagénèse
توليف لا شكلي	Synthèse informelle
ثمة، هناك	Il y a
ثنائية الجبهة	Bifrons
جحيم	Hadès
جذري	Radicalissime
جمع، تعدد	Pluriel
جوهرية	Essentialité
حادث	Contingent
حادث	Factum
حاضر أبداً	Toujour-là
حالة نعمة	État de grace
حب الذات	Philautie
حدث	Évent
حدود المسكونية	Oeueménique
حساسية	Sensoria
حشوية	Tautologique

حضورية/ مثولية	Immanence
حكمة أولى	Protosophie
حكمة التاريخ	Historiosophie
حياد/ لا مبالاة	Adiaphorie
حيز/ مدى	Espace
خارق الدنيوي	Transmondain
خداع البصر	Trompe l'œil
دعوة	Vocation
دنيوي/ مدني	Mondain
دوغمائية	Dogmatique
ذات	Soi
ذات/ فاعل	Sujet
ذروة	Superlatif
ذروة النسبي	Superlatif relatif
رأي مشترك/ صلاة تمجيد	Doxologie
رؤيا	Apacolypse
رؤية	Vision
رؤية -وحي	Révélation
راكد/ اقنوم	Hypostasie
رسوم	Images
رفع سالب التحقق	Lévitation déréalisante
رهافة فائقة	Superfinesse
روح	Arché
رياضيات مفرطة	Hypermathématique
زمن نظري	Chronothètique
سابقاً-آنفاً	Déja
سبّاق	Prévenant
سباقة	Prévenante
سببية	Étiologique

سر/ لغز	Mystere
سلب/ سلبيات	Négation
سيد	Magistère
شبه	Quasi
شبه - العدم	Quasi-nihil
شعور	Pathique
شيطانية/ أبلسة	Demonise
صائب	Exact
صدقية	Veracité
صعود	Catabase
صفائية	Subtillissime
صنع	Facture
صور مشكال	Kaléidscopique
صيغة نادرة	Hapax
ضرورة	Exigence
ضمن-حيوي	Intravitale
طريق ايطاكيا	Chemin ittaque
ظن سابق	Prévention
ظهور	Ontophanie
عادة/ تعود	Habitus
عاملية	Operative
عدم	Nihil
عدم-مثل	Nihil-instar
عقلي/ قصدي/ عقلاني	Noétique
علة ذاته	Causa-sui
علة ذاته	Cause-de-soi
علم الأسرار	Hystoriosophie
علم الاسرار	Mystériologie
علم البدء/ علم أول/منطق أولي	Protologie

علم التشكل	Morphologie
علم الثاني	Deutérologie
علم الروحانيات	Pneumatologie
علم اللاهوت	Théologie
علم المفارقة	Pardoxologie
علم المفارقة الأكبر	Paradoxologie mégarique
عمل	Action
عودة المسيح	Parousie
عين/ ذات	Ipse
غير المتشكل	Amorphe
فائق الجودة	Super-bon
فائق الجوهر	Supersubstance
فائق الجوهرية (الذاتية)	surenssentielle
فائق الصحة	Super-vrai
فائق المعقول	Surintelligible
فارق الفيزياء	Transphysique
فاعل	Agent
فاعل لمرة واحدة	Semelfactive
فاعلا	Nominatif
فداء	Redemphion
فردوسية	Eleusinienne
فعل	Acte
فعل الوجود	Exister
فلسفة محض	Philosophie pura
فوق الطبيعة	Surnature
في ذاته	Inséité
في عدل الله	Théodicée
قاعدي المنطق	Métalogisme
قاعدي المنطق/ ما وراء المنطق	Métalogique

قدرية	Destinal
قوام	Subsistance
قياس صغير	Micrométrique
قياس كبير	Macrométrique
كائن كوني	Étant universel
كائن/ موجود	Être
كتابة لاهوتية	Théographie
كتابة ملائكية	Angelographie
كشف	Dévoilement
كل	Tout
كلية الحضور	Ubiquité
كلية مصغرة	Totalité diminutive
كلية/ الشمولية	Universalité
كلية/ كل/ جملة	Totalité
كمية	Quantum
كون، عالم	Univers
كيان	Esti
لأي كان	Aliquid
لا افتراضي، لا شرطي	Anhypothétique
لا تجريبي	Inempirique
لا جدلي	Adialectique
لا شيء	Rien
لا لونية	Achromatisme
لا مكان	Nulle part
لا موقعي	Atopie
لا يمكن ملامسته	Inattingible
لاانقسام	Indivision
لاتجريب	Anempirie
لاتجريبي	Anempirique

Post-existant	لاحق-الوجود
Alogique	لامنطقية
Atopique	لاموضعي، لامكاني
Faisant - Se faisant	ما - يفعل
Infraphysique	ما دون الجسماني
Supra charnelle	ما فوق الجسدي
Suprasensible	ما فوق حسي
Anthépénultimité	ما قبل الأخير
Penultimité	ما قبل المنتهي
Cela-va-de-soi	ما هو مفروغ منه
Lui-même	ما هو نفسه
Métempèrie	ما وراء التجريب-ما بعد التجريب
Au de-là	ما وراء/العالم الثاني، العالم الآخر
Translogique	ما يتجاوز المنطق
Métalogique	مابعد منطق/قاعدي المنطق/ماوراء المنطق
Immamente	ماثل
En-deça	ما-دون
Soudain	مباغتة/ بغتة
Hyperbolique	مبالغ
Correlat	متعلق،مترابط،مضاف
Intellective	متفكر
Prévenu	متقدم
Antithétique	متناقض
Paradigme	مِثال
Allégorie	مجاز
Absurde	محال
Absurdissime	محال، عبث كلي
Agape	محبة
Tout-mouvant	محرك الكل
Pure position	محض موضوعة
Perçu	مدرك
Pambiotique	مذهب كلية الحياة
Amphibolique	مزدوجة
Acuminal	مستدق
Futurition	مستقبلياً
Axiomatique	مسلمات
Sympathie	مشاركة وجدانية
Vouloir	مشيئة
Jamais	مطلقاً
Eschatologique	معادياً
Donné	معطى
Scribe	معلم الشريعة
Causé	معلول
Sens	معنى
Ultra	مغالاة/ ما دون
Aliter	مغاير
Hétérologique	مغاير منطقياً
Hyperparadox	مفارقة فائقة
Cet ordre-ci	مقام الهنا-هذا
Tout-autre-ordre	مقام مغاير كلياً
Puissance	مقدرة
Pouvoir-être-autrement	مقدرة - وجود-مغاير
Analogie	مماثل/التماثل
Plenum	ممتلئ

Adjectivale	نعتي	Positionnelle	مموضع
Grâce gratifiante	نعمة موهوبة	Ex nihilo	من عدم
Qualitative	نوعي	Donation	منحة
Anabase	هبوط	Désenssentialisée	متروعة الماهية/ متروعة الجوهر
Haeccéité	هذية/ ذاتية	Paralogique	منطق زائف
Là-bas	هناك	Logistique	منطقي رباطي
Voici-eccé	هو ذا	Existentifiante	موجدة
Iconophilie	هوس بالايقونات	Déjà-étant	موجود آنفا
Cosmophilie	هوس بالكون	Hyperontique	موجود فائق
Fait	واقعة	Génésique	مولد
Aséité	وجوب الوجود بالذات	Micro	ميكرون
Être-au-présent	وجود-حاضر	Théogonie	نسب الآلهة
Monodéisme	وحدانية الفكرة	Relatif	نسبي
Unitotalité	وحدة كلية	Axiomatique	نسق البديهيات
Doxographie	وصف العقائد، الآراء	Cosmogonie	نشأة الكون
Poïetique	وضعي	Ordre	نظام/ مقام
Ultraphysique	يتجاوز الجسماني	Créationisme	نظرية الخلق
Concevoir	يتصور	Périthétique	نظرية هامشية

المحتـــويـــات

الموضوع	الصفحة

2004/2/710

فلسفة أولى

إن ما يمكن روايته وتحليله في الفلسفة الأولى هو تطور النافيات الثانوية، التقسيمية والافتراضية كلها، لأنها كلها تفترض إيجابية الفكر النافي نفسه... لم يعد هناك ما يقال حول الأخير، لأنه الوحيد الفعلي والقاطع والكافي، لأنه انطفاء مفاجىء وما - يكاد- لا شيء فوري. لا ينجز بحصر المعنى المحو النهائي للحقيقة النهائية العمل الذي بدأه الأسبقون، والأسبقون لم يبدأوا حتى العمل العادم: لما كان العبور من شيء ما الى لاشيء يتم بضربة واحدة في هذا اليأس الفائق المجهرية الذي هو كسوف الفكر؛ فإن رصاصة رحمة إغماء الحدس هي بالتالي خارج السلسلة، كما هو خارجها النفس الأخير للمحتضر، ما ليس فقط البرهة النهائية، بل النهاية دون أية زيادة.

ISBN 9953-427-72-0

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع